



الريح في شعري

كفاحي من أجل الحرية في إيران
المعاصرة

مسيح علي نجاد



الريح في شعري

كفاحي من أجل الحرية في إيران المعاصرة

بقلم

مسيح علي نجاد

ترجمة

بيت الحكمة 2.0

قائمة المحتويات

1.....	الفصل الأول
27.....	الفصل الثاني
36.....	الفصل الثالث
55.....	الفصل الرابع
81.....	الفصل الخامس
96.....	الفصل السادس
125.....	الفصل السابع
141.....	الفصل الثامن
155.....	الفصل التاسع
168.....	الفصل العاشر
187.....	الفصل الحادي عشر
216.....	الفصل الثاني عشر
227.....	الفصل الثالث عشر
241.....	الفصل الرابع عشر

257.....	الفصل الخامس عشر.....
289.....	الفصل السادس عشر.....
319.....	الفصل السابع عشر.....
348.....	الفصل الثامن عشر.....
360.....	الفصل التاسع عشر.....
378.....	الفصل العشرون.....
384.....	الفصل الحادي والعشرون.....
402.....	الفصل الثاني والعشرون.....
409.....	الفصل الثالث والعشرون.....
425.....	الفصل الرابع والعشرون.....
434.....	الفصل الخامس والعشرون.....
464.....	الفصل السادس والعشرون.....
475.....	الفصل السابع والعشرون.....
487	خاتمة.....

490.....شكر وامتنان

493.....عن المؤلف

494.....صور

الفصل الأول

كان سوادًا حالكًا. بل وأسود من السواد لو كان ذلك ممكنًا. سواد امتدَّ إلى الأبد ونبض ككائن حي يستطيع أن يمدَّ يده ويبتلعك بأكملك. في هذه الليلة الصيفية الدافئة، بدا كأنه قد تخلَّى عني حتى القمر والنجوم. تأملت في الليل وتأمَّل الظلام فيّ. إذا سمح المرء لخوفه أن يغلب، سيلتهمه الظلام، هكذا قلتُ لنفسِي، وقلتُ بهدوء «لا تخافي» وردّتها مرة بعد مرة، كأنها ترنيمة.

جاء من خلفي صوت خافت، صوت حَكٍّ وطقطقة، وأخذ يعلو شيئًا فشيئًا. همسَ لي أخي علي عندما أدركني «انتظري... انتظريني». تضاءل صوته وهو يقول: «أضعتُ أحد خُفِّي». «انظري، لقد جلبت الفانوس».

أردتُ أن أقول إنني لا أحتاج إليه. لكن الضوء الخافت كان مريحًا. رجعت إلى علي وأخذت منه الفانوس ورفعته فوق رأسي ليصبح حولنا كوكب من الضوء. كان علي أكبر مني بعامين، لكنني كنت أنا المسؤولة في هذه الحالة، لأنه كان خائفًا من الظلام. بدأنا المشي. كانت نهاية الفناء الخلفي لم تزل أمامنا بخمسين ياردة تقريبًا.

قبل عشر دقائق، كنت مع بقية الأسرة -أمي وأبي، وإخوتي الثلاثة، وأختي- أتنعم بالنوم على أرضية الغرفة الكبيرة. يصعبُ تصديق الأمر، لكنني كنت في الفناء الخلفي بسبب ضعف مئانة علي. عندما بلغ ثلاثة عشر عامًا، بدأ يبلى سريره. سمعتُ أمي تفسّر لأبي «إنها مجرد مرحلة». كنا ندعو أبي آقاجان، ومعناها بالفارسية «سيدي العزيز». همهم الآقاجان، لكنني استطعت أن أرى أنه متضايق.

أحيانًا، كان علي يبلى سريره في نومه. وأحيانًا كان يُفَيِّق في منتصف الليل مدفوعًا بشدّة إلى قضاء حاجته، لكن بيتنا لم يكن فيه مرحاض داخلي، لذلك كان يواجه الرحلة

الطويلة في الظلام إلى البيت الخارجي في نهاية الفناء الخلفي. كان يحاول إمساك نفسه حتى الفجر، حتى يجد ما يكفي من الضوء ليشعر بالشجاعة. لكن مهما تقلّب في سريره، ومهما صلّى للأولياء حتى يعطوه التحمّل، كان يعجز عن الإمساك. كان علي أكبر عمراً من أن يخاف من الظلام، هكذا كان يقول الآقاجان، دون إظهار كثير من التعاطف. لم أكن أنا أخاف من الظلام مطلقاً، ولك أن تتخيل مقدار الخزي الذي يشعر به علي وهو يوقظني حتى أمشي معه إلى المنزل الخارجي. لم يكن عليه أن يقلق من إيقاظ أبوينا بتقلّبه في السرير، كان الآقاجان يشخر-كان ضجيج شخير كصوت الجرّار الزراعي الذي كان يستعمله لفلاحة الأرض.

«استيقظي... أحتاج إلى الذهاب... استيقظي... استيقظي...»

هزرت كتفيّ وانقلبت إلى الجهة الأخرى، لكنه لم يتوقف.

«استيقظي... أحتاج إلى قضاء حاجتي» هكذا ازداد علي إلحاحاً، وهزّ كتفيّ.

قلتُ أخيراً «حسنًا... حسنًا... لقد استيقظت».

قبل عدة أسابيع، عندما دخل هذه الحالة، كان علي يمنعه خجله من إيقاظي، وفي الصباح كنّا نرى علامات ذلك. كان يهرع إلى الخارج فور استيقاظه، لكن أُمّي تكتشف الآثار المبللة في سريره وهي تطويه. كانت تتظاهر أن البقعة المبللة والآثار كانت بسبب حادث في المنزل؛ كثيراً ما كانت تقول إنه تسرّب من الترمس، لتتنقذه من الخزي.

كانت تقول بصوت عالٍ مبتسمةً «لا بد أن أحداً أوقع الترمس».

كنتُ أسأل: «من يشرب الشاي في الليل في سريره؟». وكنت أقول ضاحكةً: «أليس غريباً أن الشاي لا تُراق إلا على فراشه؟».

ربّما أراد أن يعوّضني، لأنه كان الليلة مصمّماً على إيقاظي.

توسّل إليّ «أريد الذهاب أرجوك، وضعي يتأزّم».

همهمت وأنا أقوم من سريري: «حسنًا... حسنًا، لكن أسرع. أحلم حلمًا جميلًا وأريد أن أعود إليه».

في الفناء الخلفي، وحتى مع كون الفانوس في يدي، كان بُعد البيت الخارجي هائلًا فعلاً. كان الهواء الدافئ ثقيلًا مع الحفيف الصيفي للعشب المتكسر ورائحة الفحم المحترق. تحت الشرفة، جمّعت عشرات الدجاجات في نوم عميق. وددت لو أنني أعود إلى سريري الدافئ، لكن عيون علي كانت مثبتة على البناء في آخر الفناء.

قلتُ مُتعبَةً: «فلنذهب». كنت أريد العودة إلى حلمي الجميل.

مشينا إلى الأمام ممثّلين بالنعاس.

في ساعات النهار، كان علي مثل المراهقين الآخرين – خاليًا من الخوف، مليئًا بالفخر والتمرد، وهو من عصابة من الصبيان الذين عندما يتعبون من المصارعة، يتناوبون في قيادة الدراجات المتداعية ثم يذهبون ليسبحوا في نهر كولا. كنت أعتقد أن عليًا مختلف. كان يقرأ دائمًا، وكان يحب أن يروي القصص بأسلوب حيوي ودرامي. لكن في شهور الصيف الحارة كنت لا أراه إلا قليلًا. من الفطور حتى العشاء كان دائمًا خارج المنزل، يتجول في شوارع قرينتنا الضيقة الوسخة. كان يعود متّسخًا وتفوح منه رائحة العرق، مُحمّر الوجه من طول اللعب تحت الشمس. كانت أُمي تسحبه إلى الحظيرة التي تسكن فيها بقرتانا، وترشّه بالماء البارد من الخرطوم بقوة، قبل أن تسمح له بالدخول إلى المنزل. كان هذا الخرطوم نفسه الذي تستعمله لغسل البقر.

لم يكن علي يقبل أن يأخذني معه مهما ترجّيته. لقد أردت بشدّة أن أركض في الحقول وأقود دراجة وأقفز في النهر.

كان يقول إن الأمر مستحيل.

«لا يسمح للبنات بالذهاب. سيضحك عليّ بقية الصبيان». كان يبدو جباناً وهو يقول هذا. «كوني منطقية، حتى لو أردت ذلك، لن يسمح الآقاجان».

«غير مسموح».

«لا يجوز».

«ليس للبنات أن يفعلن ذلك».

لم أكن أطلب الكثير، لكن في كل مرة أردت أن أفعل شيئاً كان الصبيان يفعلونه، كنت أسمع العبارة نفسها. كان عمري أحد عشر عاماً وكنت قد تعبت من سماع هذه العبارة: «لا يمكنك أن تفعلي ذلك». حتى الآن، لم تزل عبارة «لا يمكنك أن تفعلي ذلك» عندي مثل التلويح بخارقة حمراء أمام ثور. إنها تجعل دمي يغلي.

كان الآقاجان يتوقع دائماً أن تبقى البنات داخل المنزل وخارج المشهد. ولم يكن وحيداً في هذا التفكير. لم يكن مسموحاً لأي فتاة أن تركض وتلعب خارج المنزل. كان الفتيان أحراراً ولكن البنات كنّ دائماً في البيوت. كان الأمر ظالماً جداً في نظري.

همستُ لعلي وأنا أتناوب: «ادخل. ساعد للعشرين ثم أعود. إذا لم نسرع فسأنسى حلمي».

قال علي بوداعة «لا تذهبي». أخذ الفانوس وفتح باب البيت الخارجي، الذي كان غرفة منفردة ضيقة، بحذر شديد، كما لو كان يتوقع ظهور فأر أو حيّة. لم يكن نادراً أن نجد حيّة عشب في الداخل، لكنني لم أكن أبالي ما دامت الحية غير سامّة. لوّح علي بالفانوس داخل الغرفة عدة مرات قبل أن يدخل.

في الداخل، كان المرحاض مرحاضاً إيرانياً تقليدياً، ببساطة، حفرة كبيرة في الأرض. حتى في النهار، كان الذهاب إلى ذلك المرحاض أمراً مخيفاً. اعتدت أن أقلق أنني في يوم من الأيام سأقع وأنغمر عميقاً في الغائط النتن.

مرة كل عام، كان الآقاجان يقضي نصف يومه وهو يحفر حفرة يبلغ عمقها ضعفي طوله هو. وكان عندما يخرج، يخرج متوشّحاً دائماً بالوحل والقاذورات. كان يغطي بداية الحفرة بالخشب والصخر، ويترك حفرة صغيرة مفتوحة. بعد عدة شهور، عندما تمتلئ الحفرة تقريباً، كان الآقاجان يربط منديلاً على أنفه وفمه ويقضي يوماً وهو يُفرغ المحتويات النتنة ليستعملها لاحقاً سماداً. كانت الرائحة تحُضّ المعدة.

بعد أن أعطيته الفانوس، عُدت مجدداً مُحاطة بالظلام. كان نباح الذئاب وعواؤها، ونقيق الضفادع، وأصوات الخنافس وطقطات الأزيان، مع أصوات الحفيف التي لا تغيب من الأرض مثل سيمفونية هي الموسيقى التصويرية لحياتي المبكرة. قضيت مرة ظهر يوم كاملاً في الحقول لأسجل طقطقات الحشرات وزقزقاتها. عندما أخبرت علي، انفجر ضاحكاً كأنه أظرف شيء سمعه في حياته. لكن بعض أفكاره هو كانت غريبة إلى درجة أنها كانت تجعلني أضحك بصوت عال. قال لي مرة إنه سيصبح غنياً جداً إلى درجة أنه سيبنى لنفسه بيتاً فيه مرحاض في داخله.

قُلْتُ له «تقصد أن المرحاض سيكون إلى جانب غرفة نومك؟» كان هذا حقاً أطرف الأشياء التي سمعتها في حياتي. «ليس قصدك أنك تريد مرحاضاً داخل البيت؟ إلى جانب مكان الأكل؟» ضحكت إلى درجة أن الدموع سرت على وجنتي.

لم أكن أخاف من الظلام، لكن السقوط في تلك الحفرة كان يرعبني.

اعتادت أُمي أن تقول إن الظلام وحش، شيطان أسود لا شكل له يتغذى على خوفك. إذا كنت تخاف منه، فسيكبر ظله أكثر وأكثر حتى يحيط بك ويبتلعك كاملاً.

كانت تشجعني وأنا طفلة صغيرة: «افتحي عينيك ما استطعت. تأملي في الظلام وستختفي ظلاله. لا تخافي من الظلام، بل أغمديه بالنظر».

لذلك منذ طفولتي كنت إذا واجهت شيئاً مخيفاً لا أهرب منه ولا أدير له ظهري، بل أُجبر عيني على النظر وأواجهه وجهاً لوجه.

طرقت الباب بلطف، «هل انتهيت بعد؟ لم تزل هناك؟». كنت قد بدأت أتعب من فتح عيني وأردت العودة إلى السرير.

خرج علي مُسرّعاً ببنتاله وأعطاني الفانوس.

قال لي: «فلنعد الآن». بدا صوته مرتاحاً. مرة أخرى، قُدت أنا الرحلة.

كانت هذه فرصتي لأطلب شيئاً بالمقابل. أردت أن أركض مع الصبيان وأن أتعلم كيف أقود دراجة.

«في الصباح، هل يمكنك أن تأخذني معك؟ ليس عدلاً أن عليّ أن أبقى في الداخل وأنت تخرج وتركض في الأرجاء».

«لا يمكنني. لن يرضى الآقا جان».

«إذن فابق في البيت والعب معي. يمكننا أن نبني بيتاً معاً أو... يمكنك أن تعلمني كيف أقود. دراجة الآقا جان القديمة موجودة في الحظيرة».

«حسناً. أعدك»، قال مبتهجاً وهو يدخل المنزل.

في الصباح التالي، بعد الفطور، خرج علي ليلاقي عصابته وتركني وراءه وحيدة. أنا بنت عاصمة العالم قمي كلا، المعتزة بقريتها. هكذا كنت أقدم نفسي لكل من يسأل عن أصولي. كنت أنتظر ثانية أو ثانيتين قبل أن أظهر ابتسامة كبيرة تبين لهم أنني أمزح. قمي

كلا هي عاصمة عالمي، لكنها لا تساوي نقطة حتى في خريطة إيران. لقد وُلدت وترعرعت مثل بقية أسرتي في قمي كلا، وهي مدينة خصبة في محافظة مازندران، في شمالي إيران. لم أكن أتخيل مكاناً أفضل في أي مكان في العالم. لم أدرك إلا في مراهقتي صغر حجم قمي كلا فعلاً.

المازندرانيون، أو المازنيون، كما يُدعى أهل هذه المحافظة بحُب، يفتخرون بتاريخهم الطويل من الاستقلال، الذي يعود إلى ما قبل الإسلام. عندنا لهجة خاصة، هي المازنية أو التبرية، ولا شيء يُسعدني اليوم وأنا أعيش في الغرب، أكثر من أن أجد مازنياً آخر وأحادثه بلغتي المحلية. تشكل الشواطئ الرملية لبحر قزوين، وهو أكبر بحر داخل اليابسة في العالم، حدودنا الشمالية. إلى الجنوب، تمتد سلاسل جبال البرز وينتصب جبل دماوند، وهو أعلى قمة في إيران، ومنظر يعرفه كل أطفال إيران، ليلبغ عنان السماء. قد يبلغ عدد الأنهار في المحافظة مئتي نهر وجدول وغدير.

تعود أصول المنطقة إلى ثلاثة آلاف عام على الأقل، ولم تُنشأ الطرق التي تصل مازندران ومحافظة جيلان المجاورة بالمناطق الجنوبية إلا في أوائل القرن العشرين. تُعرف هاتان المحافظتان بأنهما الشمال، وعند معظم الإيرانيين لا يختلف الشمال عن ريفيرا لدى الفرنسيين أو هامبتونز لدى أهل نيويورك. يتجمع آلاف الإيرانيين إلى الجبال أو سواحل بحر قزوين للتنزه والابتعاد عن هواء طهران الملوث.

بين الجبال والبحر، تجعل الغابات والبساتين والمزارع المنطقة من أكثر المناطق خضرةً في إيران. بالنسبة لي، كانت هذه المنطقة أقرب مكان أستطيع بلوغه إلى الجنة. أظن أن حبي للأشجار أتى من هناك. عندما كنت طفلة صغيرة، اعتدت أن أتسلل إلى حديقة جيراننا وأتسلق أشجارهم وأقطف الإجاص والجوز؛ أما في حديقتنا فكنا نزرع البرتقال والخوخ الأخضر، وكان عندنا شجرة رمان وحيدة. كان تسلق الأشجار من التسلقيات المفضلة لدي، إذ أتسلق أعلى وأعلى، وأترك وراء ظهري إخوتي وأصدقائي، وهو ما كان يضايق أمي، لأنها

كانت تقول إن تسلق الأشجار ليس للفتيات. لكنني لم أكن أستطيع منع نفسي. حتى اليوم، كلما وجدت شجرة مثمرة، أول شيء يخطر في بالي هو التسلق إلى أعلى فروعها. لقد تسلقت شجرة خوخ خارج الفاتيكان (كانت ليلة مظلمة) ووجدت طريقي إلى أعلى شجرة إجاوص في لندن مرتديةً أحذية رعاة البقر، فيما كان زوجي كامبيز يُراقب في كلا الحادثن.

لكن الشمال لا يقتصر على الأشجار. حتى في إيران، وهي أرض يبلغ تاريخها ثلاثة ألفيات من الزمان، لم يزل الشمال مكاناً سحرياً للأساطير. قاومت مازندران الغزو العربي الذي جاء بالإسلام إلى إيران في أربعينيات القرن السابع وحافظت على أغلبية زرادشتية نحو خمسمئة عاماً -بفضل شعبها ذي العقل الاستقلالي- إلى القرن الثاني عشر تقريباً.

في الشاهنامه، أو كتاب الملوك، وهو قصيدة أسطورية فارسية وطنية، تصف تاريخ إيران الطويل قبل الإسلام، كانت مازندران منطقة مأهولة بالدفات، أي الشياطين. في هذا الكتاب، كان على روستام، بطل إيران الأسطوري، القوي الجثة مثل هرقل، أن يسافر في رحلة شاقة إلى الإقليم ليحارب ويقتل الدف الأبيض، وهو أكبر هذه الوحوش الأسطورية وأرذلها.

كانت كل الشياطين قد انقرضت عندما وُلدت أنا.

تسكن اليوم في قمي كلا نحو 100 أسرة، ولم يتغير هذا على مر السنين-هي مكان صغير ودافئ يسكنه 650 نسمة يعرف فيه كل فرد بقية الناس ولا وجود للأسرار فيه. في طفولتي بدا لي أن نصف القرية تقريباً يتألف من عماتي وخالاتي وأعمامي وأخوالي وأبنائهم وبناتهم.

كانت الطرق غير المعبدة التي تتقاطع في قمي كلا ضيقة ومليئة بالأشجار الطويلة ذات الفروع الثخينة. كانت هذه الأشجار توفر ظلاً بارداً في الصيف. كانت أسقف البيوت جملونية، وهو المألوف في الشمال، وكانت جدرانها عالية لتوفير الخصوصية. تاريخياً،

كانت قريتنا مؤلفة من حيين-قمي كلا العليا، التي تسكنها الأسر الأغنى، وقمي كلا الدنيا التي كانت أقرب إلى التواضع، ويسكنها بقيتنا، في بيوت بسيطة مصنوعة من الصلصال والطين المخلوط بالقش، وتدعمها أعمدة خشبية غير مزينة. كان في بيتنا شرفة مكشوفة من جميع جوانبه، وباحة في واجهته وفناء خلفي تزرع فيه أُمي الخضار، في حديقة خلف جدار من طوب. مثل معظم العائلات، كان لدينا في الباحة حظيرة صغيرة تنام فيها بقراتنا.

حتى ستينيات القرن العشرين، كان يملك قمي كلا مالكٌ غائب وكان معظم الناس إمّا مرابعين أو مياومين. في الحقيقة، في تلك الأيام كان معظم أهل القرية كالخدم، يعملون عند مالك الأرض الكبير. لم يكن إلا قلة من الناس يملكون قطعاً من الأرض.

كان من علامات الغنى والحراك المجتمعي البوابة المعدنية-إذا كان باب بيتك من معدن، فمعناه أن عندك مالاً. كانت الحياة بسيطة في القرية، وفي كل مرة تغيّر فيها أسرة بوابتها الخشبية وتضع مكانها بوابة معدنية كانوا يوزعون الحلوى والأطياب المحلية -فاصولياء عريضة مطبوخة مرشوش عليها بهار يُدعى الغولبار- في حين كان يعمل الرجال. كانت النساء تغني: «فليكن على هذا البيت بركة، ولتكن هذه البوابة بشارة بخير قادم».

حتّى بلغت المراهقة، كانت بوابتنا خشبية. في الحقيقة، كانت أسرتي من آخر الأسر التي ركبت بوابة معدنية. أحب أن أعتقد أن الأمر يعود إلى أنني كنت أضايق الآقاجان دوماً ليشترى بوابة حمراء، لأن الأحمر كان لوني المفضل. لكن الآقاجان حافظ على شدته في مقاومة التيار.

كان يقول لي بفضاظة كلما فاتحته في الأمر: «ليس عندي مال أضيعه. بابنا جيد بما يكفي ليُبعد الذئاب».

لم يكن في قمي كلا أي كلاب شاردة، ناهيك عن الذئاب، لكن الآقاجان اعتاد أن يقول إنه

يعمل بجهد كبير ليحصل على المال، لذلك فلن يضيعه على أمور تافهة. ثم في يوم من الأيام، عدت من مدرستي المتوسطة ووجدت بوابة جديدة فاخرة. كانت زرقاء.

قال الآقاجان: «أنا دفعت ثمنها. أنا أختار اللون».

يلتقي الحي الأعلى والحي الأدنى قريباً من المقبرة والمحليين الوحيدين في الضيعة مقابلها. كانت البقالية التي يديرها مامدالي ديكوندار تبيع كل شيء من البيض والحليب والفواكه إلى أقلام الرصاص والدفاتر والشامبوهات. كنا نزرع طعامنا بأنفسنا، حتى الحبوب التي كنا نستعملها لصناعة الخبز، وكانت الحيوانات عندنا توفر البيض والحليب. كنا نتبادل مع الأسر الأخرى لنحصل على الأطعمة التي لا نستطيع إنتاجها بأنفسنا. أما المحل الثاني فكان المركز التعاوني في القرية، وفيه كل شيء من الأقمشة إلى التلفزيونات الملونة ومواقد الغاز.

أتذكر في عام من الأعوام، كان حديث الناس كلهم هو الأعجوبة التقنية التي كانت تباع في المركز التعاوني: مروحة سقفية. كان عندنا مروحة طاولة واحدة، وكانت شفراتها البيضاء المميزة تدور بقوة لتحارب الرطوبة والحرارة في الصيف. في الليل، مع ارتفاع مستويات الرطوبة أكثر وأكثر؛ كنت أتنازع أنا وإخوتي دائماً على المكان الأقرب من المروحة. أما الآن، فالمروحة المعلقة في السقف غيرت كل شيء، وأتاحت فرصة لإنهاء كل نزاعاتنا. انطلقت الأسرة بكاملها ذات ظهيرة وأذهلنا دوران شفرات المروحة فوق رؤوسنا. تأمل الآقاجان مدة طويلة وهو يراقب دورانها، ثم أعلن أن هذه الآلة خطيرة جداً—إذا ارتخت المروحة فإن شفراتها قد تقطع رؤوس الأسرة كلها.

وقال: «تخليلوا أن تسقط في الليل. بدورة واحدة ستقطع رؤوسنا جميعاً».

أعتقد أن السلامة لم تكن أكبر همه. كالعادة، لم يكن عندنا ما يكفي من المال لشراء هذه الرفاهيات. غادرنا المركز التعاوني وأيدينا خالية، لكنني ظللت أنا وعلي أسابيع بعد ذلك

نتوسل لأمنّا أن تأخذنا إلى المركز مرة أخرى لنقف تحت المروحة ونحلم بامتلاكها يوماً ما.
كان المال دوماً قليلاً.

من الإنصاف أن أقول إن طفولتي كانت أبعد ما تكون عن نُخب البلد. كان جدّاي كلاهما
مربعين فقيرين اشتد فقرهما وماتا في شبابهما. الأول مرض وتوفي، والثاني قتله حيوان
بري. تعلمت قصصهما من جدّتي. أبو الآقاجان، حسن، خسر عمله مياوماً وكان يتسوّل
المال لإطعام أسرته. كان يبحث عن عمل، لكن في نهاية اليوم كان يُضطر إلى طرق الأبواب
وجمع البقايا مثل قطع الخبز البائت والرز المطهو قبل يوم. بعد معاناة قصيرة مع المرض،
مات حسن، وترك وراءه زوجة وثلاثة أولاد. أصبح أبي في الرابعة عشر من عمره معيل
الأسرة. لم يكن يريد أن يكون مربعاً، لذلك أصبح بائعاً متجولاً يبيع الخضار والفواكه في
زوايا الطرق. لم ينس الآقاجان طعم الفقر المدقع. كلما طرق بابنا متسوّلاً، كان الآقاجان
يرحب به بابتسامة دافئة ويملاً سلته بالطعام نفسه الذي نأكله نحن. اعتاد الآقاجان أن
يقول «كونوا لطيفين دائماً مع الأسوأ حالاً».

لقد كبرت مع راويتي قصص عظيمتين، أمّ الآقاجان نانه، وأمّي زارين، التي يعني
اسمها «ذهبيّة». لم تحصل أمي على أي تعليم رسمي، لكنها كانت موهوبة في الشعر وقد
ألّفت قصائد وسوناتات باللهجة المازنية عن الحياة في القرية والعمل في حقول الرز. كانت
شهيرة في القرية بقصائدها. كانت هي ونانه تنسجان قصصاً ترسل مخيلتي لتتجول وراء
الحقول الخضراء والبساتين المحيطة ببيتنا.

أعتقد أننا جميعاً إلى درجة ما، انعكاسات لآبائنا وأمّهاتنا وأجدادنا وجدّاتنا، ولهذا
السبب، أعتقد أن نزعتي إلى الكتابة والنضال العام هدية من أمي. أما طبيعتي العنيدة
وغضبي السريع، فكلّها مني.

تعلمت من نانه التعامل مع المصاعب والوعي بتبدّل الظروف. كانت نانه قد انتقلت

للعيش معنا قبل ولادتي. طبعاً نانه ليس هو اسمها الحقيقي، بل هو ما كنت أناديها به وأنا صغيرة، وبقي الاسم عندي نفسه عندما كبرت. كانت ضعيفة الجسد لكن قوية الروح. ترمّلت وهي في عشرينياتها، ولها ثلاثة أطفال تعتني بهم. لطالما تساءلت لماذا لم تتزوج بعد ذلك. لقد انطفأ ضوء في قلبها.

أخبرتني ويداها الضعيفتان تمسكان بذراعي: «الحياة مرة واحدة، والزواج مرة واحدة، والموت مرة واحدة. ستدخلين بيت زوجك بفستان أبيض وتغادرينه بكفن أبيض». كانت جدتي قد فقدت بصرها حينئذ وكانت تعتمد علي لأرشدها في مشيها في الحديقة. «الأم الصالحة تبقى مع أبنائها وتربّيهم».

كان هذا التقرير موجّهاً إلى جدّتي الثانية، بيبي. مثل نانه، كانت بيبي أيضاً من أسرة فقيرة. تزوجت مرابعاً، كان قد مُنح قطعة أرض صغيرة بعيدة في البرية مقابل تنظيف المنطقة من الأشواك والأعشاب وجعلها مناسبة للزراعة. كان وحيداً تماماً عندما هاجمه وقتله خنزير بري. اليوم، لا يفهم الناس الذين تربّوا في المدينة أي شيء عن الفقر المدقع الذي كان موجوداً في الريف الإيراني في ذلك الوقت.

كان درس بيبي أن الحياة قاسية وقصيرة. كانت في عشرينياتها عندما ترمّلت ولديها أطفال صغار، كانت أمي زارين حينئذ وأخوها حسن يبلغان أربعة أعوام. أرادت بيبي أن تتزوج، لكنها لم تجد رجلاً مستعداً لتربية أبناء رجل آخر. لذلك تخلت بيبي عن أطفالها وأعطتهم لعمتها ووجدت زوجاً جديداً. لم يكن لأمي أي نصيب من اسمها الذهبي في طفولتها-حتى عندما كان أبوها حياً يُرزق، كان بالكاد يلبي احتياجات أسرته. لكن حياة زارين أصبحت أسوأ عندما غادرت أمها وتركتها مع عمّتها الكبرى أمه غيدا («العمة المدقعة» بالفارسية. كان ذلك لقباً لكن وراءه حقيقة-كانت عمّتي تسكن في كوخ بالٍ، كل شيء فيه قديم ووسخ. كانت تذهب أحياناً إلى بابل، وهي أقرب مدينة، وتعمل هناك في تنظيف البيوت، لكنها اعتادت تسول الطعام والمال في الشارع أكثر من ذلك العمل.

أحبّت زارين العمّة الفقيرة كما لو كانت أمها الحقيقية، لكنها لم تسامح ببيبي على التخلي عنها.

لطالما تساءلت عن الخيارات التي كنت لأتخذها لو كنت مكان جدتي. هل كنت لأسعى وراء سعادتي، أم كنت سأضحى بنفسى لأجل أطفالي؟ كانت بيبي ونانه كالملاكين اللذين يجلسان على كتفي كل إنسان، الأول يدعوني إلى استغلال الفرصة والهرب، والثاني يدعوني إلى إبقاء قدمي على الأرض.

عندما كان الآقاجان ابن أربعة وعشرين عاماً، ذهبت أسرته للقاء العمّة المدقعة وطلبت يد زارين. لم يكن عمرها إلا أربعة عشر عاماً ولم يكن لها قول في الأمر. كان جهازها قطعة الأرض الصغيرة التي تركها لها أبوها، وهكذا تزوجا. لم تكن الأرض وحدها كافية لهما لزراعة الرز أو المحاصيل الأخرى بما يكفي للعيش، وكان على والديّ أن يجدا طرقاً أخرى لدعم دخلهما. عاش الآقاجان حياة صعبة، لذلك كان مصمماً أن يدرس كل أولاده وألا يناموا جائعين.

خلفاً لبقية الرجال في القرية، كان الآقاجان طويلاً وذا بنية رياضية، وكان عريض المنكبين قويّهما. حتى اليوم، في سبعينياته، جسمه أفضل من أجسام أصدقائه. غالباً لأنه كان يعمل دائماً بجهد. كان يزرع الشجر والرز، ويبيع البيض والدجاج والإوز في طرقات بابل. لم يزل أبي خبيراً في تهجين الأشجار، وكثيراً ما يُدعى لتهجين أشجار البرتقال والليمون.

عندما كان شاباً، اعتاد أبي أن يربط صندوقاً من الدجاج والبيض في خلفية دراجته ثم أن يقودها عشرة أميال على الطرقات الترابية والأحياء الخلفية ليصل إلى بابل. عندما كانت تمطر، كانت الطرق الترابية تصبح طيناً ويستحيل استعمالها. لكن هذا لم يثبّط الآقاجان. كان يحمل الدراجة هي وصندوق الدجاج الذي عليها على كتفيه فوق الطرق الترابية حتى

يصل إلى طريق السيارات العام الإسفلتي. بعد عدة أعوام، اشترى دراجة نارية صغيرة ليصل بوقت أقل ويبيع المزيد من الدجاج والبيض.

لمدة طويلة، ارتبط الآقاجان في عقلي برائحة الدجاج والعرق والسماد. كان مزاجه حاداً، وكان إذا غضب يتحوّل إلى بركان يفنجر. لكنه كان دائماً لطيفاً مع أمي.

كانت بشرة أمي ناعمة بلون كريمي، ويدها دافئتين منتفختين؛ وعيناها لطيفتين مبتسمتين. لم تكن تستخدم أي مرطب أو مكياج، حتى حمرة الشفاه لم تكن تستعملها. كانت عيناها البنيتان الحادثان قادرتين على النظر في داخلي، ولا سيما عندما كنت أتحدّر لأدنى ما، وهو أمر أفعله كثيراً. لم يكن ينفعني التجنّب ولا الحيلة أمامها. كان شعرها بنيّاً فاتحاً طويلاً، ناعماً كالحرير، لكننا لم نكن نراه إلا نادراً، إذ كان في معظم الأحيان مغطّى. كان غطاء رأسها جزءاً من هويتها ولم تكن تنزعه حتى في نومها. لم أكن أرى في ذلك خروجاً عن العادة، فالجميع في أسرتي يفعل الأمر نفسه.

ربّت أمي كل أطفالها على ظهرها. كان إذا بلغ الواحد منا عدة أسابيع، لفّته بقطع قماشية ووضعته على ظهرها واتجهت إلى قطعة الأرض لتعمل مع الآقاجان. في القرية، كان يجب على الجميع أن يعمل. لم تكن أمي من النوع الذي يقعد ويرتاح؛ كانت دائماً قائمة تعمل، ولا تتردد في التشمير عن ساقها والعمل في زرع الرز والحصاد. كان عندها بقعتها الخاصة التي تزرع فيها الخضار: النعناع والحبق والبقدونس والطماطم والخيار. كان لها كذلك رحلات منتظمة إلى بابل لتبيع أعشابها وخضارها في السوق. كنّا نصنع الزبدة واللبن. كانت أمي ماهرة في صناعة جرار من معجون الطماطم والرمان، وكانت تستعمل هذين المعجونين لطهو أطباق خاصة.

كانت دائماً تقريباً ترتدي رداءً عليه أنماط مورّدة، وبنطالاً فضفاضاً، وسترة صوفية وغطاء رأس مورّداً. عندما كانت تذهب إلى كابل كانت ترتدي كذلك شوذرّاً أسود، والشوذر

هو قطعة طبيرة من القماش تُلفُّ على الرأس والجسد. كانت تغطّي حتى الكواحل، ولكنها لا تغطي الوجه. ليس في الشوذر أيّ سحاب أو زر أو إبريم. كان على التي ترتديه أن تمسكه بيدها تحت الذقن. كان عمرها ثمانية وعشرين عندما ولدتنى، وكنتُ آخر أولادها الستة.

وُلدت في المنزل في ظهيرة يوم سبتمبري حارة، ولم يكن يساعد أُمي في إحضاري إلى هذه الدنيا إلا قابلة قروية وأختي مينا. كان مجيء الطبيب إلى منزلنا يكلف تقريبًا كالذهاب إلى المشفى، وهو مبلغ لا نملكه. وُلد كل إخوتي وأخواتي في البيت مع القابلة نفسها. انضممت إلى مينا وإلى عليّ وأخوين آخرين، محسن وحמיד. أما أختي الأخرى مهري، فقد توفيت وهي بنت عام تقريبًا.

أعتقد حقًا أنني قضيت السنوات الأولى من حياتي في الجنة. كان أبي شديدًا لكنه لطيف، كانت أُمي تطهو وجبات لذيذة وتحبني، وكنا نتحدث المازنية جميعًا. كنت أركض في الباحة وأقتطف التفاح والإجاص مع أُمي، وأعتني أحيانًا بالأبقار. لم أتعلم الفارسية حتى ذهبت إلى المدرسة.

سمّاني أبواي معصومة، على اسم فاطمة المعصومة، أخت علي بن موسى الرضا، المعروف باسم الإمام الرضا، الإمام الثامن في الإسلام الشيعي. سُمّمت المعصومة في طريقها إلى مشهد في شمال إيران الشرقي. معظم الإيرانيين من المسلمين الشيعة. تقول الأسطورة إن فاطمة كانت تسافر إلى مشهد لتزور أخاها عندما هاجمت عربتها عصابة. التفاصيل قليلة وغامضة، لكنها قُتلت ودُفنت في قرية قم الصغيرة في طرف الصحراء. بُني لها بعد ذلك ضريح مكرّس لها، وهو ما ساعد قرية قم على الازدهار لتصبح العاصمة الثقافية الشيعية في إيران، إذ جذبت آلاف طلبة العلم الديني. حتى اليوم، يسافر مئات آلاف الحجاج إلى قم تشريفًا لفاطمة المعصومة. ربما رجا أبواي أن أكون متدينة، وأن أحمل بعض صفاتها، ولذلك سمّاني باسمها.

الحق يُقال، لم أكن أشبه ببقية أسرتي. كنت نحيلة وداكنة المعاني، كما لو أنني تركت طويلاً في الشمس، أما شعري فكان خُصلاً من التجعيدات التخينة المعقدة. أما بقية أسرتي فبشرتهم بيضاء وشعرهم مرسل ناعم. كان الأطفال دائماً يستفزّونني بقول إنني متبناة. كنت أتأمل انعكاسي في المرآة ثم أنظر إلى علي وأمي لأرى إن كنت أستطيع أن أجد أي تشابه.

تشجّعت في يوم من الأيام وسألت أمي، «لماذا لا أشبهك؟ شعري جعد. بشرتي أدكن من بشرتك».

كان سؤالاً جدياً. أردت أن أكون مطمئنة. كنت أخاف أن يكون الأطفال على حق وأن يكون أبواي الحقيقيان قد تخليا عني فعلاً. نظرت إلى أمي أنتظر جوابها.

ردّت علي بهدوء وهي تحرّك طنجرة الرز التي تغلي: «أبواك الحقيقيان ميتان. لقد قُتلا في الحرب». كانت تشير إلى الحرب التي تلت غزو العراق لإيران في الثمانينيات. «كنا سنخبرك بالحقيقة عندما تكبرين. أنت في الحقيقة من الجنوب».

قلت: «كنت أعلم. لم يكن أبواي ليتخليا عني».

في عقلي، كانت الصورة منطقية فعلاً. لكن هذا كان يعني أن علي ليس أخي وأن مينا ليست أختي. شعرت بالوحدة والحزن وأجهشت بالبكاء.

قلت بين الدموع: «كيف كان شكل أبوي الحقيقيين؟ هل كانا يحباني؟».

ومضيت أسأل أسئلة جدية عن أبوي، لكن أمي لم تستطع أن تحافظ على وجهها العادي وضحكت كثيراً، مع أنها حاولت كثيراً أن تظهر التعاطف. هربت منها بعد ذلك وأنا أبكي. تلك الليلة، رفضت أن أكل واستمر بكائي. في النهاية جاءت واحتضنتني.

قالت لي: «كنت أمزح فقط. أنت معصومتي أنا».

ارتحت جداً لكون أبويّ على قيد الحياة، حتى نسيت أنها خدعتني.

كان أخي الأكبر محسن أكبر مني بخمسة عشر عاماً، وكان مثل أبٍ ثانٍ لي ولعلي. كان طويلاً ونحيفاً وكان رأسه دائماً مدفوناً في كتاب، عن التاريخ عادة. كان أول من يذهب من أسرتنا إلى المدرسة الثانوية في بابل وأول من يحصل على شهادة في الجامعة. انضم محسن إلى الجيش ليشارك في الحرب بين إيران والعراق، التي امتدت ثمانية أعوام فظيعة مأساوية، حتى عام 1988. كان يصنع الصداقات بسهولة، وكان أصدقاءه يلاعبونني عندما كانوا يزوروننا. كان أحد أصدقائه، أميد، من بابل، وكان يتكلم الفارسية الفصحى، أما بقيتنا فكنا نتكلم بلهجة من المازنية والفارسية. كنت أحب أميد-كان يشغلني ويؤرجحني من ساقيّ.

ذهب محسن وأميد وثلاثة أصدقاء آخرين، رمزون وعباس وعيسى، إلى الجبهة جميعاً ليحاربوا العراقيين معاً. جُرح رمزون، الذي تزوج أختي مينا بعد ذلك، بشظية. جُرح محسن كذلك بعد ثمانية عشر شهراً على الجبهة. فقد عباس ساقيه. أسر العراقيون عيسى. ظنت أسرته أنه توفي وأقامت له عزاءً. لكن في تسعينيات القرن نفسه، في تبادل للأسرى، عاد عيسى إلى بابل، كالح المنظر غريب التصرفات. لقد أضرت سنوات الأسر عقله. أما أميد، الذي اعتاد أن يدغدغني ويلاعبني، فقد قُتل. لم يعد أكثر من 250,000 مقاتل إلى وطنهم من المعركة، وعاد نصف مليون آخرون متحطمين.

كانت أختي مينا ملكة جمال الأسرة، صاحبة الشعر الخلاب والمعاني الناعمة. كانت متدينة وترتدي الحجاب دائماً، حتى داخل البيت مع الأسرة. عندما كانت تخرج، كانت ترتدي الحجاب والشوذر. نادراً ما كنت أرى شعر مينا، الذي كان يبلغ وسطها. كانت دائماً تصلي وتصوم في أيام شهر رمضان الكريم، وتذهب إلى المسجد في برامج خاصة لدراسة القرآن. كان أبواي كلاهما يحبّان حماسة مينا للدين. كل نهاية أسبوع، كانت مينا تمشي خمسة وأربعين دقيقة حتى تبلغ القرية التالية، نوشيروان كلا، وتأخذ حافلة إلى بابل حتى

تصلي صلاة الجمعة في المسجد.

أخي الأوسط حميد، كان أقصر الصبيان في الأسرة، وكان يحاول دائماً بناء الجسور. كان أكبرنا عقلاً وقُبل في جامعة شريف، التي تعدّ مثل هارفارد في إيران، ودرس فيها الكيمياء. أما محسن فدرس التاريخ في جامعة فردوسي في مشهد.

كان أبي فخوراً بأبنائه. كان يقول لكل من كان مستعداً لسمعته «البلد في حاجة إلى مهندسين ومؤرخين. أبنائي في أفضل جامعات البلد، ليس سيئاً وأبوهما فلاح فقير لا يقرأ ولا يكتب».

بعد التخرج. طُلب حميد ليشارك في الحرب. بعد التدريب الأساسي أُرسل مباشرة إلى الجبهة، وفيها ضُربت وحدته بغاز الخردل والساارين. قضى شهوراً في المشفى وعاد وقد سُجّل ذا إعاقة جزئية. استمرت الحرب. حتى الآقاجان تطوع ليحارب، وعمره سبعة وأربعون عاماً. كان ذلك عام 1988، بعد أن عانت الحكومة الإيرانية تراجعاً عسكرياً كبيراً، وطلبت مزيداً من المتطوعين. كان ذلك واجبه الديني، هكذا قال الآقاجان وهو يحضّر حقييته. عاد محسن إلى الحرب كذلك مرة أخرى. اعتنت أمي بالمرعة، وكانت هي التي تحلب البقر وتحرص على ألا نفقد شيئاً، حتى وهي قلقة من احتمال أن يُقتل ابنها وزوجها. انتهت الحرب بُعيد ذلك، وعاد الرجلان سليمين.

كان أهل القرية يدعونني زاري خياط كيجا، ومعناه بالمازنية «ابنة زاري الخياطة». كانت أمي الخياطة الوحيدة في القرية، وكان النساء من قمي كلا ومن القرى المجاورة يرحلن إلى بيتنا حاملات أثواباً من القماش لتحولها أمي إلى فساتين وأقمصة وسُتر. كنت أتسلل أحياناً لأرى أمي وهي تحدث زبائنهن بلهجتها المازنية الناعمة لتطمئنهن بأنها قد قاست أوساطهم وأذرعهم وصدورهم. كانت أحياناً تقول لي القياسات لأكتبها في دفتر.

كانت أمي تقدم دروس خياطة بين الحين والآخر. في تلك الأوقات، كان النساء والفتيات

المراهقات يتجمعن في بيتنا. كنا ننام في غرفة واحدة، لتبقى الغرفة الثانية لدروس أمي. كانت الغرفة تمتلئ بأصوات النساء ثم بأصوات الأزيز من آلات الخياطة، وكانت أمي تصدر التعليمات في كلا الحالتين. كنت أشاهد بذهول كيف تعامل النساء أمي باحترام كبير. بالنسبة لأمي لم يكن الأمر هواية. كنا نحتاج إلى الدخل الإضافي لأن قطعة الأرض لم تكن تدرّ علينا ما يكفي من المال. كان أبوي بطرائقهما الخاصة رائدي أعمال، وإن كانا لا يعرفان معنى ريادة الأعمال. كان الآقاجان يبيع الدجاج والبط والإوز والبيض على زوايا الطرق، وكانت أمي تخطط وتدرّس الخياطة. كانت أمي فريدة بطريقتها الخاصة: كانت تكتسب مالها بنفسها ولا تعتمد على الآقاجان. في كل مرة كانوا يدعونني بنت الخياطة زاري كنت أشعر بالفخر.

من أقدم صوري التي استطعت أن أجدها صورة التُّقطت وعمري سبعة أعوام فقط. كان على وجهي أكبر وأسخف ابتسامة في العالم، لأنني أرتدي ثياباً جديدة صنعتها أمي لي. بالنسبة لي، كان امتلاك وارتداء تنورة أو فستان جديد أفضل من العيش في قصر.

كان بيتنا متواضعاً ومصنوعاً من الطين. كانت الأسر الغنية تسكن في بيوت من الطوب. بيوت الطين مفهومة في البلدان الدافئة، لكن السماء في شمال إيران تمطر كثيراً، وكان علينا كل عام مع نهاية الشتاء أن نصلح البيت. كان الآقاجان يصنع معجوناً خاصاً من روث البقر، الذي كنا نستعمله كذلك وقوداً. كان يخلطه مع الطين والقش وقشور الرز، ونستعمل هذا المزيج فوق الجدران المتفسخة والسقف. كان عملاً نتن الرائحة. بعد أن يجفّ المعجون، كان الآقاجان يطلي الحائط مع إخوتي، لكن الطلاء لم يكن يقتل الرائحة. على مر أسابيع، تستمر رائحة روث البقر حول البيت، وإلى يومنا هذا، ترتبط في عقلي رائحة روث البقر برائحة البيت. ذهبت إلى مزرعة خارج مدينة نيويورك عندما وصلت في 2014 ونقلتني روائح الحيوانات هناك إلى طفولتي مرة أخرى. نظرت حولي باحثةً تقريباً عن الآقاجان وأمي، ولو أنني أعلم أنه توقع سخيّف. تهيجت عاطفياً جداً حتى أننا غادرنا بعيد

وصولنا.

إلى أن بلغت المدرسة الإعدادية، كان بيتنا من غرفتين فقط. كنا نمدّ أسرّتنا المطوية في الغرفة التي كنا ننام فيها جميعاً، في زاوية قرب كومة مرتبة من الأغطية المطوية والفُرش والوسائد. كل يوم، كنّا نمدّ أسرّتنا وننام على الأرض. في الصباح، كنت أساعد أُمي في طيّ الأسرّة ووضعها في طبقات في زاوية الغرفة. كانت هذه هي الغرفة الرئيسة-فيها نقضي أوقات فراغنا، وفيها نأكل، على سفرة (وهي شبه حصيرة من البلاستيك أو القماش تمدّ على الأرض مثل غطاء الطاولة)، وفيها نُؤدي وظائفنا المدرسية. أما الغرفة الثانية فكانت لاستقبال الضيوف. بعد مدة طويلة، بنى الآقاجان توسعةً للبيت لتكون غرفة ثالثة.

لم يكن عندنا مطبخ داخلي. بنى الآقاجان تش دار خانه («بيت النار» بالمازنية) في ساحة البيت، وكانت مطبخاً مفتوحاً على السماء، تحيط به ثلاثة جدران من القوالب الإسمنتية ويعلوه سقف معدني مموج لا يحمي إلا جزئياً من المطر والثلج. كل يوم تقريباً، كانت أُمي ترسلنا لجمع قطع الخشب والفحم لإشعال نار في الحفرة السطحية المسودة المملوءة بالرماد. بينما كنا نشعل النار، كانت تطلي الأوعية والمقالي بمزيج وقائي من الطين وقشر الرز، لمنع احتراقها. كان فطورنا أشياء بسيطة: بيض، وخبز، وجبن وشاي ساخن. بعد ذلك، جمع الآقاجان ما يكفي من المال لشراء موقد غاز.

أما الماء فكان يأتي من بئر عميق حفره أبي في الجانب الآخر من البيت. كنا نرمي فيه دلوّاً ونحركه بطريقة خاصة حتى يمتلئ بالماء الذي نستعمله بعد ذلك للشرب والغسل. عندما وصلت إلى المدرسة الثانوية، اشترى الآقاجان مضخة مياه وخزاناً فلم نعد نرمي الدلو في البئر.

لم يكن في البيت أي مكان للاستحمام. في شهور الصيف، إلى أن بلغت السادسة أو السابعة، كانت أُمي تملأ مرجلاً من الحديد المصبوب بالماء الدافئ وتدلكني باللوفة

وبصابون شديد، هو نفسه الذي كانت تستعمله لغسل ثيابنا. عانى علي القدر نفسه إلى أن أصبح كبيراً.

كنت أخاف من الشامبو الذي تستعمله أمي، كان لزجاً وأصفر وغلظاً، وكانت رائحته كرائحة صفار البيض الطازج. كان كل أهل القرية يستعملون الشامبو نفسه لأنه النوع الوحيد المتوفر.

عندما كان يقترب الشتاء، كنا ننقل الرجل إلى الحظيرة، التي كانت أرضيتها إسمنتية—لكي لا تتطين الأرض إذا طاف الماء منه. عندما كبرت، صرت أستعمل الخرطوم في الحظيرة بدلاً عن الحمام. لم أكن أرتاح وأنا أغتسل أمام عيون بقراتنا الكبيرة الملاحظة.

في شهور الشتاء ولا سيما عندما كبرت، وصار الرجل لا يسعني، كنا نذهب إلى الحمامات العمومية في الطرف البعيد من القرية. كانت هذه الحمامات مفصولة—تُفتح في الصباح للنساء فقط، والمساء دور الرجال. كان إلى جانبنا أيضاً حمام أصغر، يمكنك لقاء رسوم أعلى فيه أن تحصل على غرفة خاصة لك تستحم فيها لمدة ساعة. أعجبتني الخصوصية فيه لأنني كنت أستحيي من التعري أمام النساء الأخريات.

أما أثاث البيت، فلم يكن عندنا منه إلا القليل—لا طاولات ولا كراسي ولا كنبات. كان التلفاز الصغير رفاهية عندنا، وكان يعرض الأخبار والبرامج الدينية. كانت برامج الأطفال أفلام كرتون مستوردة من أوروبا الشرقية واليابان. في شهور الصيف، كنا نجلس على الشرفة نأكل البطيخ ونشرب الشاي ونتحدث، وكان يأتي الأصدقاء ويجلسون معنا ساعات إلى أن تغيب الشمس.

بعض الشتاءات كانت قارسة البرد. كنا نعتمد على مدفأة بارافين تشبه مصباح علاء الدين، وكانت رائحتها بشعة فعلاً. طبعاً، في كل ظهيرة كانت أمي تشعل الكرسي—وهو مدفأة مؤلفة من طاولة قصيرة تحتها مبخرة وفوقها ملاءات تغطيها. كانت الأسرة كلها

تتجمع حول الكرسي ونضع أقدامنا تحت الملاءات، وكان الأطفال ينامون هناك أيضاً.

أتذكر ذات شتاء أن الجو كان بارداً جداً إلى درجة أن الآقاجان أدخل العجل الصغير الذي وُلد حديثاً إلى بيتنا بعد أن صعد على الدرج. حين أفكر الآن في الأمر، يبدو عجباً، لكن في ذلك الوقت، رأيت أنه من الظرافة بمكان أن يكون تحت سقفنا بقرة صغيرة تنام معنا.

حتى في طفولتي كنت دائماً متفائلة وكنت أظن أننا مميزون. ربما كان من أسباب ذلك أن الآقاجان كان يذهب بانتظام إلى بابل، وكان يشتري لنا أشياء لم تكن موجودة في قمي كلا، مثل اللبان بطعم الفواكه أو فطائر الجبن.

ذات غداء عاد أبي من بابل مبتهجاً. «لديّ شيء خاص لكم جميعاً»، قال وهو يتوضأ لصلاة الظهر. «حلوى خاصة جاءت من طهران».

طهران! في ذهني، كانت طهران العاصمة بعيدة جداً إلى درجة أن كل شيء متعلق بها له صفة فاخرة. لا أتذكر ماذا تناولنا في غداء ذلك اليوم، لكننا أسرعنا في الأكل وغسلنا الأطباق وانتظرنا. عادت أمي حاملةً عوداً أصفر ثخيناً على طبق. في يدها الأخرى كانت تحمل سكيناً كبيرة، هي السكين التي كانت تستعملها لقطع رؤوس الدجاج.

سألت وقد نفذ صبري: «ما هي؟». لم يكن عمري أكثر من ثمانية سنين أو تسعة، وكنت متيقنة من أننا نشهد حدثاً تاريخياً.

قال الآقاجان بثقة وجزم: «اسمه موز». «لم ير كثير من الناس في بابل الموز في حياتهم. إنه من الفرنك»، أي الغرب.

الفرنك! هذا أعظم حتى من طهران، هكذا قلت في نفسي. حلوى عجيبة من الغرب. يجب أن أتذكر كل تفصيل حتى أتشدّق بالحديث عنه في المدرسة في اليوم التالي.

سألت أبي: «اشتريت واحدة فقط؟ هل ستكفي؟»

قالت أمي: «أحمدي الله». كانت تكره المفاخرة وتستغل كل فرصة لتزرع فينا حس الامتنان. «اشكري الله أن لك أباً لطيفاً يحبك».

نكزت أمي الموزة بالسكين وتفاجأت من هشاشتها. هنا حبسنا أنفاسنا.

قالت أمي «إنها هشّة جدّاً».

قال أبي بصوت مطمئن «قطعيتها. لا تخافي».

أمسكت أمي بنهاية الموزة بإحكام وقطعتها بحذر إلى ست قطع ووضعت الطبق أمامنا. لم يتحرك أحد منا. أخذت أمي بتردد قطعة وتناولت لقمة منها، بقشرها وكل شيء. تغير شكل وجهها ولفظت القشرة. قالت: «هذا الجزء مر ويلصق بالفم». ببطء سحبت الجزء الطري من القشرة ووضعتة في فمها.

ابتهج وجهها قائلةً «إنها حلوة».

هكذا حُسم الأمر. أخذ كل واحد منا قطعة، وأزال القشرة، وأكل الجزء الطري. مضغت قطعتي ببطء شديد ثم فتحت فمي وأخرجت لساني وعليه الموزة الممضغوغة ليرى علي أنني لم أنته منها بعد.

قبل أن تمسح أمي الطبق، أخذت قطعة من القشور لآخذها إلى المدرسة وأستعرض أمام الأطفال.

قال حامد: «احتفظت معصومة بقطعة من الموزة». لقد فضح أمرى. «ستعرض لأصدقائها فاكهتنا الغربية».

نظرت أمي إلي نظرة خذلان. لم تقل أي شيء. عرفت أنني موعودة بمحاضرة في ذلك

اليوم عن ذنب المفاخرة.

قبل المدرسة الثانوية، أعتقد أنني لم ألبس أي شيء لم يكن قد استعمله شخص أكبر مني حتى لم يعد يوافق مقاسه، إما أن تكون أُمي قد صنعتها، وإما أننا اشتريناها من سوق للثياب المستعملة. كنت أحب أن أكون مختلفة، وكنت أتوسّل إلى أُمي أن تستعمل نقوشاً وأقمشة مختلفة في فساتيني وتنانيري بدلاً من الأنماط المورّدة نفسها التي ترتديها الفتيات الأخريات. أردت أن أكون فريدة.

مع مضي السنوات، دخلت أنا وعلي المدرسة الإعدادية، وكانت في قرية أخرى. لم تستطع أُمي أن تصنع الستر المطرية التي كنا نحتاجها. ذات مساء، جاء الآقاجان من بابل وأعطاني سترة حمراء شتوية وقعت في حبها من فوري. كان لها قبعة عليها فرو زائف أبيض لتحافظ على دفئي واستكانتي. أما علي فأعطاه أُمي سترة صفراء فيها كثير من الجيوب التي يمكن فتحها وإغلاقها بالسحابات، ولها طبقة داخلية يمكن إزالتها، وهو ما يعني أنه يستطيع ارتداؤها في الشتاء والربيع. مباشرة زجّ علي كتبه ودفاتره في الجيوب وأعلن للجميع أنه لم يعد في حاجة إلى حمل حقيبة إلى المدرسة.

كان في السترتين مشكلة واحدة: كلاهما تصدر رائحة كيميائية منفّرة.

قال الآقاجان «هذه رائحة الثياب الجديدة-إنهما من المتجر مباشرة».

كانت هذه نصف الحقيقة. اكتشفت أنا وعلي بعد ذلك أن الثياب من متجر خيرى كان يبيع الملابس بحسوم كبيرة. أما رائحة «الثياب الجديدة» فكانت في الحقيقة رائحة المعقم.

في ذلك الشتاء، أردت كذلك حذاءً جديداً. كنت أشتهي دائماً من كون قدميّ مبللتين دائماً لأن حذائي الرخيص لا يمنع دخول الماء. كنت أتشوّق إلى زوجين أحمرين من حذاء أحمر بلاستيكي يبلغ عنقه الركبة، كنت قد رأيته في متجر في بابل، لكن أُمي هزت برأسها عندما رجوتها.

مع وصول نُدْف الثلج، وجدت أُمي حلاً. اشترت أُمي مع عمتي حذاءً لنتشاركه أنا وابنة عمتي.

لم أكن سعيدة بهذه المشاركة. «أكثرُ عليّ أن يكون عندي حذاءٌ لنفسي؟»

ردت أُمي: «إما أن تشاركي وإما ألا تحصلي على شيء».

ارتديت الحذاء أسبوعاً قبل أن أعطيه لابنة عمتي، التي كانت ترتديه أسبوعاً ثم تعيده إلي. هكذا رتبّ الكبار الأمر، لكنني كرهت فكرة التخلي عن الحذاء.

بعد شهر أو نحو شهر، جاء الآقاجان حاملاً كيساً ورقياً بَنِيّاً، أخرج منه زوجين مطابقين تماماً للحذاء الذي كنت أشاركه مع ابنة عمتي.

قال لي «هذا لك. ليس عليك أن تشاركي أحداً بعد الآن».

قفزت من الفرحة، وقبلت يديه مرة بعد مرة. أخيراً أصبح عندي حذاء لنفسي لا أشارك فيه أحداً. أزلت التغليف البلاستيكي وجربت الحذاء. شعرت بخطأ ما مباشرة.

قلت «لا أشعر أنه مناسب. إنه كبير جداً».

أشاح الآقاجان بنظره. خطرت لي حينئذ فكرة مخيفة.

صرخت: «هل أعطيت هذا الحذاء لابنة عمتي أولاً؟». كان الحذاء الذي أشاركه مع ابنة عمتي ضيقاً ومُحكماً. أما هذا فيبدو أنه مستعمل.

طوى الآقاجان الكيس الورقي البني الذي كان في الحذاء.

قال لي، دون أن ينظر في عيني: «هذا الحذاء هدية من أسرة لم تعد تحتاج إليه. سنحشوه ببعض ورق الجرائد حتى يناسب مقاسك».

في تلك الليلة أخبرت علي بحذائي الذي لم يكن جديداً جداً.

قال لي «أعتقد أن كل ثيابنا من تبرّعات. ماذا لو التقينا بالمالكين السابقين لها في الشارع وطالبونا بإرجاعها؟».

لم يحدث الأمر، ولكن في عقولنا كنا دائماً نخاف أن نقابل الشخص الذي تخلص عن الثياب التي نرتديها الآن.

الفصل الثاني

وُلدت في 11 سبتمبر 1976، ولم أكن إلا طفلة ثرثرة ذات عامين عندما أطاحت الثورة الإسلامية بالشاه محمد رضا بهلوي، وأنهت بذلك ألفيتين من حُكم الملوك الفُرس.

كانت أحداث هذا التحول الشديد من أعنف الأحداث في تاريخ إيران الحديث. أنا بنت تلك الثورة الإسلامية وقد عشت كل حياتي تقريباً تحت ظلها. قصتي هي قصة إيران الحديثة، التوتر بين النزعات العلمانية للشعب والأسلمة الإكراهية للمجتمع، ونضال النساء، ولا سيما الشابات، للحصول على حقوقهن خلافاً لتطبيق الشريعة الإسلامية، خلافاً لانتهاك حقوق الإنسان والحريات المدنية.

غيّرت الثورة أشياء كثيرة، لكن بالنسبة للنساء، كانت الثورة خطوات كثيرة إلى الوراء. في الجمهورية الإسلامية، إذا وُلد الإنسان امرأة فإنه مثل ذي الإعاقة.

إلى يومنا هذا، بعد أربعين عاماً تقريباً من الثورة، لم تزل النقاشات حاضرة في أسر إيرانية كثيرة: هل أخطأ جيل أبي في الإطاحة بالشاه وأفكاره الغربية التي أرادت تحديث البلاد، هل أخطؤوا عندما أقاموا مكانه نظاماً يرى في القرن السابع هديه الأخلاقي والقانوني؟ الصورة ليست أسود وأبيض، طبعاً، ومع أن كثيراً من الأسر المحافظة والمتدينة فضّلت النظام الجديد، فإن أسراً كثيرة أخرى لم يعجبها الوضع الجديد.

في طفولتي، كنا نتكلم عن السياسة دائماً في أسرتي. في مراهقتي، كنت أجادل الآقاجان وتعلو أصواتنا على السياسة. عندما كانت تجتمع الأسرة كلها في نهاية الأسبوع، كان محسن وعلي يؤيدانني ضد الآقاجان، أما حميد ومينا فكانا في صفّه. كثيراً ما كان الآقاجان ينهي النقاش بهزّة رأس حزينة وهو يقول: «أنتم لا تعرفون بعدُ ما لا تعرفونه».

كان المفترض أن تنفع الثورة الأسر الشبيهة بأسرنا، الأسر المضطهدة المسكينة الفقيرة. أنا بنت هذه الثورة التي دعمها أبواي، ولكنني ثُرت أنا وملايين الإيرانيين ضد الجمهورية الإسلامية.

في يوم من الأيام بعد سنوات كثيرة، وأنا أقلب في صور أسرتي، اكتشفت مجموعة من الصور القديمة لأبوي. صدمةٌ دائماً أن يرى المرء أمّه وأباه في شبابهما، لكن هذه الصور تركت في انطباعاً كبيراً لسبب آخر. في إحدى الصور، التي التُقطت بعد زواجهما بقليل، كانت أُمي ترتدي وشاحاً ملوّناً ومعطفاً عصرياً. إلى جانبها الآغاخان، بشاربه الأسود الحاد؛ كان يرتدي بدلة رسمية وربطة عنق. قبل أن أرى هذه الصورة، لم أكن قد رأيت قط يرتدي ربطة عنق. لم يكن قد ارتداها منذ الثورة.

في صورة أخرى، التُقطت بعد عقد من الزمان، كان أعضاء الأسرة واقفين بكآبة واضحة في حقل. تمسك أُمي، بطلعتها الجميلة، أخي حميداً بين يديها فيما تتأمل مينا مع محسن في الكاميرا. يبدو الأطفال كأنهم لم يحصلوا على قيلولتهم. يملك الآقاخان الشارب نفسه في الصورة السابقة لكنّه هنا مخلوق تماماً؛ يرتدي أبي سترة أنيقة وحذاءً غير صالح للمشي مطلقاً في الريف. أصابتنني صدمة عندما وجدت هذه الصور-الصور الوحيدة التي كان فيها أبي حليق الذقن. فركت أطراف أصابعي بالصور كما لو أنني أستطيع لمس وجهه النقي.

كان في الصورة أيضاً شيء آخر في غير مكانه. في تلك الصورة، كان يبدو علينا الابتهاج. الكل يرتدي ثياباً مشتراةً من متجر، لا ثياباً خاطتها أو رقعتها أُمي. لم نكن نبدو مثل فلاحين يعيشون في قرية صغيرة. كان منظرنا مثل أهل المدينة.

ما الذي جرى لنا؟ سألت نفسي. كيف يمكن تفسير الابتهاج النسبي لأسرتي في تلك الصور؟

كنتُ أصغر من أن أتابع تفاصيل الانتفاضة السياسية في بلدي، لكن التحول كان واضحاً في رقعتنا الصغيرة من خريطة إيران. حتى في العقد الأول بعد الثورة الإسلامية، انقسمت أسر كثير في ولاءاتها، ومنها أسرتي. كان الآقاجان مؤيداً للثورة الإسلامية، أما عمي ولي الله فكان داعماً للشاه، وفي كل مرة كانت أسرتي تجتمع كانا يتجادلان ويتقارعان. أطلق أبي على عمي اسم شاه دوست (أي مؤيد الشاه)، وردّ ولي الله بتسمية أبي خميني دوست.

أتذكرُ أحد الجدالات بوضوح. كانت نهاية أسبوع صيفية حارة، وكانت الأسرة كاملةً قاعدة حول السفرة على الشرفة. فيما كنا نمرّر أطباق الرز والكباب، تنحنح أحد أبناء عمي وتوجه بالكلام إلى أبي.

سأله «عمي، هل كانت الحياة أفضل في عهد الشاه؟». حاول ابن عمي أن يبدو مسالماً، لكنني استطعت أن أرى أنه كان يحاول إغاية الآقاجان. «يقول العم ولي الله إن حصاداتنا كانت أكبر وأموالنا كانت أكثر حينئذ».

لطالما قال أبي إنه مستعد للتضحية بحياته من أجل الثورة. لم يكن أبي ليترك هذا التعليق دون تحدّ.

«لا. لا ولا. كان المال أكثر في أيدينا لكن لم نكن محكومين بحكم الله. الشاه» -وهنا جعل أبي وجهه وكأنه قد أكل قطعة لحم فاسدة- «الشاه كان ينفق كل ثروته على نفسه وأسرته. كان فاسداً. الآن عندنا حكم إسلامي يتبع القرآن».

بدا على أبي أنه سرّ بجوابه. إلى أن رأى ولي الله يأتي إليه. انحنى ولي الله وأخذ ببطء حفنة من الرز من الصحن وبدأ يأكل من يده المقبوضة. تساقطت بعض حبات الرز من بين أصابعه.

قال ولي الله ساخراً: «إن كنت تقول أن الشاه كان فاسداً، فلعلك تعرف شيئاً لا يعرفه

بقيتنا. لكن على الأقل كان إذا أكل أتاح لبقايا طعامه أن تسقط للناس. أما أخونداتك»-
والأخوند كلمة قديمة وازدرائية تعني الفقهاء-«فهم كذلك فاسدون». هنا أحكم ولي الله
أصابع يده المقبوضة.

«لكنهم يأكلون وأيديهم مطبقة، بل ويأخذون منّا. لم يصبني الشاه بأي أذى». كان ولي
الله فلاحاً بسيطاً، لم يأكل يأخذ الحياة على محمل الجد كثيراً، وكان دائماً يحتفظ بعلكة أو
قطعة حلوى يضيّفها عندما نزوره. ربما لذلك كنت أحبه.

رفع الآقاجان عنقه ليوجه الكلام إلى أمي: «قلتُ لك لا تدعي هذا المؤيد للشاه». ثم وجه
الكلام إلى ولي الله وقال: «ستفهم يوماً ما رغم سماكة مخك أنك لا تعرف شيئاً. لقد كان
الشاه يعطي نفطنا للأمريكان».

رد ولي الله منتصراً: «ومن تظن يشتري نفطنا الآن؟ الشركات الأمريكية».

كان من شأن نساء الأسرة عادةً أن يُحلّوا السلام في هذه الاجتماعات. هذه المرة، طفح
كيل أمي، فسألت: «لماذا تتشاجران كل الوقت؟ كان عندنا الشاه، والآن عندنا الخميني. من
يدري ما الذي يأتي به الغد».

كان الآغاخان مستعداً للتضحية بحياته من أجل الثورة الإسلامية، لكن حتى هو لم يكن
لينكر أن أبا الشاه، الذي أسس النظام البهلوي، أنقذ إيران من الانهيار الكامل.

في 1921، عندما كانت إيران تحت يد القوتين العظميين بريطانيا وروسيا، زحف رضا
ميربنج، صاحب البنية القوية، قائد اللواء القوزاقي الفارسي، بأربعة آلاف رجل إلى طهران
ليفرض النظام. خلع الرجل الملك السابق وأعلن نفسه شاهاً، وكان أول ملك بهلوي. كان
أمياً، لكنه خطط لتحديث إيران، وفي سياق هذه الخطة بنى سككاً حديدية وطرقاً سريعة
وأسس مدارس ونظام رعاية صحية، وأرسل آلاف الطلاب الإيرانيين ليدرسوا في الخارج.
سحب الرجل إيران لتدخل في القرن العشرين، وروج لفكرة ارتداء الرجال الزي الغربي

الحديث، ودعا النساء إلى خلع الحجاب. مع هذه الدعوة، صدر في 1936 قانون كشف الحجاب، وهو قانون يوجب على النساء إزالة الحجاب أو غطاء الرأس في الأماكن العامة.

قبل أكثر من ثمانين عاماً، كان في البلاد قانون يمنع ارتداء الحجاب. لو كنتُ حينئذٍ لعارضتُ القانون، لا لأنني مؤمنة بالحجاب بل لأنني مؤمنة بحرية الاختيار. ينبغي أن يكون للنساء حق اختيار ما يرتدين.

انتهى حكم الشاه رضا بعد أن احتلت القوات السوفييتية والبريطانية البلاد في أغسطس 1941 لتسهيل إرسال الأسلحة إلى روسيا، إذ كانت تحارب ألمانيا النازية. كان الشاه قد وظّف مئات التقنيين الألمان ليساعدوا في مشاريع متعددة، وكانت بريطانيا قد طالبت بطردهم. كان وجود هؤلاء التقنيين هو الحجة التي استعملتها بريطانيا لغزو إيران. تنازل الشاه رضا عن الحكم لصالح ابنه محمد رضا بهلوي، وكان عمره اثنين وعشرين عاماً. مضى الملك الجديد في برنامج التحديث الذي بدأه أبوه وأقام نظاماً تعليمياً وقانونياً علمانياً، واستورد التقانات والصناعات الغربية، وأنفق كثيراً لتعزيز القوات المسلحة. بفضل البهلويين، صارت إيران بلداً حديثاً.

كانت هذه الفترة ذروة حقوق النساء. في عهد البهلويين، حازت النساء على مكاسب كبيرة، ولا سيما في مسائل قوانين الأسرة والطلاق. قادت النساء سيارات، وعملن خارج المنزل، وصوتن في الانتخابات، وترشحن للمناصب السياسية، ووُكلن بوزارات.

إلى ذلك الوقت، لم يكن الحجاب مسألة نزاعية، على الأقل في المدن. في المراكز الحضرية، كنت ترى نساءً بلا حجاب يعملن ويعشن مع نساء متدينات يرتدين الحجاب الكامل.

في 1978، واجه الشاه عاصفة كاملة من الاحتجاجات عندما اجتمع المعارضون الليبراليون الذين أرادوا مزيداً من الحرية السياسية، والفقهاء الذين اشتكوا من انحلال

الأخلاق، وأتباع اليسار المتطرف، الذين أرادوا جنة العمال. هذا المزيج المعارض تحت قيادة الخميني كان قويًا جدًا، وعلى إثره غادر محمد رضا بهلوي إيران في يناير 1979 ولم يعد بعدها.

كان هذا ثالث ملك ينتهي به الحال في المنفى. هنا ظهرت إرهاصات حرية ديمقراطية أكبر، لكن إيران اتجهت عكس ذلك إلى السلطوية الدينية. عاد آية الله روح الله الخميني، بعد نفي دام أكثر من خمسة عشر عامًا، قضى معظمه في العراق ثم في فرنسا، ليتلقاه الناس بترحيب الأبطال، رحّب بالخميني ملايين الإيرانيين، كما لو كان المسيح المخلص. لكن الخميني الذي لم يكن مبتسمًا، وكان حينها في آخر سبعينياته، لم يكن عليه منظر الأبطال مطلقًا. حتى في يوم عودته منتصرًا، كان على الخميني مظهر الرجل البارد القلب: لم يكن عليه أي علامة للسعادة أو البهجة. توعّد الخميني بالعدل القاسي. خلال عشرة أيام، انهار النظام الذي تركه الشاه وحل محله المتطرفون الإسلاميون.

مع تزايد النزعة الإسلامية في الثورة، صارت مسألة الحجاب وحقوق المرأة بارزة أكثر فأكثر. كانت المشكلة أنه في بداية عهد الثورة في إيران، كانت مسائل النساء ليست هي الأهم. في البداية، تكلم الخميني عن احترامه للديمقراطية وحقوق الإنسان وحرية الدين. لكن بعد انتصار الثورة أدركت النساء أنهن قد تخلّين بإرادتهن عن حقوقهن وأتين بنظام يطلب منهن الخضوع.

في 8 مارس 1979، احتشدت مئة ألف امرأة في يوم المرأة العالمي للاحتجاج على قوانين الحجاب الإجباري وغيره من التقييدات الإسلامية. قبل ذلك الوقت لم يكن يوم المرأة العالمي شيئًا يُذكر في إيران. كان يتابع الاحتجاج حشود من المتدينين والقوات الموازية المسلحة بالسكاكين والزجاج المتكسر والطوب والحجر. هاجم هؤلاء المسلحون النساء وجرحوا كثيرًا منهن فيما شاهدت قوات الأمن دون تدخل.

كان لهذه الاحتجاجات بعض النتائج-صرّح أحد أبرز الفقهاء، آية الله محمود طالقاني، أنه «لا يمكن إجبار النساء على ارتداء الحجاب». كان صوته صوت الأقلية بين الفقهاء.

لم يردع الإسلاميين الأمر. في 1979، أشرف حسن روحاني، وهو فقيه جديد أصبح في 2013 الرئيس السابع لإيران، على إعادة تنظيم القوات المسلحة. كان أول أوامره أن ترتدي كل امرأة تعمل عنده الحجاب أو أن تُطرَد من العمل. مع كل منصب كان ينتقل إليه، كان على النساء الاختيار: ارتداء الحجاب أو ترك العمل. لم يلبث أن أُوجب على كل من تدخل إلى مبنى حكومي ارتداء الحجاب. ثم في 1983، أصبح الحجاب الإلزامي هو القانون.

على مر عدد من السنين، جعلت الحكومة الإسلامية حياة النساء أسوأ فأسوأ. جعل القانون في الجمهورية الإسلامية قيمة حياة المرأة وقيمة شهادتها على أنها نصف قيمة حياة الرجل وشهادته. مُنعت النساء من تولّي القضاء، وذلك بحسب التراث الإسلامي. فُرض فصل الجنسين في الشواطئ، وفي دور السينما، وفي كثير من المساحات العامة، ومنها ملاعب الرياضة. في حكم الشاه، كان قانون الأسرة مبنياً على الشريعة لكنه كان مُصلحاً ليتيح للمرأة حق الطلاق والحفاظ على حضانة الأطفال. بعد الثورة، عكست هذه الإصلاحات. لم يكن التغيير بين ليلة وضحاها، وقد قاومت النساء وناضلن، ولا سيما على قضية الحجاب الإلزامي، التي أصبحت القضية التي تحدد المجرى الذي ستتخذه مسألة حقوق النساء في البلاد.

كان أول عقد من الثورة في إيران صادمًا ومصطبغًا بالدم. أولاً كان الرعب الثوري، إذ أعدم النظام الجديد مئات القادة السياسيين والعسكريين السابقين، وكثير منهم دون محاكمة. استغل الدكتاتور صدام حسين هذه الاضطرابات لغزو إيران. بدأت الحرب بعد أيام من عيد ميلادي الرابع.

حتى مع سقوط القذائف فوق رأسه، استمر النظام في إبادة كل معارضة داخلية، من

المجموعات الإسلامية الماركسية مثل مجاهدي خلق إلى الفدائيين والحزب الشيوعي، حزب توده. شاعت الإعدامات والتصريحات الإكراهية والتعذيب.

لكن الثورة الإسلامية غيرت كذلك في الحياة الريفية. في الحقول، كان النساء والرجال يعملون معاً، وكان النساء، ومنهم أمي وخالاتي وعماتي وأخواتي وبناتهن وبنات عمومي وأخوالي، يشمّرن بناطيلهن إلى الرُكبة ويدخلن في حقول الرز. كُنَّ يرتدين غطاء رأس فضفاضاً، فإذا سقط عن رأس إحداهن، لم يكن أحد يشتكي.

حاول النظام الجديد منع الضحك والتسلية. لمدة من الزمان، مُنِع الشطرنج وموسيقا البوب. كانت المغنيات النساء موضع كراهية خاصة، وغادرت معظم النجمات البلاد – ومنهن هادية ومهستي وسوزان، أو أُجبرن على البقاء بعيداً عن المشهد – القدر الذي أصاب أكبر نجمة بوب في إيران، كوكوش، قبل أن تغادر هي أيضاً البلاد عام 2000. فُصل الجنسان كذلك في حفلات الزفاف، إذ صار الرجال والنساء يقعدون في غرفتين منفصلتين أو في الغرفة نفسها لكن يفصل بينهما حبل وأغطية حتى لا يرى أحد الطرفين الطرف الآخر.

كان ولاء أبي للجمهورية الإسلامية كبيراً. انضم أبي إلى البسيج، وهي مجموعة عسكرية موازيدة كانت قوة أمنية رديفة، وجزءاً من الحرس الثوري الإيراني، المؤسس لحماية النظام. في أول أيام الثورة، كان أبي مع أعضاء آخرين من البسيج يقيمون حواجز في الطرقات لإيقاف السيارات الآتية من بابل وتفتيشها بحثاً عن أشربة موسيقا أو مشروبات كحولية، وكلاهما كان ممنوعاً.

كان أبي يبتهج بتحطيم أشربة الكاسيت، بدهسها أو بكسرهما بيديه. بمزاجه الحاد وطبعه الغاضب، كان معروفاً باسم «البسجي النزق» الذي كان يُعطي الشبان الذين يُمسك بهم محاضرات. عُرف الآغاخان بحماسه في توجيه الشبان إلى حضور صلاة

الجمعة.

لا أتذكر إلا أن كل نساء أسرتي كن ينمن وهن يرتدين حجاباتهن. الكل، ومنهن أُمي وأختي وجدتي، وحتى بنات عمي وبنات أختي. بدا الأمر غريبًا بعد سنوات عندما حاولت أن أشرحه لأصدقائي في طهران، أو حتى بعد ذلك، في لندن ونيويورك. لكن الحقيقة هي أننا كنا نرتدي الحجاب دائمًا، داخل البيت وخارجه. بعد أن كنت أنام مرتديّة حجابي، كنت أتأكد كل يوم عندما أستيقظ من أنه لم يتحرك في الليل، لأن ذلك كان يزعج الآقاجان وكان يعترض عليه.

كان شعري جزءًا من هويتي، لكنه جزء لا تراه. في طفولتي، لم يعد شعري جزءًا من جسدي. لقد اختُطف وحل محله غطاء رأس.

الفصل الثالث

لم يكن في المدرسة شيء صحيح. في الأعوام الثلاثة الأولى، كانت الفصول مرتبة حتى يكون الصبيان في أحد جانبي الغرفة، والبنات في الجانب الآخر. بعد الصف الرابع، يدرس الصبيان في فصول غير التي تُدرس فيها البنات. قبل الذهاب إلى المدرسة، كان عندي حرية التراكض واللعب مع الصبيان والبنات، لكن هذه الحرية توقفت عندما بلغت سبعة أعوام.

عندما يدق جرس الاستراحة، كنا نُسرّع في الخروج من الفصل إلى باحة المدرسة، نصرخ بطاقة مكبوتة وسعادة لكوننا قد تحررنا. كنا نلعب معاً، صبياناً وبنات. كانت حريتنا تستمر دقائق معدودة قبل أن يأتي المشرف مع المسطرة في يده ليصرخ لنا توجيهه اليومي: «البنات... البنات... اركضن إلى مؤخرة الباحة الآن».

كنت أنا أيضاً أنسحب مع بقية البنات، وكنت لا أستطيع إلا أن أحسد الصبيان على حريتهم في الركض والمصارعة والقتال وركل كرة القدم.

غير الذهاب إلى المدرسة لباسي مرة أخرى. كان عليّ أن أرتدي -فوق السترة والبنطال الفضفاض- مغناة: وهي ثوب يغطي الرأس والرقبة، ويشبه لباس الراهبات، يغطي بحزم الجبهة والذقن والرقبة وجزءاً من الصدر كذلك. قبل ذلك، كنت أركض وعلى رأسي غطاء مربوط بحزم بعقدة تحت ذقني ليبقى كل شعري داخلاً فيه. بعد ذلك، في المدرسة المتوسطة، ارتديت المانطو-وهو معطف طويل فضفاض شاحب- فوق تنورة طويلة أو بنطال.

كم كنت أحسد الصبيان، الذين كان لهم تقريباً أن يرددوا أي شيء يريدونه.

في المدرسة، كان المدرسون يكافئوننا بلصاقات لشخصيات كرتونية، على حسن سلوكنا أو

درجاتنا العالية. كانت الشخصيات الكرتونية التلفازية المختارة شائعة في إيران حينئذ: فتاة تُدعى نيل، وحنة في الحقول (أو كاتري فتاة المراعي، كما تُدعى في الغرب) وأليس في بلاد العجائب. كنت أنظر إلى هذه الصور بحسد كبير. البطلات الثلاث بنات شعرهن طويل أشقر ممشط قليلاً أو مربوط بربطة شعر. لم يكن شعرهن حبيس قطعة قماش. كُنَّ ممتلئات بالطاقة-كن يركضن ويلاقين الناس ويصنعن صداقات، وكُنَّ فاعلات وسعيدات. ولم يكن عليهن حجاب. كان لديهن حريات لا أملكها.

إذا كنت أريد أن أكون مثل فتيات الكرتون، كان علي أن أبدأ ثورتي الخاصة.

كان مدرسوننا كلهم ذكوراً، إلا المعلمة زهراء. كانت زهراء مختلفة عن كل النساء اللواتي التقيتهن قبل ذلك. كانت من مدينة كرمان، في جنوب شرق إيران. كانت مذهلة المظهر. كانت تبدو مختلفة عن النساء اللواتي كنت قد التقيتهن من قبل-كانت معانيها أدكن، وكانت ترتدي أغطية رأس ملونة، وتخلع شوذرها داخل غرفة الصف، وتطويه بإتقان على كرسيها. كانت تُظهر للطلاب ودّاً لم نكن نرى شيئاً منه من المدرسين الآخرين الذين كانوا يعتمدون اعتماداً أكبر على الضرب بظهر المسطرة أو العصا. كانت تذهلني وسرعان ما صرت أحلم أن أكون المعلمة معصومة، عندما أكبر.

في شهر رمضان، الذي يصوم فيه المسلمون حول العالم من الفجر إلى المغرب، كان المسجد المحلي يقدم دروس قرآن عند العشاء، وكان الآقاجان يحرص على أخذي أنا وعلي معه. تعلمت قراءة القرآن، بل وتلاوته على نحو منغم. شجّعني أبواي على تطوير هذه الموهبة وكان أملهما أن أصبح قارئة قرآن محترفة.

في سنّ مبكرة، يُلقّن كل الطلاب الهُتاف «الموت لأمريكا»، ولم أكن استثناءً. في مناسبات خاصة، مثل سنوية احتلال السفارة الأمريكية أو سنوية الثورة، كنا نحتشد خارج باحة المدرسة ونهتف، تحت عين المديرية والمدرسين التي تراقبنا: «الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل،

الموت للإنجليز».

لكي أدخل المدرسة المتوسطة، كان علي أن أذهب إلى نوشروان قلا، وهي قرية أكبر، التقيت فيها بنات من قرى أخرى. كانت المدرسة المتوسطة مؤسسة وحيدة الجنس: كان الصبيان يذهبون إلى مدرسة أخرى على بعد كتلة من الأبنية.

في صيف عام 1989، اقتربت من المراهقة، وعندها اعتقدت أن عالمي سينتهي. في السبت، الثالث من يونيو، مات الخميني، مؤسس الثورة الإسلامية والقائد الأعلى لإيران. كان عمره ثمانية وتسعين عامًا، لكن موته مع ذلك كان صدمة كبيرة في البلاد. لقد اعتاد الناس أن يقولوا إن الخميني قد أرسله الله مباشرة لإنقاذ إيران، وقالوا عنه إنه مبارك إلهيًا، وإلا فكيف استطاع خلع الملك ومواجهة الأمريكيان؟ بل قد ادعى بعضهم أنه رأى صورته في القمر. كان الخميني هو القائد الوحيد لإيران الذي كنت أعرفه، شخصية أبوية حازمة لم تغب من حولي. عندما سمعت الأخبار في المدرسة سال الدمع من عيوني إذ أخرجنا قبل انتهاء الحصص. المدرسون والطلاب-كنا جميعًا مصدومين. بكيت كل الطريق إلى البيت وهُرعَت لأخبر أمي، التي كانت قد سمعت الأخبار في الراديو. أتذكر تمامًا أن كل من كنت أعرفه كان يعتقد أن الولايات المتحدة ستهاجم لتحتل البلاد.

«سيأتي الأمريكيان ليسرقوا منا إيران. سيقتلوننا جميعًا».

اعتقدت حقًا أننا سنواجه حربًا أخرى مباشرة. لم يكن خوفًا عقلانيًا، لكنني مثل ملايين الإيرانيين كانت البروباغندا قد غسلت دماغي من محطات التلفاز والراديو. اعتقدت أن الخميني هو الوحيد القوي بما يكفي لمواجهة الرأسماليين الجشعين في الولايات المتحدة. بعد سنوات كثيرة، اكتشفت أن الخميني كان دكتاتورًا بارد القلب أمر بإعدام آلاف الإيرانيين.

لكن في المدرسة المتوسطة كانت همومي مختلفة، كانت همومًا شخصية أكثر-عندما بدأ

جسمي يتغير. ظهرت لدي انحناءات لم تكن موجودة من قبل. كان جسمي يزداد أنوثة، وكانت هذه التطورات تربكني وتخجلني. شعرت بنات كثيرات بالأمر نفسه—لقد تعلّمنا أن نخفي أجسادنا، أن نخفي شكلنا الأنثوي.

في المدرسة الثانوية، أطلقت على ثديي اسم «مدارا الخطيئة». كنت أشعر بالذنب بشأن جسدي. لقد علّمت أن أجساد النساء تشجع الرجال على الخطيئة، لذلك كان علينا إخفاء حنايا أجسادنا تحت الحجاب. كنت أمشي الهوينا، وأجمع ذراعيّ أمام صدري لإخفائه. لم أكن أتكلم عن هذه الأمور طبعًا في المدرسة أو المنزل. عندما جاءني الحيض أول مرة، كنت قد أشرفت على الأربعة عشر. كنت مع أصدقائي وكان علي أن أركض إلى البيت لأخبر أُمي. كنت خائفة وجعلت أعذر منها وأتمنى أن يتوقف الدم. كانت تبتسم، كما لو كان أمرًا يُسعدُها.

ربما كانت تعتقد أنني الآن جاهزة لتزوّجني.

لم تكن أُمي والآقاجان على قدر كبير من التعليم، لكنهما كانا مصممين على ألا يكون أولادهما مثلهما. لم يكن لي خاطبون مناسبون، ومهما يكن من أمر، فقد كانا مصرّين على أن أحصل على شهادة الثانوية. في عامي الرابع عشر كان علي ترك البيت للذهاب إلى المدرسة الثانوية في بابل، وكانت حينئذ مدينة صغيرة يسكنها خمسون ألف نسمة تقريبًا، لكنها كانت عندي أكبر وأعظم مكان أكون فيه.

في الشتاءات، اعتدت أن أستيقظ على رائحة نتانة الأحذية. كان الآقاجان يحضر أحذيتنا من الشرفة قبل الفجر كل يوم. لم يكن يريدنا أن نرتدي أحذية باردة متجمدة. لكن لم يكن عندي إلا حذاء واحد، وكذلك علي، وكنت أنا وهو نرتدي الحذاء نفسه كل اليوم. كان لهما رائحة كريهة. أما لطف أبي اليومي فكان يعني أن تمتلئ الغرفة برائحة الأحذية المقرفة التي اختزنت رائحة العرق من الليلة والنهار السابق.

مع اقتراب الساعة السادسة كانت أمي تهزني هزة لطيفة لأستيقظ.

كانت تقول بصوت كأنها تغني «هيا يا حلوتي، حان وقت التحضر للمدرسة. ابتداء اليوم وأخشى أن يمضي ويتركك». «أسرعي طفلي».

لكن رائحة الأحذية كانت قد أيقظتني من قبل ذلك. كنت دائماً في ذروة نشاطي في الصباحات، ممتلئة بالطاقة. كنت أتعثر في الخارج وأنا أحمل حذائي النتن إلى الشرفة قبل أن أركض إلى المرحاض لأسبق علي. في أوائل الخريف، لم يكن الأمر مشكلة. لكن مع مجيء المطر، أصبح التعثر على الطريق الطيني إلى المرحاض الخارجي مع هطل الأمطار تحدياً. حتى عندما كانت تمطر، كنت أسابق أخي، ولكن المخاطر في هذه الحالة أكبر بكثير. إذا سقطت، فعلي أن أعود وأغير ثيابي، ولن تكون أمي راضية. لكن هذا لم يكن يوقفني.

لم تكن أمي تحب زجري. كان الآغاخان يغادر قبل أن نقوم من نومنا، لكنه كان يقول لأمي أن تحرص على كوننا قد أدينا صلوات الصباح. لم نكن أنا وعلي متحمسين جداً للصلاة. كانت أمي تصلي لكنها لم تكن لتجبرنا على ذلك. أحياناً كان الآغاخان لا يغادر إلى الحقول، بل يبقى لأداء بعض المهام حول المنزل. في تلك الأيام، كنت أشعر لحظة استيقاظي بكون أبي حاضراً. ربما يملك كل الأطفال هذه القوة الحسية الخارقة، أي القدرة على ملاحظة تغير الشحنة الكهربائية في الهواء إذا غاب أحد الأبوين. عندما كان الآغاخان يخرج، كانت الضجة أكبر، والحماسة أكبر، والحياة أكبر—كان علي يمدّ السفرة على الأرض وأنا أساعد في غلي الشاي وتدفئة الخبز. كنت أتشاجر أنا وعلي على سبيل التمثيل ويحاول كل واحد منا أن يخدع الآخر حتى ونحن نسرع لقضاء مهماتنا الصباحية. أما عندما يكون الآقاخان حاضراً، فكنا أكثر حذراً—متخفين في حركاتنا وهادئين في كلامنا.

مع حلول 6:20 تقريباً، كنا نحضر حقائبنا المدرسية ونسرع إلى الباص الذي يمر بقري

أخرى-نوشروان قلا، وإيسبو قلا وحاجي قلا- ثم إلى محطة الباص في بابل. من هنالك كنا نمشي قليلاً حتى نبلغ مدرسة آزرم الثانوية، التي بنيت في ثلاثينيات القرن العشرين. عاشت المدرسة وبقيت، بعد حرب عالمية وثورتين وثلاثة رؤوس للدولة، ولم تزل قوية. أما علي فكان يذهب إلى مدرسة الصبيان التي لم تكن بعيدة جداً كذلك.

أما في رحلة العودة، فكان الطلاب جميعاً، صبياناً وبنات، يجتمعون في فئتين منفصلتين في ساحة قرب مدرستنا، وكنا ننتظر الباص معاً. كان علي يقف مع الصبيان، الذين كانوا يتحادثون ويضحكون بصوت عالٍ وأحياناً يمثلون أنهم يتشاجرون. أما البنات فكان عليهن أن يعطين ظهورهن للطريق وللصبيان، ليواجهن الحائط. كان المنظر غريباً: بنات من كل الأحجام والأشكال يلبسن شواذر سوداء تغطي كل أجسامهن، ولا تُظهر إلا وجوههن، يواجهن الحائط حتى لا يكون بينهن وبين الصبيان أي احتكاك. كنت أحياناً أرى الآقاجان على دراجته النارية متوجهاً إلى البيت. لكنه لم يكن لينظر باتجاهي مطلقاً. كانت الإوزات والدجاجات التي لم يستطع بيعها تمد أعناقها من فتحات التهوية في الصندوق الكرتوني المربوط بالشبكة المعدنية في مؤخرة الدراجة النارية. كان من الطريف مشاهدة الآقاجان يعبر ومعه بعض الطيور الهزيلة تترنح وتهتز خلف ظهره. كان الصبيان يضحكون ويسخرون منه. لم يكن علي يريد أن يريق ماء وجهه أمام أصدقائه، لذلك كان يحافظ على سكوته. لكن عندما أدركت أنهم يضحكون على الآقاجان، اشتعلت غضباً. في المرة التالية التي رأيته فيها متجهاً نحونا، استدرت من الحائط وحدقت بالصبيان، أتحداهم أن يضحكوا على أبي.

لم يضحك أحد في ذلك اليوم. ولم يضحك أحد بعدها وأنا موجودة.

في مساء اليوم نفسه، استدعاني الآقاجان. اعتقدت أنه سيشكرني لأنني دافعت عنه وعن شرف العائلة. كان حرياً بي أن أعلم أن الأمر ليس كذلك.

قال أبي بامتعاض حقيقي: «لماذا لا يمكنك أن تكوني عفيفة وفاضلة مثل بقية الفتيات؟ كل الفتيات كن يواجهن الحائط ولا ينظرن إلى الصبيان، وأنت كنت الوحيدة التي تغازلين».

سألته باستنكار: «أغازل؟ كنت أمنعهم من أن يضحكوا عليك».

لم يقتنع. «إذا خالطت الصبيان، ستجلبين العار لأسرتنا».

استنزف السفر اليومي إلى بابل طاقتي وكنت أمرض كثيراً. كنت نحيلة جداً حتى إن أمي كانت تعتقد أن في بطني دوداً، ولذلك كانت تأخذني إلى الطبيب ليفحصني.

تزوجت أختي مينا رفيق محسن في السلاح رمزون، الذي كان في الحرس الثوري، وعاشا في شقة صغيرة فيها غرفة نوم واحدة في بابل. لتقليص رحلتي اليومية، قرّر أن عليّ أن أسكن معهما وأعود إلى قمي كلا في عطلة نهاية الأسبوع فقط. كان رمزون ومينا ينامان في غرفة النوم، وأنا وطفلاهما ننام على أرضية غرفة المعيشة. كانت هذه أول مرة أكون فيها بعيدة عن البيت، كنت متحمسة جداً. شعرت أنني اقتربت من أن أصبح راشدة كبيرة.

كنت أنا وعلي قارئین نهمين—كنا مدمني كتب حقاً. في المدرسة الثانوية، كان عندي دافع لا يهدأ للقراءة. كنت أقرأ كل شيء من روايات جول فيرن في الخيال العلمي إلى روايات فيكتور هوغو وتشارلز ديكنز—كانت الأنسة هويشام تُشعرني بالقلق والخوف، لكنني قرأت كتاب *آمال* عظيمة مرة بعد مرة. ولم أكن متعلقة بترجمات الروايات الغربية فقط. بل قرأت كذلك الكلاسيكيات الفارسية والروائع الحديثة: رواية *همسايه ها* (الجيران) لأحمد محمود، والمجلدات السبعة لرواية *آتش بدون دود* (نار بلا دخان) للمؤلف نادر إبراهيمي، وأشعار صاحب الأثر الكبير أحمد شاملو، الذي كانت صورته المشرقة للحياة اليومية تقطع أنفاسي.

لم يدفع الآقاجان فلساً من تكلفة كتبي. لم يكن أمامي خيار سوى «تحرير الكتب»—كنت أختلسها من المكتبة العامة وأغير أحياناً على مكتبة المدرسة لكن خياراتي سرعان ما نفدت.

«تحرير» الكتب طبعاً ليس إلا كلمة جميلة تعني «سرقته». كنت أرى في نفسي النسخة الأنثى من روبن هود. بعد أن أنهى قراءة الكتب، كنت دائماً أعطيها لأطفال آخرين من دائرتي. كنت قد أقنعت نفسي أنني لم أكن أسرق، بل أجد قراءاً جددًا للكتب التي كانت تجمع الغبار على الرفوف. لم أكن أحتفظ بأي كتاب من هذه الكتب لنفسِي.

كنت كذلك أزور مكتبات المراكز الإسلامية، التي وجدت فيها تفسيرات علي شريعتي للإسلام الشيعي. شجع شريعتي، صاحب الدكتوراه في علم الاجتماع من السوربون، الأفكار الثورية في الإسلام وكانت له شعبية كبيرة في جيل المراهقين.

أما عندما كنت لا أقرأ، فكنت أخلق المشكلات. لطالما كان صوتي جميلاً، وإذا لم تصدقني فيسعدني أن أغني لك لأثبت الأمر. اختارتني المدرسة لتلاوة القرآن، وكان هذا شرفاً كبيراً. كل عام كانت تجري مسابقات على مستوى إيران لاختيار أفضل قارئ قرآن. وليس في إيران فقط. بل تجري مسابقات دولية يتنافس فيها القراء من مختلف الدول الإسلامية.

في آزم، حُزت شرف أن أكون من أفضل القراء في المدرسة، وهو ما جعل أبي فخوراً جداً طبعاً. كان صوتي موهبة من الله، حسب قوله. كالعادة، كان علي يستفزني، لأنه كان يعرف أنني لست متدينة مطلقاً. كان يمازحني «اليوم تقرئين ماركس، وغداً تقرئين القرآن». «أنت تذهبين وتعودين بين الجنة والنار».

في يوم المسابقة، قعدت متربعة على فرشاة أرضية على المنصة، وفتحت المصحف الواقع أمامي على كرسي صغير، وهيأت الميكروفون. أغمضت عيني وبدأت أرتل آية من القرآن بالعربية، ثم بدلت إلى قراءة قصيدة أسطورية كتبها شاملو بالفارسية.

بدلاً من الآية القرآنية، قرأت:

«يشمّون فمك

ليروا هل قلت: أحبّك!

يشمّون قلبك!

إنه زمن عجيب، عزيزي.»

مع تردّد صوتي في القاعة، كان الأثر مثيراً جداً. بدأ الطلاب يصرخون ويصيحون ويصفقون ويصفّرون بهجّة. كنت أهز قبضتي في الهواء لأعبر عن القصيدة. أطفأ أحد المدرسين المسؤولين الميكروفون ليسكتني. لم يردعني الأمر، إذ قمت ومضيت في إلقاء بقية القصيدة.

«لا بد أن نخفي مشاعرنا في خزائن مظلمة!»

ركض أستاذان إلى المنصة، وأمسكني كل واحد من يد وشدّاني. حتى وهما يشدّانني، استمرّ إلقائي للقصيدة مع انفجار التشجيع الصارخ من حولي. صرخت بالبيت الأخير بصوت عالٍ فعلاً:

«لا بد أن نخفي إلها في خزائن مظلمة.»

وَبَخْتُ على إلقاء الشعر غير المعلّن ولا المرغوب. كانت هذه نهاية كل الخطط لجعلي قارئة قرآن.

كنت قد عشت مع أختي في بابل نحو عام قبل أن أقرر أنني لا أريد ارتداء الشوذر. كانت نساء القرية ترتديه، أما فتيات المدينة، مع التزامهن بقوانين الحجاب الإلزامي، فلم يكنّ محافظات كثيراً. أردت أن أكون حديثة، ولكن الأمر أخذ بعض الوقت لبناء ما يكفي من الشجاعة. في عيد ميلادي السادس عشر تقريباً تخلّيت عن الشوذر. كنت أغادر بيت مينا وأنا أرتديه، ولكنني كنت عند أول زاوية أخلعه وأضعه في حقيبة ظهري. كنت مع هذا مغطّاة من الرأس إلى أصابع القدمين—أرتدي المغناة والحجاب؛ والروبوش، وهو فستان

طويل الأكمام، فوق قميصي وبنطالي؛ والمانطو. كنت أضع الشوذر مرة أخرى في طريق العودة عندما أقترّب من بيت مينا. مع هذا كنت أخشى أن مينا ورمزون لن يتقبلاني دون شوذري. معظم الفتيات في أزم يرتدين الشوذر، ولكن هذا لأن المدرسة كانت تدرّس أبناء أسر تقليدية جدًّا. كانت حريتي في المراهقة مخفية. كنت أقضي نهايات الأسبوع في قمي كلا وأرتدي شوذري كلما غادرت المنزل.

طبعًا، كما يقتضي الحظ، اكتُشف أمري بأسوأ طريقة ممكنة. ذات ظهيرة وأنا عائدة إلى بيت مينا، واجهت الآقاجان، آخر شخص أتوقعه. كالعادة، كنت في أحلام يقظتي ولم أكن متنبهة كثيرًا إلى محيطي. ظننت أنني آمنة، لأن الآقاجان لم يكن يقترب من مدرستي الثانوية، بل يفضل أن يبيع في زاوية الشارع قرب محطة الباص المركزية، لكنه كان هنا هذه المرة، منحنيًا على دراجته النارية، يربط بصبر سلكًا حول صندوقه الكرتوني، الذي كانت عدة إوزات تمدّ رأسها منه بفضول. تعثّرت بأقدامي عندما رأيته. هنالك نظر الآقاجان وثبتت عيناه. بل اتسعت عيناه إلى أن ظننت أنهما ستخرجان من رأسه. في خطوتين فقط، صار إلى جانبي. كان كالبرج فوق.

«أين شوذرك؟»

«في حقيبة ظهري».

قال متعجّلًا: «ارتديه. لماذا تأتين بالعار لي ولأسرتك؟»

قلّت، وأنا أتعجب من شجاعتي: «لن أرتدي الشوذر أبدًا». على مر السنين، أدركت أنني عندما يصرخ علي أحد ويحاول أن يتنمر، فإنني دائمًا أواجهه. «ليس في شيء يأتي بالعار. أنا مغطاة تمامًا. الأمر أنني لا أريد أن أرتدي الشوذر فقط».

تفل الآقاجان، وقد ضاعت الكلمات منه: «أخزاك الله! إن خطاياك تجعل الشيطان يخجل». كانت هذه شتيمة المفضلة. ثم استدار وقعد على دراجته. «لقد أحللت العار عليّ، وأحللت

العار على أمك. لقد دمّرت سمعتنا».

بركلة جبّارة، أشعل أبي دراجته النارية وانضم إلى تدفق السيارات. فاجأني ردّه وأذاني. كنت أرى أن الشوذر شيء ارتدته نساء جيل أمي، أما أنا فأريد أن أكون فتاة حضرية حديثة. مشيت باكية إلى بيت مينا. لم أتوقع كثيرًا من الدعم هناك، لكن لم يكن لدي مكان آخر ألجأ إليه. لم أضع الشوذر في عودتي هذه المرة. قعدت في المطبخ ونحبتُ باكيةً.

قلتُ، وأنا أنزع حجابي: «لا أريد أن أكون مثل الفتيات الأخريات في قمي كلا؛ حتى ارتداء هذا الحجاب ليس برضاي. ليس للفتيات أي سبيل إلى التمتع. لا سباحة، ولا ركض، ولا فعل أي شيء، مخافة أن يُثار الصبيان».

كانت مينا ترتدي الشوذر دائماً، لكنها كانت تستطيع أن ترى أنني مختلفة عنها. في ذلك اليوم، عندما عاد رمزون، أخبرته مينا بما جرى. وممّا فاجأني أنه تعاطف مع آرائي.

قال رمزون: «معصومة عفيفة، وستعود إلى صوابها في الوقت المناسب. سأتحدث إلى الآقاجان».

منذ ذلك الحين، أقلعت عن ارتداء الشوذر في بابل عندما لا أريد ارتدائه. انقطعت زياراتي إلى قمي كلا أكثر من شهرين. أخيراً، أرسل الآقاجان أنه مستعد لرؤيتي من جديد. لكنه لم يسامحني قط. لقد خُنت الإسلام. أما إيمان أمي فكان أقرب إلى المرونة.

قالت أمي دفاعاً عني في أول زيارة زرتها: «لن يجعل الشوذر معصومة وليّة من الأولياء. الباطن هو المهم، ومعصومتنا فتاة صالحة»، ثم أتبعته: «هي تذهب إلى بابل، وفي المدينة تختلف عاداتهم عن عاداتنا. تريد معصومة أن تكون وترتدي مثلهم هناك. عندما تتزوج وتقوم على بيت بنفسها، ستلبس الشوذر لأنها ستحترم زوجها».

لم أكن يوماً مهتمة جداً بالدين. كل أسبوع في مدرسة آزرم، كان يأتي فقيه ليؤم صلاة

الجمعة. أتذكر أنني كنت قد كونت عصابة عندما بلغت السادسة عشر، مجموعة من أصحاب المشكلات الذين كانوا يُحتَجَزون دائماً. كثيراً ما استُدعي أبائنا إلى المدرسة ليلتقوا بالمديرة أو المرشد الديني. كان من حيلنا أن نضع آنية من الماء على حافة النافذة العلوية في مدخل المدرسة، فإذا وصل الفقيه دفعنا الآنية أملين أن يقع واحد منها فوق رأسه. ثم كنا نركض بأقصى سرعتنا من النافذة إلى الدرج، ونحن ننفجر ضحكاً. كان يأتينا صوت انكسار الآنية وانسكاب الماء من الأرض. بعد عدة أسابيع، رفض الفقيه المجيء إلى المدرسة، وهكذا أعفينا من أداء صلاة الجمعة لبعض الوقت.

كانت سلطات المدرسة تعرف دائماً أنني أنا المدانة في هذه المقالب، وكانوا يستدعون أمي المسكينة، التي كان عليها أن تجلس في غرفة المديرة لتستمع إلى سرد جرائمي. كانت الفكرة الضمنية من كل ذلك أنها أم سيئة لأنها لم تستطع تربيتي على النحو الصحيح. كانت أمي تعتذر عن مشكلاتي. وبعد هذه الاجتماعات كنت أعد ألا أسوء التصرف، وكثيراً ما كنت أفي بوعدتي. لمدة قصيرة من الزمن، على الأقل.

كانت باحة أزرم ضخمة، وكان من تصرفاتي الثورية الصغيرة أن أكتب شعارات سياسية تطالب بالحرية والديمقراطية على جدران المدرسة. مرة أخرى، استُدعيت أمي لتعتذر عني. أما في الوقت الذي كنت فيه لا أكسر شيئاً ولا أكتب شيئاً على جدران المدرسة، فكنت أشاغب في الصف. كنت أسمى الأمر طرح أسئلة، لكن أسأتذتي كان لهم رأي آخر. كان يزعجني بالتحديد اختلاف المعايير المطبقة على الصبيان عن المطبقة على الفتيات.

سألت في يوم من الأيام: «لماذا على الفتيات أن يكنّ خاضعات هكذا؟ لماذا علينا أن نرتدي الحجاب؟ لماذا لا يتحجب الرجال أيضاً؟»

قال المدرس: «المرأة المطيعة تُحلّ السلام والازدهار في البيت وتتيح للرجال أن يكونوا منتجين». كان هذا هو الرد المعياري، ولم يكن يجدي نفعاً لإرضائي. لم أكن أحب قوانين

الحجاب الإجباري، وبدا لي أن هذه القوانين مصممة لتنفع الرجال.

رددت عليه: «إذا كان الحجاب شيئاً صالحاً، فعلى الرجال أيضاً أن يلبسوه. بعض الرجال قبيحون جداً عليهم أن يتحجبوا لحمايتنا نحن النساء».

ولأجل سخريتي الذكية، أرسلت إلى مكتب المديرية.

أحببت تحدي أساتذتي المتدينين جداً. في الإسلام تركيز كبير على وحدة الله. لا إله إلا الله، هكذا يقول المسلمون في الصلاة. مرّة من المرات جادلت أنه إذا كان وجود إله واحد جيداً، فالأولى أن وجود اثنين أفضل، لأن هذا سيقول احتمال أن يخطئ الله ويرسل زلزالاً أو طوفاناً لقتل أفقر الناس على الكوكب. كما لك أن تتخيل الآن، لم أكن أتودد إلى أساتذتي مطلقاً.

مرّة أخرى، عندما جاءت مدرسة ديانة جديدة إلى المدرسة، رفعت يدي ببراءة وأنا قريبة من مؤخرة الفصل.

سألتها: «ألا تتفقين أن في الكون نظاماً ثابتاً؟»

وافقت.

فمضيت: «إذن بالمنطق نفسه، لا بد أن مدرستنا وفصلنا فيه نظام ثابت أيضاً».

قالت: «تماماً»، لتشجعني على المضي. أما الطلاب فكانوا يعلمون أكثر منها. سكتوا جميعاً، منتظرين مني فتيلة الشر.

«إن وجود النظام يقتضي وجود خالق، كما أن لهذه المدرسة وهذه الفصول معمارياً».

هزّت برأسها لتُظهر التقدير: «تماماً تماماً، لا بد من وجود خالق. الخالق حق. انظري حولك وسترين الآيات في كل مكان».

«الأرض، هذا الكوكب، والناس جميعاً، والحيوانات، والنباتات- كل شيء له خالق أيضاً».

«أصبتِ. إنه الله الذي خلق كل شيء».

«حسنٌ إذن، فمن خلق الله؟ من يخلق الخالق؟»

ضحكت بعض الفتيات.

أدركت المدرسة متأخرة أنني ربما لم أكن بريئة جداً.

«ماذا؟ أيها المغفلة الحمقاء! لا أحد يخلق الله».

كنت في قمة استمتاعي. «بل أنت المخطئة. نحن البشر خلقنا الله. لم يكن لدينا خيار سوى أن نخلق الله».

قالت بغضب: «ليس للعقل الإنساني أن يفهم عظمة الله. لا تظني أنك إذا قرأت بعض الكتب من أمريكا أو ألمانيا أو فرنسا أو روسيا، وقرأت فيها أن الله غير موجود، أن هذا يجعلك ذكية. أنت لا تعرفين شيئاً».

عرفت أن أمامي احتجاجاً آخر وأن المدرسة كانت ستستدعي أمي مرة أخرى. حين أتذكر الأمر الآن، لم تزل تزعجني ذكرى ذلك اليوم.

هنا نفذ صبر مديرة المدرسة عليّ. لم يكن أمامي إلا سنة أخرى في المدرسة الثانوية، لكن كيل المدرسين طفح مني. كانت القشة التي قسمت ظهر البعير هي شكوى صاحب المكتبة من أنني سرقت منه. نعم، هنا كنت قد بدأت قراءة كتاب إبراهيمي نار بلا دخان. كنت قد حررت المجلد الأول من المكتبة. عندما عدت لآخذ الثاني، كان مالك المكتبة ينتظرني. كان مشهداً محرّجاً حقاً، ولذلك اشتكى إلى مديرة المدرسة. تلقّيت توبيخاً. لم أكن أحب السرقة، لكننا لم نكن نملك المال، هكذا قلت في نفسي.

في نهاية صيف ذلك العام، عندما ذهبت لأسجل لمواد العام الأخير، أرسلت إلى مكتب المديرية. أعطتني أمينة السر ظرفاً لأوصله إلى أهلي. بطبيعة الحال، فتحت الظرف. كانت الرسالة تقول إنني مطرودة من المدرسة وإن على أبوي أن يراجعا هيئة التربية في بابل في اليوم التالي لمناقشة حالتي.

قرأت الرسالة مرة بعد أخرى، لكن آفاقي بدت كئيبة ولم أجد أي منفذ للأمل فيها. انطفأ كل ما كان في من حماسة وتوهج، وانفجرت بالبكاء في المكتب أمام أمينة السر. رأيت المديرية وتوسلت إليها أن تعطيني فرصة أخرى واحدة فقط. لم أكن أعتقد أن عبثي في المراهقة سيؤدي إلى هذه النهاية الفظيعة. تدفقت سيول من الدموع من عيني، لكن شيئاً لم يؤثر في المديرية. لقد طُردت. لم يكن لدي فكرة كيف يمكن أن أخبر أبوي. كنت أعلم أن الآقاجان سيكون غاضباً جداً، لكنني كنت متوترة أكثر من ردة فعل أمي.

كانت في المطبخ تخبز الخبز فوق الفرن المفتوح. بنظرة واحدة على عيوني الدامعة ووجهي المنتفخ وأنفي السيال عرفت أن خطباً ما حلّ بي.

سألتني: «هل رسبت في الاختبارات النهائية؟ يمكنك أن تجري اختبارات تعويضية».

قلت دون تفكير: «لقد طُردت. وعلينا أن نراجع هيئة التربية. لقد طُردت لأنني فقيرة».

بين الدموع والانتحابات، وعدت ألا أسرق الكتب من جديد، وأن أحسن السلوك في العام النهائي. كانت أمي دائماً في صفّي. كثيراً ما كنت أقع في مشكلات وكثيراً ما كنت أخذلها، لكنها كانت رغم كل شيء دائماً تسامحني في النهاية. لم تعجبها فكرة الذهاب إلى بيروقراطي هيئة التربية. كانت تعتقد أن في إمكانها إقناع المديرية بمنحي فرصة أخيرة.

في اليوم التالي، أخذنا الباص إلى بابل واتجهنا مباشرة إلى آزرم.

قالت أمي متوشحة بشوذرها الأسود، وعلى عيونها نظارات بلاستيكية الإطار تغطي نصف

وجهها: «لقد رأوني كثيراً في السنوات الماضية، لا شك أنهم لأجلي سيمنحونك فرصة أخرى». في القرية، لا يريد أحد أن يخلق عداوة أو شحناء، ويتعلم الناس المسامحة والنسيان لأجل التعايش. كانت أُمي تعتقد أن العقلية نفسها موجودة في بابل.

لم تغير المديرية رأيها. في الحقيقة، كان الاجتماع سريعاً جداً. لم ندخل إلا قليلاً تلك الغرفة التي قضيت فيها ساعات وأنا ألتقي المحاضرات بشأن تقصيري، ثم قالت المديرية إن ملفي أُرسِل إلى هيئة التربية والأمر خرج عن يديها. قالت إنها آسفة. لكن مظهر الأسف لم يبد عليها. لقد أصبح مستقبلي في يد الهيئة.

خرجنا دون مراسم وداع. لقد كنت مصدراً دائماً للمشكلات، هكذا قالت المديرية ونحن نغادر، أما الآن فسأصبح مصدراً لوجع رأس شخص آخر. أشفقت على أُمي. كانت امرأة بسيطة جاءت بنية حسنة لطلب معروف بسيط، وها هي تُطرد خالية الوفاض.

قلت لها: «أعدك أن أحسن سلوكي». كان هناك احتمال أن أُمْنَع من التسجيل في أي مدرسة وأن أُحرَم من الحصول على شهادتي في العام التالي. إذا حدث هذا فسأكون فشلاً. كانت أُمي غارقة في فكرها، ربما خائفة من مواجهة مسؤولي هيئة التربية. لم تكن متعلمة ولم تكن طليقة بالفارسية. مع كل خطوة، شعرت بمزيد من الإشفاق على نفسي، ورجوت في قرارة نفسي أن يكون بعض أصدقائي قد طُردن كذلك حتى لا أكون وحدي أمام هذا القدر.

كان مقر هيئة التربية مبنى منخفضاً بلون أسمر في شارع مزدحم وسط بابل. كانت السيارات والدراجات النارية تتحرك من حوله وهي تطلق زماميرها. لم ننتظر كثيراً في منطقة الاستقبال قبل أن نُرسَل للقاء المسؤول الذي كان ملفي في يده. كان في ثلاثينياته، وكان ضخم الجثة يرتدي نظارات معدنية الإطار وله لحية سوداء مشدبة. قام الرجل من كرسيه خلف مكتبه ونحن نمشي إليه، وحنى رأسه متصنعاً، وأشار إلى كرسيين خشبيين صلبين الظهر، موضوعين أمامه، ثم عاد إلى ملف مفتوح كان يقلب فيه على مكتبه. كانت

الغرفة مضيئة ومهوّاة؛ وكانت أصوات الشارع تتسرب من النافذة نصف المفتوحة. لكن الغرفة كان فيها شيء من رائحة جسم وتبغ.

لم يمض وقت كبير قبل أن يدخل رجل مسنّ قصير حاملاً صينيّة فيها ثلاثة كؤوس شاي وإناء من مكعبات السكر. برقيّ وأناقة، وضع الرجل الشاي أمامنا وانسحب بهدوء. عندها أغلق المسؤول الملف أمامه. ثم أخرج قلمًا وكتب بضع ملاحظات على دفتر أمامه قبل أن ينظر إلينا، كما لو كان قد انتبه إلى وجودنا الآن.

ابتسم لأمي، التي كانت متوشحة بشوذرها بإحكام. حدّقتُ بالرجل، أسألت نفسي عن الإهانة الجديدة التي تنتظرني.

قال المسؤول لأمي، وهو ينحني برأسه علامة على الاحترام: «أرى أنك امرأة صالحة تقية. أنا في خدمتك».

قالت أُمي: «نحن أسرة ثورية، ونحن صالحون، ونحن أسرة أراقت من دمائها في الحرب. لقد دافعنا عن الثورة. لماذا طردتم ابنتي؟».

حدّق الرجل فيّ وقال: «لا بد أنها مصدر للعار لأسرة ثورية مثل أسرتك. إن ملفها مليء بسوء السلوك الذي كان ينبغي أن يصحّح منذ سنوات».

كان مضمون كلامه واضحًا: لقد أخفق والداي في تربيّتي على النهج الصحيح. لم يكن عنده وقت أو تقدير للتفاصيل الدقيقة في تصرفاتي السيئة. لكنه إن كان يظن أنه قد أخاف أُمي، فلا شك أنه كان مخطئًا جدًّا.

قالت أُمي بهدوء: «أنا فلاحه بسيطة، في مزرعتنا أهتم بشجر التفاح. عندما تمتلئ شجرة بثمار التفاح وأجد أن تفاحاتها لذیذة وغمضة، فإن هذه الشجرة لا تقلقني». كانت هادئة جدًّا إلى درجة أن المسؤول استند إلى مكتبه إلى الأمام ليرى كلامها.

ثم مضت، بعد أن ضببطت جلستها: «لكن أحياناً يصيب الشجرة فساد أو يدخل الدود في التفاح. هذه الشجرة هي التي تحتاج إلى التربية والحب. أنا لا أقطع الأشجار المريضة، بل أقضي في عنايتها وقتاً أطول حتى أسترجعها إلى صحتها».

ثم أحكمت نظرها إليه وقالت: «أنت أيضاً بستانيّ. هؤلاء الأطفال مسؤوليتك. فأما الذين يؤدون واجباتهم ولا يسببون مشكلات، فهؤلاء الذين يسهل تعليمهم. هؤلاء لا يحتاجون إلى اهتمام خاص، وليس لك أجر عند الله في تعليمهم».

أصابتنى الصدمة أنا والمسؤول من دفاع أُمي القوي.

ثم قالت وأشارت إليّ، كما لو كانت تقدّمني: «والآن أمامك معصومتي. هذه كالشجرة التي أصابها الفساد. لدي ابنان متدينان شاركوا في الحرب. لقد تخرّج الاثنان من الجامعة». وضعت أُمي مكعبات السكر في الشاي وحركتها. «أولئك ليس عليك أن توجههم إلى البقاء على السراط المستقيم. التحدي الحقيقي هو تربية معصومة وضمان أن تبقى على هذا السراط».

ثم رجعت إلى الورا لتلتقط نفسها. لم أكن قد رأيته من قبل تتكلم هكذا. حدّقت فيها كما لو كنت ألتقي بامرأة جديدة. أذهلتني.

«الآن، إيمانها ضعيف؛ تشك في كل شيء. نعم، تشك بالله وبالقرآن ولا تصلي ولا تصوم، لكن هذا هو السبب تحديداً لحاجتها إلى المساعدة».

توقفت أُمي وأخذت رشفة من الشاي.

حاول المسؤول استعادة السيطرة: «أيّها الأم القديرة...»

لكن أُمي لم تقبل أن تُرفَض.

جعلت تؤنّبه: «بدلاً من أن تربّوا ابنتي، تخليت عنهما. كان أحرى بكم أن تساعدوها على إيجاد الإجابات بدلاً من طردها. لقد خذلتموها وخذلتُموني أنا أيضاً».

رجع المسؤول في كرسيه كما لو كان قد تلقّى صفعه على وجهه. لقد خسر هالته المتعالية وصار ينظر إلى أمي باحترام حقيقي. ثم نقر على الدفتر أمامه بضع نقرات بالقلم.

قال المسؤول بصوت يبدو عليه الندم: «لقد التقيت مئات الناس الذين هم أكثر تعليماً منك، لكنهم لم يملكوا عُشر ما تملكينه من الفطرة السليمة. لقد وضعت إصبعك على المشكلة تماماً. إن ما قلته لا يمكن تعليمه. أنتِ ترين بعين قلبك». ثم نظر إلى ملاحظاته. «علينا أن نساعد معصومة. علينا أن نربي جيل الشباب. لأجل ذلك قامت ثورتنا».

بدا وكأن طاقة جديدة قد دبّت في جسده. «إن ابنتك... لتحدّ، وأمامي ملفها الكامل هنا». ابتسم الرجل ووضع يده على المجلد أمامه. «لكن واجبنا هو أن نساعدوها على تجاوز شكوكها».

ثم انتظرنا فيما كتب هو رسالة توجهني للتسجيل في مدرسة حوريات، وهي أرقى مدرسة ثانوية في بابل. كان طريفاً كيف انقلب عالمي رأساً على عقب. قبل يوم واحد، ظننت أن الطرد كان سيخزي أسرتي، لكن اليوم صرت في قمة الدنيا، متوجهة إلى أفضل مدارس بابل. حتى في تلك اللحظة، كان في ذهني أفكار شريرة: لو كنت أعلم أنني سأعامل هكذا، لربما كان علي أن أطرده من قبل. لكن ذلك اليوم كان يوم أمي. لقد كان انتصارها.

الفصل الرابع

عوملت أمي معاملة الأبطال لدى عودتنا. وحق لها ذلك. أمي التي لم يزد طولها على خمسة أقدام ولم تكن تحسن القراءة ولا الكتابة، تفوقت على متعجرفي الحكومة وبيروقراطيينها من المدينة الكبيرة. لم يلبث الجيران والأصدقاء والأقارب أن أتوا ليشربوا الشاي المحلى ويطقطقوا بذور عباد الشمس ويسمعوا بطولتها وتفوقها على النظام-قدرتها على إعادتي لا إلى النظام التعليمي فقط، بل وإلى مدرسة حوريات، في منطقة فاخرة من المدينة، في حي باغ فردوس. حتى في قمي كلا، كان الناس قد سمعوا بباغ فردوس، الساحة الفاخرة التي تنتصب نافورة في وسطها وتحيط بها حديقة ورود غناء.

جعل زوارنا يهزون رؤوسهم عجباً فيما كنت أتنافس مع أمي لقص الحكاية؛ كان الأمر كما لو أجرت أمي معجزة صغرى. أعتقد أنني حينها أدركت مدى سوء سمعتي. في طريق المغادرة قدّم بعض الضيوف لي كلمات حكيمة، من قبيل: الآن وقد أتاحت لك فرصة ثانية لتثبتي نفسك...، و: أتمنى ألا تتسلقي الأشجار في باغ فردوس، أو السيدات لا يحملن مشارط تحت شواندرهن.

عجيب كيف لا ينفك الناس يذكرونني بتصرفاتي السيئة. نعم حملت مرة مشروطاً، لكنه كان لحمايتي من صبيان قالوا أشياء فاحشة. وقد هدّدت صبيّاً مرة بمشرطي فعلاً، لكنني لم ألمسه قط. كنت ممتلئة بالفخر بأمي في ذلك اليوم، ولذلك عاهدت نفسي أن أحافظ على أفضل سلوك. لقد ولّت أيام المشارط.

الحقيقة أنه مع مضي آخر أيام الصيف، كنت أزداد قلقاً يوماً بعد يوم. كان الأمر كما لو أن في بطني دَبّاً، يخمش بمخالبه جسمي من الداخل. فكرة أن عليّ كبت عاداتي المشاكسة كانت غريبة جداً عليّ. أقول مرةً إنني سأستطيع تسلق الأشجار ولن يوقفني أحد، ثم

تصيبني في الدقيقة التالية نوبة هلع، إذ أفكر في ظنّ أصدقائي الجدد بي. لأثبت الأمر، كنت أتسلق الأشجار في بستاننا كل يوم، وأخذ معي عادةً كتابًا لأقرأ فيه وأنا أقعد متقلقلة على أطول فرع للشجرة، لكن الأمر كان خاليًا من المتعة. هذه أول مرة يأتي فيها اليوم الأول في المدرسة وأكون متوترة.

بدأ اليوم قبل المدرسة، وانتقلت إلى بيت أختي مينا من جديد. تقلبت كل الليل، ومع أول إرهاصات الفجر، حين كانت السماء تتلون بالوردي، قُمت وبدأت أتحرك. كان أول شيء في يومي أن أستحم—كانت هذه الطريقة الوحيدة لدي لأهذب شعري الأشعث، الذي كان اليوم دونًا عن كل يوم مجعدًا على نحو لا يُطاق. لففت على رأسي منشفة، وارتديت بنطالي الفضفاض الأسود، وقميصًا خفيفًا؛ وروبوشًا، يبلغ إلى ما دون ركبتيّ، ثم المغناة. كنت أتحرك بصعوبة مع كل هذه الثياب. لكنني لم أرتد الشوزر.

ضغطت نفسي لأدخل في الباص، الذي كان ممتلئًا أكثر من العادة بكل الطلاب الذين يذهبون إلى مدارسهم المختلفة. كان أول يوم في المدرسة أسوأ يوم، لسبب ما. كان الأطفال كلهم يتحدثون بصوت عالٍ وجامح، أما الناس العاديون فكانوا مكتئبين. أو هكذا بدا الأمر لي على الأقل. كنت متنشّطة كالعادة، وأردت أن أغني بصوت عالٍ أو أن أصرخ بجموح، لكنني لو فعلت لبلغ أحد شرطة الأخلاق عني وأدخلني في مشكلة من جديد. كنا نرى شرطة الأخلاق في زوايا الشوارع، يطالبون النساء بإصلاح حجاباتهن أو يسائلون الشركاء إن كانوا أقرباء أو متزوجين. لطالما أوقفونا أنا وعلي في بابل، وكان علينا أن نثبت لهم أننا حقًا أخ وأخت. للإنصاف، لم يكن يظهر علينا أننا قريبان. كانت بشرة علي ضاربة إلى البياض، وكان شعره مرسلاً، أما أنا فكانت بشرتي داكنة وشعري أجعد. في مرة من المرات فُرق ما بيننا ووُبّخنا على علاقتنا.

سأل عليّ مستهزئًا: «أتظن أنني أريد أن أتزوجها؟ ما كنت لأختارها، لكن لا خيار لي. هي أختي». حتى مع هذا، كان علينا أن نجيب عن أسئلة بشأن الآقاجان وغيره من الأقرباء

لشرطة الأخلاق حتى يتركونا وشأننا.

زحف الباص في الطريق، الذي كان ممتلئًا بالسيارات والدراجات، وحتى بعربات الأحصنة القديمة. في كل مكان تنظر إليه كنت ترى الطلاب يتحركون ويتعرجون ليتجاوز بعضهم بعضًا. مع تقدم الباص وتزميز السيارات بلا توقف، احتويت حماستي بصعوبة لذهابي إلى المدرسة الجديدة. قفزت من الباص قبل محطتي بمسافة جيدة وصعدت الهضبة إلى حوريات.

كان الوقت باكرًا، لكن الجو كان ساخنًا فعلًا، وحتى الممشى الجانبي المزدحم كان يشع حرارة. كان علي أن أمشي بسرعة كبيرة، وحين وصلت إلى المدرسة كنت ألهث وأتنفس بصعوبة. كان وجهي قد تلوّن بلون الشوندر وكنت أسبح بعريقي. كانت قوانين الحجاب الإلزامي مصدر إزعاج كبير لي ولكل النساء. كنا نرى ظلمًا كبيرًا في أن يمشي الصبيان والرجال بالقمصان الخفيفة أو قصيرة الأكمام.

وقفت في زاوية ما وراقبت بيئتي الجديدة مع وصول مزيد ومزيد من الفتيات. شعرت أنني ضائعة وصغيرة، لكنني تذكرت مقدار فخر أُمِّي حين أتاحت لي هذه الفرصة. أسرعت ومشيت إلى البوابة.

كان بناء حوريات بناءً صغير الحجم حديثًا، ليس فيه إلا طابقًا، وكان اسم المدرسة مكتوبًا بحروف كبيرة بيضاء في المدخل الأمامي. يحيط بالمدرسة حائط طويل، ليس فيه إلا باب معدني. وراء الجدار، كانت باحة المدرسة تبلغ ثلث حجم باحة آزرم. نعم كنت قد وعدت ألا أشاكس، لكن صغر حجم الباحة أحبطني، إذ ليس فيه أماكن كثيرة للاختباء والمشاكسة.

كنت أفقد شيئًا ما. لم أنتبه إلا بعد مدة من تأملي في بيئتي الجديدة. ثم وجدتها. رائحة الفقر. كانت آزرم مليئة بالأطفال أمثالي، أبناء الفلاحين أو العمال الفقراء، لا يرتدون تقريبًا إلا ما يعطيه لهم إخوتهم الكبار مما لم يعد يناسب مقاسهم، أو الثياب المستعملة. كنا

نرتدي جميعاً ألبسة متشابهة لأن هذا هو ما كنا نستطيع شراءه. في آزرم، كانت المدرسة دائماً خاضعة لأعمال بناء وإصلاح، ولذلك كنت تجد دائماً فيها الغبار والتراب ورائحة الإسمنت. الآن أرى حشداً مختلفاً من المراهقين، معظمهم بلا شوزر، ويرتدين معاطف طويلة فوق البناتيل. في البوابة، كان أحد المدرسين يقوم بعمل الحارس، ويفتش عن المكياج والحلي. لم يكن هذا مثل آزرم، التي كانت معظم البنات فيها ترتدي الشوزر وكُنَّ يفتشن بحثاً عن أي علامة لطلاء الأظافر أو حُمرَة الشفاه.

لم أشعر بالأمر حينها، لكن حوريات حررتني من غضب المراهقة. لقد أُخرجت من حوض آزرم الصغير، الذي كنت أشعر فيه بالاختناق، ورُميت في حوض أكبر. لا من حيث الحجم بل من حيث التوقعات. كان الجو أقرب إلى الحرية، ولم يكن ترك خصلتين من الشعر خارج الحجاب مسألة تستحق العقاب. كان لي أن أجري مع زميلاتي وأُسرهن نقاشات سياسية، وكانوا أكثر اطلاعاً ومطالعةً من الناس في قمي كلا. عندما دعّنتني إحدى صديقاتي الجديديات إلى منزلها، صدمني وجود مجموعة من ورق اللعب على طاولة غرفة العشاء. لقد تربيت على أن ورق اللعب هو القمار وأن ذلك حرام في الإسلام. هنا اكتشفت نمط حياة مختلف بزيارة بيوت صديقاتي الجدد. في حوريات وجدت كذلك أن في الحياة الكثير الذي يمكن استكشافه خارج أغلفة الكتب. أولاً، لم تكن كل صديقاتي الجديديات مهتمات بالمطالعة أو مناقشة الأفكار. كُنَّ أكثر اهتماماً بإقامة الترتيبات السرية ليواعدن أصحابهن من الصبيان، وبصناعة خطط الزواج.

في الأسبوع الأول، صادقت ميسا، وهي فتاة صغيرة الجسم وجميلة جداً، كانت ضحكتها السهلة وعيونها العسلية سبباً جعل الخطّابين يصطفّون لأجلها في طوابير. كان قد وُعد ابن عم بعيد لها أن تكون زوجته، ولكنها كانت تواعد صديقاً سرّياً، اسمه ماجد، وكان أكبر منها بعدة أعوام وقد أكمل نصف طريقه في جامعة محلية.

في آزرم، شننت حملة على الصبيان، بل وأسست عصابتي الخاصة -الغادفلي- التي ليس

للفتاة أن تنضم إليها إلا بشتم الصبيان. أما هنا فكان الوضع مختلفاً. كانت الفتيات جميعاً مهتمّات بالارتباط والزواج. كان لدي الكثير لأتعلّمه. عندما طلبت مني ميسا أن أرافقها في التسوق بعد المدرسة، وافقت مباشرة. لم يكن لدي أي مال، لكنني أردت أن أرى كيف يتسوق نصفي الآخر. كان قرب البلازا في باغي فردوس مجمع تجاري، لم يكن بيننا وبينه إلا قليل من المشي.

لم تكن ميسا تريد شراء شيء لنفسها. قالت بخَفَر: «أريد أن أشتري له غسولاً لما بعد الحلاقة». كانت تريد هدية لماجد. «إنها لعيد ميلاده».

كنتُ أقرب إلى الشك: «ستشتري هدية؟ لصاحبك؟ في عيد ميلاده؟». أن تشتري فتاة بجمال ميسا هدية لصبي، كان هذا أقرب ما يكون إلى الخطيئة عندي. ثمّ ما هو هذا الغسول بعد الحلاقة؟ لم أشتري في حياتي كلها هدية لأحد، مطلقاً.

قالت وهي تضحك: «أريد أن أشتري له شيئاً».

سألتها بإصرار: «لكن لماذا؟».

كرّرت مرة أخرى: «إنه عيد ميلاده». ونظرت إليّ بحاجب مرفوع يشير إلى أن الكلام في هذا الموضوع قد انتهى.

في أسرتنا، نادراً ما كنا نتذكر أعياد الميلاد، ناهيك عن الاحتفال بها أو التهادي. إلى يومنا هذا، لم أزل أنسى أعياد ميلاد إخوتي وحتى عيد ميلاد زوجي. ما الشيء المميز في تهنئة أحدٍ على كونه قد وُلِد؟ الولادة ليست فعله على الإطلاق. إنما ينبغي أن تكون التهنئة للأم التي بذلت كل الجهد ودفعتهُ خارج رحمها.

قالت ميسا بدراية: «أريد أن أشتري له غسولاً بعد الحلاقة حتى تفوح لي منه رائحة جميلة. لقد رأيت كل الإعلانات على التلفزيون. أريد أن تفوح من ماجد رائحة جميلة ومثيرة من

أجلي».

تلفزيون الأقمار الصناعية، الرجال الذين يخلقون كل يوم ثم يضعون غسول ما بعد الحلاقة. لم أكن على علم بأي شيء من هذا الكلام.

سحبتني ميسا إلى متجر في المجمع التجاري وجعلتني أشتم كل منتج معروض فيما كانت تغازل البيّاع قبل أن تختار خلطة ذات رائحة جميلة إلى درجة مخيفة. أصابني صداع شديد بعدها، وهو ما لم يساعد لتحسين مزاجي.

احتججت مرة أخيرة فيما كانت تعدّ نقودها للدفع: «شراء الهدايا لصبي أمر غبي جداً. اشتر شيئاً لنفسك بدلاً من ذلك».

عدّت بضعة أوراق نقدية ثم اتجهت إلي وقالت: «هذا هو ثمن غسول ما بعد الحلاقة. إذا أعطيتك هذه النقود، هل ستحاولين أن تكوني ألطف؟ سأشتري هذا الغسول لماجد، وأنت اشتريني شيئاً لنفسك». ثم مشت على مهل لتدفع ثمن هديتها الثمينة.

لم يكن لدي صديق، وحتى لو كان لدي لم أكن لأهدر نقودي الثمينة عليه. لذلك اشتريت لنفسي المجلدات السبعة من آتش بدون دود. كانت المفارقة أن هذه هي المجموعة الروائية نفسها التي أدّت على نحو غير مباشر إلى طردي من المدرسة، وهأنذا أشتري الكتب لنفسني.

كنت صاحبة الصفقة الأربح، لأن ماجداً ترك ميسا بعد شهرين من ذلك.

كانت الكتب هي حياتي. كنتُ قارئة نهمة، لكنني توقفت عن التقاط الكتب من بائعي الكتب ومكتبات المراكز الإسلامي المحلية.

أما آيدا، وهي صديقة أخرى ذات ابتسامة جميلة وعينين كبيرتين بنيتين، فلم تكن تدرس، وقلماً تحدثت في الصف. كانت آيدا قد خططت للزواج بعيد التخرج وإنجاب كثير من

الأطفال، لكنها أحببني لأنني كنت دائماً أسأل مدرسينا أسئلة استفزازية. بعد عدة أسابيع، دعنتني آيدا إلى بيتها بعد المدرسة في يوم من الأيام. بدا كل شيء متعلق ببيتها وأسررتها سحرياً بالنسبة لي-أمها تعمل في مكتب؛ تصبغ شعرها وتستعمل المكياج. كانت أمها تستعمل عطراً جميل الرائحة. عندما أخبرتها بمدى جمال طلعتها، أزالَتْ حجابها ودعنتني إلى إزالة حجابي أيضاً إلى أن يأتي أبو آيدا.

كان بيتهم ضخماً بالمقارنة مع شقة أختي الصغيرة. كان واسعاً وحديثاً ونظيفاً، مُدَّت على أرضية غرفة معيشته سجادات فارسية يدوية النسيج، وكان في الغرفة أريكة وكراسي مريحة. في أسرتنا، كنا نقعد على الأرض دائماً.

أحبني أبوا آيدا لأنني كنت دائماً أقرأ وأتكلّم عن الشعر والأدب، وقد أرادا أن أوثر في ابنتهم. أراد الأبوان لنا أن نكون صديقين مقربين. بعد برهة من لقائي بها، دعنتني أم آيدا جانباً وأعطتني ألف تومان، وهو ما يساوي حينئذ نحو ستة دولارات.

قالت لي وهي تعطيني النقود: «آيدا أشد اهتماماً بالكسل واللعب». لم أخجل في تناول النقود، لقد كانوا يأجرونني على كوني أنا. ثم قالت لي: «هذه النقود ثمن للآيس كريم والحلويات. أنت تعجبيّني، ماسي»، مستخدمةً لقبّي. «كوني صديقتها، اقرئي لها، اجعليها تقرأ». كان كل أصدقائي ينادونني ماسي بدلاً من معصومة. كان هذا اللقب أقرب إلى الحداثة والجِدَّة.

ألف تومان! كان هذا ثروة صغيرة بالنسبة لي. لم يعطني أحد في حياتي كلها هذا القدر من المال. مرة أخرى، اتجهت مباشرة إلى بائع الكتب واشترت كتباً: سالهاى ابرى (السنون الغائمة)، لعلّي أشرف درويشيان، ورواية رومين رولاند جان كريستوف، التي كان لها أثر كبير عليّ.

لم تثبّط المدرسة الجديدة حسي التمردى، لكنني الآن صرت أرنو إلى شيء أعلى وأعظم.

كانت مريم طويلة، ذات شعر أسود طويل، وكانت نحيلة مثلي. كانت تحب القراءة والنقاش. بدأنا معاً نادي قراءة، لكن ما يميزه كان التركيز على الكتب السياسية، ودعونا نخبة من الأصدقاء إلى الانضمام. بدأنا قراءة الأدبيات اليسارية وكتباً عن الولايات المتحدة حتى نواجه البروباغندا المستمرة المعادية لأمريكا، التي كانت تُجترّ يومياً على التلفزيون الإيراني. مثل كثير من المراهقين الذي يعيشون في ظل تقييدات سياسية واجتماعية، تعلّقنا بموضوعات الحرية وحقوق الإنسان ومعنى الديمقراطية. كنا ممتلئين بطاقة الشباب وحماسه.

كان نادياً سرّياً لكننا كنا في حاجة إلى أعضاء، وكانت مريم قد جلبت صديقها رضا، وهو أكبر مني بعام، وكان يدرس في كلية إعداد المدرسين. وانضمت إلينا كذلك أخته ليلي، وهي بنت سبعة عشر عاماً، وكانت تخطط لدخول مدرسة الفنون. كان علي قد سجل لدراسة التاريخ في كلية بجنورد في الزاوية الشمالية الشرقية من إيران، لكنه اشتاق إلى مدينته وكان يعود كل نهاية أسبوع إلى بابل. عندما سمع عن نادي الكتاب، طلب أن يُسمح له بالانضمام-لم يكن علي مجرد أخٍ أكبر لي، بل كان صديقي المقرب، ومعلمي وبيت سري، وكنا كثيراً ما نقرأ الكتب نفسها.

اشتكى علي من جامعته الجديدة: «إنهم يعلموننا الأكاذيب. كل التاريخ الذي يدرّسونه أكاذيب. إنهم يحرفون الحقائق كما لو أن التاريخ لم يبدأ إلا قبل عشرين عاماً». كانت الجمهورية الإسلامية تبيّض الماضي، وتقلّل من شأن الإنجازات في الفترة السابقة لثورة 1979. كانت أسلمة إيران مستمرة على وتيرة سريعة جداً، وكان تاريخ إيران وحضارتها قبل الإسلام يُمحيان تماماً. أما عليّ، الذي لطالما كان رومانسياً، فكان خائب الأمل إلى درجة أنه فكر في ترك الكلية.

قال علي: «يجب أن نكتب تاريخنا بنفسنا». برغبنا الصادقة والجادة، أردنا أن نعلّم الجُموع.

كنت معجبة بعلي لأنه كان ذكيًا جدًا ومطلعًا، وفي أول اجتماع لنا، نظر إليه الآخرون باحترام، لأنه كان الوحيد بيننا الذي يدرس في جامعة. قال علي: ينبغي أن نقرأ جميعًا الكتب المهمة، ولا نقتصر على كتاب الفطرة السليمة لتوماس بين أو إعلان الاستقلال، بل أن نقرأ كذلك تاريخ الثورة الفرنسية وحزب توده.

اتفقنا جميعًا أن يقرأ كل واحد منا نصًا سياسيًا حتى نناقشه في الاجتماع اللاحق. لا أعرف من الذي اقترح الفكرة، لكننا كوتنا مع نهاية الليلة بعد ساعات من النقاش خطة لإصدار شبنامة-وهي منشور سري، كتيب سري يُنشر في الخفاء. لقد استعملت الشبنامات من قبل في إيران، للاحتجاج على الاحتلال الأجنبي، أو ضد مراسيم الشاه الاستبدادية. كانت فكرة مجنونة أن ينشر مجموعة من الأطفال شبنامتهم الخاصة، لكنه كانت فكرة ساحرة كذلك. لكن كان علينا جمع المزيد من الناس. وافق علي على أن يعود مرة كل أسبوعين ليساعدنا في المشروع. لم يكن هذا إلا عدلاً، لأنه هو الذي حمّسنا للفكرة.

حين أراجع الأمر اليوم، أرى أننا كنا أبرياء جدًا، ولم تكن أنشطتنا تزيد شيئًا عن أنشطة أي ناد سياسي في أي مدرسة ثانوية، لكن في إيران كان هذا أقرب إلى الشغب. اقترح رضا أن نعقد الاجتماعات في منزل أبويه، الذي لم يزل يسكن فيه. أشرفت أنا ويلي على جمع الاشتراكات الأسبوعية من الأعضاء. كنا نعتقد أننا متمرّدون ومثقفون، لكننا لم نكن إلا مراهقين أصحاب أطباع غريبة وتسريحات سيئة. قرأنا كتبًا عن التاريخ، ولا سيما الثورة الروسية، وناقشنا إنتاج مئات المنشورات حتى تُعلّق سرًّا في مختلف أرجاء المدينة، بعضها في أماكن بارزة والبقية في مكتبات للقراءة أو بيع الكتب. بالنسبة لنا، كان الانتماء إلى نادٍ سري هو أفضل جزء.

لا بد لكل مجموعة ثورية من اسم، لذلك اخترنا اسم فرياد كاوه (نداء كاوه). صنعنا كذلك شعارًا-على هيئة فم رجل مفتوح وهو يصرخ- وتخرج من فمه كلمات «فرياد كاوه». لم يكن اختياريًا عشوائيًا. كاوه، الحدّاد الأسطوري وأحد أشهر الشخصيات في الميثولوجيا

الإيرانية، أصبح المتمرّد الذي قاد ثورة وطنية في بابل ضد المستبد الأجنبي الوحشي الضحّاك، الذي كان يحكم إيران. كان الضحّاك من أصل عربي وكانت تنبت من كلا كتفيه حيّة. لطالما استدعى الوطنيون الإيرانيون كاوه، لأن الجمهورية الإسلامية دائماً ما تروج للكلمات والتقاليد العربية.

استمر بحثنا عن أعضاء جدد لتوسيع المجموعة، وكان أحد المنضمين الجدد أحمد. كان أحمد في ثلاثينياته، يبلغ عمره ضعفي أعمار بعضنا. كان خيَّاطاً له محله الخاص في مركز مدينة بابل. كان اختياراً غريباً أن ينضم إلى مجموعة من المراهقين. كانت عينا أحمد معبرّتان، وكان يغطي جزءاً من شفّتيه شارب ثخين كثيف، وكان شعره يبلغ كتفيه. كان يشبه مكسيم غوركي، الكاتب الروسي؛ كان في عينيه دائماً لمعة، كما لو أنه يستطيع أن يرى الفكاهة في العالم قبل كل الناس. كانت بابل مدينة صغيرة؛ عرف أحمد بشأن مجموعتنا ورأى في نفسه القدرة على المساعدة. كنتُ ضد انضمامه، لأنني اعتقدت أنه كبير جداً، لكن الأغلبية غلبتني في النهاية وانضم إلينا. لم يخطر لنا حينها أنه إذا كان أحمد قد عرف بأمر مجموعتنا، فمعناه أننا لا نحسن حفظ الأسرار.

أتذكر على نحو خاص زيارتي لمحله ذات يوم. على طاولة جانبية كان يضع مزهرية فيها أزهار مجففة، معظمها ورود. طلبت أن يقصّ لي حكاية الأزهار.

قال بابتسامة حزينة: «حتى تذكرني بالراحلين من الأصدقاء القدامى».

جاوبته: «أوه، ولكن الزمان عدوّ الذاكرة»، كنتُ قد اشتريت مؤخراً ترجمة لكتاب *البحث عن الزمن المفقود* لمؤلفه مارسيل بروست، وكنت أستعرض ذكائي.

«أرجو ألا يكون كذلك. وإلا فقد ألتحق بأصدقائي قبل أواني».

«حتى تتذكر حقاً، لا بد من رابطة، نكهة، رائحة. شيء يحفز ذاكرتك». وانحنيت لأشتم الأزهار. «هذه الأزهار عديمة الرائحة».

« صدقت ».

« لكن لها أشواكاً جميعها ». مسحتُ بإبهامي جذع إحدى الأزهار. كانت الأشواك لم تنزل حادة.

« لا تشتك من كون الزهرة تحمل شوكة؛ بل افرح لأن الشوكة تحمل زهرة ».

« هل ارتجلت هذا الآن؟ »

« لا، بل قالها النبي محمد. إنها في القرآن ».

لم أكن على ثقة من أنني مررت بهذه الآية من قبل، لذلك سألت علياً عنها. قال علي إنه لم يسمعها مطلقاً في القرآن أو في أي كتاب ديني كان قد قرأه. كان من المستحيل أن تعرف عندما يتكلم أحمد، كان يجعل كل شيء قابلاً للتصديق. صار علي يجتمع بنا أكثر وأصبح يفكر جدياً بترك الجامعة. أصبح في مجموعتنا الآن ثلاثة عشر عضواً قوياً، إذ جاء أحمد بثلاثة وجوه جديدة. كان علي قد سرق طابعة، «هدية» من جامعته، لنطبع بها منشوراتنا.

قال علي: « كانت تجمع الغبار في زاوية من زوايا الجامعة. لا يعرف أحد أصلاً كيف يستعملها. نحن سنستفيد منها أكثر ».

عندما يختلط الفتیان بالفتيات في مجموعة، لا بد أن تظهر غرائب. في الاجتماعات، كنت أنتبه أحياناً إلى رضا وهو يتأمل فيّ، وكان يحمرّ خجلاً في كل مرة ألاحظه فيها. كنت أعلم أنني لست ملكة جمال، لكن الانتباه أعجبني، والحق يُقال. اتجهت إلى ليلي، الأنثى الوحيدة غيري في مجموعتنا.

« لماذا يتصرف أخوك بهذه الغرابة؟ لا تقولي لي إنه واقع في الحب؟ »

قالت ليلي: « لقد حلّ عليه مزاج جديد منذ مدة ». كانت ليلي أصغر أعضاء مجموعتنا، لكنها

كانت غير خجولة، خلافاً لأخيها.

لاحقاً، بعد أن ودّع بعضنا بعضاً، طلب رضا أن يتحدث إلي على انفراد.

قال لي: «لقد كتبتُ بعض القصائد»، وهو يلوي دفترًا في يديه. لم يكن قد شارك كثيراً في الاجتماع، لكنه الآن يبدو على نار.

«أنت تكتب الشعر؟ لقد ظننت أنك معلم». كنت أستفزه وأستمتع باستفزازه. كنتُ قد سمعته يقرأ إحدى قصائده في أول اجتماع لنا لكنني تظاهرت الآن أن الأمر كان جديداً عليّ تماماً.

«سأكون معلماً، لكنني أريد حقاً أن أكون شاعراً».

أراد رضا مني أن أقول شيئاً، لكنني حافظت على صمتي هذه المرة. كان الأمر ظريفاً. شعرت بالدفع والغربة. سرتُ فيّ حينها كل أنواع المشاعر. اقترب هنا خطوة.

«اسمك يا ماسي ينبغي أن يكون حقاً مسيح، أعني المسيح، أو جيسوس كما يقول الغربيون».

قلتُ له وقد ارتبكت: «لستُ مسيحية». لم أكن أتوقع أن تكون محاضرتي عن اسمي.

«ليس عليك أن تكوني مسيحية لكي يكون اسمك مسيح».

أعطاني رضا دفتره. «لقد كتبتُ لك شيئاً».

عدتُ إلى بيت مينا وقرأتُ بهدوء قصيدته عني. عرفتُ أن وجهي محمرّ وقلبي ينبض بشدة. كانت هذه أول مرة يكتب لي أحد من الجنس الآخر قصيدة. نعم صفر لي بعض الصبيان، ومنهم من عبّر عن استهجانه أو علّق تعليقات فاحشة، لكن لم يكتب لي أحد قصيدة من قبل. إلى الآن. راجعتُ كل سطر في القصيدة مراراً، أفتّش عن خدعة فيها.

... أما أنتِ، يا يسوعي،

فعندما يضعون على رأسك إكليل الشوك،

سيكون الربيع قد ابتدأ حينها.

إكليل شوك للمسيح. لم أشعر يوماً بالأريحية تجاه اسم معصومة. بطريقة ما، كان اسم مسيح أقرب إلى أسلوبِي.

كان رضا نحيلاً وشاحباً، أشعث الشعر، وذا لحية خفيفة كالتّي تظهر بعد أربعة أيام من الحلاقة، إلا أن هذه كانت دائمة. كان يبدو كالذي أصلح سيارة ثم نسي أن يمسح الزيت عن وجهه. كان انطوائياً. دودة كتب.

أما أنا فلم يكن لدي وقت للحب. عرضتُ الدفتر لعلِي.

احتجبت قائلة: «لقد بلغ بنا الفساد في هذا البلد أنه في اللحظة التي تلتقي فيها مجموعة مختلطة، يريد الجميع الحب والزواج. كيف يمكن أن نسعى إلى تغيير المجتمع وهو يُرسل إليّ قصائد حب؟».

مزقت الدفتر قطعتين ورميته على الأرض أمامه. لم يكن يعنيني الحب.

قلتُ له، مستعيّرةً إحدى كلمات الآقاجان: «إنه لعار. لا شك أنك ستوافقني إذا قرأته».

كنت أعلم أنني إن أظهرت أبسط الإشارات الإيجابية لرضا، فإنه سيتجه مباشرة إلى قمي كلا ويطلب يدي للزواج من الآقاجان. كنت قد رأيت من حولي كل قريباتي المتزوجات وقد حُبسن في حياة الطبخ والتنظيف والإنجاب. كنتُ أكره فكرة أن أكون امرأة تقليدية، تذوب هويتها في هوية زوجها.

قلت لعلِي: «الزواج سجن». كنت قد أخبرته عن مشاعري قبل فترة طويلة. «لا أريد أن

أتزوج وأقع في الفخ. أريد حياة لا تقتصر على الطبخ والتنظيف».

كنتُ أعلم أن علي في صفّي، لكنني أعلم أيضًا أن أبويّ بدأا يقلقان. كان عمري ثمانية عشر ولم أزل عزباء. لم يزر أبوي خاطب واحد ليطلب إذنهما للزواج بي. في قمي كلا كان هذا الأمر مشكلة كبيرة لأمي. كانوا يزوّجون الفتيات في حادثتهن ولم ترد أمي أن تخسر سمعتها. كان جيرانها وأصدقائها يحبون أن يفتخروا بعدد الخطابين الذين أتوا طالبين الزواج ببناتهم. الحقيقة هي أنني نضجت وتطور جسمي، لكن مظهري لم يتحسن. لم يزل شعري ثخينًا خشنًا، كانت بشرتي سبزه، أي بلون الزيتون؛ وكنتُ نحيلة. كنتُ أردي كذلك نظارات ثخينة لها إطار ثقيل، وكان صوتي مرتفعًا. أما ضحكتي فكانت كالرعد تبدأ عميقة ثم تنفجر كالزمجرة. لطالما نصحني إخوتي أن أتصرف كالسيدات، لكنني أردت أن أكون روحًا حرةً وصادقة أمام نفسي.

زارني علي في منزل مينا في اليوم التالي. جمع علي قطعتي الدفتر وقرأ القصيدة، وأعجبته. شعرتُ أن أخي خانني.

«إذا أعجبتك القصيدة إلى هذه الدرجة، لماذا لا تتزوجه أنت؟».

قال أخي: «هو الخاطب الوحيد الذي جاءك. إما أن تقبلي به وإما أن تعودني إلى قمي كلا بعد المدرسة الثانوية وتنتظري نصيبك هناك».

كان رضا هو خاطبي الوحيد، حتى لو رفضت التفكير في الزواج. لكنني أدركت أيضًا أن بديلي الوحيد هو حياة من الجلوس في البيت في قمي كلا منتظرةً أن يطرق أحد باب الآقاجان. كرهت هذا الشعور بالضعف.

رأى علي الدموع في عيني وعانقني بشدة.

«لن تستطيعي بحالتك هذه السفر إلى أي مكان وأنت امرأة عزباء. لن يسمح الآقاجان. رضا

هو تذكرتك خارج قمي كلا».

كان محققاً، طبعاً. لم أرد أن أعود إلى حياة العزلة في الريف. لا شك أن الآقاجان كان يبحث عن خاطب لي. الأفضل أن أختار أنا لنفسي. إذا أردت أن أكون مستقلة، فلا بد أن أتزوج- لكن أن أتزوج الرجل المناسب. وفرص إيجاد هذا الرجل في قمي كلا كانت أقل من صفر. قد يفي رضا بالغرض. على الأقل هو مهتم بالكتب والقراءة.

التقيت رضا عند غدير نيلوفر، التي كانت ممتلئة بأزهار الماء الزهرية والبيضاء، مع أن الخريف كان ينتهي. نظرتُ إليه وهو واقف في الطابور ليشتري لنا قننيتين من الدوغ- وهو شراب لبني مالح بطعم النعناع. كان قميصه كاكي اللون أنيقاً، وكان بنطاله مكويًا، غالباً أمّه هي التي كوته، وكان قد علّق نظاراته الشمسية الطيّاريّة على جيبه الخلفي. بدا كأنه رجل منخفض الخطر، رجل يمكن أن يقف إلى جانبي ويدعمني. تمشينا بصمت معاً على طول الغدير، ونحن نشرب الدوغ. قررت أن أقطع المحادثة الخفيفة وأعالج المسألة الأساسية.

قلت باندفاع: «سأتزوجك، لكن بشرط واحد: إذا لم تعجبني الحياة الزوجية، أريد الحق بالطلاق. لا أريد أن أعلّق بسلسلة إلى مجلى المطبخ».

قال رضا ممتعضاً: «لم أطلبك بعد»، ونظر حولنا ليرى إن كان أحد قد سمعني، لكن الأزواج والأسر حولنا كانوا غارقين بعوالمهم الخاصة، متجاهلين رفقتنا الغريبة. «لا يمكن أن تفعل هذا».

قلتُ له، وقد راقني ارتباكاً: «لا شك أنك ستطلبني، لكنني لن أقول نعم إلا إذا كان لي حق الطلاق».

كان طلب حق الطلاق طلباً كبيراً بالنسبة للنساء في الجمهورية الإسلامية. يعطي القانون الإيراني الرجال حقاً أكبر في طلب الطلاق. أما النساء فحقوقهن قليلة في الزواج، وإذا

تطلّغن فقد يخسرن حق حضانة الأطفال.

ابتسم رضا ابتسامَةً عرضة: «إذن أنت موافقة»، بدا سعيدًا وكأنّ همًّا انزاح عن عاتقه. «أنا مطمئن أنك لن تطلقيني، لذلك لن أمانع في إعطائك هذا الحق».

«لقد قبلت بالزواج بك لأخرج من قمي كلا. لا تظن أنني قبلت لأجل الحب. أريد الانتقال إلى بابل، وربما حتى إلى طهران. من يدري؟». لم يكن يمكن إيقافي. «أريد أن أكتب. أريد أن أكون مصورة. أريد أن أعيش».

قال ضاحكًا: «عن الرومانسية أتحدث. يبدو أنك تظنين أنني وكيل مكتب للسياحة والسفر».

«إذا تزوجت في قمي كلا، فقد لا تسير الأمور على ما يرام. أما الزواج بك فسيعطيني حرية أكبر».

«حسنًا. متى نتزوج إذن؟».

كان يتشوّق إلى التلفظ بنذور الزواج مباشرة، لكن كان عليّ أولاً أن أقنع أبويّ بالقبول به. يجب أن يتم كل شيء بحسب الأصول إذا أردنا أن يقبل الآقاجان برضا. في تلك الليلة أخبرت مينا ورمزون أن لي خاطبًا يريد أن يأتي ويلتقي بهما ليحصل على بعض المؤشرات قبل أن يسافر إلى قمي كلا ويطلب من الآقاجان الإذن بالزواج بي. انفجر رمزون ضاحكًا.

«ومنذ متى كانت العروس تبحث عن عريسها بنفسها؟ إنه لعالم جديد».

«لا تقل هذا وكأنّ لدي خاطبين آخرين ينتظرون. إنه هو أو لا أحد».

قال رمزون: «فأنت لنا بالفتى المسكين»، كان يعجبه اختلافي عن بقية الفتيات. «فلنر إن كان مستعدًا وجاهزًا لتحديد مصيره».

في الليلة التالية، في اجتماع مجموعة كاوه، أحضر رضا وعلي مئة شبنامة كانا قد أنتجناها. كنت أنا مؤلفتها جزئياً، وكانت من صفحتين، وكان موضوعها الرئيسي الدعوة إلى حرية أكبر في المجتمع الإيراني. كان علينا أن نوزع المنشورات سرّاً. اتفق أحمد وأصدقائه على إلصاق الشعارات السياسية على جدران ساحة المدينة ومركز الشرطة. لم أجد وقتاً أفضل من هذا لإخبار رضا أن عليه أن يأتي ويلتقي بأسرتي.

همستُ بكلمات شبه مازحة لرضا في لحظة هادئة: «حذارِ أن تُعتَقَلَ». من العجيب أنني بعد أن قررت الزواج به، صرت مرتابة بشأن مشاعري تجاهه. «يجب أن تأتي لتلتقي مينا وزوجها قريباً».

كان رضا أكثر تطلّعاً إلى الزواج مني. قال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة: «سأكون هناك»، وأمسك بكومة من الشبنامات، ثم دفعها في كيس نايلون.

في اليوم التالي، كانت الجدران حول مركز المدينة مغطاة بشعاراتنا السياسية. كُتبت بحروف كبيرة: «حرية التعبير للجميع»، و«الحرية للمعتقلين السياسيين». كان اسم فرياد كاوه في كل مكان.

كنت أمشي وقد أصابني الدوار إلى المدرسة، لا سيما وقد بدأت أولى نُدْف الثلج هذا العام تتساقط من حولي. كان الجو صقيعاً، لكنني شعرت باتِّقاد دافئ في داخلي بشأن ما أنجزناه من تحدٍّ للسلطة. في الزاوية البعيدة من باحة المدرسة، كانت إحدى صديقاتي، فاطمة، تقرأ بحماسة لمجموعة صغيرة من الطلاب من ورقة في يدها. عندما اقتربت، أدركت أنها كانت تقرأ كلماتي التي كُتبت في الشبنامة.

ادّعت نعمّة الجهل: «ما هذه؟ رسالة حب؟». كنت أقطع في داخلي لأستعرض أمام الجميع وأخبرهم أنهم يقرؤون كلماتي.

منعتني فاطمة من مقاطعتها: «شش، أوشكت على الانتهاء». ثم استمرت في القراءة،

لكنني لم أكن أستمع إليها. كنت أعرف الكلمات أكثر منها. أخيراً، وصلت إلى النهاية.

«أين وجدتها؟ لمن هذه؟»

«تركها أحد أمام متجر أبي، عند الحاجز المعدني.»

سألت ببراءة: «هل رأيت الرسوم على جدران المدينة؟ إنها في كل مكان. لعل أن الأمرين مرتبطان.»

لحسن الحظ، رن الجرس واتجهنا جميعاً إلى الداخل. كنت أشعر أن الجميع يمكن أن يكشف أمري بمجرد النظر إلي، كما لو أن علامةً كُتبت على جبهتي تدلّ على أنني أنا خلف الشبنامة والرسومات في الشارع. في ذلك اليوم كنت دائماً مصابة بحمى الحماسة، وخائفة في الوقت نفسه. دقيقةً أشعر بالنشوة، ثم أشعر بالهلع من أن يُفصح أمري.

كنت أتوق إلى الخروج من المدرسة لأتمشى في المدينة وأنظر إلى عمل يديّ. لكن بحلول الظهر، وأنا أتجه إلى المنزل، كان عمال البلدية مشغولين بمحو شعاراتنا من الجدران.

لم يكن لدينا كثير من الوقت للاحتفال، إذ وجب علينا التحضير للمسألة التالية. بدأت مباشرة إرهابات المشكلات. الآن بعد أن نشرنا أول شبنامة لنا، أراد أحمد وأصدقائه الثلاثة تغيير اسم المجموعة من فرياد كاوه إلى فرياد مجاهد. بدا تغيير الاسم مسألة صغيرة، لكن أحمد أصرّ عليه ودارت بيننا نقاشات حادة.

سأل علي السؤال الذي في أذهاننا جميعاً: «لماذا نغير الاسم الآن، ونحن لم نزل في بدايتنا؟».

قال أحمد: «كاوه قديم جداً، المجاهدون مناضلون، ونحن الآن نناضل»، ثم توقف ليحدث أثراً درامياً وقال: «ظننت أنكم تريدون أن تكونوا ثواراً حقيقيين، لا مجرد صحيفة لطلاب ثانوية.»

قال أحمد بشدة: «الاسم الذي تقترحه قريب جدًا من اسم مجاهدي خلق، ولا أريد أن ترتبط بهم أي ارتباط»، كنا جميعًا موافقين على هذا. كان وراء مجموعة مجاهدي خلق تاريخ أسود.

كان الشاه قد سحق مجاهدي خلق، بعد أن ابتدؤوا النزاع المسلح ضده في سبعينيات القرن العشرين. بعد ثورة 1979، زادت شعبية المجاهدين بين الشباب، لكنهم خسروا في صراع السلطة مع الخميني ولجؤوا مجددًا إلى الإرهاب. ثم أقاموا اتفاقية مع صدام حسين، الدكتاتور العراقي، الذي هاجمت قواته إيران. في 1989، شنّ المجاهدون هجومًا عسكريًا على البلاد لكنهم هُزموا هزيمة نكراء.

كانت الحكومة وحشية على نحو خاص في تعاملها مع هذه الجماعة. في 1988 أُعدم بإجراءات موجزة آلاف مؤيدي المجاهدين، وبعض أعضاء المجموعات اليسارية الأخرى. الأعداد بالضبط مجهولة، لكن مجموعات حقوق الإنسان تدعي أنهم عشرون ألفًا.

لم أكن الوحيدة التي تشعر أننا متجهون نحو انفجار.

هل كان أحمد مجاهدًا سرّيًا؟ كان ينفي ذلك. لكن تأكّده على تغيير الاسم جعلنا نشك في كل حركة منه. في النهاية، وضعنا المسألة للتصويت، وخسر أحمد، 9 مقابل 4. بقي اسم كاوه.

كنت قلقة. ظل رضا يؤجل لقاءه بمينا ورمزون. أردت أن أتأكد من أن ينجح في لقائه مع رمزون حتى يذهب بعدها إلى قمي كلا ويطلب يدي.

لم يرحّب رضا بفكرة المرحلتين، وأراد أن يتجه مباشرة إلى قمي كلا ويقعد مع الآقاجان.

قلت له: «ليس لديك إلا فرصة واحدة مع الآقاجان، فإذا لم تعجبه، انتهت فرصنا بالزواج».

في النهاية وافق رضا للقاء رمزون ظهيرة يوم الجمعة. بصراحة، لم أكن أثق أنه سيأتي،

لذلك التقيته قبل الموعد. كان يرتدي قميصاً أخضر وبنطالاً ضيقاً من الجينز ومعطفاً قماشياً بنياً. شعره الأشعث ولحيته الخفيفة، كان منظره أقرب إلى طالب ترك الجامعة منه إلى رجل يريد زوجة.

لم أستطع أن أخفي خيبة أُملي في صوتي: «هل هذا أفضل ما لديك؟».

«يجب أن تبدو بمظهر الرجل المستعد للزواج حتى يقتنع بك أهلي. ستُحدث انطباعاً كبيراً في مينا إذا ارتديت جاكيتاً، ولا أقصد جاكيتاً من الجينز».

تأفف رضا بعد هذا الكلام. لم يتحسن مزاجه بعد أن جعلته يشتري بعض الأزهار وصندوقاً من الحلويات وبعض المعجنات ليُجلبها معه. تأفف كثيراً لكن وافق.

اتجهت قبله إلى بيت مينا وانتظرت أن يأتي. لحسن الحظ، لم يتأخر، ورحب به رمزون ومينا بحرارة كما لو كان أميراً غنياً من الهند. كانت مينا ترتدي شورتها الأسود الجديد، الذي كانت تحتفظ به للمناسبات الخاصة. كان يلمع ويتألق عندما تمشي. أوصلت مينا الرجال إلى غرفة المعيشة ثم منعتني من اتباعهم إلى الداخل.

قالت بصوت خافت وهي تغلق الباب خلفها: «لا يمكنك الدخول».

قلتُ لها وأنا أحاول التحرر من قبضتها: «إنهما يتحدثان عني. لي كل الحق بأن أكون هناك».

«الآن يعرف الرجال بعضهم بعضاً». دفعتني مينا إلى المطبخ. «من حق الرجال أن يكون بينهم حديث خاص. سيخبره رمزون عن أسرتنا وعن الزوجة التي سيتزوجها».

«رضا يعرفني من قبل، يجب أن أكون في الغرفة حتى لا يخبره رمزون بقصص مخزية تفسد سمعتي».

لم يكن تجاوز مينا ممكنًا.

«بعد عدة دقائق، سأخذ الشاي وأضيفه، لنتبادل بعض الكلمات الجميلة، ثم ستأتين أنت مع الفواكه». لم تبرح مينا مكانها.

لم أرد أن يكون الترتيب هكذا. كانا يناقشانني كما لو كنت شيئًا يملك.

قلت بغضب: «لن أدخل، تكلموا عني وراء ظهري كما تريدون»، وانضويت إلى غرفة النوم لألعب مع أولاد مينا. بقيت هناك إلى أن غادر رضا.

بعد ذلك قال رمزون إن رضا أعجبه، وإنه يريد أن يعين موعدًا ليزور رضا وأبواه قمي كلا حتى يطلببا يدي رسميًا.

على رغم أنني أنا، شعرت بالتشوّق بشأن كل هذه الجلبة عني. كنت أرى أن الزواج عقد بين متساويين وكنت أعتقد أنه إذا اتفق الطرفان، فما من ضرورة لإذن الأبوين.

في نهاية الأسبوع، عدت إلى قمي كلا مع رمزون لنحرص على أنه يتعامل مع الآقاجان على النحو الصحيح. كان يجب أن نثبت موعدًا لياأتي رضا وعائلته. جاء علي معنا، لكنه كان مستثارًا على نحو غريب.

في اليوم التالي، بعد الغداء، ذهب الآقاجان مع أُمي لقضاء أمر. كنت جالسة على عتبة النافذة في الغرفة الخلفية وساقاي متدليتان إلى الخارج، وحينها جاء علي ممتلئًا بالحماسة. كان في عينيه التماعة مجنونة. كان يحاول أن يبدو هادئًا، لكنه لم يستطع أن يخفي أنه يريد بشدة أن يخبرني بشيء. لو كان له ذنب لكان ضربه بالأرض كما تفعل الكلاب في أفلام الكرتون.

سألني: «هل عندك من القوة ما يكفي لقتل أحد؟».

«لم أفكر في الأمر من قبل».

«فلنقل إنك تملكين سلاحًا—هل كنت لتقتلين الرئيس أو المرشد الأعلى؟».

كنا قد لعبنا هذه اللعبة من قبل. إذا كان بإمكانك قتل شخصية تاريخية واحدة حتى تغير التاريخ إلى الأفضل، فمن ستقتل؟ في ألعابنا، كانت القائمة تشمل هتلر وستالين وجنكيز خان وخميني وأحيانًا حتى المرشد الأعلى الحالي، آية الله علي خامنئي.

«لا، لأنني... لا أملك سلاحًا».

بسعادة درامية، أخرج علي سلاحًا من حزامه.

«الآن صرنا نملك. ما الذي ستفعلينه إذا واجهت المرشد الأعلى وجهًا لوجه. لا أريد أن تفقدي أعصابك».

قلت بشدة: «لن أفقد أعصابي». كان علي يعرف كيف يحمّسني.

«هل أمسكت من قبل بمسدس في يدك؟ هذه فرصتك».

قفزت من النافذة وأمسكت المسدس بكلتا يدي. كان أثقل مما يبدو. أعجبني ملمس المعدن البارد.

أعادني صوت علي إلى الواقع: «فلنمثّل أننا نتدرب حتى لا نخطئ حين تأتي اللحظة المناسبة».

وجهت المسدس إلى ورقة عشوائية على شجرة في فناء منزلنا، وقلت بصوت منخفض: «باو. باو».

قال علي وهو يلف ذراعيه حوالي: «ما هكذا تؤكل الكتف. عندما تطلقين النار، ستصدر

ضجة عالية وسيرتد السلاح».

صرخت: «لن أخطئ الهدف. باو... باو... باو». أعجبني شعور المسدس في يدي. أغلقت عيناً واحدة كما لو كنت أعينّ فعلاً. «باو.. باو...».

«الآن ضعي إصبعك على الزناد». عدّل علي برفق قبضتي وهو يمسك بي بإحكام ويده الأخرى ملتفة وراء ظهري.

«الآن عيني واضغطي الزناد».

أمسكت المسدس بكلتا اليدين، واستعملت الإبهامين، وضغطت الزناد بأقوى ما استطعت.

صدر صوت عالٍ جداً لدى الإطلاق وأكاد أقسم أنني شعرت بالرصاصة وهي تنطلق من الأسطوانة. تأذت أذناي من الصوت المرتفع. صرخت لإرادياً ورميت المسدس من النافذة. ثم سحبت نفسي وتحررت من علي، وضربته على صدره ضربتين.

صرخت في وجهه: «ما الذي حملتني على فعله؟».

في الخارج، ركض أحد الجيران إلى جدار المنزل، وعلى وجهه ملامح القلق.

«ما هذا الصوت؟ ما الذي تفعلونه؟».

صاح عليّ: «هل سمعته أنت أيضاً؟ لعله صوت محرك دراجة نارية»، وقفز إلى الحديث ليأخذ المسدس.

«ماذا ستفعل بالمسدس الآن؟». كنت قلقة من أن يكتشف الآقاجان المسدس مع أخي. لن تسعده فكرة امتلاك علي لمسدس.

«سأعيده إلى الرجل الذي استعثرته منه. لم يكن لدي إلا رصاصتان. أنا أطلقت واحدة وأنت

أطلقت الأخرى. لا فائدة من مسدس بلا رصاص».

طبعاً، لم يستطع علي أن يسكت. أخبر كل أصدقائنا في بابل عن مسيح خبيثة الأسلحة.

بعد أسبوع من هذا، رافق علي رضا وأسرته إلى بيتنا. لم يحتج رضا إلى أن يرافقه أحد، لكن علي كان عائداً إلى قمي كلا في الحالين. كان قد أنهى الفصل في بونجورد وقرر أن يترك الدراسة فيها.

وصل رضا مع أبويه، وكان هذه المرة يرتدي بدلة. نعم، كان عنده ما يكفي من الفهم لئلا يرتدي ربطة عنق، لأن هذا كان لينفّر الآقاجان ويدفعه إلى الحديث عن التسمم الغربي وكيف أن ربطة العنق علامة على العبودية للفكر الغربي. راقني منظر رضا إلى جانب أبويه، كان أنيقاً، وقد تذكر هذه المرة أن يجلب معه أزهاراً وحلوى.

أردت أنا أيضاً أن أظهر بأفضل مظهر. ارتديت جاكيتاً أسود وتنورة كنت قد استعرتها من صديقة في المدرسة. لكن التنورة كانت كبيرة جداً وطويلة جداً. اضطررت إلى طيها من الأعلى وتثبيتها بدبوس حتى لا تقع. كنت في خضم ربط التنورة فوق ركبتيّ عندما دخل ألي.

«لا تكشفني عن ساقيك النحيلتين-قد يظنون أن رافعة». ثم غادر يضحك بشدة.

لم يعرف الآقاجان وأمي أنني كنت قد خططت للأمر أنا ورضا. تقليدياً، كانت أسرة العريس تلتقي بأبوي الفتاة للاتفاق على شروط الزواج. أما المخطوبة فتأتي بعد ذلك بمدة، ومعها الشاي والمرطبات. بعد أن تتوافق الأسرتان، يمكن للخطيبين أن يتركاً معاً وحدهما عدة دقائق، حتى يريا إن كان بينهما أي انجذاب.

الأعراس الإيرانية حقاً اتفاق وتعاهد، ببساطة ودون لبس، هي عقود تتفاوض فيها الأسرتان على المبالغ المدفوعة والمشمولة في العقد. يشمل العقد مبلغين مختلفين. أولاً

الجهازية، أو الجهاز، وهي ما تجلبه العروس معها. يشمل هذا عادة الأدوات المنزلية: الأطباق والشراشف والمناشف والطناجر والمقالي، والأشياء الحديثة كالطبّاخات والخلاطات الكهربائية. أما المبلغ الآخر الذي يُتفاوض عليه فهو المهرية، مبلغ المال الذي يوافق الزوج على دفعه للعروس في حال الطلاق. يجوز للزوج أن يطلق زوجته متى شاء وأراد. أما المرأة فليس لها أن تطلق زوجها إلا في حالات خاصة-كحالة كونه مدمن مخدرات أو قاتلاً.

كرهت كل الحديث عن الجهاز وكونه كبيراً بما يكفي، وتأففت من الموضوع بصوت مرتفع لأمي. قلتُ لها إنني لستُ قطعة لحم ولا رأس ماشية حتى أسعّر هكذا. ازداد انزعاجي عندما طلب مني علي تقديم المزيد من الشاي. قلتُ له أن يفعلها هو، وانتفضت إلى الفناء الخلفي بحزمة من العلف لعشرات الدجاجات التي كانت عندنا. لم يكن لدى علي خيار سوى الدخول وتقديم الشاي بنفسه.

سألت أم رضا، بانو: «أين إذن عروسنا الجمية؟ كنا نأمل أن نكون قد رأيناها بحلول الآن».

قبل أن يجد علي فرصة للرد، جاءت صيحاتي من النافذة: «تعالى أيها الدجاجة، تعالى».

قالت بانو: «أرى أن لها صوتاً عالياً».

سرّ الآقاجان كثيراً بالترتيبات، وبعد ثلاثة أيام التقينا جميعاً في مكتب التسجيل في بابل من أجل العقد -وهو مراسم التزويج القانونية- ووقعنا عقد الزواج، بعد أن اتفقنا على مهرية بقيمة 20,000 تومان (نحو 120\$ في 1995)، ونسخة من القرآن، و12 عملة معدنية ذهبية. أما حفلة المهموني، أي الزفاف، فيجب أن تنتظر حتى ننهي دراستنا في نهاية يونيو.

عانقتني أمي.

«دختر جان، ابنتي العزيزة، الآن عليك أن تتركي الأشياء الصبانية جانباً وتستقرّي».

«ولك أن تخبري الآن كل أسرتنا أنك وجدتِ لنفسك زوجًا».

في هذه الأثناء، استمر التوتر في مجموعة كاوه. نُشرت شبنامة أخرى، لكن أحمد وأصدقائه استمروا في الضغط لأجل لغة أقرب إلى الراديكالية في المنشور الثالث. كانت فكرتنا الأساسية تعليم الجماهير، وليس الدعوة إلى نزاع مسلح. استنزفت الخلافات على السلطة التحريرية للمنشور الثالث طاقتنا. كنت قد تعبت من كثرة الاقتتال، ولم أكن وحيدة. جاءت القشة الأخيرة عندما اكتشفنا أن أحمد، دون إعلام بقية المجموعة، شطب شعارنا وكتب مكانه اسم «فرياد مجاهد».

بعد اجتماع محتدّ، قررنا تفكيك المجموعة. وعملاً برأي علي، دمرنا آلة الطباعة، ورمينا فراشي الطلاء والبخاخات في بحيرة. عندما فعلنا ذلك، شعرت بأن عبئاً كبيراً انزاح عن كتفي. أردت أن أنهي دراستي، مع أنني في البداية كرهت فكرة الزواج، لكنني الآن أريد أن أقيم حفل زفافي حتى أصبح متزوجة رسمياً وأبدأ مرحلة جديدة من حياتي.

الفصل الخامس

كانت ظهيرةً عظيمةً في مايو يوم حلت الكارثة.

مع حلول منتصف الربيع، كان رضا قد أصبح من زوّار بيت أهلي المعتادين، إذ يأتي في كل نهاية أسبوع ليشاركنا الغداء ويبقى إلى ما بعد العشاء ليعود بعدها إلى بيت أهله في بابل.

كنا متزوجين وغير متزوجين. يبدو وضعاً مربكاً، لكن لم يكن لنا أن نسمي أنفسنا زوجاً وزوجة إلا بعد حفل الزفاف. انتظرنا بفارغ الصبر نهاية الفصل الدراسي، وكان بعد شهر تقريباً.

في نهاية ذلك الأسبوع من شهر مايو، جلست أنا ورضا والآقاجان وهو يذكر كل الأعمام والعمّات وحتى نحو عشرة من رفاق السلاح الذين أراد أن يدعوهم إلى الزفاف. مع استمرارنا في الكلام، ازدادت كآبتي. لقد كانت هذه فرصة الآقاجان ليردّ كل جميلة كان يدين بها. طبعاً، كانت حفلة الزفاف هذه لتكون خاليةً من الموسيقى. إذا أردت تشغيل الموسيقى فيجب أولاً أن تحصل على فتوى من الفقيه المحلي. وستكون الحفلة منفصلة بحسب الجنس.

مع هذا، كنت متحمّسة. لطالما تصارعت مع أبي بشأن السياسة وأسلوب حياتي، لكن في ذلك اليوم على الغداء كنا سعيدين جداً كلانا. مراهقتي المتمردة لم تكن مختلفة عن مراهقة آلاف المراهقين الآخرين، لكن أبي ظلّ يقول أنه بعد الزفاف لن أكون مشكلته هو. وفي كل مرة كان يضحك من قلبه على طرفته هذه.

بعد الغداء، أخذنا غفوة جميعاً. هذه هي ثقافة حياة الريف. نستيقظ باكراً للعمل، ثم

نتغدى ونقيل، لا سيما في نهاية الأسبوع. نام الرجال في غرفة ونمت أنا وأمي في الغرفة الأخرى. استيقظت باكراً وتسملت بهدوء خارج الغرفة لأجلس على الشرفة وأنتظر أن ينضم إلي رضا.

لم يكن الصيف الطويل الحار بعيداً. كانت الأشجار كالعادة ممتلئة بالطيور من كل حجم ولون، معظمها مختبئ بين الأغصان والأوراق، ولكن تغريدها كان صوتاً ممتعاً. جالسةً هنالك وحدي، كان على وجهي ابتسامة كبيرة وأنا أنتظر أن يستيقظ الآخرون. جلست هنالك مدة لا أتذكرها بالضبط، لكنني شعرت فجأة أنني لست وحيدة.

لاحظت حركة في زاوية عيني. عندما نظرت، رأيت رجلاً غريباً يمشي في فناءنا الأمامي دون اهتمام. كان يحيط بمنزلنا وبستاننا سور كبير، مثل كل البيوت الأخرى في القرية، لكننا لم نكن نقفل البوابة الأمامية. كان الجيران يزورون منزلنا دائماً لنشرب الشاي ونتحدث.

ربطت حجابي تحت ذقني ووقفت حتى أراه بوضوح. استطلع الغريب بيتنا وحديقتنا دون أن يهتم بي، كما لو كان يتجنبني عمداً. استطعت فوراً أن أعرف أنه ليس من القرية، لكن شيئاً ما كان مألوفاً فيه. بنطاله الأسود، وقميصه الأبيض المحكم الأزرار حتى عنقه، ولحيته المرتبة، لا شك أن هذه الأناقة لا يمكن أن تكون من قمي كلا.

قفزت من الشرفة واتجهت إليه. في مؤخرة رأسي كانت أجراس الإنذار تُقرع، لكن كل شيء كان وكأنه يجري في ضباب. كانت السماء زرقاء صافية، وكان الهواء اللطيف يحرك الأشجار برفق. انطلق شحور أسود مبتعداً عن شجرة. عندما اقتربت من الغريب، جاءني صوت داخلي يقول إن ما سأواجهه لن يكون حسناً. لكنني لم أستطع إيقاف نفسي. كان لا بد أن أواجهه.

توقفت على مسافة عشر أقدام منه فيما كان ينظر إلي نظرة فارغة. قلت له: «سلام»،

لكن صوتي علق في حنجرتي. أردت أن أكون شجاعة وقوية، لكنني غصت بالكلام.
احمرّ وجهي غضبًا وإحراجًا في الوقت نفسه. ابتلعت ريقِي وبدأت من جديد.

«مرحبًا، هل تريد أبي؟»

نظر إليّ الرجل من أعلى إلى أسفل، إلى وجهي أولاً، ثم إلى صدري، ثم إلى فخذيّ وساقِيّ،
ثم إلى وجهي مرة أخرى.

قال لي بما استطاع من أدب ورسمية: «هل السيد لطفي هنا؟». صدمني أنه كان يبحث عن
رضا وليس عني أو عن الآقاجان. اقترب الغريب خطوة مني، وتراجعت أنا خطوة واستدرت
نصف استدارة إلى البيت لأصرخ لرضا، في اللحظة التي خرج فيها إلى الشرفة وهو يمشط
شعره، لم تزل في عينيه بقية من النعاس، وكانت حركاته بطيئة. والتقت عيوننا.

اتجه الغريب إلى الشرفة. «السيد لطفي؟».

كان صوته مفعماً بالسلطة، كما لو كان يداً تضرب طاولة. شَخَصَ نظر رضا وهو ينظر
إلى الغريب. ثم عرك عينيه، كما لو كان يأمل أن يختفي الغريب بعد أن يعركهما كما لو كان
حلمًا سيئًا.

قال الغريب، بصوت ألطف هذه المرة: «السيد لطفي؟»

توقف رضا عن عرك عينيه، لكن الغريب ظل واقفًا أمامه ومتجهًا إليه. عرف رضا ما كان
آتيًا إليه ونظر إليّ بهلع في عينيه. دون صوت، تحوّل رضا إلى هيكل إنسان منكسر. شحب
وجهه تمامًا. وسقط رأسه أمام عنقه، وصغر حجمه مقاسًا أو مقاسين—أو ربما هذه
ذاكرتي التي تصوّر الأمر هكذا، لأن الأشخاص العاديين لا يتقلصون هكذا. اللهم إلا إذا
كانوا محنّطين. في تلك اللحظة وقف الزمان شاخصًا. صار كل شيء هادئًا. توقفت الطيور
عن تغريدها وخمد هبوب الريح.

مرة ثالثة: «السيد لطفي؟».

أوماً رضا.

قال الغريب، وفي صوته حدّة شديدة: «اجمع أغراضك وتعال معنا».

هنا اتضح لي كل شيء. وقف شعر يدي وعنقي انتباهاً وأنا أدرك الخطر الذي كنا نواجهه. ربما كنت أعلم في عقلي الباطن منذ اللحظة التي رأيت فيها الغريب أن وجوده لن يؤول إلى خير. عرفت حينها أن الغريب كان عضواً في قوة الأمن. لم أكن أعلم من أي فرع من الجهاز الأمني، لكنني كنت قد سمعت قصصاً—كل من في إيران سمعوا قصة أو قصتين من الرعب—والآن عميل سري يقف في فنائنا ويريد اعتقالني واعتقال رضا.

نظرت إلى الغريب، منتظرة أن يطلب أن أجمع أغراضي أيضاً، لكنه لم يبد أي اهتمام.

قال رضا بصوت منخفض خال من المشاعر: «كل أغراضي معي، ليس لدي شيء آخر».

ركضت إلى الشرفة وواجهت رضا. قلت له: «دعني أوقف الآقاجان. هو سيحل الأمر، عنده معارف. هو من البسيج، وله ارتباطات».

أمسك رضا بمعصمي: «لا. لا تفعلي ذلك. لا تخبري أحداً، ستجعلين الأمر أسوأ بكثير». أوشك رضا على البكاء. لم يرد أن يراه أبي وهو يؤخذ على يد شرطة الأمن.

أوماً.

أمر الغريب رضا: «اذهب وانتظر عند البوابة. هيا».

ترك رضا يدي وهمس لي: «خدا/حافظ»—الوداع—ثم اتجه إلى البوابة، حيث كان رجل أمن آخر يحرس المكان.

أردت أن أعانق رضا وأمسك به، لا حُبًّا ولا عشقًا بل لأمنع رجال الأمن من متعة أخذه. مشى الغريب إلى جانبي وتخطاني إلى الشرفة، أربعني أنه دخل إلى الغرفة التي كان ينام فيها الآقاخان. تبعته من ورائه، دون أن أعرف ما الذي سيحدث بعد ذلك.

كان أبي نائمًا على ظهره فوق فراش على الأرض، مرتديًا بنطال بجامته وقميص العمل الذي كان قد انسحب جزئيًا إلى أعلى، ليكشف شيئًا من بطنه. مع أن الغرفة كانت ممتلئة بالظلام، كان يغطي عينيه بقطعة قماش. لم يكن يستطيع النوم إلا في الظلام الدامس.

نظر الغريب في أرجاء الغرفة، واتبعت مسار نظره فرأيت الغرفة من وجهة نظر جديدة، السجادة الآلية الصنع المهترئة، وكومة الفرش في الزاوية، والجدران غير المطلية، وخلو البيت من أي قطعة أثاث. أردت أن أصرخ في وجهه: «نعم، نحن فقراء، لكننا أعزاء، ليس لك أن تعاملنا هكذا»، لكنني احتفظت بأفكاري لنفسى. الزينة الوحيدة في الغرفة كانت في زاوية. كنت قد صنعت إطارًا لعنزة ذات لحية خفيفة وكتبت عليها: «أنا أفكر، إذن أنا موجود». دون أن ينبس بكلمة، أخذ الغريب الصورة من الإطار وطواها، ثم وضعها في جيبه.

انحنى الغريب ونقر برفق على كتف أبي.

«حاج آقا، حاج آقا، استيقظ». عبارة «حاج آقا»، هي عبارة شرفية للذين يحجون إلى مكة، لكنها أيضًا طريقة لمخاطبة الرجال في الأسر التقليدية والمحافظة.

أفاق أبي من نومه مباشرة. تأمل بضع لحظات في الغريب، ثم جلس سريعًا. كان قد استطاع أن يرى اقتراب الخطر. شعرت بإحراجه من كون الغريب قد وجده نائمًا وأيقظه، ولا شك أنه سيكون الآن في مزاج سيئ. عبس لي أبي.

قاد الغريب أبي خارج الغرفة: «حاج آقا، لا بد من أن نعتقل عريسك، صهرك. لقد فعل أشياء لم تكن في صالح دولتنا. كان يخطط ضد المرشد الأعلى».

دون إنذار، اتجه أبي إلي، ثم سأل الرجل وهو ينظر إلي: «ماذا عن هذه؟ هل ستأخذونها أيضاً؟».

«ما زلنا نحقق، لكنني سأفعل ما في وسعي لإنقاذها».

قال الآقاخان: «يعلم كل أهل قمي كلا أنني أفدي المرشد الأعلى بحياتي، اسأل حولك وسيؤكد لك الجميع».

أخرج الغريب الصورة التي كان قد أزالها ن الإطار وفتحها أمامي.

«ما المقصود بهذه الصورة؟ ما معناها؟»

قلتُ: «هي مجرد عنزة».

قال بصوت متودد: «إذن أنتِ لست تهزئين بالمرشد الأعلى؟».

اشتعل أبي غضباً، وأشار باتجاهي: «اعتقلوا هذه أيضاً». ثم قال لي: «أوف بر تو». عليك العار. ثم رفع يده ليصفعني، لكنها ظلّت في الهواء. «أنت أثيمة جداً، إن الشيطان ليخجل من أفعالك. لم يأتني منك إلا الخزي».

لم يرد الآقاخان مني إلا أن أكون فتاة عادية، وأن أتزوج وألد أطفالاً، لكن كل شيء الآن أصبح مرّاً. ركضت حافية القدمين إلى البوابة لأودّع رضا قبل أن يأخذه، لكنني وصلت متأخرة.

صرختُ: «رضا»، لكن ردّاً لم يأت. شاهدته وهو يدخل بوداعة في المقعد الخلفي لسيارة بيكان مع رجال الأمن.

كانت مجموعة من الفتيان على بعد خمسين قدماً يتبادلون الأدوار في قيادة دراجة عتيقة، غير ملتفتين إلى كل ما يجري هنا. كانوا يصرخون ويضحكون ويتصارعون إذ اختلطت

عدة أذرع وسيقان ورؤوس في مشهد واحد. من قريب، انتفض عادم سيارة أخرى مختلفة، كان كصوت رصاصة في مسدس دوار، وهو ما نبهني وأبعد الطيور عن الأشجار. لعل أن مئة طير حينها صفق بجناحيه وانطلق إلى المدار المستدير حول الأشجار في فنائنا. سألت أُمي بقلق: «ماذا عن الزفاف؟ هل سيسمحون له بالخروج؟».

كانت في الحقيقة تريد أن تعرف إن كانوا سيأخذونني أنا أيضًا. كان سؤالًا ذكيًا. غادر رجال الأمن، لكن رائحة الخوف ظلت في الهواء. كنا قلقين جميعًا مما سيأتي. لم يزل أبي منذ شبابه مؤمنًا حقًا بالجمهورية الإسلامية، لكن أبنائه لم يشاركوه هذا الإيمان.

قال أبي، دون أن يوجه الخطاب إلى أحد، وهو يتمشى صعودًا ونزولًا إلى الشرفة: «فليأخذها الشيطان. فلتذهب إلى الجحيم». كان غاضبًا جدًّا. «لو أمرني المرشد الأعلى لأخذتها بنفسى إلى السجن. لقد خالطت ابنتى أعداء الثورة».

لم يحدث لأبي شيء من هذا القبيل من قبل. كان معتادًا أن يكون هو الذي يفرض أحكام الإسلام؛ الآن أصبح متحيرًا ومنزعجًا. كان ينظر إلي بغضب حقيقي. عندما كنت أصغر، كنت أشعر بأمان معه؛ كنت أعلم صعوبة مزاجه وأستطيع أن أتوقع أفعاله بمراقبة العلامات الصغيرة، مثل عدد الدجاجات التي باعها في رحلاته إلى بابل، وطريقة خلعه لحذائه ومعطفه، وطريقه طلبه لكأس الشاي بعد يوم من العمل في الحقول. نعم كان أحيانًا صعبًا ومخيفًا، لكنني في السنة الماضية فقدت قدرتي على قراءة مزاجه. لم يتغير هو تغيرًا كبيرًا. أنا التي تغيرت، وفي هذا التغير صرت قليلة الانتباه إلى هذه العلامات الصغيرة.

قال مرة أخرى: «أوف برتو». عمًّا قليل سيتحدث أهل قمي كلا جميعًا كيف فقد الآقاخان سلطته على أسرته. إنه لخزي فوق كل خزي.

أما أنا فكان عندي مخاوف أخرى.

لطالما كنت غائبة الذهن شاردة إلى درجة كبيرة-لطالما نسيت كتبي أو فقدت نقودي أو تركت مفاتيحي في الباب. لكنني أدركت الآن أن علي أن أنبه أخي علي وبقيّة أعضاء كاهه بشأن اعتقال رضا. قد يُعتقل آخرون أيضًا. كان علي قد ابتداء خدمته العسكرية في أرومية، ثاني أكبر مدينة في محافظة أذربايجان، قرب الحدود التركية، وكان التواصل معه في فترة التدريبات الأساسية مستحيلًا.

أردت أن أحذر ليلي، أخت رضا، وأسرتها. يجب أن نحرص على ألا يبقى أي دليل يدين رضا. ليس في بيتنا أي هاتف. في الحقيقة، لم يكن في القرية كلها أي هاتف. لكن كان في قرية نوشروان كلا وهي أقرب قرية إلينا، مركز للاتصالات. كثيرًا ما كنا نمشي إلى هناك أو نركب الباص لنملاً النموذج لمدير المركز، إذ نكتب فيه الرقم الذي نريد الاتصال به. فإذا جاء دورنا، دُعينا إلى جهاز صغير ذي شاشة وله باب زجاجي وهاتف في الداخل.

قلت: «علي أن أخبر ليلي بشأن الاعتقال».

قالت أمي: «ليست مسؤوليتك. يجب أن تبقي هنا مع أسرتك».

لم يكن ليمنعني شيء. مسحت سترتي بذراعيّ، وارتديت حذائي الأبيض، وانطلقت. أسرع لتجاوز الفتيان الذين لم يزالوا يتبادلون الأدوار على دراجتهم، ثم أبطأت لأركض ركضًا على وتيرة واحدة فوق الطرق الترابية وغير الممهدة جانب حقول الرز وبساتين الفاكهة. مرت من جانبي عدة سيارات دون أن تعيرني أي انتباه. كنت وحيدة مع أفكاري. لقد أخذوا رضا، لكن من التالي؟ كنت أفكر. لم أتوقف في نوشروان كلا بل مضيت إلى القرية التالية، شيخ محلة. لم أكن قد استعملت مركز الاتصالات هناك من قبل لذلك رجوت ألا يعرفني أحد. لم أصل إلى المكان إلا وأنا منهكة وعطشى ومتلخخة بالغبار.

اتصلت بأبوي رضا، ومن حسن حظي أن ليلي أجابت. قبل أن أخبرها بالأخبار، أفصحت عمّا في صدرها: «كانت الشرطة هنا في الصباح. كانوا يبحثون عن رضا».

قلتُ بلهجة حزينة: «لقد كان معنا. لقد أخذه». كانت جدران غرفة الهاتف دقيقة، وكنت قد وعيت فجأة إلى أن مركز الاتصالات أصبح هادئاً جداً. «سأخبرك بالباقي عندما أراك».

أخذت الباص إلى بابل ومشيت إلى بيت أهل رضا. كانت الفراشات تتراقص فوق معدتي عندما وصلت إلى جرس بابهم، ولم أكن متيقنة من الاستقبال الذي ينتظرني. أم رضا، بانو، كانت تقليدية إلى حد ما، وترتدي شوذرها دائماً كلما غادرت المنزل، مثل أُمي. كانت تحب ابنها الوحيد رضا حباً جماً، وكانت تشك في أمري دائماً لأنني أخذت مكانها في قلبه. كانت بانو تعتقد أنني مرتفعة الصوت وبشعة ونحيلة جداً-فتاة ريفية تريد أن تكون بنت مدينة، دائماً تجادل، ودائماً تتحدث.

لكن اليوم، لم يكن لدي أحد آخر. لقد شعرت بالاغتراب في أسرتي. كنت محتاجة حقاً إلى وجه ودود. سمعت صوت خطوات وراء الباب، وفتحت بانو الباب قليلاً لتنظر إلى الخارج. كانت عيونها قد احمرت من البكاء، لكنها ابتسمت عندما رأتني، وهنا سقطت بين ذراعيها عاجزةً عن تدارك دموعي.

قلت لها وأنا أصف أحداث اليوم: «لقد أخذه لكنه كان شجاعاً جداً». لا أعرف كم بكيت يومها، لكنني استرحت لوجود مكان أستطيع أن أشعر فيه بالأمان.

كررت التفاصيل عدة مرات وأجبت عدة أسئلة بشأن اعتقال رضا حتى رضيت بانو. في النهاية، عانقتني بقوة. كانت رائحتي رائحة عرق وغبار. لم تستطع بانو أن تتحمل أكثر من ذلك، فأرسلتني إلى الحمام لأستحم. لكن حتى حينئذ، فيما كانت المياه المتدفقة تنصب علي، لم أستطع الاسترخاء. لقد ذهب التراب والرائحة نعم، لكن الخوف بقي.

فيما بعد، حين قعدنا لتناول الشاي في المطبخ، وكنت بالكاد أستطيع فتح عيني، كان شيء ما يورق بانو. ظلت تسألني: «لماذا أخذه؟». صبت لي كأس الشاي من جديد، «ما الذي كنت تخططون له؟ ما الذي فعلته أنت؟ لا بد أنك فعلت شيئاً».

قلت: «لم نفعل أي شيء. قرأنا بضعة كتب وكتبنا عنها. هذا كل ما فعلنا، أقسم لك»، وبدأت أبكي من جديد.

سألته بانو فجأة: «هل تحبين ابني رضا؟». لم تكن دموعي قد أثرت فيها. جعلت بانو يديها كالإطار تحت ذقني. «رضا تابع، لا قائد. ما المشكلة التي أدخلته/نت فيها؟ كيف قدت ابني إلى المشكلات؟».

كانت بانو مقتنعة أنني أنا التي كنت وراء المشكلة. رفضت الأكل ورجوتها أن تدعني أنام.

سألته ليلى وهي تفتح فراشاً أرضياً لي: «لماذا لم يعتقلوك؟».

كان سؤالاً جيداً.

أرادت أن تتحدث أكثر لكن النوم غلبني من شدة التعب.

في الصباح التالي، اتجهت إلى المدرسة كما لو كان يوماً عادياً. لكنه لم يكن كذلك. على الطريق، كنت دائماً أنظر خلفي، خائفة من كل سيارة بيجان بيضاء تمر بجانبني. كان على الطريق سيارات كثيرة بهذا الوصف، لكن أحداً لم يعرني أي انتباه. لا أذكر كثيراً ما جرى في المدرسة، لأنني طول الوقت كنت أنتظر أن أعقل في أي لحظة. حلفت لنفسي أن الشرطة إن أتت لتأخذني، فلن تأخذني دون نزاع. في عقلي، أدت عدة سيناريوهات بشأن مقاومتي لرجال الأمن، حتى إنني قد أركض إلى الطريق وأرمي نفسي أمام سيارة. لم أستطع الجلوس في الصف إلا بصعوبة. نعم، حتى في أفضل أيامي لم أكن طالبة جيدة، لكنني اليوم على أشد أعصابي.

عدت إلى بيت بانو بدلاً من بيت مينا أو قمي كلا. لم أشعر بالقدره على مواجهة أختي أو رمزون. لم يكن أحد يعرف ما جرى برضا. جرب هرمز وبانو أن يسألا الشرطة ووزارة الاستخبارات، لكنهما لم يحصلوا على أية معلومات. كلا الجهتين أنكرت وجود رضا عندها.

هذا معناه أننا في أزمة كبيرة. حاولت بانو أن تكون لطيفة، لكنني لاحظتها مرة بعد أخرى وهي تحمق فيّ وعلى وجهها عبوس. لم تقلها بصراحة، لكنها كانت في داخلها تلومني على اختفاء رضا.

في الصباح التالي، لم أذهب إلى المدرسة، بل ركبت الباص واتجهت إلى قمي كلا. كنت أعلم أن أبي سيكون في الخارج يتجول بالدجاج والبيض في الشارع، لذلك كانت عودتي إلى البيت لتغيير ثيابي ومحادثة أمي آمنة. كنت أشعر بوحدة شديدة.

سألته أمي وقد استراحت لرؤيتي: «معصومة، أين كنت؟». كانت سعيدة لرؤيتي، وفي تلك اللحظة، نسيت كل مخاوفي وأسعدتني عودتي إلى كوني فتاتها الصغيرة من جديد. «لقد كنا قلقين، أين أقمت كل هذا الوقت؟».

قلت بسرعة: «كنت في بيت بانو. لم يستطيعوا أن يجدوا رضا. كلنا قلقون عليه حقاً». صمتت أمي.

طمأنتها: «لا تقلقي، لن يعتقلوني. الأمر كله خطأ كبير».

لم يبدُ على أمي الاقتناع. لم أهتم لأنني كنت سعيدة بالعودة إلى المنزل. بدلت ثيابي وارتديت ثياباً نظيفة، وأعدت لي أمي بعض الشاي لأشربه وأحضرت لي طبقاً من الخبز الطازج والجبن والخضار. فيما كنت أكل، جعلت أمي تحاضرني عن الالتزام والواجب وشرف العائلة. كانت محاضرة قد ألقته إلي عدة مرات من قبل، لكنني لم أكن هذه المرة في مزاج يساعدني على الاستماع.

كنت أعلم أن أمي تحبني حباً كاملاً ومطلقاً، وكنت متأكدة من كوني ابنتها المفضلة. وكنت أنا أيضاً أحبها، لكنني لم أرد أن ينتهي بي الحال مثلها. كنت أفكر وهي تحاضرني: لم أزل في حادثة سني. أريد أن أعيش حياتي كاملة، دون طأطأة ولا خوف، لأنه ليس عندي إلا

هذه الحياة، لذلك أردت أن أجعل كل يوم مغامرة جديدة. أما أمي فكانت ترى أن للعائلة والسمعة معاني لست أدركها. كانت أيامها دائماً متوقّعة، أما أنا فأردت أن تكون أيامي مليئة بالمفاجآت. بسبب اعتقال رضا، صارت الآن على أرض غير مأمونة، وهو ما أقلقها.

أرادت أمي بكل استماتة أن تحميني، لكن للأمن والسلامة ثمناً، كما أن للتحدي ثمن. لم أرد أن يمنعني أي شيء من فعل ما أعتقد بصوابه: لا حب الممتلكات الدنيوية، ولا الأواصر الأسرية، ولا حتى خوف الإخفاق.

تردد في البيت قرع مرتفع على الباب. كانت أمي قد قفلت الباب الأمامي بعد اعتقال رضا، حتى لا يأتي أحد دون إعلام ودون دعوة. ارتدت أمي شوذرها واتجهت إلى الباب. كان الناس يزورون بيتنا كل حين، لذلك لم يكن لدينا داع للقلق. شاهدتها وهي تفتح الباب وترجع إلى الورا خطوتين. دخل إلى البيت رجل أمن لم يكن أكبر مني بسنوات كثيرة. كان يرتدي قميصاً مفتوحاً وكان ذا لحية وشعر أسود ثخين. كان هذا هو الزي الرسمي غير المعلن لعناصر الأمن. أجال الرجل عينيه في المكان إلى أن وجدني، ممسكةً بكأس من الشاي في يدي.

في اللحظة التي رأيته فيها، عرفت أنه سيعتقلني. كان ينظر كصياد قد وجد الآن فريسته. أما آمالي الطفولية بأنني سأستطيع تجنب انتباه أجهزة الأمن فقد تحطمت كلها.

«خانم معصومة؟» خاطبني باسم السيدة معصومة. ثم قال بفضاضة: «اجمعي أشياءك وتعال معي».

جاوبت أمي عني: «لم تفعل شيئاً. هي لا تعرف شيئاً، لقد أخذتم خطيبها، فالآن دعوها وشأنها».

«لا عليك يا أمي. لا تقلقي، نريد أن نسألها بضعة أسئلة فقط».

«لقد قررا للتو الزواج، لكنهما لم يكونا قريبين ذلك القرب. هي فتاة بسيطة، لا تعلم شيئاً».

«سيكون الأمر سريعاً، حاج خانم، لن نحتاج إلى وجودها طويلاً—سنسألها بضعة أسئلة ثم نعيدها مباشرة إليك». ابتسم الرجل لأمي ليطمئنها. كان حريصاً على ألا يلمسها، لأن لمس امرأة ليست من ذوي القربى ذنب.

لم أقل شيئاً، كنت آمل أن تقول أمي شيئاً لتقنعه بتركي.

نظر إلي الرجل من جديد: «خانم. ارتدي شوذرك ولنذهب».

قلتُ بصوت مرتفع: «لن ألبس شوذراً»، وانتفضتُ خارجة من الغرفة دون انتظار رد.

صاح رجل الأمن: «عليك أن ترتدي شوذراً عند الدخول إلى المكاتب الحكومية. إذا كنت ستفتعلين مشهداً، فسأستدعي بالراديو امرأة من عناصر الأمن لتلبسك الشوذر». ثم توقف في حيرة، وأضاف: «أنت تجعلين الأمر أسوأ على نفسك».

أصاب أمي الهلع إذ هُرعَت ورائي. «أرجوك ارتدي شوذراً، لا تجعليه يغضب». قالت والدموع في عينيها. «لقد قال إنه سيعيدك مباشرة. لا تجعلي مصيرك أسوأ».

لم ترد أمي أن تفقد ماء وجهها أمام غريب. بطريقة ما، كان الاعتقال أخف وطأة من عدم ارتداء شوذر.

قلت: «أكره الشوذر الأسود. لا أرتديه في المدرسة، ولن أرتديه الآن. إنه يجعل مظهري كالغراب».

لم أرد أن أضحي بمبادئ. لقد ناضلت ضد ارتداء الشوذر وأتعبت أبي وأمي حتى لا أضطر إلى ارتدائه وأنا في المدرسة. لم يكن الأمر مجرد رأي في الموضة. بل كان متعلقاً بهويتي. لم أرد أن أظهار أنني شخص ليس أنا. كرهت ارتداء الشوذر حتى في تلك اللحظة. كنت

أشعر بالكراهية في جسدي-ليس لأحد أن يجبرني على ارتداء الشوذر.

قلتُ بغضب فاجأني حتى أنا: «لهم أن يعتقلوني لعدم ارتداء الشوذر، في الحالين سأذهب إلى السجن. سيكون لهم حرية اختيار التهمة».

أمسكت أُمي بأصابعي الناعمة والرقيقة بيديها الخشنة: «عزيزتي معصومة، كُفّي عن هذا رجاءً. لا تفتعلي مشهداً الآن، لو رأنا الجيران...».

سالت الدموع على وجه أُمي. تأملت في وجهها وعليه خطوط الدموع، وفي يديها المتقرحتين. لم يكن حقيقاً بها أن تبكي. كنت أعلم أنها تكدح كل يوم، في المزرعة وفي المطبخ، لكنها لم تشتك يوماً من صعوبة الحياة وشدتها عليها. لم أستطع أن أراها تبكي. شعرت بالذنب، وضعفت إرادتي.

اضمحل النزاع مني. الآن جاء دوري لأبكي بصمت. لم أكن مهتمة بشأن اعتقاله، لكن كنت منزعة لأنني أعرف أنني قد استسلمت وارتديت الشوذر الكريه.

ركضت أُمي إلى الزاوية وعادت إليّ بشوذر أبيض عليه نمط ورود، أخذته من صندوق خشبي. «خيّطتُ هذا ليكون شوذر عرسك. أبيض وعليه نمط جميل»، قالت بلهجة منتصرة.

قلتُ لها: «لم أكن أخطط لارتداء شوذر في عرسي». كنت قد نسيت وضعي الحالي وأن رجال الأمن ينتظرون في الخارج. «لم نناقش هذا الأمر من قبل. كنت تعلمين أنني لن أرتدي شوذراً في عرسي».

قالت أُمي وهي تلبسني الشوذر: «ستحيط بك البركة مع هذا الشوذر. سيحميك هذا الشوذر. أعلم أن أذى لن يصيبك الآن وأنت ترتدين شوذر عرسك».

بالنسبة لأُمي، كان الأمر وكأنني أرتدي درعاً في طريقي إلى المعركة، مثل الأبطال الأسطوريين في كتب التاريخ. سألقي أمانة ما ارتديت هذا الشوذر، هكذا قالت. بمعنى من

المعاني، كنت ذاهبة إلى الحرب فعلاً، لكنني كنت محتاجة إلى شيء ليس مجرد قطعة قماش. قادتني أُمي إلى البوابة الأمامية. مشى العنصر أمامنا وفتح الباب الخلفي لسيارة بيكان بيضاء فيما كنت أودّعها.

قالت أُمي: «قال الشاب أنك ستعودين عما قليل. قولي الحقيقة وستعودين لتتناولي العشاء».

عانقتها بشدة حتى أنني شعرتُ بقلبها يخفق في صدرها.

الفصل السادس

مشيت مضطربة إلى سيارة بيكان البيضاء. أغلق الباب من خلفي وانطلق السائق فور دخول عنصر آخر. كان في مقعد السائق رجل ثالث، وكانت النوافذ الأمامية مفتوحة.

قال العنصر: «اخفضي رأسك»، وكذلك فعلت، ليعصب عيني بعصاة لم أستطع بعدها أن أرى إلا الظلام. لم أجد حتى فرصةً لأستدير إلى أمي وأنظر إليها نظرة أخيرة. كنتُ خائفة لكنني صممت على ألا أظهر خوفي. في الحقيقة، في كل مرة أخاف، أصبح أقوى.

«كم من الوقت تريدون أن تحتفظوا بي؟»

ردّ صوت صارم: «صمتًا»، يبدو أنه من السائق، بناءً على اتجاهه.

قال العنصر الأقرب إليّ: «يجب أن يحافظ السجين على صمته»، حريصًا على أن أفهم الأمر. «أمي تنتظرني قريبًا».

ردّ العنصر: «اخرسي. لن أحذرك مرة أخرى».

بعد ذلك، سارت السيارة بصمت مدة طويلة. اتخذ السائق مسارات متعرجة على الطرقات الضيقة والترابية في قمي كلا، وكان ينعطف بسرعة كبيرة، وهو ما جعلني أرتجّ على المقعد الخلفي. حاولت أن أتخيل الطرقات التي لطالما مشيت فيها والقرى الضئيلة التي تتناثر على الطريق إلى بابل. هبّت ريح جميلة في السيارة. كان الظلام الدامس مقلقًا أول الأمر، لكنني بعد ذلك فقدت نفسي وأنا أسمع زمامير السيارات، وصرير الفرامل وأصوات الدراجات النارية وهي تتجاوزنا بسرعة.

بدأ السائق يقرع زموّر السيارة ثم ضغط الفرامل. لم أجد نفسي إلا وقد دُفعت بأقصى

سرعة إلى ظهر المقعد الأمامي فيما توقفت السيارة. طرقت رأسي بالباب. صرختُ من ألمي ومددت يدي إلى عصابة العينين لأزيلها.

قال العنصر: «لا تلمسيها. يجب أن تبقى على عينيك كل الوقت».

قلتُ وأنا أرجع ظهري إلى الوراء: «أنت تقود بطريقة... لا تُسرع هكذا».

أخيراً وصلنا إلى محطتنا الأخيرة وتوقف محرك السيارة. فُتح أحد البابين الخلفيين وطلب إليّ المغادرة. أعطاني العنصر بجانبني قطعة قماش ملفوفة ومجدولة كالحبل.

قال لي: «أمسكي بهذا واتبعيني».

أمسكت بالحبل، واستعملت يدي الحرة لأرفع عصابة العينين حتى أعرف أين أنا. كنا متجهين إلى مبنى حديث ذي أربعة طوابق، كُتب على مدخله بخط ضخّم: وزارة الاستخبارات في بابل. أنزلت يدي واتبعت العنصر إلى داخل المبنى. مشينا في ممر طويل وجعل صدى خطواتنا يتردد على سطحه القاسي، ثم انعطفنا مرتين إلى اليسار قبل أن أسمع صوت مفتاح يدخل قفلاً شعرتُ من صوته أنه قديم الطراز.

أمرني العنصر: «ادخلي»، ودفعني تشجيعاً. حالما دخلت، صُفّق الباب من خلفي.

أزلت عصابة عيني بحذر لأجد نفسي في زنزانة صغيرة ذات باب معدني أحمر. حاولت فتح الباب فلم ينفتح. كانت مساحة الزنزانة نحو خمسة أقدام بخمسة أقدام، وكانت أرضيتها قاسية ووسخة، وتملاً جدرانها المتسخة رسوم وكتابات. كان غريباً عدد الأدعية المكتوبة على الجدران، الأدعية التي وُجّهت إلى إله أهمل الذين نقشوها. لو مددت ذراعيّ لاستطعت أن ألمس جدارين في الوقت نفسه. وفّر لي بعض الراحة والنور المصباحُ الخافت المثبت على السقف المكون من صفائح معدنية مموجة. كان الهواء شديد الرطوبة وراكداً—كان تدفق الهواء النقي الوحيد يأتي من فجوة لا تزيد عن أربعة إنشات بين الباب الأحمر والسقف.

أخذت ثلاث خطوات وارتطمت بأحد الجدران، ثم استدرت وأخذت ثلاث خطوات لأرتطم بالجدار الآخر. جعلتُ أخطو إلى الأمام والخلف بضع دقائق لكنني سرعان ما تعبت.

انقطع الخوف من قلبي. لقد كنتُ خائفة في السيارة، لكن الشعور الآن ذهب، أما الآن وأنا في الزنزانة، فقلقي الوحيد هو أن الأرضية وسخة جدًا لا يمكنني أن أقعد فوقها. كنت حقًا أعتقد أن هذه مغامرة كبيرة، لم أكن أعتقد حتى حينها أنني فعلتُ خطأ، وكنت أتوقع إطلاق سراحي قريبًا. سأجيب عن بضعة أسئلة ثم سأغادر، كما قال العنصر لأمي.

مرت دقائق وأنا أمشي في أرجاء الزنزانة. لم يأت أحد. بالتدريج، حلّ شعور من القلق. كان المكان هادئًا جدًا. لم أستطع سماع أي صوت. لا أصوات مكتومة، ولا أزيز آلة، ولا أصوات أبواب تُصَفَق، ولا شيء. أتذكر بوضوح الصمت الذي حلّ. في أحد دروس العلوم، تعلمت أن في الفضاء صمتًا مطلقًا، والآن شعرت كأنني هناك في الفضاء. استندت إلى الحائط، دون أن أحرك عضلة واحدة، وتباطأ تنفّسي. كنت أريد أن أسمع ولو صوتًا واحدًا حتى أعرف أنني لست وحيدة. كان الصمت مخيفًا. كان قويًا جدًا إلى درجة أنني أنا أيضًا لم أرد أن أصدر أي صوت. تسللت إلى عقلي أفكار مخيفة—ماذا لو حدث زلزال؟ أنا وحيدة هنا ولا يعرف أحد أنني هنا. هل سيتذكرون أن ينقذوني؟ جعلتُ أتساءل.

دقت الدقائق واحدة بعد أخرى. كان الهواء مثقلًا بالرطوبة وأنا غارقة بالعرق.

فجأة ودون سابق إنذار، انفجر فوقني صوتُ رعدٍ مخيف. هطلت ملايين قطرات المطر فوق السقف المعدني المتموّج، كأنها رصاص يُطْلَق من رشّاش سماوي على زنزانتني. ثم رعدت السماء مرة ثانية، ثم الثالثة ورابعة، لتصدر أصوات رعد سريعة. إنها آلة حرب العاصفة الصيفية.

قفزت من صوت أول انفجار للرعد، ومن هُلَعي هُرعت إلى الباب الأحمر وطرقته بكلتا يدي، لكن الضجة التي صدرت غرقت تحت الأصوات والضوضاء التي كانت فوق رأسي.

صرخت: «أخرجوني من هنا». لم يأت أحد. لم أكن أعرف إن كان أحد يسمعي. بدأت أبكي وأضرب الباب. قرفصت وراء الباب، أمله أن ينقذني أحد، لكن أحدًا لم يأت ليساعدني.

كما جاءت العاصفة بسرعة، غادرت بسرعة، وتوقف من بعدها سيل الأمطار على سقف زنزانتي. إلى اليوم، يُصيبني القلق والذعر عندما ترعد السماء وتبرق.

ثم توقف المطر، وسمعت ضجة خارج زنزانتي، وأبوابًا تفتح وتغلق وأصوات ناس—لكنها كانت خافتة جدًا فلم أستطع فهم شيء منها. ثم جاء صوت رنين مفاتيح خارج بابي، ليُفتح من بعده. وضع الحارس صينية معدنية فيها إناء من الآبغوشت، حساء اللحم، وقطعة من الخبز وكأسًا من الماء، على الأرض. كانت بادرة مريحة. قطعة من اللحم تطفو على بحر من الماء الدهني. لم تكن رائحة الحساء جميلة، أما الطعم فلم يكن يشبه طعم طعام أُمي مطلقًا. اقتطعت من الخبز البائت قطعًا ورميتها في الحساء وتناولته كله. كانت قطعة اللحمه قاسية وكان طعمها كأنها لم تأخذ حقها من الطهو، إذ اضطررت إلى مضغها مدة طويلة قبل أن أستطيع بلعها.

لو كان في الزنزانة فراش، لكان أسعدني أن آخذ غفوة عليه. لكنني جعلت أضرب الباب وأطلب أن أخرج لأستعمل المراض. افتعلت ضجة كبيرة قبل أن أسمع خطوات تقترب.

قال الحارس من وراء الباب المقفل: «كان ينبغي أن يخبرك أحد بالقواعد». لم يكن لي أن أستعمل المراض إلا ثلاث مرات في اليوم، هكذا قال الرجل، لذلك فالأفضل أن أستعملها بحكمة.

قال الرجل: «في كل مرة، قبل أن أدخل، سأقرع الباب، وسترتدين عصابة عينيك، وترتدين شوزرك، ثم تقعدين على الأرض وظهرك إلى الباب. ثم يجب أن تقولي «جاهزة»، وركّز على الكلمة الأخيرة. «لن أفتح الباب حتى تقولي هذه الكلمة، مفهوم؟».

«أحتاج إلى استعمال المراض حقًا».

«هل سمعتِ ما قلته؟ هل تتذكرين ما أخبرتك الآن به؟»

بتردد، ربطت العصاة على عيني، ولففت الشوذر عليّ، وجلست بحذر شديد. كرهت أن يتسخ شوذري الأبيض الجميل، لكن لم يكن لدي خيار آخر.

صرخت بأعلى صوتي: «جاهزة».

فُتح الباب ودخل الحارس. نقر الحارس كتفي بحبل ثخين.

قال بفضاضة: «أمسكي هذا. ألم يُخبروك أن ترتدي الأسود؟». بدا على الرجل أنه انزعج من شوذري الأبيض المورّد.

«اتبعيني».

أمسكت بالحبل بيد، وباليدين الثانية أمسكت بشوذري تحت ذقني، واتبعت بهبطاء. شعرت بضعف شديد. هذا هو شعور العُميان، هكذا فكّرت حينها. قادني الرجل إلى المرحاض، وهناك أزلت عصاة العينين. الآن، زنزانتني والمرحاض هما المكانان الوحيدان اللذان أستطيع فيهما إزالتها.

عُدت إلى زنزانتني ومرت الساعات. لم أكن خائفة، لكن الملل والتعب كانا قد نالا مني. الملل تحدّ حقيقي في أي اعتقال. جلستُ وتأمّلت السقف. قرأت الرسوم والكتابات على الجدران؛ حتى إنني غنيت لأروح عن نفسي. بعد مدة من الزمن، جاءت صينية طعام أخرى، مع بطانيتين. لففت البطانية الثقيلة تحتي لأجلس عليها وسحبت الأخرى فوقِي، وحاولت أن أنام وأنا أرتدي ثيابي كاملة. كانت ليلة خالية من النوم ومليئة بالتقلب والحركة، كنت أحاول أن أجد وضعية مريحة. كانت البطانيات قاسية وسميكة ولم يُطفأ الضوء طول الليل. خشيت أن يكون في المكان فئران أو حشرات، أو أن تكون في أرجاء الزنزانة حرائش ستتجول وأنا أغفو. منذ صغري كنت أتقزز من الفئران والحشرات، لذلك تفحصت المكان

باستمرار.

رجوت أن تكون أُمي والآقاجان قلقين بشأن غيابي. اشتقت إلى أسرتي وأردتُ أن يكونوا مهتمين بشأني، ورجوت أن يجعلوا الأمر خطبًا عظيمًا. تساءلت في نفسي عن كون أُمي تخيلت من قبل أن شوذر عرسي سيرى داخل زنزانة. الأرجح أنها لم تتخيل ذلك.

في الصباح التالي، اضطربتُ لصوت صينية الفطور المعدنية. قطعة من الخبز، ومكعب ضئيل من الجبن المالح، وبعض الشاي. صاح حارسٌ من وراء الباب: «أسرعي وضعي عصاة العينين، ستلاقين بعد قليل/البازجوها»-المحققين.

ملأني الخوف، وفي الوقت نفسه شعرتُ بنوع من الراحة. لم أكن ساذجة، لكنني لم أعتقد أن جرائمى كبيرة، وتخيلت أن بلائي سينتهي قريبًا على أرجح الظن. بعض أن قضيت معظم اليوم وحدي، تطلعت إلى محادثة إنسان آخر. ركل الحارس الباب ثلاث مرات.

صاح الحارس: «هل وضعت عصابتك؟».

رددت: «نعم».

«يجب أن تقولي: (جاهزة)»، بدا على صوته الانزعاج.

«جاهزة».

نكزني الحارس بالحبل، ومشيت وهو يقودني إلى جزء آخر من المبنى، إذ انعطفنا مرتين قبل أن ندخل غرفة.

جاءني صوت أجش لم أكن قد سمعته من قبل: «اجلسي». لم أستطع أن أراه، إذ كنت معصوبة العينين، لكن حواسي الأخرى كانت تعمل فوق طاقتها. كانت رائحة الغرفة تعبق بالنيكوتين والخوف.

هبطتُ بخوف إلى الأرض ولففت شوذري حولي كأنه عباءة، وأمسكت به بشدة. كان في الغرفة محققان، كلاهما واقف خلفي. مع مرور الأيام، صرت أفكر فيهما على أنهما //البازجو المخيف و//البازجو المستشار-وهي الكلمة التي استعملها ليصف نفسه. كان للمستشار صوت حزين، وقال إنه سيصبح صديقي. لقد كان نموذج الشرطي الصالح والشرطي السيئ المعتاد، لكن الفرق هو أن الشرطي الصالح كان يتظاهر أنه ليس شرطياً أصلاً.

تحدث الرجلان بنبرات خافتة. أملت رأسي باتجاههما، راجيةً أن أفهم كلمة أو كلمتين قد تريحان ذهني. في النهاية، سحب أحدهما كرسيه على الأرض ببطء حتى أصبح ورائي تماماً. شعرتُ بضعف شديد وأنا على الأرض، لا سيما مع اقتراب صوت انسحاب الكرسي على الأرضية.

قال الرجل بنبرة واقعية، وكأنه يعرف كل شيء: «الكل يتكلم في النهاية. سأسألك كثيراً من الأسئلة وستجيبيني بالحقيقة. أستطيع دائماً أن أعرف عندما يكذب عليّ أحد، فلا تضيعي وقتي. أخبريني بالحقيقة وسننتهي سريعاً جداً».

انتظر المحقق ردي لكنني التزمت الصمت.

صرخ الرجل: «مدي يدك».

مددت يدي بخوف من تحت شوذري. شعرت بشيء بارد وثقيل.

قال المحقق: «هذا جنزير متين أستعمله على الذين لا يتعاونون. فكري قليلاً في مقدار الأذى الذي قد يسببه لك. فقط فكري في الأمر».

خرج الرجلان من الغرفة، وتركاني وأنا أمسك بالجنزير. لم أكن شجاعة مطلقاً فيما يتعلق بالألم الجسدي. هل كان حقاً ليضربني بهذا الجنزير؟ جعلت أساء نفسي. كنت خائفة جداً، إلى درجة أنني لم أزل عصابة عيني حتى بعد مغادرتهما.

بعد مدة، فُتح الباب وعاد البازجو المستشار. جلس الرجل على الكرسي خلفي. كانت عيناى معصوبتان لكننى استطعت الشعور بحركته.

قال المستشار: «لأجل مصلحتك، رجاء أخبريه بالحقيقة». ثم انحنى قريباً منى. «أنا لستُ إلا مراقباً، لستُ محققاً. أنا هنا لأضمن أن الإجراءات تُتبع على نحو صحيح، لكن مزاج المحقق يا زميلتى صعب جداً. أخبريه بما يحتاج إلى معرفته ولن يصيبك أذى».

كان المستشار يتحدث بصوت ناعم جعلنى أثق به. كدتُ أن أسأله إن كان من قمى كلا. نعم، يبدو السؤال غريباً، لكننى شعرت أنه إن كان من قرىتى، فسيعتنى بى، ويضمن خروجى من هناك قطعة واحدة. لقد كنت أحتاج إلى صديق، إلى أحد يقف معى فى محنتى فى ساعات التحقيق الطويلة.

عاد البازجو المخيف وبدأ التحقيق. بنبرة ثابتة لا تتغير، سألتنى الرجل عدداً من الأسئلة الأساسية، مثل تاريخ ميلادى وعنوان بيتى، كما لو كان يملأ نموذجاً، ثم بدأ يسأل عن إخوتى وأعضاء أسرتى. سألتنى بعد ذلك عن مدرستى ولماذا انتقلت من الأولى إلى الأخرى.

سألتنى فجأة: «هل لك شعبية فى المدرسة؟ من أعزُّ أصدقائك؟»

قلتُ: «لقد انتقلت حديثاً من مدرستى. ليس لدى كثيرٌ من الأصدقاء».

«ماذا عن المدرسة السابقة؟»

قلتُ بعناد: «لم يعد بيننا اتصال». لم أكن لأخبر عن أصدقائى.

بعد ظهيرة ذلك اليوم، رفع الرجل وتيرة الأسئلة وبدأ يضايقنى بشأن آرائى السياسية.

هل أنا شيوعية؟ هزرت رأسى نافيةً.

«ما هى كاوه، إن لم تكن خلية شيوعية؟»

«هي مجموعة قراءة، كنا نتثقف فيها».

«لكن قائمة القراءة تحتوي كثيراً من الكتب عن الشيوعية».

«أنا لا أقرأ تلك الكتب. أنا أحب كتب الشعر».

«أخبريني عن تشكّل كاوه. من أسس المجموعة؟»

«اجتمعت المجموعة من تلقاء نفسها، لا أعتقد أن أحداً أسسها». كان الأفضل أن أظهار بالغباء، هكذا قلت لنفسي.

ظل المحقق يساءلني عدة ساعات بعدها، ثم مع اقتراب المغرب، أعادوني إلى زنزانتني، ولم يطلقوا سراحني.

صرخت من وراء باب الزنزانة: «أريد أن أذهب إلى البيت. لقد أخبرتكم بكل شيء».

ردّ الحارس ضاحكاً: «هذا هو بيتك الآن».

منقطعةً عن بقية العالم، عالقةً في هذه الزنزانة الوسخة، دعوتُ أن أجد طريقاً يخرجني من محنتي، حتى أعود إلى بيتي. كنت أفكر: لماذا لم يحاول أحد من عائلتي أن يجدني؟ هل تخلت أمي عني؟ تساءلت في نفسي. في اليومين التاليين، نشأ نمط. كان يتبع الفطور دائماً جلسة من الاستجواب في غرفة التحقيق، تتوقف لأجل الغداء، ثم يتبع الغداء مزيد من الأسئلة حتى أعود إلى زنزانتني من بعدها. كنت أبكي حتى النوم كل ليلة، وحتى نومي لم يكن مريحاً.

في اليوم الرابع، أصبح عقلي يدور من استمرار الأسئلة وقلة النوم. في ذلك الصباح، في حرّ غرفة التحقيق الخانق، أخذني النوم. كنت جالسة على الأرض، عينايتان مغلقتان تحت عصابة العينين، ويغطيني الشوذر. كان البازجو يجري تمهيداً طويلاً قبل سؤال، وهنا

غلبني النوم. كانت غفوة مختصرة، لكنني حلمتُ أنني أحوم فوق حديقتنا في قمي كلا. في حلمي، وجدت نفسي نائمة تحت شجرة مع بقية أسرتي، كل إخوتي وأختي وأولاد عمي وعماتي كانوا يتنزهون إلى جانبي. كنا سعداء جميعاً، نأكل مبهجين، مع أنني كنت نائمة تحت الشجرة. ثم دون سابق إنذار، تغير مزاج الحُلْم؛ تجمّعت الغيوم السوداء، واشتدت الرياح، وجاءت عاصفة مطرية فدخلنا جميعاً إلى البيت. أصاب البرق حوالي الشجرة فيما كان المطر يتساقط كستارة تعتيم. «استيقظي»، صرختُ لنفسي النائمة حتى تخرج من المطر.

أعادني صراخ البازجو المخيف إلى غرفة التحقيق من جديد: «علامَ تصرخين؟ هل فقدت عقلك؟ كُفّي عن التصرف كأنك مجنونة».

سمعت الباب يُفتح، ليدخل البازجو الآخر مسرعاً ويسأل: «ما الذي حدث؟».

رد البازجو المخيف: «لا شيء. لكنها بدأت تصرخ دون سبب».

هنا أدركت أن صراخي كان عالياً جداً إلى درجة أنه نبّه المحقق الآخر. تحدث الرجلان. والحق يُقال، كنت خائفة من الاثنين. حتى صوت تنفّسهما كان يخيفني. لم أجتمع من قبل وحدي في غرفة مع رجلين ليسا من العائلة. دائماً كان يرافقني أحد أقربائي ذكراً كان أو أنثى، أخي مثلاً. حتى مع التفاف الشوذر من حولي، كنت أشعر كما لو كانا يستطيعان رؤية جسدي العاري، وكأنهما يتهيآن لانتهاك حرمة. شعرت بالأسى وبكيت بصمت.

بعد قليل من النقاش، غادر البازجو المخيف، وخاطبني زميله اللطيف بصوت فيه رفق.

«لا أعلم ما جرى، لكن زميلي لم يقصد أن يخيفك». قعد المحقق القرفصاء إلى جانبي. كان صوته أقرب إلى الهمس. «أريد أن أساعدك على الخروج من هنا، لكنني أحتاج إلى مساعدتك. لأنه هو لا يعتقد أنك تقولين الحقيقة».

قلت وأنا أجهش للبكاء: «لست أدري ما أقول لك. أنا متعبة. لقد قلت كل ما أستطيع قوله».

أمرني المحقق: «أزيلي عصابة العينين».

ببطء، مددت يدي وأزلت الغطاء الملعون. بعد أن تأقلمت عيناى مع ما يحيط بي، نظرت إلى *البازجو اللطيف*. كان وجهه ودوداً، وشعره الداكن مخلوقاً حلاقة متقنة، وكان يرتدي نظارات ذات إطار ذهبي.

أعطاني حزمة من الورق كتب عليها بالعربية *النجاة في الصدق* على رأس كل صفحة.

تحدث الرجل دون أي إحياء بالعجلة: «اكتبي كل شيء عن نفسك وانخراطك في مجموعة كاوه. أخبرينا عن أصدقائك وأسرتك وكل من كان في كاوه. قولي كل شيء». ثم غادرني.

جلست على الأرضية فوق السجاد وكتبت اعترافي. لم أكن أعرف حينئذ أن هذه هي مسودتي الأولى، وأني سأكتب نسخاً كثيرة قبل أن يُطلق سراحي.

بعد ما شعرت أنه ساعات، فُتح الباب ودخل *البازجو المخيف*—رجل قصير أسمر صغير العينين، يرتدي سترة مخططة طويلة وقميصاً مُحكم الأزرار إلى العُنق، دون ربطة عنق.

ناولته اعترافي. مسحه بعينه ثم شتم متمماً.

زأر الرجل: «هل تظنين أنك تستطيعين خداعي. تمثيك البراءة لن ينفعك هنا. ستكتبين وستقرين بكل شيء، وإلا فلن تغادري المكان».

خففت نظري قائلة: «لا أعرف أي شيء غير هذا. يجب أن تصدقني، آقا. لم ننتج إلا منشوراً ورقياً، هذا كل شيء».

قال الرجل متذمراً: «اربطي العصابة على عينيك واخرجي». بعد عدة دقائق جاء الحارس وأخذني إلى الزنزانة.

في اليوم التالي، كان البازجو المخيف ينتظرني. «ألا تريد أن تغادري المكان وتعودي إلى بيتك؟ لا بد أن أمك المسكينة قلقة عليك».

صرختُ من فرحتي: «هل تعلم أنني هنا؟ هل أتت لتزورني؟ اسمح لي أن أراها رجاءً». ثم غلبتني العاطفة فجعلت أبكي.

قال الرجل باحتقار: «أنت فتاة فلاح غبيّة. لا يعرف أحد أين أنت. بل لا يعرف أحد حتى كونك حيّة أو ميتة».

بكيت على شوذري الأبيض الذي كان ينبغي أن يأتيني بالسعادة. كنت أريد العودة إلى البيت.

توسلتُ إلى المحقق: «سأكتب ما تشاء، أقسم بالله. أعطني أوراقاً كالتي أعطيتنيها من قبل».

سأل: «فلنبدأ من جديد. أخبريني عن كاوه. من كان صاحب فكرة إنشاء المجموعة».

كلما أنهيت صفحة، كان يأخذها ويغادر الغرفة، ليعود بعد قليل ويطلب التفاصيل التي كنت قد احتفظت بها. كان يبدو أنه يعرف كل أسرار المجموعة لكنه يعبث بي فقط.

«من كان يدفع لكم؟ من أين أتتكم الأموال؟ أخبريني عن تمويلكم».

قلتُ ساخطة: «أي مال؟! أتظن أنني كنت لأسرق الكتب لو كان معي مال؟».

غادر الرجل الغرفة وعاد بعد دقائق.

«كان عندكم طابعة وناسخة لإنتاج المنشورات الورقية»، ثم توقف قليلاً. «من دفع ثمن ذلك؟».

حاولت أن أمثل الغباء لأشتري بعض الوقت لأفكر. لم أرد أن أخبرهم أن أخي علي هو الذي

أحضر الطابعة. إلى الآن كنتُ قد صَغَرْتُ من شأن مشاركته في المجموعة. حاولتُ جاهدة أن أخترع حيلة ما، شيئاً أستطيع خداعه به، لكنه كان يقرأ عقلي.

«نحن نعرف كل شيء. أجيبني لأجل مصلحتك، حتى تخرجني».

عضضت شفتي من القلق. لم أرد أن أخون أخي.

«من أحضر الطابعة؟»

«لا أحد»

أصرَّ المحقق: «من أين جاء علي بالمال ليشتري الجهاز؟»

إنهم يعرفون بشأن علي، قلت في نفسي.

قلت له: «سرقها علي من جامعته».

«أين هي الآن؟»

«في المستنقعات على أطراف بابل».

عصر ذلك اليوم، عدت إلى زنارتي لأجد ليلى تنتظرنني.

فاجأني وجودها: «ماذا تفعلين هنا؟ هل أتيت لتخرجيني؟»

انفجرت ليلى باكية وهي تمسك بي بشدة. أخبرتني ليلى أنهم قد أخذوها بعد يومين من اعتقالها وأنها كانت معتقلة في مركز اعتقال آخر وقد نُقلت الآن إلى هنا للتحقيق.

بكت ليلى: «لقد أخبرتهم كل شيء. كنت خائفة». لم تكن قد رأت علي أو أمي أو أي أحد من أسرتي.

منحتني رؤية ليلي الكثير من القوة. كان الجنون سيصيبني وأنا أجلس كل مساء في تلك الزنزانة.

كان النوم تحدّيًا تلك الليلة. الزنزانة صغيرة أصلاً على شخص واحد، فكيف وفيها الآن اثنان. في كل مرة كانت إحدانا تتحرك، كانت تصطدم بالأخرى. لكن مشكلتنا الفعلية كانت الزنزانة المجاورة.

كان في الزنزانة المجاورة سجين ذكر اتُّهم بقتل زوجته وكان يواجه عقوبة الإعدام. قضى الرجل الليل يهذي ويصيح بشأن زوجته. كان يضرب الجدران ويسأل الله المغفرة لذنبه. كان تارةً يطالب أن يُعَدَم وتارةً يرجو أن يُطلق سراحه ليرعى أطفاله.

قال مرة بعد مرة: «لم أقصد أن أقتلها، لقد كان حادثاً». كنت أتساءل إن كان مجنوناً أم يتظاهر بهذا الحال وحسب. «لا تشنقوني. ما الذي سيحل بأولادي إن قتلتموني؟ سيتركون فلا يرعاهم أحد».

كانت الجدران ثخينة بما يكفي لتحمينا، لكنني أمسكت بليلى وأمسكت بي طول الليل فيما كان صوته يتردد من حولنا.

سألتها: «ليلى، ما الذي سيحل بنا؟ ماذا إن أبقونا هنا شهوراً؟».

قالت ليلى: «لقد أخبرتهم بكل شيء. سأخبرهم بأي شيء يريدون معرفته. وأنت كذلك ينبغي أن تخبرهم بكل شيء. لا أريد أن أموت».

لم أنم إلا بعد أن صمت السجين. عندما استيقظت في اليوم التالي، لم يأت من الزنزانة المجاورة صوت. في ذلك اليوم، تولّى البازجو المستشار التحقيق. حيّاني الرجل بمودة، كما لو كان أحد معلمي، وطلب إليّ أن أقعد إلى الطاولة وأكتب المزيد في اعترافي. حاولت أن أطيل في كتابة الاعتراف ما استطعت حتى يرضى المحققون أنه لم يعد لدي شيء أقوله.

سألني بصوت هادئ: «هل أردت يوماً أن تقتلي أحداً؟ أعني أحداً مهماً، أحد قادتنا».

في كل اعترافاتي، لم أذكر قطُّ يوم أعطاني علي مسدساً وجعلني أطلق منه. كان هذا ليحوّل مجموعتنا الاحتجاجية الصغيرة إلى شيء أسوأ بكثير. هذا سر يجب إخفاؤه مهما كان الثمن.

قلتُ: «لا. لا يجرّ العنف إلا مزيداً من العنف. القتل لن يحل المشكلات الجوهرية في مجتمعنا»، ومضيتُ بصوت ذي نبرة واحدة: «لقد أردنا أن نثقف الناس، أن نغير تفكيرهم».

قال فجأة: «اسمي السيد صادقي. وها قد وثقت بك فأعطيتك اسمي، وأريدك أن تثقي بي أيضاً».

كان طويلاً وهزياً وكان يرتدي بدلة بنية. كان يلعب بيده اليمنى بمسبحة. أغلق الباب من خلفي، وخشيت لعدة لحظات أن يجبرني على جماعه.

«أنا لستُ محققاً، لستُ مثل زميلي»، وأشار إلى الباب. «كما أخبرتك من قبل، أنا ناصح، مستشار. أنا هنا لأضمن سيرورة الأمور بسهولة ويسر».

بعد عدة سنوات، اكتشفت أن كل هذا كان كذباً. اسمه ليس صادقي، وهو ليس في صفّي، وليس صديقي. في الحقيقة، لقد كان هو المسؤول عن كل التحقيقات في بابل.

عاد السيد صادقي لينظر في المجلد على مكتبه. «لقد أحسنتِ إلى الآن، لكن لم يزل في قصتك بعض الفجوات التي لا بد من إيضاها قبل أن يفقد زميلي صبره».

هنا وصلنا إلى ذروة التحقيق. حيث يهدد /البازجو المخيف بضربي، أما صادقي، المحقق المثقف، فكان يبحث عن طريقة أخرى لدفعي إلى الاعتراف.

قلت له: «لقد أخبرتك بكل شيء، أحلف بالقرآن وبكل الأولياء. ما من مزيد لأخبرك به».

سألني دون اكتراث: «هل أنت من المجاهدين؟».

أجبتة متنبّهة: «لا. أحلف أنني لست منهم».

سألني: «حسن، أصدقك. لكن ماذا عن أحمد؟».

«عندما أدركنا أنه كان مجاهدًا انفصلنا عنه. لقد كان راديكاليًا جدًا بالنسبة لنا. لقد أخبرتك بذلك».

«يجب المجاهدون أن يغتالوا الناس، لا سيما قيادتنا-تعليمين هذا، أليس كذلك؟». كان في صوته عقلانية ومودة.

«لم نرد أن نرتبط بالمجاهدين».

سألني: «هل فكرت بموقف ما يجوز فيه للمرء أن يستعمل سلاحًا، ليقّتل قادتنا».

«لا. لم أفكر في ذلك قط. هذا الفعل غير قانوني».

«إنّ لماذا أطلقت رصاصة في فناء منزلك الخلفي إن لم يكن الهدف التدريب على قتل أحد».

فكرت في نفسي، لا بد أن أحدهم خانني.

قلت: «أعاد علي المسدس»، وندمت مباشرة.

«إنّ كان المسدس مع علي».

«لم يكن فيه إلا رصاصتان، أطلق علي واحدة وأنا أطلقت الأخرى، ثم أعدناه إلى صاحبه».

نظر إليّ السيد صادقي نظرة عميقة: «إنّ، أطلقت رصاصة». ثم بدا عليه الخذلان: «لماذا

أطلقت الرصاصة؟».

لقد حصل أخيراً على ما يريده.

أما في جلسة الظهيرة، فكان البازجو المخيف ينتظرني في غرفة التحقيق.

«هذه المرة، نريد كل شيء».

كتبت وكتبت وكتبت. لقد قاومت كثيراً لكي لا أدفع غيري إلى هذه الورطة، لكن دفاعاتي هُزمت كلها. لقد حُسم أمري.

في الصباح التالي، ركل الحارس على الباب ثلاث مرات. كنت أنا ويلي مستعدين، نرتدي شواذرنا وعصابات عيوننا، وأظهرنا إلى الباب.

صرخنا: «جاهزتان».

نقرني الحارس بقوة على كتفي بعقدة حبل. قال بقسوة: «أمسكي بهذه ولا تفلتيها».

اتبعت الحارس، وكانت يد ليلى على كتفي. مشينا في ممر طويل وسمعنا أصوات السيارات في الطريق والناس في الشارع فيما تغلغل الهواء النقي في رئتي. أسعدنا وجودنا في الخارج وضغطت على يد ليلى. سنعود إلى البيت، هكذا ظننت.

قعدنا في المقعدين الخلفيين للسيارة وعلى عيوننا العصابات، وانطلقت السيارة. أردت أن أصرخ وأهتف وأضحك لكنني كنت خائفة من إظهار أي فرح، لئلا يرسلونا من جديد إلى مركز الاعتقال. كنت في طريق البيت ولم أرد أن أقول أي شيء يعيدني إلى تلك الزنزانة الرطبة. تطلعت إلى رؤية أسرتي. أردت أن أعانق أمي بشدة ولا أفلتها. اشتقت إلى أسرتي جداً. لقد اعترفت والآن ستنتهي محنتي، هكذا ظننت. سأنهي دراستي الثانوية وأتزوج رضا. كنت متأكدة من أنه سيفرّج عنه أيضاً في الوقت نفسه. ربما أراه بعد يوم أو يومين

بعد أن أغسل وسخ السجن عن شعري وجسدي. ظللت أضغط على يد ليلي وهي تضغط على يدي.

لقد كنت ساذجة جدًا.

بقينا في السيارة مدة طويلة قبل أن تقف.

أخيرًا، توقفت السيارة. خرج الرجلان في المقاعد الأمامية من السيارة، وبقيت أنا وليلي قلقتين معًا في الورا. بعد عدة دقائق، فتح أحدهم باب السيارة وأمرنا بإزالة عصابات أعيننا.

كان جنديًا شابًا ليس عليه علامة واحدة من علامات الحياة، وعلى كتفه بندقية أوتوماتيكية كبيرة، يقف أمامنا.

ابتسم الجندي: «هل تخططان للهروب؟» ثم أمرنا: «من هنا».

لم نكن في قمي كلا بل في ساري، عاصمة الولاية. مشى بنا الجندي بسرعة إلى مدخل جانبي لمكتب وزارة الاستخبارات، ودخلنا ونزلنا على درجات ضيقة حادة. لقد ظننت أنهم سيطلقون سراحنا، لكنهم في الحقيقة كانوا يرقوننا إلى مركز اعتقال أفخم.

تحت الدرج، سلّمنا الجندي لحارستين من النساء، يرتديان الشوذر كذلك.

قالت الحارسة الأنثى وهي تمشي بنا وفي يدها لوح مشبكي: «الاسم؟». كانت امرأة ضخمة، أضخم من بعض الرجال الذين أعرفهم.

«ما هذا المكان؟ ما الذي نفعله هنا؟ كانوا سيرسلوننا إلى البيت». كنت غاضبة ومتعبة.

ابتسمت المرأة: «البيت؟». «هذا هو بيتك حتى تقرر المحكمة ماذا ستفعل بك».

المحكمة!

يبدو الأمر أحمق الآن، لكنني لم أظن أن أفعالي كانت سيئة إلى هذه الدرجة. كل ما فعلناه هو طباعة بعض المنشورات. لقد ظننت أن أفعالنا كانت ستعتبر طيش مراهقين، وأنا سنُطلق مع تحذير أو توبيخ خفيف. أما كلمة المحكمة هذه فوقها على الأذن مشؤوم.

قالت الحارسة: «أسرعي، أخرجي جيبك. إذا كان معك حقيبة أو مال أو حلية فعليك تسليمها الآن. لا سكاكين ولا أدوات حادة-عليك ترك كل هذا خارجًا. والأحزمة ممنوعة أيضًا».

في السجن لا أنفك أسمع «أسرعي أسرعي». مهما كنت سريعة، سيودّ الحراس لو أسرعت أكثر. مع أنهم على الأرجح لا ينتظرهم أي موعد طارئ أعيقهم أنا عنه.

بعد تفتيشنا، أخذنا إلى باحة مركزية كبيرة فيها أبواب زنانات كثيرة. في الطرف الأقصى للباحة، كانت طاولة كرة مضرب قد دُفعت إلى الحائط، ووراءها ممر يؤدي إلى وحدة فيها مرحاض وحمام. وبعدها غرفة تحقيق.

وُضعت أنا ويلي في الزنزانة نفسها-أكبر وأنظف من زنانتنا السابقة. كان لكل واحدة منا ثلاثة أغطية، وسفرة نأكل عليها، وسلّة مهملات صغيرة. كان ضوء ساطع يضيء الغرفة. لقد كانت ترقية كبيرة.

تأملت في الجدران وشعرت أن الجميع قد تخلّى عني. لم أبتعد يومًا عن أسرتي كل هذه المدة، والآن صرت غارقة في القلق معدومة من الراحة. لماذا لم يأتوا ليزوروني؟ لماذا لم يتكلموا مع السلطات؟ لماذا تخلوا عني؟

السجناء السياسيون ممنوعون من الاتصالات قبل المثول أمام المحكمة. لم يكن عندي أي طريقة لأخبر أهلي بمكاني.

كان في السجن صمت كبير. الجدران ثخينة، والباب المعدني الثقيل يمنع دخول أي ضجة من الخارج. كانت قوانين عصابة العينين أقل صرامةً. كان علينا أن نرتدي عصابة العينين عندما نذهب إلى الحمام أو غرفة التحقيق، لكننا استطعنا دائماً أن نلقي نظرة من تحتها.

أخذتني حارسة أنثى إلى حمامي الأول هذا الأسبوع. صعدت على درج قصير وفتحت الباب. ارتطمت بي سحابة من البخار، تشبه نفس بقرة دافئ في صباح باكر. كان هذا يحدث كل مرة أستعمل فيها المراض، دائماً ترحب بي سحابة البخار ورائحة الصابون الرخيص. كنت أشعر أنني أدخل مباشرة بعد أن أنهى سجين آخر حمامه.

كان على أحد جانبي الحمام مرحاض مفتوح أرضي، والحمام في الجانب الآخر. بين الجانبين في الوسط حوض استحمام. كانت أرضية المراض مفروشة بشعر ثخين ملتف وكانت آثار صفراء تغطي الحائط. استعملت الخرطوم لأنظف المنطقة كلها قبل أن أمس شيئاً. أما وحدة الاستحمام فكانت مغطاة بشعر ثخين ملتف. شعر عانة ذكر. كان مقرفاً. مرة أخرى، نظفت الأرضية قبل أن أدوسها.

قبل أن أنهى حمامي، جعلت الحارسة تنقر على الباب وتحملني على الخروج. وجعلت تقول متذمرة إن سجناء آخرين يريدون استعمال المراض. لا يجوز إلا لسجين واحد أن يخرج من غرفته إلى المراض أو غرفة التحقيق في الوقت نفسه.

همستُ لليلي بعد أن عدت إلى الزنزانة، كما لو أنني اكتشفت سرّاً خطيراً: «إنه ليس سجنًا خاصًا بالنساء. في المكان رجال أيضاً». ملأتنا فكرة وجود الرجال في السجن معنا بالخوف.

طول حياتي كان يُقال لي إن الرجال سوف يستغلونني، أو سوف يتحرشون بي أو يغتصبونني إن لم أكن مغطاة، إن لم أكن أرتدي غطاء رأس—والآن يجب أن أشاركهم حماماً واحداً.

مرة أخرى، واجهتني تحقيقات يومية كل صباح وظهيرة. جعلني المحققون الجدد أكرر كل اعترافاتي السابقة وأكتب مرة بعد مرة كل شيء كنت قد قلته، ليضمنوا أنني لم أزل أي اسم. كان الأمر مملاً حقاً. بعد التحقيقات، عدت إلى الزنزانة. لم تلبث قصصنا التي كنا نتسلى بها أنا وليلي أن انتهت. اخترعنا ألعاب كلمات، لكننا فقدنا الاهتمام سريعاً وأصبحنا صامتين ومتجهمتين.

في فترة إقامتي في سجن ساري، رأيت سجيناً آخر مرة واحدة. في طريقي إلى المرحاض، كان تقودني حارسة أنثى، هي امرأة شابة ليست أكبر مني بكثير. كنت أمسك بالحبل الذي يربطني بها، وسمعت سعالاً ونحيباً لا يتوقف. كان سجين آخر في باحة السجن يلهث وقد انقطع نفسه. ظننت أن السجين على وشك الموت، ورفعت عصا عيني لألقي نظرة. كان ذلك رضا.

شعرت كما لو أن صاعقة أصابتني. لقد كان هذا آخر شخص أتوقع أن أراه. تجمدت في مكاني. كان يقعد القرفصاء عند الجدار البعيد، وقد رُبط بسلسلة إلى طاولة كرة المضرب، يسعل في قطعة قماش. كان منظره شنيعاً، وعلى وجهه كدمات وشحوب. لقد ضُرب ضرباً شديداً.

صرخت: «رضا»، وتركت الحبل وشوذري. خلعت عصا العينين وبدأت أبكي. «ماذا فعلتم به أيها الحيوانات، أيها الحثالة-أنتم تقتلونهم».

ركضت إليه متجاوزة الحارسة. لم أجرؤ على لمسه مع أنني أردت أن أعانقه، لكنني اكتفيت بأن أصيح على الحارس ليؤمن له العناية الصحية. فُتح باب غرفة التحقيق، وخرج محقق ليرى ما يحدث. التقت عيوني وعيونه لوهلة، ثم أغلق الباب في مكتبه وطلب المزيد من الحارسات الإناث ليتعاملن معي.

كانت الهيستيريا قد أصابتني. حتى رضا في موضعه المتعب على الأرض، اضطرّ إلى

تهدئتي. لكن بعد أسابيع من المشاعر المكبوتة، خرجتُ عن السيطرة. في نهاية انفجاري انهرت على الأرض. أخذ الحرس الذكور رضا إلى المستوصف وقدمت لي الحارسات الإناث شايًا محليًا لإنعاشي.

لم أتعرض لأي استجواب في ذلك اليوم.

في اليوم التالي، قرع أحد المحققين الباب ودخل سريعًا، دون أن يعطيني أنا وليلي مدة كافية لارتداء شواذرنا. وضع الرجل سلة من التفاح على الأرض.

قال الرجل بابتسامة عريضة: «كان عليك أن تخبرينا أنك حامل. لماذا لم تخبرينا؟ لقد قال زوجك إنكما تنتظران مولودًا». كان التفاح إذن هدية استرضاء. «لا نريد أن يحل بك ولا بجنينك أي مكروه».

حامل! أنا؟

نظرت مذهولة إلى ليلي وهي تبادلني النظرة نفسها. هكذا عرفت أنني حامل. في السجن. من الحراس. أنا أصغر من أن أكون حاملًا، كانت هذه أول فكرة مرت بعقلي. كنت ساذجة جدًا حينها. عبثت مع رضا بضع مرات في السرير، لكنني لم أتحدث عن الأمر مع أمي أو مع أختي الكبيرة، لم نكن نتحدث عن الجماع أو عما يجب أن أتوقعه بعد الزواج.

كنت قد ابتهجت بانقطاع دورتي قبل شهرين، إذ استرحت من الألم الموجه وحلقات النزف العشوائي. لم أفكر مطلقًا أن هذا يعني أنني حامل. ثم إن هذا كان شيئًا لا أشعر بالراحة في نقاشه مع أمي أو مع أي امرأة من أهلي. بطريقة ما عرف رضا.

امرأة حامل في السجن-يبدو خطأ كبيرًا.

سألتنني ليلي بعد أن غادر البازجو «كيف يمكن أن تكوني حاملًا». ثم فحصتني عن قرب. «لا يبدو عليك الحمل، وأنا أصغر من أن أكون عمّة».

ضحكنا ونحن نأكل التفاح، أول فاكهة طازجة منذ عشرة أيام. بدا الأمر فكرة مجنونة عندما أخبرنا المحقق. أنا، حامل؟ لم أكن مستعدة للأمومة. لقد كنت أحلم بالسفر واستكشاف العالم، والآن قبل أن أغادر قمي كلا وقعتُ في الفخ. لقد كُتِبَ مصيري من الآن. سألتني ليلي، وهي لا تتمالك نفسها من الضحك: «هل تخيلت يوماً أن يخبرك بازجو بأنك حامل؟». سألتها وأنا ألمس بطني: «ماذا لو كانت خدعة. لا أشعر بطفل في بطني». ضحكتُ. «لا يمكننا الآن أن نفكر في هذا الاحتمال، لقد أكلنا كل التفاح».

لكنني كنت قلقة. كان علي أن أفسر عاراً آخر جلبته على والديّ-لقد صرْتُ حاملاً قبل أن يتم زواجي بحسب الأصول. كان هذا أكبر همي حينها.

أصبحت جلسات التحقيق أسهل بعد هذا. جعلني المحققون أمر على اعترافي مرة بعد مرة، حتى حفظته ذهاباً وإياباً. في هذه المرحلة، فقدت كل شعور بالإجراءات وأردت أن ينتهي كل شيء حتى أعرف مصيري. مثل كل المراهقين، كان مللي سهلاً، ولقد مللت من هذا السجن الجديد.

في أحد الأيام أخذتني الحارسة أنا وليلي باتجاه غرفة التحقيق، لكننا تخطينا الغرفة وصعدنا درجاً في خلفية المبنى. شعرت برجفة باردة. ماذا لو كانوا سيقتلونني أنا والجنين؟ فكرت. ربما ظنوا أنني من المجاهدين، وربما سيشنقون ليلي معي. لأول مرة، كنت أفكر بحماية جنيني غير المولود. أمسكت بالحبل بيد وباليد الأخرى أمسكت بشوذري تحت ذقني. أمسكت ليلي طرف شوذري وصعدت ورائي. كلما ازددنا صعوداً ازدادت أفكارني سواداً ورُعباً. حاولت أن أتذكر إن كان يجوز في الإسلام شنق الحوامل، لكن هذا موضوع لم تكن دراستي قد غطّته.

أخيراً، توقفنا عن الصعود وفتح لنا حارس باباً وصلنا بغرفة كبيرة. سمعت كثيراً من الأصوات، منها أصوات أعرفها. خلعت عصابة عينيّ.

كل أعضاء مجموعة كاوه في غرفة واحدة. بعضهم على وجوههم كدمات. لوّحت لرضا الذي كان يجلس وحيداً، وابتهج لرؤيتي. كان أخي علي يمشي الهوينا كما لو لم يكن يشغله هم في الدنيا. كان تحت عينيه كدمات بنفسجية وصفراء، وكان أنحف مما كان آخر مرة رأيته فيها. أما أحمد، المجاهد السابق، فكان يحدق عبر النافذة ولم ينظر إلي. حتى الرجل الذي أعارنا المسدس كان هناك.

خاطبت أخي: «حاولت أن أحذرك، لكن-».

قال علي بهدوء: «لا تأسفي على شيء. كنتُ قد اعتُقلت من قبل أن يأخذوك». ثم ساقني إلى طاولة طويلة على الطرف الآخر من الغرفة وهو يروي لي كيف أخذه من معسكره.

كان على الطاولة ألواح كرتونية عليها أسماءنا و«ألقابنا». وُصف علي بأنه رئيس الجناح المسلح، أما رضا فكان رئيس القطاع الفكري، أما أنا - أنا، رئيسة الجناح النسائي. كان من الكوميدي وصفنا بهذه الألقاب الكبيرة.

أمام عيوننا كان حُوّلت الغرفة إلى استديو لتصوير الأفلام البديلة. فتح التقنيون كاميرات الفيديو، ونصبوا ثلاثيات الأرجل والدعائم، وأضاءوا أضواء خاصة ساطعة. قال علي: «الآن يريدون أن يصورونا في فلم. يريدون منا أن نسجل اعترافاتنا».

بين هذه الأنشطة، دخل الغرفة السيد صادقي، البازجو اللطيف، بكل هدوء، وأشار إلى الحراس أن يأتوا بسلة الفواكه وأباريق المياه. وقف صادقي في مقدمة الغرفة وطلب منا الهدوء دون أن يرفع صوته.

قال السيد صادقي: «أمامكم الآن فرصة لتحصلوا على حكم مخفف، لقد أقر معظمكم بجرائمهم. الآن عليكم أن تعترفوا أمام الكاميرات، افعلوها وستكون المحاكمة رحيمة».

اشتكيْتُ: «سيد صادقي، هذا غير صحيح. لم يكن في المجموعة إلا امرأتان، أنا ويلي. كيف

لي أن أكون رئيسة جناح النساء؟ هذه نكتة، أليس كذلك؟»

قال السيد صادقي: «أنت على وجه التحديد، يجب أن تفكري بمسقبلك». لا شك أنه كان يشير إلى حملي.

قعدنا إلى الطاولة واحدًا بعد آخر، توجهنا إلى الكاميرا واعترفنا وتبنا وطلبنا الرحمة. كان أحمد الوحيد الذي لم يقل شيئًا أمام الكاميرا إلا اسمه. في لحظة هادئة بعدها، سألته إن كان أخبرهم بشيء.

ابتسم الرجل بحزن قائلاً: «لا تعترفي. إذا اعترفت فسيحتفظون بك إلى الأبد».

بوصفه مجاهدًا سابقًا، لم يكن يتوقع أي رحمة. عرفنا بعد ذلك أنه أُعدم شنقًا.

بعد يوم أو يومين، عُدنا إلى البيكان البيضاء. كان السيد صادقي في المقعد الأمامي إلى جانب السائق. ظننت حينها أننا سنذهب هذه المرة إلى بيوتنا. لكننا بدلًا من ذلك توقفنا في وسط ساري. تبعنا السيد صادقي خارج السيارة إلى مباني المحكمة الثورية المرعبة. أُقيمت هذه المحكمة عام 1979 لتحاكم المسؤولين في نظام الشاه. تتعامل المحاكم الثورية مع جرائم الأمن القومي. لم تسمح المحكمة بأي هيئة محلفين أو محامي دفاع، وكان يقضي في القضايا قضاة متخصصون. شجبت لجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة المحاكم الثورية في إيران لأنها تمنع المتهمين من حق التمثيل القانوني وحق الاستئناف.

كان الاعتراف أفضل دليل لقضاة المحاكم الثورية، لذلك كان المحققون مهتمين جدًا بصقل قصصنا إلى تفاصيل التفاصيل.

مع اقترابنا، لاحظتُ تجمُّعًا من النساء في الشواذر السوداء على الرصيف خارج مبنى المحكمة الثورية. عرفت من بينهم أمي، لكن السيد صادقي منعني من الركض إليها. وصلت إلي أمي في النهاية وعانقتني بشدة، وجعلتُ أبكي وتبكي معي. قالت أمي إنها حاولت أن

تجدني لكنهم قالوا لها أن تنتظر خارج مبنى المحكمة. لقد انتظرت هناك في الأسابيع الثلاثة الماضية.

داخل البناء، أخذني السيد صادقي مع ليلى إلى غرفة انتظار، وقال: «لا تخافا، لقد مرّ الأسوأ».

كنت مستميتة لأعود إلى أسرتي. تلوّيت على كرسيي ذي الظهر الصلب وانتظرت حتى نوديت أسماؤنا أخيراً. روفقت مع ليلى إلى غرفة القاضي فيما كان السيد صادقي ينتظر خارجاً.

في المحكمة، كان كل شيء في القاضي صاحب الوجه المتجهم مخيفاً، من طقمه البني إلى البقعة المظلمة على جبهته إلى نظاراته ذات العدسات البنية. عندما دخلنا، كان يشغل نفسه بقراءة ملفاتنا.

على الحائط وراءه، كانت صور خميني وخامنئي تبدو وكأنها تشجيني شخصياً، كان وجهاهما ينظران نظرة رافضة. أما مكتبة القاضي فلم يكن فيها إلا نسخ من القرآن وكتب الصلاة. في زاوية مهملة، كانت نبتة كبيرة في أصيص وقد اصفرّت أوراقها.

قال القاضي: «يبدو أن الفضول قد أصابك بشأن هذه الغرفة. الأجدر بك أن تهتم بقضيتك».

سألته غير مصدقة: «هل هذه هي المحكمة؟». كنت أتوقع شيئاً أفخم وأعظم.

«لقد اعترفت بجرائم كبيرة ضد الجمهورية الإسلامية. ستواجهين حكماً ثقيلاً. إن عقوبة كبيرة في انتظارك».

نظرتُ إليه نظرة لا تدل على فهم. لم أكن أعرف التهم الموجهة إلي. لم يقرأ أحد القضية المرفوعة علي. لم يكن لدي محام يدافع عني. لقد أكرهت على الاعتراف، والآن لم يبق إلا أن

يُصدر القاضي حكمه. لم يبد الأمر عادلاً جداً. فيما بعد، اكتشفت أنه ليس في الجمهورية الإسلامية كثيرٌ من العدل.

لم يكن قد بقي في شيء من روح القتال: «لقد قيل لنا إنك ستكون رحيماً. لقد اعترفنا، ألا يكفي ذلك؟».

قال القاضي ببطء، وهو يراقب وجوهنا ليرى هل تظهر عليها علائم الخوف: «إن عقوبة هذه الأفعال قد تكون كبيرة جداً. أستطيع حتى أن أحكم عليكما بالإعدام. هذه ليست نقطة. اعترفكما يكفي».

نشجتُ: «أنا حامل. أعد أن أكون صالحة. لقد نذرتُ في السجن أن أحجّ إلى مشهد عند إطلاق سراحي. أريد أن أذهب مع زوجي».

كتب القاضي حكمي على ورقة بخط يده ثم قرأها بصوت عال.

حكم علينا القاضي بخمسة أعوام من السجن وأربع وسبعين جلدة. لكن الحكم معلق ثلاثة أعوام. حين قال «خمسة أعوام في السجن»، انفجرت باكياً. لم أعد أسمع. كل ما كنت أفكر فيه هو أنني لا أريد أن ألد في السجن. حتى بعد أن أكد أن الحكم معلق، استمرّ بكائي، لأنني لم أكن أفهم معنى هذه العملية. أخذ القاضي وقته وهو يشرح لي أن الحكم معلق، أي إنني إذا لم أفعل شيئاً في هذه الأعوام الثلاثة، فستُحى جرائمى تماماً.

بعد أن أدركت أنني لن أظل في السجن خمسة أعوام، تغير مزاجي مباشرة. هنالك تماماً خطرت لي فكرة، حتى وأنا أشكر القاضي على لطفه. لماذا حكم علي بأربع وسبعين جلدة؟ بسبب الاختلاط مع الفتیان، هكذا قال القاضي. لو أن مجموعتنا السياسية كانت منفصلة على أساس الجنس، لما كان هناك حاجة إلى الجللات. أسرع خارج المحكمة وتجاوزت السيد صادق، لكن الحراس سدّوا الباب.

قال السيد صادق: «يجب أن تمرى بالإجراءات أولاً، ثم يمكنك أن تذهبي إلى المنزل».

أخذنا الحراس إلى قسم النساء في سجن بلدية بابل، حيث يقيم المجرمون العاديون، من النشالين والسارقين إلى مهربي المخدرات والقتلة. وُضعتُ مع ليلي في قسم النساء حتى لا نختلط بالحشد الكبير. بعد يومين، بعيد صلاة الفجر، أُطلق سراحنا. على طريقنا إلى الخارج، وقفنا أمام حائط أبيض، والتقط حارس صورنا الجنائية.

فُتح باب السجن أخيراً، وخطوت أنا وليلي إلى شروق الحرية. لم تخبر السلطات أسرتينا بإطلاق سراحنا، لذلك لم يكن في المكان أحد يرحب بنا ونحن نخرج. أول شيء فعلته هو أنني خلعت شوذري الأبيض، الذي كان قد اتسخ جداً حينها، ثم جمعته على هيئة كرة. تذكرت للحظة أن هذا شوذر عرسي.

صرخت: «أكره الشوذر»، ورميته في سلة المهملات.

اشتھيتُ الزَّلْيَق. أظن أن الوحام طبيعى أثناء الحمل. كذلك أردت أكثر من أي شيء في ذلك اليوم أن أنهي حملي. كانت أمامي مهمة: أن أجد الزَّلْيَق لآكله، وأن أجد طبيباً ينهي حملي الذي جعلني أشتھي الزَّلْيَق. أردت أن أكون حرة وأبدأ من جديد على صفحة نظيفة. كان هذا الحمل كريهاً لأنني علمتُ به في السجن. لم أكن أعلم متى يُطلق سراح رضا، ولم أرد أن أعتني بالطفل وحدي.

مكاتب معظم أطباء بابل موجودة في حي واحد، وفي ذلك الصباح ذهبت مع ليلي لنرى كل واحد منهم. في كل مرة، شرحتُ أنني أريد الإجهاض. قلت الحقيقة: لقد أُطلق سراحي للتو بسبب جرائم سياسية، وخطيبي لم يزل في السجن وقد يظل فيه مدة طويلة، لا أحد يعلم. لم أشعر بأي حزن لما أفعله. تكلمت بطريقة منفصلة وغير شخصية، كما لو أنني أصف شيئاً حدث لشخص آخر.

رفضني بعض الأطباء دون فحصي. فحصني آخرون قبل أن يرفضوا طلبي. قال أحد

الأطباء: «حملك متقدماً جداً، لا يمكنني إيقافه، وأنصح ألا تحاولي أن تجدي أحداً غيري ينهيه».

كنت متعبة جداً فلم أستطع حتى البكاء.

اتجهنا إلى بيت ليلي. طبعاً، لم يكن يتوقعنا أحد، لكن بانو كانت سعيدة جداً برؤيتنا. ظهرت أمامنا أطباق الحلوى والفواكه فيما جعلت بانو تسألنا عن محنتنا. كنت سعيدة جداً عندما أتنا بطبق من الزليق كما لو كان سحراً.

أخبرتها بكل تفصيل، مثل رؤية رضا في السجن، لكنني خجلت من أن أخبرها بحملي. ما الذي ستقوله عني؟ كنت أتساءل في نفسي. كنت مرهقة ونمت باكراً، أمله أن تخبرها ليلي بخبر الحمل.

كان شعوراً عظيماً أن أنام على سرير نظيف محاطة بأصوات مألوفة ومطمئنة. لم يكن النوم قد غلبني تماماً عندما دخلت بانو الغرفة وعانقتني. خاطبتني على أنني ابنتها الحلوة، وأخبرتني بمقدار سعادتها لأنها ستصبح جدة. قال بانو: «تذكري ألا تنامي على بطنك، فقد يضر ذلك الجنين».

في تلك الليلة نمت أجمل نوم في الشهر كله.

الفصل السابع

غرقت في أعماق النوم. كل مخاوفي وذكرياتى بشأن الاستجواب والإهانة في الأسابيع الثلاثة الماضية، مع المحققين المتعرقين وأنفاسهم النتنة، والزنازن الوسخة في السجن، كل هذا أصبح في الماضي. في بطني الآن حياة جديدة تنبض. في اليومين التاليين لم أفعل شيئاً سوى النوم والاستحمام طويلاً، وفرك جسمي بطريقة مهووسة حتى أتخلص من وسخ السجن. أما ما لم أستطع غسله فهو العار الذي أحسست به. لم يكن الأمر متعلقاً بالسجن وحده؛ الحمل لم يكن جزءاً من الخطة.

كان علي أن أفكر بوضوح بشأن خطواتي التالية، لكن قول ذلك أسهل من فعله، إذ تعاقبت وتناثرت في أرجاء رأسي مئات الأفكار المختلفة. لطالما كنت ثرثارة، لكنني الآن مزاجية ولم أرد أن يكون معي أحد، ولا أن أتكلم قطعاً. هل يمكنني أن أعود إلى المدرسة الثانوية وأنهى الأسابيع الأخيرة وأتخرج؟ لم أستطع أن أظهر وجهي في المدرسة، وليس لدي أي فرصة في أن أتخرج.

كنت أتأمل من النافذة المطر ثم أتذكر أنني سأكون أمّاً، ثم ألعن حظي لأنني لم أجد طبيباً يجهض طفلي. اعتقدت أنني لا أستطيع أن أكون أمّاً. لم أستطع تجاوز فكرة وجود طفل في حياتي، كان الأمر مشوّقاً ومقلّقاً في الوقت نفسه.

لكنه لم يكن هذا وحسب. كنت مرعوبة من إخبار والدي بحملي، لكن يوم الحساب هذا لم يكن يمكن تأجيله أكثر، الآن وأنا خارج السجن. كان لدي فكرة جيدة عن ردة فعل الآقاجان وأمي بشأن هذه الأخبار. فوق كل شيء، شعرت بالعار. حتى في طهران، أكثر المدن عالمية في إيران، قلة قليلة من النساء يحملن قبل ليلة العرس، فتخيل ندرة الأمر في بابل أو قمي كلا. لقد أحللت العار على أهلي. استطعت ان أرى صدمة والدَي رضا بالأمر، لكنهم في

الوقت نفسه كانا متحمسين بشأن وصول أول أحفادهم. أما والداي، فكنت آمل أن يشعرا بالتشويق أيضاً، بعد أن يتقبلا حقيقة حملي.

أما قلقي الآخر فكان بشأن شعور رضا. لم يكن لي أن أناقش الحمل معه، ولم نتكلم مطلقاً من قبل عن الإنجاب. لقد وافقت على الزواج لأخرج من قمي كلا وأعيش مغامرات جديدة في العالم الواسع، لكن كيف المغامرات الآن وأنا حامل؟ كنت أخشى أن بطني سيظهر عليه الانتفاخ بين ليلة وضحاها. مباشرةً تقريباً. بعد أول حمام لي خارج السجن، تفحصت نفسي في المرآة. كنت نحيلة جداً؛ نعم ربما في بطني انتفاخ صغير لكنه غير ملحوظ الآن. لم يكن سهلاً علي أن أتقبل أن جسدي سيتغير وأنني سأجلب طفلاً إلى العالم. البطن الكبير البارز اقتراباً أكثر من المرأة المقيدة. كنت أرى من حولي الأمهات وهن يغسلن الحفاضات، ويضعن أطفالهن، ويسجنن في بيوتهن بفضل القائمة التي لا تنتهي من الأعمال اليومية. أخبرتني بانو أنني سأبدأ أشعر بالغثيان قريباً وأن هذا سيدوم عدة شهور. علمت أنني سأكره كوني حاملاً.

كان الثلاثاء هو يوم الزيارة في سجن بابل. كان رضا قد نُقل من سجن وزارة الاستخبارات إلى السجن المحلي الذي يقيم فيه المجرمون العاديون مثل النشالين ومهربو المخدرات والمختلسون. أفقت مع ليلي صباحاً، الساعة 6:00، لنستعد للذهاب. وصلنا إلى التكسي لينزلنا في أقرب مكان ثم مشينا بقلق إلى السجن، وكل واحدة منا تمسك بيد الأخرى. كنت أشعر بغثيان الصباح إلى جانب القلق، وهو ما جعل كل خطوة معركة في مقاومة القيء في جانب الطريق. قبل ثلاثة أيام فقط، أُطلق سراحني أنا وليلي من الجناح النسائي لهذا المبنى المخيف، وها قد عدنا الآن إليه، مختلطين بالعائلات الأخرى. شعرت كأنني مجرم يعود إلى مشهد جريمته. أمسكت شوذري بإحكام تحت أنفي لأغطي جزءاً من وجهي. كنت متأكدة أن الحراس سيعرفونني حتى تحت غطاء الشوذر.

لكن رجل الشرطة على البوابة أشار إلينا دون أن ينظر إلي حتى. مشيت مع ليلي قريباً من

العائلات الأخرى، كما لو كنا جزءاً من المجموعة الأكبر، وكأننا لسنا امرأتين شابتين وحيدتين. كان قلبي ينبض بسرعة مخيفة، وظننت أن يداً ستنقر كتفي في أي لحظة وتوجهني إلى العودة إلى زنانتني. جعلت أدعو بصمت للنبي محمد وكل أولياء الشيعة. يا الله، يا محمد، يا علي، يا إمام رضا، لا تسمحوا لهم أن يعتقلوني من جديد، هكذا جعلت أصلي بصمت. لم أكن متدينة، لكن مزيداً من العون لم يكن ليضرني، هكذا فكرت.

في الداخل، كان الرجال يُفْتَشُون في غرفة، فيما تفتش حارسة أنثى النساء في منطقة منفصلة قبل أن يُسمح لنا بالدخول إلى منطقة الاستقبال. كنا جميعاً مصطفىين لنوقع على نموذج لطلب السجين الذي نريد أن نراه. ملأت النموذج طلباً لرضا. كان قد بقي فيه فراغ لكتابة «العلاقة» بالسجين، بعد عدة لحظات من التردد، كتبت فيه «زوجة».

نظر إلي الحارس من وراء المكتب من أعلى إلى أسفل، كما لو كان ينظر بالأشعة السينية ويستطيع رؤية جسدي العاري تحت كل طبقات اللباس. لم أكن مرتاحة إلى نظره، لذلك لففت شوذري بإحكام حول جسدي واستدرت بعيداً عنه.

«لا تقلقي. سيبقى زوجك هنا مدة طويلة». ابتسم الحارس وهو يُضمِر إيحاءً. «قد تكون الوحدة صعبة على زوجة صالحة شابة مثلك».

ثم أشار إلى باب وقال: «الحجرة رقم تسعة. معك ثلاثون دقيقة. التالي».

وُجِّهت كل العائلات الزائرة إلى غرفة كبيرة فيها صفوف من المقاعد ذات الظهر القاسية التي حُكَّت وقُلِّمَتْ بعد سنوات الإهمال وكثرة الاستعمال، وأمامهم جميعاً لوح من الزجاج الثخين. جلست في الحجرة رقم تسعة وانتظرت بقلق. كان على اللوح الجانبي هاتف. خطرت في بالي أفكار كثيرة. هل شُفي رضا من الضرب؟ هل لم يزل يريد الزواج؟ هل يريد طفلنا؟ ما الذي كان يعنيه الحارس حين قال إن رضا سيبقى في الداخل مدة طويلة؟

سرعان ما بدأ وصول السجناء. شاهدت بذهول فيما كانت أصوات البكاء والأسى تتصاعد

فوق الهمسات الخافتة التي تطفو عبر الهواتف.

فجأة ظهر رضا أمامي وقعد مكتئبًا. لدى رؤية وجهه النحيل المكدوم، تدفقت الدموع من عيني. كان يبدو عليه الشعث، وكانت لحيته النابتة قد تحولت إلى لحية بسواد الليل. لم تبد عليه سعادة برؤيتي. وضعت سبابتي على النافذة، ومد هو سبابته مقابلها. ربما كان تخيلًا، لكنني شعرت بحرارة سبابته عبر الزجاج الثخين. فتحت يدي ومددت كفي على اللوح الزجاجي؛ وكذلك فعل هو بعد عدة ثوان. لم نتكلم، بل اكتفينا بأن يمسك أحدهما بيد الآخر كما لو أن الزجاج غير موجود.

بصعوبة استطعت أن أراه من شدة الدموع في عيني. عندما رفعت السماعة قرب النافذة لأتكلم معه. كانت كلماته الأولى: «لا تخافي. هو طفلنا وسنعتني به. مهما حدث سنعتني به معًا».

كان هذا كل ما أردت سماعه، وكان طمأنينة كبيرة. بدأت هرموناتى تتحرك، وأجهشت للبكاء. ثم بكيت، وجاءت ليلى وتكلمت مع رضا. أما أنا فقد أنهكت عاطفيًا.

بعد رضا، كان قد آن أوان زيارة أختي الكبيرة، لتكون أول فرد في عائلتنا يعلم بشأن حملي. هذا التشوق الكبير أنهكني، وعندما وصلت إلى جرس مينا، كنت موشكة على الإغماء من الجوع—أما إخبار أختي فكان مهمة لم تزل أمامي. هُرعَت إلى الداخل بتحية خاطفة وقعدت على الأرض واستندت إلى الحائط.

«أهلاً، أختي الصغيرة. ألا تحيين أسرتك الآن؟» لم تكن مينا تتوقع أن تأتي فجأة. بطبيعة الحال، كان مينا هادئة ومنضبطة، لكنها كانت أيضًا مضطربة. «متى خرجت؟ هل خرجت الآن؟ اليوم؟».

قلتُ بصعوبة: «أحتاج أن أكل شيئًا، وبعض الماء. رجاءً، فلتأت لي إحداكما ببعض الماء». كنت مرهقة ولم أستطع التحرك إلا بصعوبة. «وأريد شيئًا حلواً. أحتاج أن أكل شيئًا».

سألتنى مينا: «ما خطبك؟»، ثم التفتت دون أن تنتظر جوابي إلى ليلي: «ما خطبها؟ هل هي بخير؟ هل هي مريضة؟».

هُرعت ليلي إلى المطبخ قائلة: «لا. الأمر أنها جائعة جدًا فقط»، وعادت بكأس من الماء وقطعة من الخبز وجدتها على الطاولة. أخذت كذلك برتقالة من الطاولة.

أمعنت مينا النظر في بصمت لمدة طويلة، محاولة أن تعرف ما حدث. «هل مرضت في السجن؟».

«ستكون بخير. هذا بسبب حالتها»، ظهرت على وجه ليلي ابتسامة اعتذار وهي تقشر البرتقالة. كانت تسمتع بعدم إخبار مينا. «إذا أكلت، ستكون بخير».

«أي حالة؟» هنا رجعت مينا خطوة إلى الوراء، خوفًا من أن أكون قد التقطت عدوى غريبة من السجن. أمعنت مينا النظر فيّ، تنتظر مني اعترافًا. لقد كانت علاقتي بمينا من قبل وثيقة جدًا، لكنها الآن أصولية أكثر بكثير مما يناسبني. «هل أصابها السكري؟ أم هو... ما الأمر؟».

أجابت ليلي وهي تطعمني قطعة من البرتقال: «إنها حامل». كانت البرتقالة حلوة ورطبة. «حامل في الشهر الثالث».

نظرت مينا إلى ليلي وكأن الجنون قد أصابها.

صرخت مينا: «حامل؟ من؟ مسيحنًا؟ حامل؟» ثم أخذت خطوة إلى الأمام كأنها ستصفع ليلي لتحصل على إجابة مختلفة. «من الأب؟».

قالت ليلي بغضب: «رضا. من سيكون غيره؟!».

هنا تبين لدينا أننا ربما نقول الحقيقة، وهنا انهارت ببطء إلى الأرضية كما لو أن ساقها لم

تعودا قادرتين على حملها. أكلتُ الخبز والبرتقالة بنهم وابتسمت ابتسامة رضا أمامهما، سعيدةً بتركهما يخلصانني من آلامي.

قالت مينا: «أودّ أن أزيل هذه الابتسامة عن وجهك بصفعة! لماذا فعلت ذلك؟»

زقزقت ليلي غيرَ عالمة بأن مينا قد تنفجر في أي لحظة الآن: «أعلم أنها صدمة، لكن رضا سيخرج قريباً وسيتزوجان بحسب الأصول. ستصبحين خالة. سيكون هذا لطيفاً، أليس كذلك؟».

لم يُرضِ الوضع مينا. نظرت إلي نظرة سخط طويلة.

«كيف جاءك الحمل؟ أوه، لا عليك»، لم ترد مينا أن تعرف التفاصيل. «إنه عار. كيف سنظهر وجوهنا أمام بقية العائلة وأمام أصدقائنا؟ ماذا ستقولين للآقاجان؟ ماذا ستقولين لأُمك؟».

كانت هذه هي المشكلة الكبيرة، كنت خائفة من الذهاب إلى قمي كلا وإخبار أبويّ بحملي. تتألف الأعراس الإيرانية من جزئين: /العقد (الجزء القانوني) و/المهموني (الحفلة). الجزءان معاً يشكلان الزواج. كنا قد وقعنا كل الأوراق في مكتب الكاتب بالعدل لنتزوج، وكنا رسمياً متزوجين، لكن بحسب الأعراف الإيرانية وأسرّتنا، كنا قلقين، لأن مرحلة الخطبة لا تنتهي إلا بحفلة الزفاف. قبل اعتقالنا، قلتُ إنني لا أريد أن أنفق المال على حفلة، وأريد بدلاً من ذلك أن ننفقه لأهداف أخرى، كالسفر. لم يكن الآقاجان يقبل، وحدد موعد الزفاف ليكون بعد تخرجي من المدرسة الثانوية بعدة أيام.

قال الآقاجان حينها، رافضاً اقتراحي بتلويحة من يده: «هذا هو العرف. بعد الزفاف سأضع يدك بيد رضا وسأبارك لكما بالزواج».

لقد اتخذت الأمور مساراً غير مرغوب. بالنظر إلى حالتي، عندما يُطلق سراح رضا، سيكون بطني قد بلغ حجمه حجم بيت كامل. طبعاً، إذا أساء رضا السلوك في السجن ومُدّد حكمه،

فقد أحمل الطفل في يدي قبل الزفاف. سيكون الأمر ضربة كبيرة لأبي. إن كوني حاملاً قبل يوم زفافي ليس عاراً علي فقط، بل وعلى والدي. لن يستطيع أبي أن يعيش بهذا العار. لقد كان من عناصر البسيج ولم يكن ينفك عن تعليم أهل القرية عن الإسلام والثورة الإسلامية.

قلت لمينا: «لا يمكنني أن أخبرهما. أخاف أن تنكسر قلوبهما. سيؤذيهما الخبر حقاً».

قالت مينا باحتقار: «لو أنك تهتمين بأبويننا، لما كنت حاملاً الآن». لطالما استمتعت مينا بتوبيخي.

«سينهار الآقاجان لو أخبرته أنا، لكن أنت يمكنك أن تخبريه».

«لطالما أردت أن تلعبى بقوانينك أنت، وها قد فعلتها الآن. هل أنت متأكدة من أنك حامل؟»

قلت بغضب: «لم أرد أن أحمل. لم أكن أتخيل حدوث هذا»، وسالت الدموع على وجهي. «عندما كنت أصغر، أردت أن أكون مثل أمي، خياطة القرية. لكنني لا أريد الآن أن أكون مثلها أو مثلك أو مثل أي أحد. أريد أن أكون أنا. أريد أن أكون مختلفة، ولم أرد أن أحمل طفلاً، لكنني حامل».

قالت ليلى أخيراً لتدافع عني: «الحقيقة أن أبويّ مصدومان أيضاً، لكنهما سعيديان بأنه سيكون لهما حفيد».

وقفت مينا وأوقفتني معها: «لن يرضي هذا الكلام الآقاجان». ثم فحصت جسدي بعناية. «لا يبدو عليك الحمل».

لكن قبل أن أحتج، وضعت يديها على فمي ل تمنعني من قول أي شيء.

قالت مينا وعلى وجهها نظرة توشي بأن لديها خطة: «اهدئي، أنا أصدقك، لكنك نحيلة جداً»

جداً. إذا استطاع الآقاجان أن يُخرج رضا بإذن خاص، فستستطيعان الزواج سريعاً، ولن يضطر أحد إلى معرفة أنك حامل».

كانت مينا راضية جداً عن خطتها. لم تكن علاقتي بمينا وثيقة مثل السابق، لكنها أختي الكبيرة، وفكرتها كانت رائعة. لكن أحداً يجب أن يقنع الآقاجان بالفكرة. أمسكت بمينا بإحكام: «أنت أُملي الوحيد».

في اليوم التالي، أخذت مينا الباص إلى قمي كلا لتوصل الأخبار إلى أُمي. عندما عرفت أُمي، لم تفرح بل انهارت. جعلت أُمي تضرب نفسها على الوجه وتبكي. جعلت أُمي تبكي وتكرر: «ما الذي فعلته لأستحق هذا؟ ماذا سأقول للآقاجان؟ ماذا سيقول الجيران؟».

عندما عاد الآقاجان، أعطته أُمي كوب الشاي المعتاد فيما قعد هو على الشرفة، وأراح ظهره بالاستناد إلى جدار البيت. بعد أن شرب كوبه، أخبرته أُمي بالحمل. في اللحظة نفسها، احمرَّ وجه الآقاجان حتى أصبح قرمزيّاً. نظر أبي إلى أُمي وكأنه لم يفهم. «حامل؟ كيف؟ كيف جلبت بنتك العار على أسرتنا؟»

بوصفي البنت الصغرى، كنت متمردة جداً، وكان على الآقاجان أن يعالج كثيراً من مشاكلاتي، خصوصاً بعض أن أصبحت مراهقة. لقد ناضلت ضد ارتداء الشوزر، ورضي بقراري على مضض. لقد صمت بشأن اعتقالي حتى لا يفقد سمعته في القرية. لكن الحمل كان خطوة لا يمكن القبول بها، بحسب تعبيره.

كان الآقاجان قد أخبر بقية أسرتنا الكبيرة والجيران أنني كنت أقيم مع مينا في بابل، ورضا

في مدينة مشهد يكمل تدريبه التدريسي. كان قد ظهرت بعض الشائعات في القرية أننا اعتقلنا، لكن الآقاجان نفى كل ذلك. الآن ستتكشف أكاذيبه. لكن مينا كان عندها خطة.

في الصباح التالي، لم يأخذ الآقاجان دجاجاته إلى السوق بل ارتدى أفضل ثيابه واتجه إلى وزارة الاستخبارات في بابل، والتقى فيها عدداً من المسؤولين ليجد حلاً. توسّل أبي للحصول على إذن بالخروج لمدة ثلاثة أيام لرضا. شرح أبي الأمر للمسؤولين، أنه لم يكن معجباً برضا أو بآرائه السياسية. لكنه يريد إتمام الزواج، ثم فليعد رضا ليكمل حكمه. كان يجب أن يجري الأمر بسرعة.

في ذلك اليوم، ذهب أبي من وزارة الاستخبارات إلى وزارة العدل ثم التقى رئيس الشرطة قبل أن يحصل أخيراً على إذن لرضا بالخروج ثلاثة أيام.

فيما كان أبي يخوض جولاته في بابل، أخذت أنا الباص إلى قمي كلا. في العادة كانت الرحلة التي تمتد نصف ساعة تجري بسهولة، لكن في ذلك اليوم كانت أحشائي مضطربة، وكنت أشعر بكل صدمة وحفرة في الطريق. كنت خائفة من مواجهة أبوي.

حاولت أُمي ألا تنظر حتى في عيني، لكنها لم تستطع أن تقاوم طويلاً.

قالت أُمي بين الدموع: «معصومة، ما الذي سنفعله بك؟ لطالما كنت متمرّدة جداً. إذا انتشرت أخبارك فلن أستطيع أن أظهر وجهي في قمي كلا».

حرّضت دموعها دموعي، وبكىنا معاً مدة طويلة. اطمأننت للقائي بأسرتي لكنني كنت مضطربة بسبب كل الهرمونات التي تجري في جسدي.

في ذلك المساء، دفع أبي الباب وبدأ عليه الرضا عن النفس. كان على وجهه ابتسامة رضا عن النفس وهو يقعد على الشرفة وينظر إلي من أعلى إلى أسفل. كنت مرتعبة من هذه اللحظة. خشيت أن يوبخني أو حتى أن يضرب ظهري بعصا المكنسة، مع أنه لم يرفع يده

علي منذ أصبحت مراهقة.

«بالنظر إليك الآن، أرى أن أمامك الكثير من العمل لتحسين مظهرك» ضحك الآقاجان على تعليقه. «سأقيم لك حفلة زفاف ثم لن تكوني مشكلتي من بعدها».

قلت أنا وأمي في اللحظة نفسها: «أي زفاف؟».

كان وجهي متنفخاً من شدة البكاء، وأنفي محمراً من كثرة الشهيق، وكان مظهري كله فوضى.

«الخميس القادم. لقد رتبت كل شيء. سيخرج رضا ثلاثة أيام. ثم سيعود إلى السجن. كل شيء مرتّب».

بدأ أبي يفصل لنا كيف أنقذ شرف العائلة مرة أخرى من العار الذي سببه أولاده. بعد أن نتزوج، سينهي أبي كل شائعات اعتقالنا. كل همي كان أن رضا سيحرر ثلاثة أيام، لقد أردت أن أقضي كل ذلك الوقت معه وليس مع حفنة من الأقارب الذين لم أرهم منذ شهور.

أخبرت أبوي بإصرار: «لا أريد حفلة زفاف. لا أريد أن أطعم كل الأعمام والعمات الذين قلما أراهم. هذا زفافي وأريد أن يكون اجتماعاً صغيراً لأصدقائي. لناس من عمري. ثلاثة أيام ليس مدة طويلة، وأنا أريد أن يكون وقتي مع رضا وقتاً مع الأصدقاء».

قال أبي: «إن شاء الله ستعيشون معاً عقوداً عديدة، فلا داعي للخوف بشأن هذه الأيام الثلاثة. سيخرج خلال أربعة أشهر حين يُعلّق حكمه».

«لكنني لا أريد زفافاً. أنا أكره حفلات الزفاف».

«الحفلة ليست لك. الحفلة للأسرة، لنظهر للناس أننا ربينا فتاة صالحة، مع أنك كنت السبب في أحزان كثيرة».

لم يتحدث إلي الآقاجان كثيراً قبل الزفاف، لكنه كان مشغولاً في إخبار الجميع بشأن الزفاف. كان يشتكي من ثمن الرز الزائد الذي يحتاج إليه من أجل الضيافة، ومن الدجاجات التي عليه أن يذبحها، ومن أن أحداً لا يشكره على تضحياته.

الزفافات القروية مناسبات غريبة. هي مختلفة عما تراه في التلفاز أو الأفلام. مختلفة عن زفافات المدينة. في القرية، العرف أن تصنع أسرة العروس حفلة لأسرتهم الكبيرة في بيت أبي العروس. أما العريس فيصنع حفلة في بيته. ثم في الظهيرة أو عند الغروب، يزور العريس مع أسرته وبعض الأصدقاء أبا العروس بسيارات مزينة بالورود ويأخذون العروس من بيتها. تستمر الحفلة في بيت العريس، حيث تتلقى العروس هدايا الزفاف. في المدينة، ولا سيما المدن الكبرى مثل طهران أو أصفهان، يقيم بعض الناس حفلة زفاف واحدة يحضرها أهل العريس وأهل العروس. في هذه المناسبات، تجلس العروس مع العريس أمام سفرة عقد، وهي غطاء طاولة ممدود على الأرض ومزين بالأزهار والخبز والعسل والسكر البلوري وأساور الذهب، طبعاً مع المرائي والشمعدانات، التي تمثل النور والنار في الدين الزرادشتي القديم. لإبعاد الناطقين بالشر والفاعلين له، تُحرق بذور الحرمل.

أما زفافي فكان أبسط من هذا بكثير.

في يوم الزفاف، ذهبت وراء حظيرة الأبقار، حيث كان الآقاجان قد بنى حماماً قائماً بنفسه، واستحممت. بعد ذلك، قعدت أمامي بنت عمي متربعة لتعمل على وجهي، باستعمال خيط قطني لتنتف وترقق حواجبي. أما محاولتي الوحيدة للتجمل فكانت وضع بعض الكحل حول عيني.

لم يكن لدينا كثير من المال لنسرفه على المناسبة. صنعت أُمي الفسنجون، وهي شوربة بالدجاج، والجوز ودبس الرمان، بالإضافة إلى أطباق كبيرة من الرز الأبيض الساخن.

صنعت أُمي كذلك لبنًا بالعسل ليكون هو الحلوى. اجتمع الرجال في غرفة والنساء في الغرفة الأخرى. دَقَّت إحدى العمّات بنغمة مزندرانبة على وعاء لتسلي الأطفال. كانت هذه موسيقا عرسنا! كان الأطفال هم الوحيدين الذين رقصوا.

ارتديت قميصاً أسود طويلاً احتجاجاً على الحفلة. كانت هذه المرة الثانية في حياتي التي أرتدي فيها قميصاً. أما المرة الأولى فكانت عند الخواستغاري (أي طلب اليد)، عندما جاء أبوا رضا إلى بيتنا. اعتقد الجميع أن ارتداء العروس لقميص أسود أمر غريب، لكن الآقاجان وأمي أرادا أن ينتهي اليوم بسرعة فلم يعترضا. حتى أكون متميزة، ارتديت غطاء رأس وردياً.

فيما اختلطتُ بالناس، وصلت إلى مسامعي همسات بعض النساء اللواتي يسألن عن إشاعات اعتقالي وسجني، لكن لم يكن أحد متأكداً. كان يمكنهم أن يسألوني، لكنهم لم يمتلكوا الشجاعة الكافية. كانت أُمي تكاد تنهار من التوتر وهي تتساءل إن كان رضا سيأتي.

في الغرفة الأخرى، كان الشك يدور في رأس الآقاجان أيضاً، لكنه كان يطلق النكات ويضحك. كان يخبر الجميع بصوت عال أن رضا كان ينهي تدريبه، لذلك غاب في الفترة الماضية.

بعد انتهاء غداء العرس وتقديم الشاي، قعد الجميع حول الطاولة للحديث. مرة أخرى، الرجال في غرفة والنساء في غرفة منفصلة، ولم يكن إلا الأطفال يجولون بين الغرفتين والشرفة التي يرتاح فيها معظم الرجال.

من مسافة بعيدة جاء صوت مزمار سيارة يقترب.

[illegible]

يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوا لَا تَتَّبِعُوْا الصَّوْتِ الَّذِيْ يَصْعَدُ مِنْ دُونِ الْحَقِّ

لِب لِب... لِب لِب... لِب لِب... لِب لِب

[illegible]

وأخذنني معهن.

قالت عمة مسنة لي: «لا يحسن أن يرى العريس وجه العروس قبل الوقت المناسب».

لو أنها تعلم أن العريس قد رأى أكثر من وجهي بكثير فعلاً. لكن هذا لم يكن وقت إخبارها بذلك.

عندما وصل رضا إلى أسفل الدرج الذي يصل إلى الشرفة، خلع قبعته. سمعنا شهقة من الرجال على الشرفة.

لقد كان رأس رضا مخلوقاً تماماً، كما لو كان محكوماً عادياً.

في إيران، المحكومون العاديون مثل النشالين أو السارقين تُحلق رؤوسهم عند دخولهم السجن. أما السجناء السياسيون فيتركون وشأنهم. كان رضا سجيناً سياسياً ولم يكن ينبغي حلق رأسه. لكن يبدو أن هذا هو ثمن الحصول على خروج بكفالة. لم ترد وزارة الاستخبارات أن تجاري خدعة الآقاجان، وكان على رضا أن يدفع الثمن. لقد صار بيتنا الآن أمام الجميع أن رضا كان في السجن.

أشفق قلبي على الآقاجان. لقد كان يثق بالنظام الذي يؤمن به، لكن حس الدعابة لدى قوى الأمن كان مُظلماً. ظلّ وجه الآقاجان أحمر وهو يتأمل في رضا بذهول.

قال رضا: «سلام، آقاجان». لم ينظر رضا إلى أبي بل كان يتأمل في حذائه.

«سلام. مرحباً». امتلأ صدر الآقاجان بمختلف المشاعر، من الغضب إلى الألم والعار. لكنه كان كبير العائلة، فصافح رضا وربّت على كتفيه. كانت الدموع في عينيها كلاهما.

دون أن ينظر إلى أحد، استدار الآقاجان ودخل الغرفة التي كنت فيها مع بقية النساء نشاهد ما يجري.

قال الآقاجان: «اجمعي أشياءك؛ العريس هنا»، ثم دخل الغرفة الأخرى وأغلق الباب.

ارتديت الشوذر. كانت العائلة كلها تتكلم وتتهامس. لم يكن يهمني. كنت سعيدة بأن رضا حُرّ طليق وبأن الزفاف قد انتهى.

على الشرفة وجدت أمي. كانت عيناها ممتلئتين بالدموع. اختلط عندها العار والفرح. أخذت أمي بيدي ووضعتها في يد رضا.

«سأترك معصومة في يدك. رعاكما الله أنتما الاثنان».

لم يستطع الآقاجان أن يفعلها، لكن أمى أتت فى النهاية.

لم تمر هذه الظهيرة كما خططنا لها، لكنها مرت.

وعدتُ أمي: «لا تقلقي. سيكون كل شيء بخير، وسأتي لزيارتك كل أسبوع». عانقتها بشدة. بكت أمي قليلاً على يديها.

همستُ لها: «لطالما أردتِ أن أتزوج؛ لطالما قلتُ لي إن زوجي سيعتني بي ويمنحني الحماية والراحة. لم يكن الأمر سهلاً، لكنك فعلتها. لقد وجدت لي زوجاً».

بعد عناق طويل آخر، مشيت بحياء وراء رضا إلى سيارته، حريصة على ألا أقع وألِي كاحلي وأسبب مصيبة أخرى. انطلقت سيارات الموكب مرة أخرى، هذه المرة إلى بابل.

لیب لیب... لیب لیب لیب... لیب لیب... لیب لیب

شرح لي رضا في السيارة أن الحراس أخذوه إلى حلاق السجن ليُحلق رأسه غضباً عنه قبل إطلاق سراحه. بعد ذلك، لم يرغب في ارتداء بدلة أو أي شيء رسمي. اعتذر كثيراً على إفساد العرس.

لم يكن يهمني الأمر. كنت أضغط يدي على رأسه المملوق. «أظن أنني سأعتاده».

في بيت أهل رضا، كانت حفلة أخرى تنتظرنا، لكنها كانت تتصف بالاحتفال أكثر من تلك التي في بيت أهلي. كان الرجال والنساء يتراقصون على أنغام من مشغل أشرطة محمول، مع أن بعض المودة والضحك كان مختللاً. كانت أسرتي الجديدة تزداد بنتاً.

في الليلة التالية، رافقت رضا مرة أخرى إلى السجن. كان لا بد أن يكمل حكمه. اقتضى هذا أن أقضي أربعة أشهر بعيدة عنه.

لم أكن أهتم. لقد تركت حياة الريف إلى الأبد ولن أعود إليها.

الفصل الثامن

في صباح عاصف الجو في 1996 خرج رضا من السجن، كان على وجهه كآبة وشحوب لكنه سليمٌ فيما سوى ذلك بعد شهوره الأربعة في السجن. أما أنا، فكان شكلي حتمًا كشكل حوت، ومع أنني كنت نشطة كما كنت دومًا، فإنني توقفت عن تسلق الأشجار تنازلًا من أجل حملي.

أول شيء فعلناه في زواجنا هو الذهاب في شهر عسل-ذهبنا في حج إلى مدينة مشهد المقدسة لنزور قبر الإمام الرضا. لم تكن مشهد وضريحها ذو القبة الذهبية، الأشد ازدحامًا بين كل الأضرحة، هي خطتي لشهر العسل. لكنني حين كنت جالسة على ذلك المقعد ذي الظهر القاسي خارج غرفة القاضي، نذرتُ أن أذهب زيارةً إلى مشهد إذا لم يُحكم علي بالإعدام. لذلك أردت الآن أن أنهي التزامي بأسرع وقت ممكن. لستُ حقًا شخصًا متدينًا، لكنني شعرتُ أنه ليس من الحكمة أن أتخلف عن وعد وعدتُ به الله، لا سيما وأن ولادتي ستكون بعد أقل من شهرين. لا جدوى من استعداد أصحاب المعالي.

بعد راحة عدة أيام في بابل، كان رضا مستعدًا، وفي صبيحة باردة ركبنا الباص إلى ثاني أكبر مدينة في إيران. كانت ملابس رضا تتدلى الآن على جسده النحيل كعصا المكنسة؛ لم يكن يومًا ذا جسد منفوخ أو رياضي، لكن السجن أتعب جسمه حقًا. كنت متحمسة ومتشوقة كالأطفال للذهاب في هذه الرحلة، لأنها أول رحلة لي وأنا شخص بالغ، دون رعاية أمي وأبي. أحببت كيف كان الناس يهتمون بي ويشيرون إلي بسبب حالتي. بعد نحو خمس ساعات، استقر الباص عند مطعم على طريق السفر يقدم الكباب والشاي. تناولنا البيض الذي كنا قد سلقناه في منزلنا، مع الخبز والخضار الخضراء. طوال الرحلة كنت أنظر إلى رضا وأتساءل إن كنا سنبقى سعداء معًا ونتذكر بعد مرور السنوات هذه الرحلة

بوصفها بداية رحلتنا معاً.

فوجدنا بأن المدينة مليئة بالعرسان الذين أتوا إليها ليقيموا فيها شهر العسل، مع أنني أشك في كون تجاربهم شبيهة بتجربتنا أنا ورضا. وجدنا منزل زوّار مخصّصاً لخدمة الحجاج أصحاب الدخل المتواضع، وكان مناسباً لميزانيتنا. كان قريباً من طريق عام، لذلك كنا نسمع طيلة الليل والنهار أصوات السيارات ونشم دخان عوادمها.

كانت مشهد تغص بالمهاجرين والحجاج الأفغان، وفيها كذلك بعض السياح الغربيين. لم أر في حياتي شوارع مكتظة هكذا. المدينة محافظة جداً بسبب الضريح الضخم، الذي يظل مفتوحاً ليل نهار. في كل يوم، يحتشد المتسولون في الشوارع، وتزداد أعدادهم كلما اقتربت من الضريح. كل النساء تقريباً في مشهد يرتدين الشوذر فوق معاطفهن الطويلة، بالإضافة إلى السراويل الفضفاضة وأغطية الرأس. السياحة الدينية هي أهم صناعة في المدينة، والمؤسسة المسؤولة عن الضريح من أغنى الشركات في إيران، إذ تبلغ عائداتها مليارات الدولارات سنوياً.

تسود أفق السماء في مشهد القبة الذهبية الفيروزية لجامع گوهرشاد الكبير، محاطة بمئذنتين ذهبيتين طويلتين. يتألف مربع الضريح الضخم من شُرَف وفناءات، بعضها مفروش بسجادات فارسية تتيح لأي أحد أن يقعد ويستريح. داخل الأروقة، كل إنش من الحائط مزين بمرايا صغيرة تعكس الضوء من ثريّات ضخمة. ذهبّت إلى مدخل الإناث، متنبّهة إلى بطني المنتفخ، لكن الوصول إلى القفص الذهبي الذي يحمي قبر الإمام الرضا كان مستحيلاً. كان علي أن أتجاوز حشود النساء الباقيات، وأن أدفع النساء من حولي حتى أصل إلى القضبان. كان كثير من الناس يرمون المال ومسكوكات الذهب أو الحلي عبر القضبان، وفاءً لنذورهم، ويبكون دقيقة ثم يقبلون القفص مرة بعد أخرى. كانوا يريدون جميعاً أن يشفع لهم الإمام الرضا ليشفي مرضاهم أو يجد ولدًا مفقودًا لهم. حاولت أن أقترّب قدر الإمكان لأمسك بالقضبان ولو مرة واحدة، لكن تدافع الأجساد لم يكن محتملاً.

في الزخم العاطفي لهذه اللحظة، انضمت أنا أيضاً إلى المتأوهات، وجعلت أذرف الدموع بكثرة. كانت تلك تنفيسة انفعالية لكل ما جرى في الشهور السابقة. شعرت بالخوف والحماسة. لقد كنت أترك الأمان في بيت والدي لأمضي إلى مغامرة جديدة، لكنني كنت أحمل ندبات السجن، وطفلاً غير مخطط له. أخرجني مرفق دفعني من جانبي من حالة الغياب الذهني التي كنت فيها. ابتعدتُ بنفسي من الحشد وعُدتُ أدراجي إلى الخارج.

ذهبنا إلى مطعم كباب مزدحم لتناول غداءنا المتأخر. كانت هذه أول مرة أكون فيها في مطعم. نظرت من حولي وأذهلني عدد الغرباء الجالسين في غرفة واحدة يأكلون. وصل طبق من الرز الأبيض الساخن مع سيخِي كباب أمامي. كان على كومة الرز قلادة من الزعفران وعُش من صفار بيضة ذهبي على قمته. تأملت بفم مفتوح في كل هذا الطعام، فيما كان النادل يضع طبقاً من أرغفة الخبز وقطعاً من الزبدة الملفوفة بالقصدير، وطبقاً آخر من الأعشاب، وكأسين من اللبن العيران. لففت الخبز والزبدة بمنديل ووضعتها دون أن يراني أحد في حقيبتني، ليكون هذا فطورنا غداً. قلتُ في نفسي إننا قد دفعنا ثمن الخبز، فما الفرق إن أكلناه الآن أو غداً.

طوال الغداء، كان على وجهي ابتسامة حمقاء. لقد سافرت لأول مرة إلى مدينة كبرى مثل مشهد دون الآقاجان ودون أُمي، وكنت أكل في مطعم. هذه هي حياة البالغين، هكذا قلت في نفسي.

بعد ستة أسابيع من العودة من مشهد، في ظهيرة الثامن عشر من ديسمبر، بدأت أشعر بالألم في بطني وظهري. ظننت أنني إن استرحت وأخذت غفوة فسيذهب الألم من تلقاء نفسه. عندما سمعت بانو تأوهات الصامته، أدركت مباشرة أن وقت زهابي إلى المستشفى قد حان. لكنني الآن، بعد أن حملت الطفل تسعة أشهر، لم أعد أريد أن ألد.

توسلت لها: «لستُ مستعدة الآن. أعطيني عدة دقائق وسأكون بخير». لكنني لم أستطع

حتى القيام من شدة الألم.

لحسن الحظ، لم تعرني بانو كثيراً من الاهتمام. إذ جمعت بصمت حقيبة صغيرة وجرتني إلى تكسي لتأخذنا إلى مستشفى المدينة، الذي كان للفقراء الذين لا يستطيعون الدفع. كانت المشافي الخاصة أحسن مظهرًا، لكن رضا لم يكن يملك أي مال.

بقيت في الجناح المفتوح وحولي عشرون سريرًا آخر، ثم أخذت إلى غرفة صغيرة جدرانها بيضاء وفيها رائحة معقم قوية. عندما وصلت إلى المشفى، كان الألم لا يُطاق، لكن الطبيب بالكاد نظر إلي نظرة واحدة.

قال الطبيب: «ستبقين هنا عشرة ساعات إلى اثنتي عشرة ساعة قبل أن ينزل ماء الرأس».

لم يكن معي أحد غير بانو، التي جلست إلى جانبي وضغطت يدي بقلق. كانت الغرفة مليئة بالنساء اللواتي ينتظرن الولادة كذلك. لم يكن في التجربة شيء يثلج الصدر. بعد ثلاثين دقيقة، شعرت بتسرب ماء على ساقي.

قلت لبانو: «أعتذر، لكن لم أستطع التحكم بمثانتني. ساقي كلها رطبة».

سارعت بانو لتأتي بممرضة، لتأتي الممرضة ومعها كرسي ذو عجلات وتهرع بي إلى غرفة الطلق الخاصة. بحثت عن بانو لكن لم يكن في الغرفة إلا ممرضتان وطبيب. حقنني الطبيب بمحقنة.

عادت إليّ السعادة عندما أخذت الحقنة مفعولها وجعلتني لا أشعر بأي شيء من الألم. شعرت بوحدة كبيرة بين الممرضتين الغريبتين والطبيب، فيما كانوا يفحصونني وينكزونني ويصلون بجسدي أسلاكًا. أردت أن ينتهي الأمر بسرعة. لم أشعر بهذا الضعف في حياتي. أردت أن تكون أُمي معي، لكن هذا كان مستحيلًا.

سرعان ما انتهى الأمر. لفت إحدى الممرضات الطفل بقماشة بيضاء ووضعتة على صدري

دون أن تهتم بمسح الدم والوسخ الذي عليه. كنت ضعيفة جداً إلى درجة أنني لم أستطع تحريك ذراعي، وشعرت كأنني مشلولة. ثم جاءت مرضة أخرى لتمسح الطفل. دخلت بانو معها عصير تفاح وبعض الفواكه واستعدت بعض قوتي. سُمح لرضا أن يزورني لمدة ساعة في اليوم التالي. ثم خرّجت نفسي من المشفى في اليوم التالي. في تلك الليلة الأولى في البيت، استيقظت كثيراً في عمق الليل لأتفقد ابني، الذي سميناه بويان. طبعاً، كلما نمت، كان يوقظني ليطلب الغذاء.

كان رضا فخوراً بنفسه، كما لو أنه هو الذي حمل ابننا تسعة أشهر. نعم كان يساعد عندما يستطيع، لكنني أنا التي كنت أتولّى كل العمل المجهد، مثل الغسل اليدوي للحفاضات المتسخة والملابس وإرضاع ابني. سريعاً، مثل كل الأمهات الجدد، تأقلمت مع الوضع الجديد وصرت أخذه معي إلى كل مكان، إذ ألفه بغطاء قريباً من صدري.

مع هذا، كان يبدو أنني أقل ترتيباً من بقية الأمهات. في يوم من الأيام، ربطت بويان إلى صدري وأمسكت بليلى، التي كانت قد أصبحت صديقتي المقربة، واتجهنا معاً إلى البازار لنسأل عن سعر سوار ذهبي. كان علي أن أبيع بعض الحلي التي وصلتني هدايا في الزفاف. مع انتهاء تلك الظهيرة، خرجنا من البازار، منهكتين وعطشتين. فجأة شعرت بالهلع في عمق بطني.

«أين بويان؟» أمسكت بذراع ليلى. «لقد ضيعناه. لقد تركناه وراءنا».

صرخت ليلى، وأسرعنا معاً في الأزقة التي كانت كالمناهة. كانت تضرب نفسها على وجهها وهي تركض، وتتهم نفسها بشتى أنواع المذمّات. رفعت تنورتي الطويلة لأركض بسرعة أكبر، بعد أن غلبني الخوف. لم أستطع أن أتخيل حياتي دون بويان. هُرعَت باضطراب شديد إلى آخر محل حلي كنا قد زرناه، وفاجأت الرجل المُسنّ وراء الطاولة. نظر إليّ أولاً ثم إلى ليلى. قبل عدة دقائق كنا هنا نسعر سواراً ذهبياً. الآن عيوننا متسعة وحجاباتنا مرتخية

وأنفاسنا منقطعة.

«أين... هل رأيت»-استنشقت حفنة من الهواء-«ابني؟» كانت رثتاي تخفقان من الركض بهذه السرعة حتى أصل إلى هنا، والآن صرت لا أستطيع الكلام. «هل تركنا ابني هنا؟ لقد ضيعنا ابني الصغير!»

لا بد أنني بدوتُ حمقاء. كان الرجل يبدو كالأصمّ، إذ ظلّ ينظر إليّ ثم إلى ليلي، ووجهه يتحرك بهدوء يمنية ويسرة.

ثم سألته ليلي بصوت مرتفع: «أخبرنا رجاء... هل تركناه هنا؟»، واتجهت قليلاً إلى الباب. «إن لم يكن هنا، فعلينا أن نذهب إلى المتجر التالي».

ببطء رفع الرجل إصبعاً نحيلاً وأشار به إلى صدري. «لستِ تقصدين هذا الطفل؟».

نظرت إلى أسفل وإذا بطفلي بويان، نائماً وملتقاً ببطانيته حول جسدي.

صرخت في وجه ليلي وصفعتها على جبهتها: «هل أنت عمياء؟».

قلت لبائع المجوهرات: «نعتذر حقاً. شكراً لك. لم أكن أعرف ماذا سأفعل لو لم تجد طفلي. شكراً لك، لقد أنقذت حياتي».

تبعثني ليلي إلى خارج المحل ووقفنا أمامه قليلاً، وضحكنا بشدة حتى أن الدموع سالت على وجوهنا. ضحكت جداً إلى أن أصابني الفواق.

قالت ليلي: «تصفييني أنا بالعمياء؟» ثم بدأت تضحك من جديد. «لقد كنت تحمليه كل هذا الوقت».

«لقد اعتدت حمله كثيراً إلى درجة أنني لم أعد أشعر به، لكن أنتِ كنتِ تنظرين إلي. ألم تريه؟».

«غلبني الهلع».

بعد خمسة أشهر من ولادة بويان، صوّت عشرون مليون إيراني لمحمد خاتمي، وهو فقيه من المرتبة الوسطى لِيَن الأخلاق لطيف الوجه. يرتدي دائماً عباءات زرقاء بحرية أو بلون الشوكولا أو الكريما. كان مختلفاً عن بقية الفقهاء، الذين يرتدون عباءات مجمدة متغيرة ونعلاً بلاستيكية تعبيراً عن مؤهلاتهم الثورية. لقد كان أول فقيه تظهر عليه علامات التألق، وكان يسعدنا أن نرى قائداً على وجهه ابتسامة، خلافاً لعبوس بقية المسؤولين.

طبعاً هذا الرجل الذي يبتسم كثيراً لم يكن من المقبول أن يربح. كانت الآلة السياسية في البلاد، من النخب الدينية والمرشد الأعلى علي خامنئي، قد أعطت مباركتها لعلي أكبر ناطق نوري، المتحدث باسم البرلمان. أما خاتمي فكان من الخارج، كان المرشح المجهول.

النظام السياسي في إيران معقد، وهو زواج غير سعيد بين الشيوعية والجمهورية. السلطة الحقيقية في أيدي الفقهاء غير المنتخبين، لكنهم يحتاجون إلى الانتخابات لإضفاء الشرعية على النظام. تختار نخبة مختارة المرشد الأعلى، لكن للناس العاديين أن يختاروا الرئيس.

غادر رئيس إيران الأول، أبو الحسن بني صدر، البلاد بعد أن اتجه الفقهاء إلى اتهامه واعتقاله. أما الرئيس الذي تلاه، محمد علي رجائي، فقتل في هجوم إرهابي من المجاهدين-المجاهدين الذين كان ينتمي إليهم أحمد. أما خامنئي، الذي كان التالي قبل أن يتولى دور المرشد الأعلى، فقد جاء ببعض الاستقرار خلال الحرب مع العراق، وتلاه الداهية علي أكبر هاشمي رفسنجاني، وهو فقيه آخر وأحد أشهر وأغنى الرجال في إيران. لعب رفسنجاني دوراً في كل أحداث إيران المهمة منذ الثورة. ثم أنهى ولايته ولم يعد يمكن أن يترشح من جديد.

ليس المقصود من الانتخابات في إيران أن تكون تنافسية. كان الآقاجان يصوّت في كل

موسم انتخابات، فإذا سألته لمن صوّت قال: «لقد صوّت لمن يريده المرشد الأعلى. لقد صوّت للإسلام. لقد صوّت للثورة الإسلامية».

في ذلك العام، كان ميل الآقاجان لناطق نوري، وهو المفضّل لدى القيادة، الذي صدف أنه مولود في بلدة نور في مزندران، غير بعيد من بابل. لكن هذا المفضّل لم يحصل إلا على سبعة ملايين صوت، وهُزم في واحدة من أكبر الأحداث السياسية في إيران.

لماذا؟

لقد كبر أطفال الثورة وتبيّن أنهم يريدون إيران جديدة. لقد صوتوا للمرشح الذي يعد بالتغيير الواعد: خاتمي. لم يكن من المفترض أن يفوز، لكنه فاز.

كنتُ واحدة من هؤلاء الأطفال الذين كبروا—لكن انشغالي ببويان منعني من التصويت. لم أصوت في أي انتخابات. النظام الإيراني فاسد إلى أعماقه. مهما كان عدد الأصوات التي يحصل عليها الرئيس، يبقى المرشد الأعلى هو المتحكم بخدمات الأمن والقضاء والجيش. لقوله وزن كبير في السياسة الخارجية وهو الذي يتحكم بالإمبراطورية المالية الضخمة المؤلفة من مؤسسات دينية—الصناديق الخيرية والأوقاف التي تبلغ عوائدها مليارات الدولارات لا يقودها إلا هو. كذلك فإن المرشحين يُختارون من قبل، ولا يمكن لأي علماني أن يترشح.

أما نحن فكان لدينا هموم لا يمكن للرئيس أن يحلها. لا يمكن لرضا أن يُوظّف مدرّسًا بعد الحكم عليه بجريمة سياسية. كنا قد بنينا غرفة في الفناء الأمامي لبيت أهل رضا وجعلناها غرفة نومنا. كان رضا يقضي معظم وقته في كتابة الشعر بيتًا بعد بيت. لم يجعله هذا مميزًا طبعًا. كتابة الشعر أشهر هواية وطنية في إيران. لدينا تراث شعري عريق، من الأعمال الكلاسيكية كأعمال الخيام والفردوسي إلى شعر الحب الرومانسي مثل أشعار السعدي وصوفية حافظ والرومي. معظم البيوت الإيرانية فيها نسخة من القرآن ومجلدات

كثيرة من الشعر. كتابة الشعر علامة على العمق في إيران.

أما الهواية الوطنية الأخرى في إيران فهي الغناء. يعتقد كل الإيرانيين أن أصواتهم جميلة. كما قلت من قبل، أنا لا أعتقد ذلك فحسب، بل أعلم أن صوتي عظيم. سأتكلم عن هذا لاحقاً.

شاعرتي المفضلة هي فروغ فرخزاد، التي كثيراً ما تُقارن بسيلفيا بلاث. وُلدت فروغ في الأيام الأخيرة من 1934 لأسرة من الطبقة المتوسطة. كسرت فروغ الأعراف في حياتها الخاصة وفي شعرها. في إيران التي كانت تصارع الحداثة، كتبت فروغ عن المرأة—عن سلة التسوق، وزوجين من الحلق، وكأس من الحليب: الأغراض اليومية في حياة المرأة. في أسرة كان فيها الجِماع خارج الزواج محرماً، كتبت فروغ عن علاقاتها الجنسية، وعن «الخطيئة» التي أسعدتها «بين أيدي اهتزّت من النشوة». كتبت فروغ عن الجنس والحب والعلاقات من وجهة نظر امرأة.

تصيبني قراءة قصائدها الصريحة بالقشعريرة. كما لو أنها تكتب عن حياتي أنا المرأة. كانت حياة فروغ مأساوية. تزوجت الشاعرة ابن ابن عمها عندما كان عمرها ستة عشر، وسريعاً ما ولدت له صبياً. نُشرت أول مجموعة من قصائدها عام 1952، عندما بلغت الثامنة عشر. بعد سنتين وقعت الشاعرة في حب رجل آخر وطلقت زوجها، مع أن هذا كان يقتضي أن تخسر حضانة ابنها. أخرجت فروغ أيضاً أفلاماً وثائقية، منها الفيلم الفائز بالجوائز البيت أسود (1963)، الذي يدور على الظروف القاسية في مستعمرة إيرانية للمجذومين. ماتت فروغ في حادث سيارة وعمرها اثنان وثلاثون.

أنا الشمعة التي تضيء الخراب باحتراق قلبها

لو أردت اختيار الظلام الصامت، لجلبت عُشّاً إلى الخراب.

أردت أن أكون مثل فروغ، أن أكتب الشعر وأعيش الحياة بكل تجاربها. كان رضا يضحك على محاولاتي؛ كان يصرف النظر عنها بوصفها مجرد قصائد حب لمراهقة متحمسة. كان

رضا دائماً يرى نفسه أفضل وأعلم مني وكان يُحبّطه أن مواهبه لم تبلغه منصباً مهماً.

كان وقع عيد ميلادي الواحد والعشرين شديداً عليّ. لقد أصبحت ما كنت أخشاه-عالقة في الدائرة الخبيثة من الإرضاع وتنظيف حفاضات بويان المتسخة، بالإضافة إلى الطبخ والتنظيف وكل واجبات المنزل. لم أكن أريد هذا من الزواج. أما رضا فكان يعطي دروساً خاصة، لكنها لم تدرّ علينا كثيراً من المال.

بعد أسبوع تقريباً من عيد ميلادي، بعثُ ما تبقى من هدايا الزفاف -بعض الأساور الذهبية- واشترت كاميرا. توجهت إلى كل استديوهات التصوير في بابل المتخصصة بتصوير الأعراس. كانت بعض الزفافات مختلطة، لكن معظمها منفصلة، حيث يكون الرجال في غرفة والنساء في أخرى. لم يكن للمصورين الذكور أن يدخلوا قسم النساء. كان هذا فرصة لي. أمامي فرصة كبيرة لأصبح مصورة أعراس.

لم يكن زفافي حفلة لامعة، لكنني سريعاً ما أدركت أن الأعراس في بابل إنما تدور على النساء، ما دامت العروس سعيدة، فالعريس مستعد لدفع الفاتورة. لم أواجه منافسة كبيرة، وتعلمت سريعاً من أخطائي. بعد عدة أشهر، صرت مصورة الأعراس المطلوبة في المدينة. حتى إنني اشتريت كاميرا فيديو لصنع فيديوهات الأعراس، وطبعت بطاقات أعمال لترويج خدماتي. سريعاً ما صرت أجني أربعة أضعاف ما يجنيه رضا من دروسه الخصوصية.

مع نهاية 1998، أصدرت وزارة الإرشاد الثقافي مرسوماً يطلب من جميع المصورين المحترفين أن يُسجّلوا هوياتهم ويطلبوا رخصة مزاولة عمل يجب تجديدها كل عام. بطبيعة الحال، تقدمت للرخصة، ولكن بصماتي أظهرت تاريخي في السجن ولم أحصل على رخصة مطلقاً.

هذه هي الدورة المتوقعة في السياسة الإيرانية، متوقعة كالطقس. في كل عام، تخفف الحكومة قبضتها وتتسامح مع بعض الأفعال-تستطيع النساء مثلاً إظهار بضعة إنشآت

من شعرهن تحت غطاء الرأس، أو يستطيع الرجال والنساء المشي معاً دون زواج، أو يُسمح للصحف أن تنشر مقالات فيها شيء من النقد. ثم، كما تتجمع السحائب السود في أواخر الخريف، تصادَر الحريات ويُعاقَب الجُنَاة.

بعد أن صرفت الحكومة النظر عن الأعراس المختلطة، بدأت شرطة الأخلاق تدخل الزفافات، وتعتقل كل الزوار. لم أكن أُعتقل أنا، بوصفي المصورة، لكنهم كانوا يأخذون الكاميرا عدة أيام. كان علي أن أزور قسم الشرطة المحلي وأنتظر معظم اليوم قبل أن أستعيد أجهزتي. أصبح الاسترزاق أصعب وأخطر دون وجود رخصة من الإرشاد.

ملّ رضا من إعطاء الدروس. اشتريت له بأرباحي حاسوباً، وصار يُجيد التصميم عليه. كان محسن يملك شركة نشر صغيرة في طهران وعرض على رضا العمل عنده إذا انتقلنا إلى طهران. أما علي فكان قد أنهى حكمه بالسجن بعد ثلاثة أعوام، وسيذهب إلى طهران أيضاً. بعد هذا القمع للمصورين، بدا لي أن الوقت مناسب لنجرب حظنا في العاصمة. فجأة، لمعت في الأفق مغامرة جديدة.

لم أكن أعرف عن طهران إلا ما سمعته من محسن وما رأيته على التلفاز. كنت متحمسة للانتقال إلى أكبر مدينة في إيران، لكن أول انطباع لي كان أنها مدينة ممتلئة بجداريات لجنود ذوي وجوه متجهمة، من الذين قُتلوا في حرب العراق، وبلوحات إعلانية ضخمة عليها صورة الأب المؤسس للثورة. كل شارع في طهران مسمّى باسم شهيد أو فقيه ثوري، أو هكذا بدا الأمر لي. كانت طهران التي يقطنها سبعة ملايين نسمة، مدينة مكتظة ومليئة بالضجيج؛ كان الجميع يتحركون بسرعة ولم يكن عند أحد وقت للحديث. بدا هذا الحال غريباً.

أما مدنيّة طهران الخرسانية، التي شملت طرقاً سريعة تعبر المدينة من طرف إلى طرف، وجيشاً من رافعات البناء يعد بمزيد من الأبراج، فكانت شيئاً لم أر مثيلاً له من قبل. لم أكن

إلا فتاة قروية ذات لهجة مضحكة ظل الناس يستهزئون بها حتى خسرت لهجتي الشمالية القوية.

يعيش أثرياء طهران في الأحياء الشمالية: نياوران، وفرشته، وسعدآباد، وفي هذه الأحياء تقع معظم الحدائق، كما أن شوارعها أعرض وهواءها أنقى. أما الفقراء فيعيشون في القسم الجنوبي، المتألف من أحياء أقرب إلى التدين والمحافطة.

بدأ رضا بالعمل لدى محسن، لأجد نفسي عدت إلى حياة ربة المنزل، وهو ما كدّرني. صرت أبحث عن عمل، لكن الجميع استطاعوا أن يعرفوا من لباسي ولهجتي أنني لست طهرانية، ولم يرد أحد أن يوظف مصورة مغمورة عالية الصوت ومضحكة اللهجة. كما أن عدد المصورات الإناث في طهران كبير، وهو ما يعني أنني لست متميزة. أصبحت بدلاً من ذلك باحثة في التسويق لمحطة إذاعة وتلفاز مملوكة للدولة، اسمها صدا وسيما (صوت وصورة)، وكنت أسأل الناس في الشارع أو في البيوت أن يملؤوا استبيانات عن برامج المحطة. كان لي أجر محدد لكل استبيان يملؤونه.

كنا نرجع في عطل نهاية الأسبوع إلى بابل لنقضي بعض الوقت مع أهلنا، ولكننا صنعنا صداقات جديدة في طهران وانضممنا إلى دائرة أدبية تلتقي كل أسبوعين أو ثلاثة. كنا نقرأ وناقش كتب الروائيين الإيرانيين المعاصرين، مثل عباس معروفی، والشعراء الحديثين مثل فريدون مشيري. أحياناً كان بعض الأعضاء يجلبون قصائدهم وقصصهم القصيرة ويقرؤونها في المجموعة. في هذه التجمعات الصغيرة، كان رضا يُعامل معاملة الأبطال المشاهير، لأنه كان معتقلاً سياسياً. لم يود أحد أن يقول إنني أنا أيضاً كنت جزءاً من هذه العصابة السياسية نفسها. بدأ رضا يبرد تجاهي. مع الوقت، صرتُ أرى على أنني زوجة رضا فقط، مُلحَق به، وهنا توقفت عن الذهاب إلى هذه الاجتماعات.

زاد الطين بلة أن رضا كان يزدي قصائدي وقصصي القصيرة. لقد أصبحت حياتنا الحرة

والسهلة مشحونة بالغيرة. كان مصرًا على اعتقاده أنني غير موهوبة في الكتابة أو الشعر—أنه هو الشاعر فقط. لم يكن في هذا الزواج مكان لأي موهبة أدبية أخرى.

كنا نعمل كلانا، وهو ما اقتضى أن معنا بعض المال لأول مرة منذ زواجنا. كانت شقتنا الصغيرة في ساحة رسالت، شرقي طهران، مبنية على الطابق الأعلى لبناء متداعٍ. كنت طوال اليوم ألف في شوارع طهران وأدق على أبواب الناس ليملؤوا الاستبيانات. وعند العودة إلى المنزل، لم أكن أجد في نفسي الطاقة لصعود أربعة طوابق. مع نهاية العام الأول في طهران، أردت أن ننتقل إلى موقع أقرب إلى وسط المدينة؛ كنت أثثر بأفكار كثيرة عن هذا الانتقال، لكن رضا لم يكن مهتمًا. بدا كأنه مشغول بأمر آخر.

أُضيفت إلى مهامى مهمة جديدة. في طريقي إلى المنزل، كان علي أن أزور المكاتب العقارية وأفتش في الصحف عن بيت جديد. أخبرت أصدقائي كذلك أن يبحثوا لي. في النهاية، وجدت شقة في يوسف آباد، وهي منطقة فيها إسكان مختلط في قلب طهران. كانت الشقة في منطقة عشوائية، محاطة بأبنية عالية جدًا. لا داعي لذكر أن ذلك الجزء من الحي لم يكن عظيمًا، لكن يوسف آباد على الأقل أقرب إلى مركز المدينة من شقتنا الحالية.

في اليوم الذي سبق انتقالنا، بدأ رضا يرتدي ثيابًا توشي بأنه ذاهب إلى مناسبة خاصة. كان يبدو بعيدًا جدًا وهو يستعد للذهاب. ذكرته أننا سننتقل في اليوم التالي وأني لا أستطيع جمع الحقائب وحزمها وحدي. «ألا تريد أن تساعدني في تجهيز الحقائب؟»

«هذه المناسبة تشريف لـ» وذكر اسم شاعر حدائي مشهور. «يجب أن أذهب وألتقي بالناس».

ثم استمر في ارتداء ثيابه.

«لا يمكنني تجهيز الحقائب وحدي».

حدّق رضا فيّ كما لو أنني سببت له ألماً شديداً.

ثم قال: «كنت سعيداً جداً بهذه الشقة. كان يمكننا أن نجد عقد الأجرة. هذا فعلك أنت، لا علاقة لي به».

ثم انتعل حذاءه وغادر.

طلبت من أخوات رضا فوزية ومحدثة مساعدتي في تحضير الحقائق. عندما ذكرت لهما أن رضا لن يساعد، قلبتا عيونهما امتعاضاً. قالتا إن عليّ أن أراقب رضا لأضمن أنه زوج صالح.

قلت لهما: «هو يفعل ما يعتقد أنه مهم بالنسبة له. لا يمكنني أن أتحكم به».

عندما عاد رضا في المساء، كان كل شيء جاهزاً إلا الأريكة والسريّر. نظر الرجل حوله، ودخل ببطء الغرفة التي كانت خالية من الأثاث وممتلئة بالصناديق الكرتونية.

ارتّمى رضا على الأريكة وأشعل سيجارة، واستنشق بعمق.

زقزقت له: «انظر إلى فعاليتي في العمل اليوم. ثلاثة نساء فقط فعلن كل هذا». اعتقدت لسذاجتي أنني سأحصل على بعض المدح.

قال رضا بهدوء: «أنا أحب امرأة أخرى. أريد أن أتزوجها».

الفصل التاسع

همستُ: «امرأة أخرى... تحب امرأة أخرى».

أحسستُ كما لو أنه ركلني في بطني. أوماً رضا إيجاباً دون أن ينظر إليّ. على الأقل كان عنده ما يكفي من الأخلاق ليُظهر الشعور بالذنب. جفّ ريقِي ولم أستطع أن أتكلم إلا بصعوبة. شعرت بالخدر في كل حواسي، اللهم إلا من الألم في قلبي.

استطعتُ أن أقول: «لقد قُلتَ إنني حبك الوحيد. لقد قُلتَ إنني صاحبة إكليل الشوك».

شعرتُ بالغباء وأنا أتكلم.

تسليّة جديدة، أراد رضا تسليّة جديدة.

بدأ يتكلم ببطء، لكن الكلمات تسارعت من فمه وازداد حماساً. جعل رضا يلوّح بيديه وهو يتكلم ويدخن بتوتر، ولا يطفئ سيجارة إلا ليشعل أخرى بعدها مباشرة. كان يشعر كأنه مسجون في زواجنا.

قال رضا وفي عيونه نظرة حزن: «لا يتدفق شعري إلا وأنا في علاقة حبّ، وزواجنا قد أصبح خالياً من الحب».

لقد كنت كأُنني أكبته لأنه لم يعد يحبني. إنه خطأي، هكذا قال.

ثم قال: «هذا الزواج كالواجب»، وأشار بيده إلى الصناديق التي لم يكن هو الذي جهّزها أصلاً. «ليس هذا مُرادِي من الزواج».

شخص نظري وفي عيني دموع. الآن خيّبت ظني الكلمات.

«زواجنا خالٍ من الشغف».

كان رضا لا يستطيع الكتابة إلا إذا كان في سكرة الحب. وكان بذلك على النقيض منّي. أنا أكتب في حال الحُزن، عندما يؤذيني أحد، عندما يكون قلبي محطّمًا. أكتب لأشفي اكتئاباتِي. أما هو فيكتب عندما يكون في قبضة الشغف.

لقد أحب رضا نسرين، وهي امرأة من المجموعة الأدبية. كنت أعرف كل شيء عن نسرين- كانت زميلتي في محطة صدا وسيماء، وكانت تطمح إلى نشر قصائدها. في الاجتماعات، كانت تولي رضا اهتمامًا زائدًا جدًّا. في الشهور الماضية، كان رضا يحضر الأمسيات الشعرية معها وأنا أبقى في البيت مع بويان. فتحتُ ذات مرّة دفتر رضا لأكتشف أنه كان يعمل على قصيدة عنها. ارتجفت وأنا أقرأ القصيدة غير المكتملة. لقد ألف رضا من قبل قصيدة عني- هكذا ابتدأت علاقتنا. لم أكتث لخلو القصيدة من الرومانسية، بل شعرت بالغضب حينها. عندما واجهته تلك الليلة في المطبخ، استهزأ وضحك.

قال وهو يضحك: «إنه لا شيء، ليس إلا تدريبًا فكريًّا. في الحقيقة يحتاج شعر نسرين إلى كثير من التحسين».

قلت له: «أريد أن أكون أنا بهجتك إلى الأبد، ألم أعد كافيةً لك؟».

أعجبت رضا غيرتي. قبلني قبلة خفيفة على جبهتي وبدأ تجفيف الأطباق.

تركّت الأمر يمضي.

كان هذا سابقًا، أما الآن فهو يريد الخروج من زواجنا. تكلمنا وتكلمنا عن كل شيء أفسد زواجنا. في معظم الحديث كان هو المتكلم وأنا أستمع ولا أستمع. لقد كان رضا هو نفسه الشاعر الشاب الذي أحبني قبل خمسة أعوام-إلا أنه لم يعد يحبني. لقد تجاوزني، وعليّ أنا أن أتجاوزه أيضًا.

قال رضا بصوت خافت: «يجب أن نتطلق».

همست مذهولة: «طلاق؟». ترددت في نطق الكلمة بصوت مرتفع. كانت هذه الكلمة ذات حرمة خاصة. «وماذا عن بويان؟».

ترقرقت الدموع في عيني بفعل دخان السجارة في الغرفة. كنت مجهشة للبكاء على أي حال، لكنني رفضت بعناد أن أقبل بأن هذا الزواج انتهى. مشيتُ إلى النافذة وفتحتها ليدخل بعض الهواء النقي. بدفعة من الطاقة الجديدة فيّ لوّحت بيدي لأدفع الدخان إلى الخارج. لو أن لي أن أدفع الهموم والمشكلات من النافذة بهذه السهولة. فوق شوارع طهران ومبانيها الصامته، لمعت مجرة من النجوم على بعد ملايين وملايين الأميال. تمنيت لو أنني بعيدة مثلها أيضاً.

حين أفكر الآن في الأمر، أعرف أن زواجنا لم يعبر حقاً عنّا. لقد ظننت أنا ورضا أننا سنتحد في وحدة عائلية، لكن الحياة التي صنعناها لم تكن مراد أحد منا. لقد غادر لأنه لم يعتقد أن في هذا الزواج شيئاً يستحق البقاء. لقد أراد أن يغادر التنظيف، والقماش المتسخ والزهور الداوية، ليكتب شعره. كنتُ لأغادر أنا أيضاً.

لم أكن أخاف الفقر، وهو مصير كثير من المطلقات في إيران. لقد كنت صاحبة الدخل الرئيس لعائلتنا في بابل وفي طهران وكنت مطمئنة إلى قدرتي على الاعتناء بنفسني. لكنني شعرت بضعف كبير تلك الليلة وبأن دفاعاتي سقطت كلها. أول امرأة في أسرتنا تُعتقل، أول امرأة تُسجن، أول امرأة تحمل قبل الزفاف، والآن سأكون أول امرأة مطلقة في قمي كلا. لم يكن مهماً أن رضا هو الذي يريد المغادرة؛ سيعتقد الجميع أن الذنب ذنبي.

توسلت له: «أرجوك لا تفعل هذا. حياتنا جيدة، عندنا بويان. سننجب أطفالاً آخرين إن أردت، أعدك. سأبقى في البيت مدة أطول».

تأمل رضا في قدميه ولم يقل شيئاً.

أرهقت دماغي بالتفكير وأنا أقلب بين ملايين الذكريات لأجد الذكرى المناسبة لأغير رأيه. أردته أن يريدني. في تلك اللحظة، كنت مستعدة للتخلي عن كل آمالي وأصبح ربة منزل فقط لأنقذ زواجنا. كان التفكير في هذا مؤلماً، لكنني كنت متألماً إلى درجة أنني كنت مستعدة أن أعده بأي شيء، حتى بأن أصبح من نوع النساء الذي رفضته طول عمري. لا شك أنني لم أكن لأفي بالوعد، لكن قلبي في تلك الليلة ألمني كما لم يؤلني من قبل. لم أرد أن أترك منبوذةً.

لم ينبس رضا ببنت شفة. جرحني صمته كما لو كان سيفاً. كنت مستعدة للتعلق بأي شيء لأنقذ زواجنا. في النهاية، قدمت العرض النهائي.

«اذهب معها مدة من الزمن»، قلت له بآخر ذرة من الطاقة الباقية في. «أخرج معها، لا مشكلة عندي. عما قريب تتعب منها وسأكون هنا لأجلك».

أطفاً رضا آخر سيجارة في مرمدته ثم قام.

توسلت إليه آخر مرة: «أتمنى ألا تفعل هذا».

«لا يمكنني أن أبقى هنا الليلة. لا أشعر أن بقائي صواب. لا تقلقي، لن أذهب إليها، لكن علي أولاً أن أرتب بعض شؤوني».

شاهدته بصمت وهو يجمع بعض ملابسه ودفاتره في حقيبة سفر. أخذ نظرة أخيرة على أرجاء الغرفة ووعد أن يتصل بي خلال يوم أو يومين بعد أن يصفو رأسه وقلبه.

أغلق الباب من ورائه.

في الصباح التالي، استيقظت على رنين مستمر لجرس الباب. قمت وأنا بكامل ملابسي من أرض غرفة النوم، حيث كنت قد بكيت حتى النوم. كانت رائحة الشقة دخاناً بائناً وفشلاً. ألمني ظهري وتشنجت عضلات ذراعي من عمل البارحة. كانت هذه صناديق كثيرة لامرأة

أوشكت على الطلاق، هكذا فكرت وأنا أفتح الباب.

جاء علي ليساعدني في الانتقال، لكن نظرة واحدة كانت كفيّلة بأن يعرف أن شيئاً ما حدث. قلت له وأنا أتجه إلى المطبخ لأغلي بعض الماء لإعداد الشاي: «لقد انتهى الأمر، لقد ذهب. سيغادرني ليذهب وراء امرأة أخرى».

«ذلك النذل الجاحد»، بصق عليّ. «ليس عنده شرف، سأقتله».

انفجرت ضاحكةً. علي، أودع إخوتي، كان يتصرف كما لو كان ذكراً إيرانياً فحلاً من النوع المعتاد. كنت متألّة، لكن الضربة لم تكن قاتلة.

«لقد وجد رضا أحداً يعطيه مزيداً من الحب. أنا لم أكن كافية له»، ابتسمت بشجاعة لعلي. كانت كل كلمة تؤلّني بعمق، ولكن لم يكن من قولها بد.

«لقد وجد أحداً يستطيع أن يحبه أكثر، وإذا كان هذا يجعله أسعد، فلن أقف في طريقه»، هكذا قلتُ وأنا أصب كأساً من الشاي الثقيل.

تمتم رضا وهو ينفخ على الشاي ليبرد: «ليس من الحق أن يتركك هكذا. لقد دمّر مستقبلك».

«سنتدبر أمرنا. إذا لم يكن يحبني، فلماذا عليه أن يبقى؟».

لقد علّمتني أمي بأفعالها ألا أكون خائفة من المحن. تذكرت حادثة معينة قبل فترة، قبل أن أنتقل إلى طهران. كانت عطلة عامة، وذهبت الأسرة كلها لزيارة علي في سجنه، على بعد ثلاث ساعات. قضت أمي أياماً وهي تطهو الوجبات والمعجنات التي يحبها علي. أخذ الآقاجان أيضاً تيناً طازجاً، وكان علي يحب التين. استيقظنا قبل الفجر لندرك باصاً خاصاً، حاملين أطعمتنا وحقائبنا لنتنزه مع علي.

انتظرنا بصبر مع أسر أخرى في فناء السجن، كنا جميعاً ننتظر المساجين الذين سيُطلق سراحهم ظهرًا. خرج الجميع، إلا علي. أمر الآقاجان محسن أن يذهب إلى الداخل ليرى ما حدث. كان قلقًا من أن يكون علي قد مرض ولن يستطيع لقاءنا. سريعًا ما عاد محسن وعلى وجهه كآبة، ويرافقه نائب رئيس السجن.

قال المسؤول باستعلاء: «لقد فقد علي حقوق الزيارة. أعتذر، لكن القانون هو القانون، وعلي ليس سجينًا سهلًا». لم يكن يبدو عليه الأسف. كان يعدّ حبّات المسبحة بيده اليسرى دون أن يولي الأمر أهمية.

قال الآقاجان: «لقد قطعنا طريقًا طويلًا، لا يصحّ هذا».

قال النائب: «لقد رفض علي الانضمام إلى صلاة الجمعة. وهو يرفض دراسة دروس القرآن». كان مستعليًا على الآقاجان. «أعتذر، أعرف أنكم قطعتم طريقًا طويلًا، لكن يجب أن نعاقبه».

أردت أن ألكمه، لكن هذا لم يكن ليجدي نفعًا. مهما كان شعورنا سيئًا، كنت متأكدة من أن شعور علي أسوأ. دفعت أُمّي الآقاجان جانبًا ووقفت أمام النائب. أما ما حصل بعدها فأذكره كما لو كان حدث البارحة.

«إذا قرأت القرآن، ستعلم أن تبذير الطعام ذنب، ولكن هذا الذنب عليك»، كان صوت أُمّي يرتجف من شدة الشعور. أخذت أُمّي الترمس من حقيبتها الممتلئة بالطعام وأراقت الشاي المغلي على أرض السجن أمام النائب. أحاط بها البخار من كل جانب، ثم أخذت التين الطازج ورمته بقوة على الأرض، ثم أخذت الخبز الطازج الذي كانت قد طهته.

«لقد خبزت هذا الخبز قبل الفجر لأنني أحب ابني، والآن سأرميه في القمامة وأنت المسؤول. الذنب عليك».

«لكن يا أمي...» أذهلته شدة تقريعها، لكنها لم تكن قد انتهت.

«في يوم الحساب، ستنتظرك السنة الجحيم لأنك كسرت قلب أم».

قال المسؤول: «عندنا قوانين، وخرقها يستلزم العقوبة، إن لم نعاقب المخالفين ستكون فوضى. لو كان حسن السلوك لما كنت هنا الآن».

«عاقب ابني. لكنك لن تستطيع السيطرة عليه، لذلك تعاقبني». لم يكن يمكن إيقاف أمي. «لقد سافرت ثلاث ساعات حتى أصل إلى هنا». فتحت أمي طنجرة الرز الساخن وألقته على الأرض. أسرع النائب ليتراجع خطوة إلى الوراء.

«إذا أساء ابني السلوك، عاقبه، عاقبه بالسجن الانفرادي، اجلده، اضربه، أما اليوم فهو يوم الزيارة الخاص». أشارت أمي إلى الأسر الأخرى. «اليوم ليس لأبنائنا بل للعائلات. اليوم يومي. أنت تعاقبني الآن، وأنا أم. حين يأتي يوم الحساب، سترسل لتحترق في الجحيم». لفظت أمي الكلمات الأخيرة بلهجة حادة.

كان ما جرى مسموعاً عند العائلات الأخرى، لذلك نادوا دعماً لأمي.

هتف أحد الرجال: «أظهر شيئاً من الرحمة. اتركها ترى ابنها».

«هذه أم. لن يسرّ الله كسر قلب أم».

«كن رحيماً».

تبادل النائب والحرس بعض النظرات القلقة، ثم تنحنح وخاطب أمي مرة أخرى.

«لم لا ندخل إلى مكتبي لنرى كيف يمكن أن أساعدك؟»، هكذا قال وهو يجاهد ليعود إلى الابتسام.

قالت أُمي وهي لم تزل غاضبة جدًّا: «لا، لقد رأيت كيف ساعدتني. انتهى الأمر هنا».

تأمل النائب في أُمي ثم خمدت روح الخلاف عنده.

«سأجري استثناءً هذه المرة، لأنك تذكريني بأُمي. هذا يوم مقدس، وكما قال النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه (الجنة تحت أقدام الأمهات)، سأخرج ابنك إليك الآن».

إنه لنصر، هكذا دار في بالي. تأملت في أخوي محسن وحامد. على وجوههما ابتسامات كبيرة. لقد أنقذت أُمي الموقف اليوم. أردت أن أعانقها. لكنها لم تكن قد انتهت.

قالت أُمي: «لستُ في حاجة إلى إحسانك. لستُ في حاجة إلى شفقتك».

تجمدت الابتسامة على وجهي.

«من حقي أن أرى ابني. أنت أخذت حقي. سأعود الأسبوع القادم بنفسني وسأراه من وراء لوح زجاجي. لكنني لن أتوسل من أجل حقي».

استدارت أُمي وخرجت من بوابة السجن.

«رجاء... لن يستغرق الأمر إلا... سأحضر علي الآن» تضاعل صوت النائب وهو يتحدث.

دون أن نقول كلمة، اصطففنا وراء أُمي وخرجنا. لم يقل أحد أي كلمة عن الزيارة بعد ذلك.

كانت أُمي دائماً ترى الكبر ذنباً كبيراً. كانت قد أصمّت آذاننا حين كنا صغاراً بضرورة التواضع أمام الناس. لكنها رغم أنها لم تكن دارسةً بالمعنى الرسمي، ورغم أنها لم تبتعد كثيراً في حياتها عن خط الفقر، لم تكن تقبل أن يزدريها أحد.

فيما نفخ علي على شايه ليبرده، كنت أعود بذاكرتي إلى ذلك اليوم، وأتذكر كيف قعدنا جميعاً في الباص المتجه إلى البيت، وكلنا جوع وعطش، لكن أحداً لم يشتك. كنت حزينة

لانتهاى زواجى؁ لكن إذا كان رضا قد أحب امرأة أخرى؁ فليس لى به حق.

التقيت برضا عدة مرات فى الأسابيع التالية فى أماكن عامة مثل حديقة لاله وفى مقاهٍ للحديث. كان الزواج قد انتهى؁ ولكن لا بد له من فحص ما بعد الموت.

اختلفت مع محسن وعلى مدة من الزمان لأننى رفضت أن آخذ حصتى الكاملة من /المهرية- 20,000 تومان و12 مسكوكة ذهبية؁ ومصحف؁ وهو ما وعدنى أن يدفعه إالى رضا فى حالة الطلاق. نفقتى. كان محسن قد طرد رضا من العمل؁ ولم أرد أن أفقره.

كان محسن يشعر بنزعة إالى حمايتى وكان يتصرف كأنه أبى الثانى. كان لم يزل يرانى مراهقة يجب توجيهها إالى أفعالها. كنت أذهب إالى مكتب محسن بعد العمل حتى يأخذنى إالى بيته ويطعمنى. كان يحذرنى من أن أبوى سيريان أن الطلاق عار على العائلة. مرة أخرى. حتى ولو كان رضا هو الخائن-سيلقى المجتمع اللوم على.

قال محسن «لا تظنى أن إيران دولة حديثة. لم يزل الطلاق يحمل وصمة كبيرة. أنت فتاة شابة يمكنك أن تتزوجى مرة أخرى؁ لكن هذا لن يكون سهلاً».

كان حلّه المقترح أن أتزوج بأسرع وقت ممكن.

«سيراك الرجال كقطعة من الأثاث؁ كسلعة؁ استُخدمت من قبل وأُعيدت الآن إالى المتجر. حتى لو لم يكن الذنب ذنبك؁ سيلومك المجتمع». مشى محسن ذهاباً وإياباً لوضع أوراق فى حقيبته. «لا يلوم الزوج أحد مطلقاً. ليس عدلاً؁ لكنه الواقع».

بعد ذلك اكتشفت أن كونى مطلقة يجعلنى مرغوبة أكثر فى عيون بعض الرجال-أعنى المتزوجين والذين يبحثون عن علاقات جنسية خارج زواجهم. بعبارة صريحة؁ كان هؤلاء الرجال يعتقدون أنه ما دام زوجى قد تركنى؁ فأنا مستعدة للجنس. لم تكن العائلات تقبل أن يتزوج أبناؤها مطلقة؁ إلا قلة قليلة.

أصرّ محسن في أحاديثنا أنه لا ينبغي أن أخرج من هذا الزواج خالية الوفاض.

قلت لمحسن: «لستُ في حاجة إلى ماله. لا أريد مسكوكات الذهب التي لا يملكها. لا يهمني أن القانون يدعمني-لا حاجة لي بأموال رضا».

بعد شهر من إعلان رضا للطلاق، جلست وإياه وبويان في الباص إلى بابل معاً لنتحدث إلى أهلنا ونحل مشكلة /المهرية. لم أكن متطلعة إلى رؤية أهلي.

ذهبت لأزور أسرتي وحدي أولاً. لم تمض الزيارة بخير.

بكت أُمي لحظة رؤيتي، كما لو أنني أُصبت بمرض عضال وصار موتي قريباً. قالت والدموع في عينيها: «أنت تدمرين حياتك. لن يكون عندك رجل يعتني بك. الزوج يحميك». ثم لطمت أمها وانهاالت الدموع على وجهها. أُمي صلبة كالحديد عند الدفاع عن أسرتها، لكن طفولتها كانت صعبة. كان أبوها قد توفي، وتخلت عنها أمها لتعتني بها عمّة. لم يكن زواج أُمي بالآقاجان كاملاً، لكنه كان مستقراً. الحياة دون الزوج كالانقياد في وسط المحيط، تحت رحمة الأمواج الكبيرة وحيوانات البحر. هكذا كانت تقول.

«الدنيا ليست آمنة لامرأة وحيدة. لا تكوني متكبرة. اذهبي وتوسلي لرضا أن يرجعك».

هز الآقاجان برأسه ببساطة. «مرة أخرى استطعت أن تدمري حياتك».

رددت: «لو أن الإسلام لا يقبل بالطلاق، لكان هناك حكم شرعي بتحريمه. الكثير من الناس يتطلقون هذه الأيام».

قال الآقاجان بحزم: «ستعودين إلى قمي كلا وتنتظرين حتى تتزوجي مرة أخرى. لن تجرّي علي وعلى أمك إلا المزيد من العار إذا بقيت وحيدة في المدينة الكبيرة».

في اليوم التالي، جلست مع رضا على مقعد منتزه في بابل لنتناقش مسألة حضانة بويان.

فيما كنا نمشي، شتتني خيال يتحرك خفية بين الأعشاب، على بعد خمسين قدماً، راقبت الخيال بعناية. كانت تلك أُمي، وهو ما أثار رعبي. مشيت إليها وأنا مصدومة، وتبعني رضا.

سألتها: «أُمي؟ هل تتبعينني؟ اخرجي رجاءً».

جعلت أُمي، وهي تبدو أصغر من حجمها المعتاد، تمسح دموعها وهي تخرج من بين الشجيرات. لم تنظر إلي بل توسلت مباشرة لرضا أن يرجعني.

توسلت له: «أسألك بالله ألا تطلق معصومة. لطالما كانت صعبة، لكن قلبها طيب وستتعلم أن تكون زوجة أفضل».

بدا الانزعاج على رضا.

قلت لأُمي: «كفي عن التجسس علي. سنتطلق. سيكون كل شيء بخير».

استمرت أُمي في مخاطبة رضا وكأنني غير موجودة: «يمكنك أن تتخذ زوجتين، هكذا ينص القرآن. حافظ على معصومة واتخذ زوجة جديدة. لكن لا تترك معصومة، لا تتركها وحيدة».

اخترق رضا عذراً وهرب فعلياً من الحديقة. لم يكن يمكن الرد على أُمي بأي شيء. مشيت معها إلى محطة الباص بصمت.

لاحقاً، سمعت أن رضا كان حريضاً اتخاذ زوجتين، لكن نسرین قتلت الفكرة.

بعد نحو أسبوعين، انتظرت مع رضا دورنا لنرى قاضي الطلاق في المقاطعة، وكان فقيهاً. وجد علي ومحسن عذراً لئلا يأتيا. عن دعم المعنويات أتحذ. كان علي أن أوظف عابرين ليكونا الشاهدين على العملية.

في المحكمة، واجهت مباشرة الواقع المقيت للمرأة في الجمهورية الإسلامية، حيث يسن

القوانين كارهون للمرأة يتخذون إرشادهم وأدلتهم من القرن السابع. في مسألة إنهاء الزواج، يحق للرجل طلاق زوجته، أما المرأة فعليها أن تأخذ إذن زوجها ليطلقها. ما أعجب هذا!

جاء رضا مع أصدقائه وأبويه.

أخذتني بانو إلى ممر قبل أن يأتي القاضي. أسرّت لي: «لا يرجح أن يعطيك القاضي حضانة بويان، أقول لك هذا لئلا تنزعجي».

«لم يبلغ بويان الرابعة حتى. يعرف القاضي في قلبه أن الأم لا بد من أن تعتني بابنها».

ضغطت بانو على يدي برفق وابتسمت: «يجب أن نفكر بالأفضل لبويان. يحتاج بويان إلى أب ليكبر ويكون قوياً. سيتزوج رضا سريعاً، وأنت لم تزالى شابة ويمكنك أن تتزوجي بسهولة وأنت حرة من التعقيدات».

«لا أريد أن أتزوج. أريد أن أعطني ببويان بنفسي».

سألت بلهجة مرتابة: «في طهران؟ وحدك؟ من سيعتني به وأنت في العمل؟ ماذا لو حدث شيء وخسرت عملك؟ بويان يحتاج إلى أبيه».

لم أجبها. دخلنا معاً غرفة القاضي.

سأل الفقيه: «هل أنت حامل؟».

جربت بعض الفكاهة. «تكفي مرة واحدة».

سأل القاضي بلهجة حازمة: «هل أنت حامل؟».

«لا».

«لقد وقعت ورقة تقول إنك تتخلين عن كل المهرية؛ أنت تتخلين عن اثنتي عشرة مسكوكة ذهبية. هل تفهمين ذلك؟».

«أفهم. لا أريد ماله».

كتب الفقيه بعض الأشياء، وملأ مربعات فارغة في مستند، ثم نظر إلي.

«حزينٌ دائماً الطلاق. في هذه اللحظات، لا بد من التفكير في الأبناء، وفي هذه الحالة»-
نظر الفقيه إلى أوراقه-«علي أن أفكر بمصلحة بويان. سأعطي الحضانة لرضا، لكن كل أسبوع يحق لمعصومة أن تراه لمدة أربع وعشرين ساعة».

همست بانو في أذني بهدوء أنها ستأخذ بويان إلى بابل معها ويمكنني أن أزوره في أي وقت. أخذته ومشيت خارج الغرفة.

تركتُ المحكمة مشدوّهة. كنت وحيدة تماماً. كان ذلك في سبتمبر 2000، قبل أسبوع من عيد ميلادي الرابع والعشرين. انتهى زوجي وخسرت حضانة بويان.

الفصل العاشر

ازدهرتُ بعد طلاقي. كانت فترة مؤلمة، لكنها جعلتني فجأة حرةً لأتطور وأحقق نفسي. لم أكن أبحث عن اتجاهات جديدة في الحياة، لكن خياراتي لم تكن كثيرة. لقد شكلتني الصعوبات التي مررت بها.

لم يكن الأمر سهلاً في البداية.

انتقلت إلى الشقة الجديدة في يوسف آباد لأسكن فيها وحيدة، طبعاً. تطور مع الوقت أحد أجزاء يوسف آباد -وهو حي موسّع في الناحية الشمالية الغربية لمركز طهران-، وأصبح موقعاً مرغوباً للعائلات من الطبقة المتوسطة العليا. في الطرف الآخر كان الحي حليبي آباد، أي مدينة صفيح؛ منطقة فقيرة نشأت حديثاً. أنشئت البيوت في هذه المنطقة بالحجر والإسمنت، دون كثير تخطيط أو تنظيم. لم تعجب المنطقة أخي علي مطلقاً.

قال علي في أول زيارة له: «قد تُقتلين في هذا الحي لمجرد أنك تبدين من منطقة أخرى».

كانت الشقة، قرب شارع كردستان، مؤلفة من ممر طويل يؤدي إلى غرفة نوم ومطبخ. كان الممر طويلاً جداً إلى درجة أنه كان يبقى بارداً في الشتاء، على رغم كل جهود مدفئة الكيروسين التي كنت قد اشتريتها. رفضت شركة الغاز الوطنية مدّ أنابيب غاز في الحي، رغم أنه قريب من مركز المدينة. كانت الكهرباء مجانية، بفضل أن المقيمين كانوا يستعملون خطافات غير قانونية لسرقة الكهرباء. كانت هذه أول شقة أسكن فيها وحدي.

أنشأ هذا الحي الريفيون المشردون الذين تدفقوا إلى طهران بحثاً عن عمل بعد الثورة الإسلامية. صنع هؤلاء مساكن مؤقتة بتكديس عبوات الزيت بعضها فوق بعض. تطورت المنطقة بعد ذلك وتوسعت نوعاً ما: ستجد فيها كل أنواع الأبنية، لكن جودة البناء كانت

رديئة في كل الأبنية. استعملت بعض المساكن صفائح مموجة لتكون سقفاً لها، فيما جعلت مساكن أخرى ستارةً مكان باب البيت. كانت معظم الجدران عوجاء تكاد تنهار، لكنك ستستطيع أن تزدهر في المنطقة إذا تعلمت كيف تتجاهل الوسخ والقمامة المتناثرة في كل مكان. كانت منطقة صعبة في المدينة، وكنت أخاف العودة إلى البيت متأخرة بعد العمل. لكن ذلك كان بيتي الخاص على الأقل.

ظل الآقاجان يُرسل رسائل مع إخوتي يحضّني على العودة للسكن مع أسرتي حتى يجد لي زوجاً.

لم أكن يوماً فتاته المطيعة.

ذات يوم اتصل الآقاجان بنفسه.

«الناس يتكلمون، وأنا لي مكانتي في القرية». ذكّرني أنه كان عنصراً في البسيج. «كيف سأظهر وجهي في المسجد وكل الناس يعرفون أن ابنتي طُلّقت لكنها لم تزل تعيش وحدها في طهران».

«لقد بلغت الرابعة والعشرين، لم أعد طفلة. عندي عمل ولا أفعل أي شيء فاسق».

«لا بد لك من زوج جديد. تعالي إلى البيت وسنجد لك رجلاً آخر يعتني بك».

«لا أنوي البحث عن رجل يعتني بي، ولا أنوي العودة لأقعد في البيت في قمي كلا».

نعم، كنا قد دخلنا إلى الألفية الجديدة، لكن المطلقات في إيران ليس لهن هوية. لم يكن أبي فريداً؛ كان مجرد تعبير عن الثقافة الإيرانية. في كثير من القرى والمدن الصغيرة، يُفترض أن المطلقة يجب أن تبقى في بيتها وتنتظر الزوج التالي. الآن بدأت مستويات الطلاق ترتفع في إيران، وازداد التسامح مع المطلقات—لكن هذا فقط في طهران والمدن الكبيرة الأخرى.

كنت متأكدة من شيء واحد: لن أعود إلى قمي كلا. في النهاية استسلم الآقاجان.

كنت أذهب لزيارة بويان كلما أتاح القانون، وكان ذلك في بيت أهل رضا. كان اللقاء مؤلماً جداً. كثيراً ما كان ينتهي بالدموع. لم يرد أن أتركه وكنت أتردد في المغادرة، لكن رضا قد فاز بالحضانة. كنت أعد بويان بأنني سأتي لأخذه ليسكن معي عندما تتحسن حالتي. لم أكن أعلم كيف، لكنني كنت أعلم أنني سأستعيده يوماً ما.

أعجبني استقلالتي، رغم أنني لم أكن مستعدة لحياة العازبين. تركت الطبخ وصرت أذهب إلى بيت علي لقضاء الوقت وتناول العشاء وأخذ ما تبقى إلى بيتي. في أوقات أخرى، كنت أختبئ في شقتي بعد العمل، لأشعر بالأسف على نفسي. كنت أحتاج إلى معرفة ما أريد فعله بحياتي. كنت محاطة بالظلام وأردت أن أبقى عيوني مفتوحة.

كنت قد بدأت العمل في صدا وسيما عندما وصلت إلى طهران، وكان عملاً سهلاً جداً. لم أزل منذ ذلك الوقت أزور الأحياء وأدق الأبواب -أبواب البيوت والشقق والشركات- حتى يجيبني الناس عن عادات حضورهم وآرائهم عن المحطة التلفزيونية. كنت أحمل معي حزمة من الورق واكتشفت أنني أجيد التواصل مع الناس.

كنت أستطيع الحديث مع كل الناس، شباباً ومسنين، رجالاً ونساءً. لعل أن هذا نتيجة لتربيتي الريفية. أنا سهلة جداً وأحب بدء المحادثات. كانت هذه الوظيفة تدريباً جيداً لي، إذ التقيت بها آلاف الطهرانيين العاديين وتعلمت كيفية الحديث مع الناس من مختلف الطبقات الاجتماعية والخلفيات.

كان من الأشخاص المثيرين للاهتمام الذين التقيت بهم فؤاد، وهو وكيل سفر بلغ من العمر ثلاثة وستين عاماً، وكان قد عاش في عدة دول في أوروبا، وكذلك في سنغافورة واليابان. كان فؤاد طويلاً وبارز المظهر، وكان شعره فضياً ضئيلاً، وكان ممتلئاً بالقصص عن أسفاره. في إحدى الليالي بعد أن أغلق مكتبه، اتصل بزوجته وقال لها إنه سيأتي مع ضيف

خاص على العشاء. كانت أمسية شتوية باردة عندما مشينا فوق الثلج إلى بيته. قبل ذلك اليوم، لم أكن قد قابلت أي أحد زار الدول الغربية. تكلمنا في مطبخه فيما كانت زوجته تسخن طنجرة من الرز وتقطع أعشاباً خضراء.

«عندما كنت في قمي كلا، كانت بابل باهرة. الآن أنا في طهران. أعتقد أن هذا إنجاز كافٍ وحده».

«طهران كبيرة، لكن يجب أن تسافري وتري بلداناً أخرى كذلك».

قلت له: «سهل عليك قول ذلك. أنت أول شخص سافر بطائرة أراه في حياتي. طهران كبيرة بما يكفي بالنسبة لي».

«ماذا؟ هل تقصدين أنك لم تسافري في طائرة من قبل؟» لم يكن فؤاد يصدق. نظر الرجل إلى زوجته وضحكاً معاً. «هل أنت جدية؟ لم نقابل في حياتنا شخصاً لم يسافر بطائرة من قبل».

«ما الذي فاجأك؟ ربما عليك أن تسافر في بلدك أكثر». أكره أن يُقلَّل من شأني. «واقعاً، لم يسافر بطائرة أي أحد من أسرتي أو أصدقائي».

بدأ فؤاد يعتذر. قال: «أريد أن أكون من يشتري لك أول تذكرة طائرة. الناس ينسون ما تقولينه لهم، لكنهم لا ينسون ما تبذلينه لهم».

كان ذلك قبل عدة أيام من يوم النوروز، وهو رأس السنة الفارسية، التي تبدأ في 21 مارس. كان علي قد رتَّب زيارة لأبناء عمنا الأبعد في أصفهان، وهي مدينة غنية بالتاريخ والثقافة، بمناسبة العيد. طلب علي والأقارب مني الانضمام إليهم، لكنني لم أشعر بأي بهجة بالعام الجديد. سيبقى بويان مع أبيه. لا أريد كذلك أن أشرح لأصدقاء أخي لماذا انهار زواجي وأبدأ في الإجابة عن أسئلة الزواج التالي.

سألت فؤاد: «هل لك أن ترسلني إلى أصفهان؟ هكذا سأفاجئ أخي».

في اليوم التالي، ناولني فؤاد تذكرة ذهاب وإياب إلى أصفهان. كنت سأستقل الطائرة في اليوم نفسه الذي يأخذ فيه علي وزوجته الباص. حرصت على الاتصال بعلي قبل مغادرته لأتمنى له سفرًا آمنًا.

ارتديت أفضل لباسي وأخذت سيارة تكسي إلى مطار مهرآباد، وكنت متحمسة إلى درجة أنني أكاد أطيّر إلى هنالك بذراعيّ. مشيت مشية المنتصر إلى البوابة، ظانّة أن الجميع كان ينظر إلي. عندما بدأت الطائرة تقلع، اضمحلت الحماسة وأصابني قلق شديد. ماذا كنت أفكر؟ أمسكت بمسندّي الذراع وجعلت أصلي وعيناي مغلقتان بإحكام، وأرجو القدير أن يخرجني من هنالك. في نوبة القلق هذه، ناديت أحد المضيفين وقلت له إنني غيرت رأيي.

«لقد طرت بما يكفي. أريد أن أنزل الآن».

ابتسم المضيف وتجاهلني. كان أكبر مخاوفي أن تتحطم الطائرة. لن أجد حاليّ فرصة لأخبر أصدقائي أنني كنت على متن طائرة. لم أفتح عيني إلا عندما وصلنا إلى سرعة الطيران. لم ألبث أن ارتحت إلا وقد هبطت الطائرة. أصابني الإحباط—كنت أرجو لو أننا بقينا في الجو أكثر.

حين عدنا إلى البر، كنت أتحرق لأفاجئ أسرتي. أخذت سيارة تكسي إلى بيت أقربائي وانتظرت. بعد ساعتين أو ثلاث، رنّ علي وأسرته جرس الباب. هُرعَت لأفتح الباب.

كان علي مذهولاً. لم يكن يصدق عينيّه. ظلّ يلمس ذراعيّ ورأسي ليتأكد من أنني أنا.

جعل يكرر: «كيف وصلت إلى هنا بهذه السرعة؟ لقد تحادثنا صباحًا قبل أن أغادر».

بعد ستة أشهر من اكتئابي بشأن الطلاق، شعرت أخيراً أنني عدت أستمتع بالحياة. شعرت بالتميز لأنني كنت أول من يستقل طائرة من أسرتي. أخيراً، إنجاز لم يكن عاراً على بقية

الأسرة. مع انتهاء عطلة رأس السنة، أصبح عندي هموم جديدة. كان عقد عملي سينتهي قريباً، ولا بد أن يأخذوا بصماتي. إذا عُرف سجلي العدلي في صدا وسيما، سيؤدي ذلك إلى طردي.

لقد حان وقت البحث عن عمل جديد. أنا أصلاً لم يعجبني برنامج الدوام الجديد. في بعض الأيام كان علي أن أبدأ عصرًا وأعمل حتى آخر المساء حتى أضمن وجود العائلات في المنزل. كنت أطرق الأبواب وقت العشاء، بعد أن يكون الأزواج عادوا من العمل. ذات مساء بعد انتهاء يوم طويل، لويت كاحلي الأيسر وسقطت على جانب الطريق. من شدة إرهاقي وألمي دعوت نفسي إلى بيت صديقتي مهسا على العشاء. كنا قد تعارفنا بُعيد زواجي برضا، وكانت واحدة من الصداقات التي استمرت بعد الطلاق. كانت مهسا تدرس اللغات الأجنبية وعلى وشك التخرج في جامعتها.

كان الجميع يعرف مدى فظاعة طبخي، وكانت مهسا تحب الطبخ. فيما كانت صديقتي تقطع البصل وتطبخ بعض اللحم والأرز، أخبرتها عن جهودي في البحث عن عمل. كان كاحلي متورماً جداً وكان يؤلمني جداً. بعد الغداء، عرضت مهسا أن تأتي إلى بيتي وتبقى معي. كانت الساعة حوالي العاشرة ليلاً عندما غادرنا شقتها، وكانت كل خطوة كالتعذيب عليّ. كنت أتقافز وأمسك بحقيبتني الممتلئة بالاستبيانات، ومع كل خطوة مؤلمة كنت ألعن حماقتي وسوء حظي بالعموم. كنت مشفقة على نفسي ومجهشة للبكاء.

حاولت مهسا تسليتي بالحديث عن خططها لمغادرة إيران والعيش في أوروبا، غالباً إيطاليا، والاستقرار هناك. قالت إن الرئيس خاتمي خيب ظنونها. لم تجر أي إصلاحات. لم أهتم بكل ذلك الحديث. لم أكن مهتمة إلا بأخذ تكسي، لأنني لم أعد أستطيع المشي. في تلك الليلة كانت كل سيارات التكسي التي رأيناها مليئة بالركاب أو كانت تمر جانبنا دون أي نية للتوقف. مرّت سيارات خاصة كثيرة، وهو شيء ليس غريباً. في طهران، يقود بعض الرجال، وأحياناً النساء، سياراتهم في الليل ويعملون بها كسيارة تكسي خاصة لتكون

مصدرًا ثانيًا للدخل. يعمل كثير من الناس في طهران عملين حتى يلَبُّوا احتياجاتهم المالية. لأسباب السلامة، ليس من عادة النساء أن يستقلن هذه السيارات الخاصة، ولكن إذا فعلن وأوقفت الشرطة السيارة، فقد يتعرضن لأسئلة محرّجة.

انتظرنا قرب حاجز حجري. ظهرت سيارة بيكان داكنة اللون، واقترب السائق إلى المقعد الذي بجانبه لينظر إلينا. كانت ملامحه مخفية في الظلام، وكان يرتدي وشاحًا حول عنقه. همس السائق: «بكم؟ بكم؟ لا أريدكما الليلة كلها. تكفي واحدة منكما. أنت نحيلة جدًّا، أما هي فمقبولة»، وأشار إلى مهسا.

عدلت غطاء رأسي، وأحكمت الإزار على معطفي، ونظرت بعيدًا متجاهلةً الرجل.

هتف الرجل: «أنت الخاسرة»، وانطلق بعيدًا وعجلات سيارته تصرّ.

انفجرنا ضاحكتين أنا ومهسا. لقد أصابنا الذهوب—ما كنا نعرف هذا الجزء من ثقافة طهران من قبل.

توقفت سيارة بيكان برتقالية قريبة منّا. مال إلينا رجل آخر يبتسم بشهوة. «كم تريدان لأخذكما معًا. في السيارة؟».

قالت مهسا: «اغرب عن وجهي».

قبل الجمهورية الإسلامية، كان في طهران حي عاهرات خاص، يُعرَف باسم شهر نو، أو المدينة الجديدة. كان ذلك الحي بئسًا من جميع الاعتبارات. بعد الثورة، حُرّق جزء من القلعة حتى انهدم، وسُوّي الباقي وحُوّل إلى حديقة. مُنعت الدعارة، لكن أحدًا لم يستطع إنهاءها في المجتمع.

رأينا حينئذ أن على الضفة الأخرى من الشارع مكانًا تقف فيه السيارات لتدخل فيها نساء

ثم تنطلق مسرعة. لم نرد أن نكون قريبتين من ذلك المشهد البشع، فمشينا مئة ياردة لنتنظر سيارة تكسي مناسبة. ظننا أنه من الطريف أن يُعتقد أننا عاهرات ونحن نرتدي المعاطف الطويلة وأغطية الرأس.

مع مرور الدقائق، تنبّهت إلى أننا كنا نراقب—كان على الجانب الآخر من الطريق رجلان على دراجة نارية ينظران إلينا. اعتقدت أنهما نشالا حقائب. كانت الصحف قد امتلأت بالقصص الفظيعة عن نشالي الحقائب الذين ينشلون حقائب النساء ويسرعون بعيداً. في إحدى الحوادث، ضربت امرأة على رأسها بجنزير معدني بعد أن غادرت البنك. أخذ السارقون حقيبتها واحتاجت هي إلى أكثر من ثلاثية غرزة. أحكمت قبضتي على حقيبتني ومشيت ببطء إلى تقاطع الطرق التالي، باحثة عن تكسي ومتمنية أن يغادر الرجلان خلفي.

انطلقت الدراجة النارية واقتربت منا ببطء. وجه السائق الدراجة إلينا، فيما كان ضوءها الأمامي يفيض بالأبيض، والسائق يلعب بالشرّاقة، فيشتدّ صوت المحرك ثم يهدأ. أمسكت بذراع مهسا وأمسكت هي بذراعي، ومضينا نمشي، خائفتين حتى من أن نتحادث.

فجأة أسرعّت الدراجة ثم ضغط السائق الفرامل بحدّة ليقف في طريقنا. كان الراكب الخلفي يرتدي قميصاً مفتوحاً وكوفية فلسطينية ملفوفة على عنقه، ونزل ليتجه إلينا، ووقف على بعد إنشات قليلة مني.

صرخ الرجل بعنف وهو يفتح كوفيته، وكان عمره ثمانية عشر تقريباً، ربما لذلك لم يكن حليقاً: «ما الذي تنتظرانه أيها القمامتان؟ ماذا تريدان هنا؟». صرخ الرجل بغضب غير مفهوم.

قدّمت له حقيبتني: «خذها، خذها كلها، هي لك». وقفت مهسا ورائي. لم نكن نشعر بالشجاعة لا أنا ولا هي. «لا تضربني. خذها رجاءً».

صفع الرجل الحقيبة بعنف جعلها تطير من يدي. سقطت الحقيبة وأصدرت صوتاً على بعد عدة أقدام.

صاح الرجل: «لا أريد مالك النجس. ماذا تفعلين هنا في الشوارع في هذا الوقت من الليل؟ تبيعين الهوى؟»

أدركت متأخرة قليلاً أن هذان أسوأ بكثير من النشّالين. إنهما من القوى الرديفة، البسيج. كان البسيجيون يرتدون كوفيات في حرب إيران والعراق. وقد ارتدى المرشد الأعلى كذلك على كتفيه كوفية عدة مرات.

ظننت حينها أنه ما من شيء يمكن أن يجعل الوضع أسوأ، وإذ بسيارة تقف قربنا ويفتح السائق باب الراكب ليقول:

«أيها السيدتان، اركبا معي. سيارتي مريحة أكثر من الدراجة».

بخطوتين واسعتين، وصل الرجل ذو الكوفية إلى السيارة وركل الباب ليغلقه.

ثم صرخ: «سحقاً لك أيها النجس».

انطلقت عجلات السيارة ولم تترك وراءها إلا الدخان.

كان البسيج قد حققوا معي سابقاً، مرة أو مرتين في حواجز بابل، لكن ذلك لم يكن في الليل. لو لم نكن حذرتين لاعتقلنا أنا ومهسا بتهمة الأنشطة غير الأخلاقية. كان ذلك ليذمّرني—كنت لأعود إلى السجن لأكمل حكمي المعلق، بسبب تاريخي الجنائي.

لم أجد وقتاً لأفكر بخطة. أسرع الرجل صاحب الكوفية إليّ وركلني بهمجية على مقدم ساقي. ظننت أنه كسر ساقي—انتشرت في جسدي صاعقة من الألم وسقطت وجلست على الأرض. كنت متألّمة جداً؛ لم أستطع حتّى أن آخذ نفساً.

«لا بد أنك عاهرة غالية جداً-أذلك ترفضين هؤلاء الرجال؟»

سالت الدموع على وجهي وأنا أحاول استنشاق الهواء. انحنى المعتدي وضربني على أضلاعي. مرّة بعد مرّة.

صرخت مهسا: «النجدة! لا تضربها. دعها وشأنها».

«متى ستتعلمن أيها العاهرات ألا تبعن أجسادكن النجسة في الشوارع».

استطعت أن أقول وأنا أرفع ذراعيّ لأحمي نفسي من ضربة أخرى: «رجاءً لا تضربني. نحن نريد سيارة تكسي لنرجع إلى بيتنا».

رجع الرجل خطوة إلى الوراء وانحسر غضبه: «لن تجدي هنا تكسي-كلها سيارات لشرائكن أيها العاهرات».

أما البسيجي الذي ظل قاعداً على الدراجة فنهض الآن ومشى إلى منتصف الطريق. رفع الرجل كلتا يديه وأوقف سيارة تكسي فارغة كانت قد جاءت لتوها من ساحة ولي عصر، على بعد أقل من كتلة من مكان وقوفنا السابق. كان السائق، وهو رجل مسن، عائداً إلى بيته غالباً لكنه لم يرد أن يخاطر بمشكلة مع البسيج.

هتف المعتدي وهو يرفعني بشدة من ذراعي ويرميني في السيارة: «اركبي السيارة».

قال باستهزاء: «لقد قلت إنك تنتظرين تكسي-ها قد أصبحت هنا. إذا رأيته مرة أخرى هنا، سأقتلك».

تسللت مهسا من ورائه إلى السيارة، وكانت قد التقطت حقيبتي. مال المعتدي إلى السيارة وقال للسائق: «خذ هاتين السيدتين، إلى أي مكان لعين تريدان».

التفت الرجل ونظر إلينا بعناية. كان مظهرنا مظهرًا-عيون حمرة ودموع تفسد المكياج

وتسيل على وجوهنا. أما حجاباتنا فكانت قد نزلت حتى بلغت منتصف الرقبة. كنت أتلوى من الألم.

هز الرجل رأسه تعبيراً عن عدم رضاه وهو يشغل السيارة وينطلق.

«رجاء أيها السيدتان، أصلحاً حجاباتكما. لا بد أن تحترما قوانين الحجاب».

لقد هوجمنا بوحشية قبل ثوان، وهم السائق الوحيد الآن هو أن حجاباتنا غير محكمة. أطعناه بخوف ونحن نبكي بصمت في المقعد الخلفي. لعله ظن أننا فعلاً عاهرتان. لكن لا شك أن في البلد أمراً فاسداً عندما يهتم الناس بعدة خصلات ظاهرات من الشعر أكثر من اعتداء وحشي على مواطنين عُزل.

لعدة أيام تاليات، كنت أعرج في شقتي وأضلاعي مكدومة، وأخذت إجازة مرضية من عملي. لم أشعر أنني مستعدة لمواجهة العالم. لقد حان وقت بعض التغييرات في حياتي. أقسمت ألا يضربني أي رجل بعد ذلك، وأنه إذا مدّ عليّ رجل يده، فسيعاني عشرة أضعاف ذلك. كان علي كذلك أن أجد في البحث عن عمل جديد وشقة جديدة في حي أفضل، وفوق كل شيء سيارة، حتى لا أضطر إلى انتظار سيارات التكسي. بدأت بالبحث عن عمل جديد.

لطالما أردت أن أكون كاتبة، لكنني لم أعتقد يوماً أنني أجيد الكتابة. كانت أُمي موهوبة بالشعر. كانت تكتب قصائد معقدة، تتناول فيها موضوعات المعاناة والحب، بلهجتها المازنية. أما أنا فكتاباتني في المراهقة أوصلتني إلى السجن.

لقد حان وقت الاتصال بمحسن لطلب المساعدة. كان معظم الكتب التي تطبعها دار نشره أكاديمية عن التاريخ الطبيعي والعلم، لكنه كان يعرف عدداً من الصحفيين الذين كانوا يطمحون إلى أن يصبحوا كتّاباً.

بعد أسبوع أو أسبوعين، أجريت مقابلة لدور متدرب في صحيفة همبستكي، وهي صحيفة

يومية مرتبطة بالأحزاب الإصلاحية السياسية، أي إن آراءهم كانت إلى يسار الوسط وكانوا يدعمون الرئيس خاتمي. معظم الصحفيين كانوا يحبون خاتمي، الذي فتح المساحة الثقافية وسمح بازدهار عشرات المطبوعات الجديدة.

تغير العالم كثيرًا في تسعينيات القرن العشرين، من انتشار الإنترنت إلى سقوط الاتحاد السوفييتي وانتهاء الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، لكن التغير هذا لم يتغلغل في إيران، لا سيما فيما يتعلق بالمرأة وشؤونها. قال خاتمي صاحب الابتسامة الدائمة أنه أراد الإصلاح في إيران. كان قد وُلد لأسرة متدينة وكان يرتدي عمامة سوداء خلافًا للبيضاء الشائعة، وهي علامة على أنه من سلالة النبي. أما أبوه وجده فكانا من آيات الله.

سمح خاتمي لصحف جديدة أن تنشر، ولكتب أكثر أن تُتاح، وخفف الرقابة نوعًا ما. لكن إصلاحاته كانت محدودة. ظلت الأحزاب والصحف العلمانية التي تدعو إلى فصل الدين عن السياسة ممنوعة. لم يكن يمكن لأي مرشح لم يقبل به مجلس صيانة الدستور -وهو مجلس من ستة فقهاء وستة محامين يدققون القوانين التي يسنّها البرلمان- أن يعمل، ويجب على هؤلاء أيضًا الالتزام بخطوط معينة. في ذلك الوقت، كان المشهد السياسي الإيراني نزاعًا بين الإصلاحيين الخاتمين والفئات المحافظة. في الواقع، كان هذان الطرفان جناحين في الحزب الديني نفسه. الأمر يشبه في الولايات المتحدة أن يكون الخياران متاحان فقط هما حزب الشاي والجمهوريون المعتدلون، ويُمنع كل شيء سوى ذلك. كان الأمر سخيًا، لكن في إيران لا يُقبل أي موقف سياسي غير ديني. لقد وعد خاتمي بالإصلاح في الإطّار الإسلامي، لكنه كان معارضًا لعلمنة إيران. فاز الرجل بموسم انتخابي آخر في 2001 بأغلبية عظمى، لكن السلطة الحقيقية كما كانت دومًا، ظلّت في يد المرشد الأعلى علي خامنئي.

كان مقر همبستگي، التي تدعم أجندة خاتمي، في مبنى مبتذل في وسط طهران. كان على باب المبنى حارس أمني مُسن يبدو عليه الملل، كان ذا بشرة ثخينة ويرتدي قميصًا أزرق

قصير الكمّين، وكان يجلس على كرسي متضعع داخل المدخل. أخذ الرجل عدة سحبات من سيجارته وهو ينظر في أوراقه، ثم دون أن ينطق كلمة واحدة، أشار لي بالدخول.

صعدت الدرج وأنا أتعجب من مقدار الوسخ المتجمع في كل درجة، وكنت أتساءل بشأن صحة قراري بالعمل هنا. اختفت كل مخاوفي عندما دخلت مكاتب همبستغي. كانت طاولة طويلة تتربع في غرفة الأخبار المستطيلة، وعلى الزوايا ثلاثة مكاتب أصغر. حول كل طاولة، كان رجال ونساء يتجمعون فوق الدفاتر وهم يكتبون قصصًا طويلة أو يجرون مقابلات على الهاتف. في الغرفة المجاورة وجدت آلة تليكس، وكانت دائماً تُخرج أوراقًا تحتوي أخبارًا من وكالة أنباء الجمهورية الإسلامية، وهي الصوت الإعلامي الرسمي للحكومة. لم يكن في المكان حواسيب محمولة أو ثابتة. لم أكن قد رأيت غرفة أخبار من قبل، لكن الغرفة كانت مليئة بالطاقة؛ نظرت باحترام إلى الصحفيين الذكور والإناث وهم يتحركون باستمرار، بعضهم يأخذ نسخة إلى مجمع الآلات الكاتبة في طابق مختلف، وآخرون يتبادلون آخر الأحداث للكتابة عنها في صحيفة اليوم التالي.

قرّرت، هذا هو المكان الذي أريد أن أكون فيه. لم أكن أعلم كيف أكون صحفية، لكنني أردت أن أكون جزءًا من هذا الفريق. أردت أن تكون هذه حياتي. كان علي أن أحقق ذلك.

قعدت على الكرسي الصلب وأنا أراقب غرفة الأخبار أكثر من ثلاث ساعات قبل أن يقودني موظف إلى السيد ق، وهو عضو في المجلس التحريري. لم يكن السيد ق صحفيًا حقيقيًا، بل هو عضو إصلاحي سابق في البرلمان عنده خبرة واتصالات سياسية. في ذلك الصباح، بدا أنه لا يعرف ماذا يفعل بي، لأنني لا أملك الخبرة ولا الاتصالات.

سأل الرجل بتردد: «تقول رسالة تقدّمك أن اسمك هو مسيح. المسيح؟ هل أنت مسيحية؟».

«اسمي معصومة، وأنا مسلمة».

«ظننت أن مسيح اسم رجل. هل أنت التي اخترت الاسم لنفسك أم أبوك؟».

«لقد سمّاني خطيبي هكذا. أبي مسلم متدين ولا يمكن أن يدعوني مسيح».

بدا الرجل مهتمًا: «ماذا جرى لخطيبك؟».

لفظتها دون إمعان في التفكير: «تزوجنا ثم تطلقنا».

كتب السيد ق بعض الملاحظات على دفتر أمامه.

«هل معك شهادة جامعية؟».

«لم أذهب إلى الجامعة».

سأل السيد ق بصبر: «شهادة ثانوية؟».

قلت: «ليس تمامًا».

كتب ملاحظات أخرى، لكنه لم يعد يظهر عليه الاهتمام.

«هل تتكلمين بأي لغة أجنبية؟ الإنكليزية؟ الفرنسية، ربما؟ مكتبنا للغات الأجنبية يبحث

دائمًا عن مترجمين».

مزحتُ: «أنا من قمي كلا. الفارسية لغتنا الثانية. أتحدث المازنية وبعضًا من الجيلاكية».

(الجيلاكية لهجة شمالية أخرى). «هل تحتسب هذه؟».

لم يظهر الرجل حتى ابتسامة.

«أي مراجع؟ أي أحد يمكن أن يكفلك؟» سأل السيد ق. «أعني سياسيًا. نحن صحيفة

إصلاحية».

أومأت بالنفي بوداعة. لو كان لي من يكفلني لما تقدمت لوظيفة متدربة، هكذا قلتُ في

نفسي.

«نحن نبحث عن مرشحين ذوي خبرة. يبدو أنك مجتهدة ومخلصة. سأفكر بالأمر». هكذا قال السيد ق ثم ودّعني لأخرج من مكتبه.

كنت أعلم أنني لا أملك شيئاً سوى حماستي. كان علي أن أجعله يفكر بي بطريقة أسرع. كان علي أن أجرب مرة أخرى. في اليوم التالي، استيقظت قبل طلوع الشمس ومشيت إلى مكتب السيد ق في الطابق الثاني، ومعني خطاب جهزته.

بدأت الحديث بصوت مرتجف قليلاً: «بعض المرشحون أكثر كفاءة وتأهيلاً. بعضهم عندهم الارتباطات العائلية المناسبة، وبعضهم يتحدثون لغة أجنبية أو لغتين. لكن أنا منتج حقيقي للثورة الإسلامية، وأسرتي من المستضعفين الذين صنعوا هذه الثورة وهم قاعدة الجمهورية الإسلامية. أبي وإخوتي شاركوا في الحرب. ليس عندنا ارتباطات لأننا منشغلون جداً بإطعام أسرنا. لقد قامت هذه الثورة لتعطي فرصة لأمثالي من المعدمين، وليس للأقارب والمحاسيب».

«تعجبني جرأتك. أنت امرأة مقدامة».

توسلت له: «أستطيع أن أتعلم الصحافة. أعطني فرصة فقط. اسمح لي أن أبقى هنا ثلاثة أشهر لأتعلّم. إذا لم ينجح الأمر، سأغادر بصمت، وليس عليك أن تدفع لي أجراً».

«لا بد للصحفي أن يكون جريئاً، وعلينا دائماً أن نتذكر سبب وجودها في هذا العمل: لنعنتي بمصلحة الناس». بدا السيد ق نبيلاً ذلك اليوم.

اقترحني السيد ق لأكون متدربة دون أجر. عرفت بعد ذلك أن متدربين آخرين يتقاضون أجراً أسبوعياً، لكنني لم أهتم. لم تكن هذه أول مرة أعمل فيها مجاناً، والمهم أنني جعلت لنفسي موطن قدم في المكان.

كان من عادة أُمي أن تقول: «إذا أغلقوا الباب الأمامي، اذهبي من الخلفي. إذا سُدَّت الأبواب،

فادخلي من النوافذ. إذا أغلقوا النوافذ، فتسلقي من المدخنة. لا تسمحي لهم أن يبقوك خارجاً. حاولي دائماً أن تدخلتي».

حاولت أن أعيش هذه الكلمات. عرض محسن وعلي المساعدة ريثما أصبح موظفة مأجورة. كنت أقضي أيامي في المكتب وأخذ دروساً من مركز الدراسات الإعلامية بعد الظهر لأتعلم الصنعة. سريعاً ما اكتشفت أنني بوصفي متدربة من المحافظات، فأنا أدنى من الدون في هرمية الصحافة.

وافقت مرجان شيخ الإسلامي، وهي كبيرة الكتاب السياسيين في همبستغي، ورئيسة المكتب السياسي، على قبولي تحت جناحها. في عالم الصحافة الذي يسوده الذكور، كانت مرجان الطويلة والجميلة واحدة من النساء القليلات اللاتي ترقين في العمل. كانت مرجان قد بذلت سنوات من العمل الجاد لتحصل على سمعتها؛ كانت تتمتع باحترام كبير وتعرف كل من ينبغي أن تعرفه، ومنهم من يدين لها بالكثير. مع هذا، لم تستطع مرجان أن تدخل مجلس التحرير في همبستغي، وهو المجلس الذي كان يجتمع كل صباح ليقرر القصص الرئيسية في اليوم والقصص التي تستحق أن تغطي في الصفحة الأولى. لم يكن في المجلس أي امرأة. كانت مرجان مقصاة من عضوية هذا النادي، لكن كل قصصها تقريباً كانت تغطي في الصفحة الأولى.

بعد ثلاثة أشهر، كنت قد نشرت عدة قطع صغيرة فقط. لم أجد شيئاً يميزني. كنت خائفة وراغبة في تحويل تدريبي إلى عمل ثابت. كان علي أن أكتب خرقاً كبيراً. ومن سخرية القدر أن جدالاً بشأن حرية الصحافة كان هو ما أنقذني.

عندما كنت أناضل لأعدّل حياتي بوصفي امرأة عزباء لأتعلم الصحافة، كان بين السياسيين في طهران صراع آخر. كان الأعضاء الإصلاحيون في المجلس يدعون الرئيس خاتمي إلى فتح المجتمع وإجراء تغييرات جذرية في قوانين الصحافة والأسرة، وإلى كبح قوى المرشد

الأعلى، آية الله علي خامنئي.

في سياق هذا الخلاف، أقر المجلس قانوناً لتقليص ميزانية التلفزيون الوطني، صدا وسيما، الذي كان تحت إشراف المرشد الأعلى. كان هذا اختباراً لأصحاب السلطة-المجلس أو خامنئي. بحسب الدستور الإيراني، المجلس هو المشرف على صدا وسيما، القناة الوحيدة المسموح لها بالعمل في إيران، لكن كان من غير الواضح قدرته الفعلية على تقليص ميزانيتها.

قبل بضع مئات من السنوات، كان ملك إنكلترا تشارلز الأول قد خسر رأسه بعد أن تنازع مع البرلمان. لم يتوقع أحد أن يخسر خامنئي رأسه، لكن العلاقات بين مكتب المرشد الأعلى والمجلس كانت قد احتدمت جداً. عرض الرئيس السابق رفسنجاني نفسه وسيطاً للمصالحة وإيجاد حل وسط لتهدئة الأمور.

في يوم هادئ ليس فيه أخبار، ذهبت مرجان إلى بيتها قبل الغداء. لم أجد فكرة لأكتب عنها فيما كنت أقلب في دليل الهاتف في المكتب، الذي كان يحتوي أرقام بعض اللاعبين السياسيين الأساسيين. لما كنت متدربة، كان لا بد لي من عرض أفكار على مرجان أولاً، لكنني ارتأيت أن الأفضل أن أتصرف الآن وأعتذر لاحقاً. بدأت أتصل بأعضاء المجلس وأخذ آراءهم عن وساطة رفسنجاني. اتصلت ببعض أكثر المشرعين راديكالية وتملّقتهم بحقيقة أنني متدربة أبحث عن إرشاد. كان من الطريف كيف أن السياسيين الذكور يمكن الاعتماد عليهم دائماً في أن يكونوا متعاليين على النساء، لكنهم قدموا لي اقتباسات عظيمة. بعد ساعتين، سجلت قصة عن نية النواب الإصلاحيين، الذين يسعون إلى مواجهة المرشد الأعلى، لرفض عرض وساطة رفسنجاني.

قلت وأنا أناول النسخة لمحرر الأخبار: «هذه من المكتب السياسي». كان العنوان الثانوي للمقالة: «من فريق المجلس»، وهو إجراء نظامي نتبعه إذا كانت القصة حساسة. بهذه

الطريقة يكون المؤلف محمياً نوعاً ما.

في تدريبي، كان من مهامي أن أنقل نسخة الأخبار إلى المحررين. لم يشك أحد في أن شيئاً غير نظامي يجري.

ذهبت إلى البيت متوترة جداً. كنت متوترة إلى درجة أنني لم آكل أي شيء تقريباً على العشاء ولم أنم إلا قليلاً في الليل. في الصباح التالي، أسرعت إلى آلة بيع الصحف، حيث اشتريت نسخة من همبستكي، مع أنني كان يمكنني أن آخذ واحدة مجاناً من العمل. كنت متحرقة لأرى قصتي مطبوعة، لكنني صُغت حين وجدتها على الصفحة الأولى.

كانت على الصفحة الأولى!

لم يكن اسمي موجوداً، لكنها كانت قصتي. هنا بدأ الهلع. كنت متأكدة أنني سأواجه مشكلة كبيرة. لقد توقعت أن توضع القصة على صفحة داخلية، أما الصفحة الأولى فشأنها مختلف. ستغضب مرجان غضباً شديداً لأنني لم أخبرها. بدلاً من الباص الذي أستقله عادة إلى العمل، أوقفت سيارة تكسي حتى أستطيع أن أجدها في الطريق وأطلب مسامحتها. كان مذياع السيارة على قناة الأخبار. فيما كان السائق يحاول شق طريقه في ازدحام الصباح، سمعت المذيع وهو يتحدث عن أخطار النزاع السياسي على مشكلة المجلس. كان الخبر الرئيس على الراديو هو عواقب قصتي. كان السياسيون الآخرون يبدون ردات فعلهم. الآن تأكدت أنني سأطرد من العمل. عندما وصلت، كانت غرفة الأخبار تشتعل بالحماسة بشأن قصة مرجان الجديدة. جلست بصمت في مقعدي، وعياني ملتصقتان بالباب وأنا أنتظرها. عندما دخلت، هُزعت إليها وأخذتها إلى زاوية وأخبرتها بالحقيقة. اعتذرت منها كثيراً لكوني لم أنسق معها ولم أحترم هرمية العمل.

قلت لها وعلى وجهي ابتسامة حمقاء: «لم أعتقد أنها ستحدث هذا الصدى».

استمعت مرجان دون أن تقول كلمة ثم اتجهت إلى مكتبها. اعتقدت أنني سأطرد عما قليل.

اتجه المراسلون وكتب الفقرات إليها ليهنئوها على الأخبار. حتى رئيس التحرير خرج من مكتبه ليسلم عليها.

أمسكت مرجان بالصفحة الأولى واتجهت إلي.

«هذه قصة مسيح. عليكم أن تهنئوها هي».

الفصل الحادي عشر

بعد بضعة أشهر من عملي في قسم السياسة، عُيِّنتُ مراسلةً في مجلس الشورى ودخلت عالماً جديداً غريباً. وسيذكر التاريخ الإيراني المجلس السادس، الذي هيمن عليه الإصلاحيون، باعتباره أحد أشدّ المجالس تطرفاً. تتبع معظم الصحف ووكالات الأنباء في إيران لمجموعة سياسية. وكان لدينا صحف إصلاحية (آفتاب يزد واعتماد ملي)، وصحف محافظة (كيهان ورسالت)، وبعض الصحف مثل همشهري التي زعمت أنها محايدة، في حين أنها كانت متذبذبة بين الطرفين. شخصياً كنتُ ضمن المعسكر الإصلاحي.

سرعان ما حصلت على وظيفة ثانية كمراسلة في مجلس الشورى لوكالة أنباء العمال الإيرانية (إيلنا). وكنت أقضي الصباح في المجلس لصالح إيلنا، وفي فترة ما بعد الظهر أتجه إلى صحيفة همبستغي لكتابة التقرير التحليلي اليومي. منحني العمل في وكالة إيلنا رؤية أوسع، حيث كانت العديد من الصحف في جميع أنحاء البلاد مشتركة في خدماتها الإخبارية. فجأةً، راحت تقاريري تُنشر في عشرات الصحف في طول البلاد وعرضها. كنت بحاجة إلى المال الإضافي للهروب من الحي الفقير الذي كنت أعيش فيه.

غيرت مسكني خمس مرات في ثلاث سنوات، وفي نهاية الأمر استأجرت شقة في مبنى به بواب خاص. ومثل ذلك راحة كبيرة بالنسبة لي. فدائماً ما أفقد مفاتيحي، وسرعان ما تعلم البواب الاحتفاظ بمفاتيح احتياطية لي. تخلصت من كل شيء يذكرني بحياتي القديمة، وألقيت بالأريكة والفرش في مزبلة التاريخ، وبعث معظم أغراضي واشترت أغراضاً جديدة. أثار ذلك التصرف غضب والدتي، إذ كانت ترى أنني أبدد المال بدلاً من ادخاره، لكنني كنت قد بلغت السادسة والعشرين ولم أرغب في الاحتفاظ بأي علامات من حياتي القديمة حولي. تعلمت كيف أعيش بخفة. أمكن توضيب كل متعلقاتي في حقائب

وصناديق كرتونية لتسهيل انتقال السكن. نادرًا ما كنت أدعو الأصدقاء إلى منزلي، لأنني لم أرغب في التحدث عن حياتي الخاصة، لا سيما الطلاق وفقدان حضانة بويان. لم أعلق أي صور على الجدران، واكتفيت بوضع صور بويان في إطارات على الطاولات -مما يسهّل إخفاءها عندما يأتي الضيوف، في المناسبات النادرة.

أما بالنسبة لأمر الطعام، فلم أكن أجيد الطبخ حقًا. ولا أبالغ بقولي كنت أقيم أودي بالساندويتشات ولطف الأهل والأصدقاء، وزيارة منزلي علي أو محسن وأغادر المكان حاملةً بقايا الطعام. وكلما أقيمت حفلة تقدم فيها أطعمة منزليّة، كنت أحضر بمجرد تلميح إلى دعوة، وكنتُ آخرَ شخص يغادر طاولة الطعام.

ومع ذلك، لم أستطع الهروب من ماضيّ. فلكي أحصل على بطاقة صحفية من المجلس، كان علي الخضوع لفحص لجنة إدارية خاصة، وهو ما يتطلب التحقق من خلفيتي من قِبَل وزارة الاستخبارات، ووزارة العدل، والحرس الثوري. وأوصى تقرير وزارة الاستخبارات برفض طلبي على أساس أن لدي سجلًا في الأنشطة السياسية. ورغم أن هذا كان بسبب مخالفة بسيطة عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري، فقد رفضت الوزارة طلبي.

وطلبًا للمساعدة، تواصلت مع أحمد بورغاني، وهو عضو في المجلس وصحافي سابق. كان بورغاني نائبًا سابقًا لوزير في وزارة الإرشاد، وقد استقال احتجاجًا على قانون يحدّ من حرية الصحافة. وبمجرد أن سمع قصتي، رتب لي لقاءً مع مهدي كروبي، رئيس البرلمان آنذاك والشخصية الأكثر نفوذًا في المجلس. شعرت بخجل شديد عندما تم اصطحابي لمقابلة كروبي، الذي اعتُقل في عهد الشاه وشغل عدة مناصب منذ الثورة. كان في الستينيات من عمره، وقد حافظ على تطرّف سنوات شبابه، وأراد أن يكون الرئيس القادم لإيران. وكثيرًا ما كانت لحيته البيضاء المميزة، التي كانت تتناسب مع

عمامته، تظهر بشكل بارز على الصفحات الأولى للصحف. وكان كروبي يرتدي رداءً بلونٍ كريمي ونظارات ذات إطار ذهبي، ويتحدث بلهجة ريفية ثقيلةٍ من مسقط رأسه، محافظة لرستان الزراعية. وتبادلنا القصص عن صعوبة الإعجاب بأهل طهران المتكلفين. وسرعان ما جعلني أشعر بالراحة، مثل عمي المفضل. لقد أخبرته بنشاطي السياسي البسيط عندما كنت مراهقةً، واعتقالي، والحكم عليّ مع وقف التنفيذ. واستمع كروبي في صمت. ثم استدعى مساعده وطلب منه أن يكتب خطاباً إلى لجنة الاعتماد لمساعدتي في الحصول على تصريح صحفي.

وقال كروبي: «لقد أتممت عقوبتك، ولا داعي لمواصلة معاقبتك».

ولكن وزارة الاستخبارات هي مَنْ ضحك أخيراً. فقد حصلت على تصريح صحفي لدخول مجلس الشورى، ولكنه كان تصريحاً ليوم واحد فقط، مثل التصريحات التي تُمنح لأعضاء الصحافة الزائرين من المحافظات. أما المراسلون المنتظمون في المجلس يُصدر لهم بطاقات تحمل ختم رقم 400، مما يسمح لهم بالدخول دون فحص أمني يومي. وهكذا توجب عليّ كل يوم إبلاغ مكتب الإعلام في المجلس بوضع اسمي على قائمة حتى يسمح لي الحراس بالدخول.

لقد أبقيت أمرَ طلاقِي وإنجابي لابن سرّاً في محيط العمل وخاصة في المجلس. وللاتصال ببويان، كنت أتسلل إلى هاتف عمومي خارج مكاتب الصحف أو خارج مجلس الشورى. لم أكن أشعر بالخجل، ولكنني كنت أعرف أن الرجال سيعتبرونني فريسة سهلة. وإذا لم أحافظ على صلابتي الظاهرية في مجلس الشورى الذي يهيمن عليه الرجال، فالكثير منهم مستعدّ لاستغلالني.

لفترة من الوقت، اعتدت الذهاب بسيارتي كل صباح إلى مقهى في شارع سعدي، في شمال طهران، لتناول وجبة إفطار من *الكاليباتشي*، وهو حساء دهني كثيف برأس

خروف كامل في كل وعاء: باللسان والعينين والخدين وكل شيء. ويُعتبر الكالياتشي إفطاراً إيرانياً تقليدياً، غنيّ بالدهون والبروتين، وهو الآن مفضل لدى الطبقة العاملة والهيبيين الذين يحتاجون إلى الطاقة بعد التزلج أو ليلة من الحفلات المخالفة للقانون. أحببت هذا المقهى لكونه عصرياً وأنيقاً ولا يشبه المطاعم الدهنية القديمة في جنوب طهران، حيث يعمل الطهاة في قمصان داخلية ملطخة أمام أحواض صناعية الحجم تضمّ السائل المتبخّر.

أما في هذا المقهى، كان البلاط أبيض لامعاً، وكان الطهي يتم في مطبخ مخفي عن الأنظار، وكان النوادل يرتدون قمصاناً بيضاء نظيفة. أحببت الكالياتشي، لكنه طبق للعمال. إذ يجب غلي جمجمة الخروف لساعات حتى يصبح اللحم طرياً، طافياً في الدهن. ترددتُ على المقهى حتى حذرتني أُمي من أنني قد أصاب بنوبة قلبية بسبب هذا النظام الغذائي الغني بالدهون.

وبعد أن أصبحت مراسلةً في المجلس، سامحني والداي على كل تجاوزاتي السابقة. كانت أُمي تتصل بي كل صباح بلا استثناء لتتأكد أنني استيقظت، ثم تبدأ بإعطائي النصائح حول كيفية التصرف بطريقةٍ تليق بالنساء. كانت الرسالة واضحة: لا تُخرجينا مجدداً.

كانت تقول: «هؤلاء النواب أشخاص مهمون. ولا يمكنك الآن أن تتصرفي بتهوّر».

اشتريت سيارة مستعملة بفضّل قرضٍ من إخوتي. أطلقت أُمي على السيارة لقب الرجل الحديدي.

عندما أخبرتها كم أحببت القيادة لساعات في طهران وضواحيها، قالت لي: «سيارتك الآن هي ملاكك الحارس. لا داعي للزواج».

لا تستطيع النساء السير في الشوارع ليلاً، كما اكتشفت ذلك بمرارة. ومَرَّت العديد من

النساء الإيرانيات بتجارب التعدي الجنسي، أو التحرش، أو التعرض للإهانة بالشتائم الجنسية.

كانت شرطة الأخلاق أكثر ظهوراً في تلك الأيام، وتسير دوريات في أحياء معينة بحماس متجدد، مستخدمة أساليب أكثر وحشية. كانت الشرطة النسائية ذات الملابس المدنية تضايق النساء اللاتي يضعن المكياج. كما كانت هناك دوريات خاصة سيئة السمعة، تلك المعروفة باسم «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، إذ يرى المسلمون المتدينون أنه من واجبهم تشجيع الفضيلة وردع الرذيلة. كانت هذه الدوريات، التي يقودها عملاء شبه رسميين، تضيق الخناق على النساء اللواتي لا يرتدين الحجاب بشكل مرضٍ. وتسببت تلك المواجهات بمشاكل لا تُحصى، لذلك كانت سيارتي أكثر من مجرد وسيلة نقل؛ كان الأمر وكأنني أرتدي درعاً كلما دخلت فيها. كنت أشعر بالأمان والحماية. كل يوم كنت أركن السيارة، أضع حزام حقيبتتي على كتفي، وأعدل العباءة السوداء ووشاح الرأس لأتأكد من عدم ظهور أي خصلة شعر قد تسبب لي المتاعب مع شرطة الأخلاق. بعد ذلك كله، كنت أسير بسرعة نحو مبنى المجلس.

كنت أرغب في تجنب المشاكل، لكن المشاكل كانت تجد طريقها إليّ بانتظام.

بعد ثلاثة أشهر في المجلس تقريباً، استدعاني بديل السيد «ق» في صحيفة همبستغي إلى مكتبه. كان نائباً في المجلس، وتعييناً سياسياً آخر في الصحيفة.

قال لي وهو يشير إلى مقعد أمام مكتبه ويدعوني للجلوس: «الناس مستأوون منك. أعضاء المجلس، زملائي، اشتكوا لي —إنهم منزعجون منك».

«لم تسنح لي الفرصة للتسبب بالمشاكل»، قلت ضاحكةً.

«لا أعتقد أنك تدركين أن هذه وظيفة جادة. فالمجلس هو بيت الشعب ويستحق

الاحترام».

«أنا أحترم النواب، لكن نبرة صوتي مرتفعة، وعندما أطرح الأسئلة، ربما يعتقدون أنني وقحة. لكنني لست كذلك».

فقال: «أنت لا ترتدين الملابس المناسبة. انظري إلى حذاءك، فهو ليس لائقاً».

نظرت إلى حذائي الجلدي الأحمر، الذي كان به أشرطة على الجهة الأمامية. حسناً، اشتكى بعض أصدقائي من أنه يبدو وكأنه حذاء فتاة صغيرة، لكن قدمي صغيرة.

«ما بال حذائي؟» سألتُ بتذمر.

اشتكى «مشرّع كبير» من أنني أردي «حذاء بينوكيو».

ثم صاح بصوتٍ مرتفع: «لا يمكنك ارتداء حذاءً أحمر. هذا هو مجلس الجمهورية الإسلامية. ما مشكلتك؟»

تم إيقافني عن حضور جلسات المجلس لمدة ثلاثة أشهر. ولكنني تمكنت من مواصلة تغطية أخبار البرلمان، إنما من المكتب فحسب. لذا، كنت أتحدث على الهاتف طوال اليوم مع النواب ومعارفي بحثاً عن الأخبار. ربما كان المحررون يأملون أن يقوم بديلي، وهو مراسلٌ شاب، بعمل أفضل، ومن ثم يمكنهم فصلي. لحسن الحظ، لم يفلح في أمره، وسرعان ما عدت إلى أروقة البرلمان، أطارد المشرعين وأبحث عن الأخبار.

«لا ترتدي أحذية بينوكيو»، قال لي المحرر غاضباً عندما أعلن عن انتهاء فترة إيقافني.

قرأت مرة أن الأخبار هي شيء يريد ذوو النفوذ قمعه. لم أرغب أن أكون فرداً في

القطيع. كنت أريد ملاحقة الأخبار المعتبرة. أما غالبية المراسلين ففضلوا انتظار المتحدث باسم المجلس لتزويدهم بالأخبار أو تسليمهم البيانات الصحفية الرسمية، والتي يعيدون صياغتها بعد ذلك على أنها «أخبار».

لم أرغب أن أكون ضمن هؤلاء المراسلين.

لم يحتكر الأقوياء الحقيقة. كنت أريد أن أبلغ الأخبار وأحقق في مجالات لا يهتم بها غيري من المراسلين. وكما اكتشفت من قبل، لديّ موهبة دفع الناس للتحدث معي. كنت أستطيع أن أستخرج الكلمات من فم الحجر، كما نقول باللغة الفارسية، وفي المجلس كان لدينا 290 شخصية، والكثير منهم مستغرق في أهمية ذاته. بصفتي صحفية برلمانية، وجدت مهنتي الحقّة، ورغم ارتكابي بعض الأخطاء، ففي غضون عام تمكنت من ترسيخ نفسي وكثيراً ظهرت تحقيقاتي على الصفحة الأولى. ومع ذلك، نادراً ما تلقيت مكالمات من رئيس التحرير، وعندما كان يتصل بي، كان يحمل أخباراً سيئة. في أحد الأيام، سألتني إذا كان بإمكانني المرور على مكتبه إذا لم أكن مشغولة للغاية. بدا صوته قلقاً. على الفور، تفحصت حذائي، فكان أسود اللون وكئيبياً للغاية. على الأقل كنت مطمئنة من هذه الناحية. دُعيتُ إلى اجتماع مع جميع كبار محرري همستيغي والمحامي الذي يمثل الصحيفة.

ساد جوّ شديد التوتر في الغرفة. وفي اللحظة التي دخلت فيها، راح الجميع يتحدث في نفس الوقت. وفي النهاية، تنحّح رئيس التحرير.

ثم قال: «لا أدري أأهنئك أم أفصلك من العمل». وتردد الضحك المتوتر في أرجاء الغرفة.

كانت هيئة الأركان العامة للقوات المسلحة الإيرانية، وهي أعلى هيئة عسكرية تقدم المشورة للرئيس، والمسؤولة عن تنسيق الأنشطة في القوات المسلحة، قد تقدمت بشكوى

ضدي إلى القضاء. وللمرة الأولى، تقاضي القيادة العسكرية العليا صحفياً. وزعم الجيش أنني قد أهنت المحاربين القدامى وذكرى تضحياتهم.

قبل أربع سنوات، في العام 1999، داهمت قوة شبه عسكرية تضم نحو أربعمئة فرد من قوات الأمن سكناً جامعياً في طهران، وضربت الطلاب، وحطمت أبواب الغرف، بل وأشعلت النار فيها. وألقي بعض الطلاب من شرفات الطابق الثالث؛ فمات طالب واحد على الأقل، وأصيب ثلاثمئة آخرون. لقد نظم الطلاب في مدن أخرى، مثل تبريز ومشهد وشيراز، مسيرات احتجاجية، ووقعت اشتباكات، أعقبتها اعتقالات وضرب وسجن آلاف الطلاب. كان ذلك قبل أربع سنوات، ولكن الآن تُجري لجنة برلمانية تحقيقاً لمحاسبة أجهزة الأمن على رد فعلها الوحشي. وفي تغطيتي لأفعال اللجنة، سخرت من الباسيج باعتباره منظمة اشتبكت ذات يوم مع دبابات صدام حسين، ولكنها الآن تضرب الطلاب. وقارنتهم بمجموعة من البلطجية.

فقلت له: «لا يمكنك طردي. يجب أن تمنحني زيادة في الراتب، فأنا المراسلة الوحيدة التي يرفع الجيش عليها دعوى قضائية. سيكون هذا خبراً مزلزلاً».

وسرعان ما ثبتت صحة قلبي، إذ غطت صحف أخرى الشكوى المقدمة ضدي. بين ليلة وضحاها، انتقلت من تغطية الأخبار إلى موقع كنت فيه الخبر. من نافل القول إنه إذا نجحت الدعوى ضدي، فقد أواجه السجن وقد تتعرض صحيفة همبستغي للإغلاق.

في ربيع وصيف العام 2003، كانت القيادة السياسية الإيرانية تراقب الحدود الغربية بقلق. فقد تجمع مئات الآلاف من الجنود الأمريكيين والمارينز والطيارين على حدود إيران، مستعدين لإطلاق عملية حرية العراق، والتي كانت عملية غزو العراق في العام 2003 بقيادة الرئيس جورج دبليو بوش. توقع القادة العسكريون الإيرانيون أن يتعثر الأمريكيون في العراق، لكن القتال انتهى في غضون سبعة أسابيع. ودار حديث

عن احتمال زحف الأمريكيين نحو الشرق لغزو إيران أيضاً.

في أواخر يوليو 2003، تلقيت استدعاءً للمثول أمام سعيد مرتضوي، المدعي العام سيئ الصيت في طهران. تبخرت شجاعتي بسرعة. كان جميع الصحفيين في طهران على دراية تامة بلقبه: «جزار الصحافة». كان اسمه يبتث الرعب في أوصال معظمنا. عمل سابقاً رئيساً للدعاء في المحكمة الثورية الإسلامية، ومسؤولاً عن القسم الذي يحقق في الشكاوى الصحفية. كان يستجوب الصحفيين بانتظام، وقد سجن العشرات وأغلق نحو مئة صحيفة. كان يستخدم القانون كغطاء لقمع المعارضين. قد يكون خاتمي خفف من قيود الصحافة، لكن مرتضوي كان المسؤول عن تشديد الخناق، وكان يرفع تقاريره إلى رئيس السلطة القضائية، الذي يعينه القائد الأعلى. كان له معارف في كل صحيفة، وكان بإمكانه استمالة أو ترهيب معارفه لسحب المقالات المعارضة.

كان ثمة سبب آخر للخوف من مرتضوي. فقد أفلت من العقاب على جريمة قتل. إذ يُشاع إنه كان مسؤولاً عن مقتل زهرة كاظمي، المصورة الإيرانية الكندية التي توفيت في السجن بعد استجواب رجاله لها. وقد اتجهت كاظمي لالتقاط الصور خارج سجن إيفين، وهو مجمع ضخم بُني في عهد الشاه، في شمال طهران، على جانب الطريق السريع. واكتسب السجن سمعة سيئة لأكثر من خمسين عاماً، لا سيما لكونه المكان الذي أُعدم فيه آلاف السجناء السياسيين في العقود التي أعقبت الثورة. وبالنسبة للعديد من الإيرانيين، فإن اسم «إيفين» يثير مخاوف لا تختلف كثيراً عن المخاوف المرتبطة بسجن «الباستيل» قبل الثورة الفرنسية. وحتى اليوم، تنتظر الأسر خارج بوابته الحديدية الصامدة وجدرانها الضخمة، أملاً بأخبار عن أبنائهم المحتجزين داخله.

كانت كاظمي تحمل تصريحاً للعمل كمصورة صحفية، ولكن في الثالث والعشرين من يونيو 2003، أُلقي القبض عليها وهي تلتقط صوراً لعائلات المساجين. وبعد استجوابها

لمدة ثلاثة أيام، نُقلت إلى مستشفى عسكري وهي تسعل دمًا، ودخلت في غيبوبة. كانت تعاني من كدمات منتشرة في ذراعيها، ظهرها، وثدييها، وكسر في أنفها وأصابعها، كما تعرضت للاغتصاب. وقال الطبيب الذي فحصها إنها تعرضت لضربة شديدة في الرأس. وتوفيت بعد تسعة عشر يومًا من زهابها لالتقاط الصور. ولم يجرؤ الصحفيون الإيرانيين تغطية القضية إلا لأن الحكومة الكندية أطلقت احتجاجًا.

ومن المفارقات أن السلطة القضائية عيّنت مرتضوي، المشتبه الرئيسي، على رأس «مجموعة تحقيق مستقلة». لم يكن بوسع الصحفيين سوى التلميح إلى عملية تستر. عُقدت محاكمة لاثنين من المحققين، لكن برّئ كلاهما من التهم. كان مرتضوي يحب التباهي بأنه من «الذين لا يمسون» - كانت الجمهورية الإسلامية بحاجة إلى أشخاص مثله للقيام بأعمالها القذرة.

أصبح استدعائي لرؤية مرتضوي قصة إخبارية في الصحف الأخرى، وقامت جمعية الصحفيين الإيرانيين بتعيين محامٍ للدفاع عني.

في يوم المقابلة، رافقني مدير التحرير في صحيفة همبستغي، إبراهيم أصغر زاده، وسيد كاوه من الإدارة، وانطلقنا لمقابلة مرتضوي. كان أصغر زاده ذا تاريخ حافل — فقد كان أحد قادة الطلاب الذين نظموا احتلال السفارة الأمريكية في طهران في العام 1980، واحتجزوا 52 دبلوماسيًا كرهائن لمدة 444 يومًا. كان في أواخر الأربعينيات من عمره الآن، ولم يعد هو الشاب الثائر الذي كان في الماضي، ولكنه جاء للدعم المعنوي ولاعتقاده أنه قد يمارس بعض التأثير على القضية.

بعد انتظار قصير، تم اقتيادنا إلى مكتب كبير مزين بصور مؤطرة للخميني وخامنئي. جلس مرتضوي خلف مكتب ضخم، مرتديًا بدلة رمادية فاتحة بدت صغيرة

عليه. كان قصير القامة وممتلئ الجسم، بشارب أسود كثيف وشعر أسود متوسط الطول مصفف على جانب واحد. أذكر بوضوح حاجبيه الكثيفين، اللذين كانا يرتفعان بصورة مسرحية أثناء إطلاقه مزاعمه الجامحة ضدي. كانت ملامحه القصيرة والمكتب الضخم يمنحانه هيئة حاكمٍ مستبد من الرسوم الكاريكاتورية، لا سيّما بنظاراته ذات الإطار المربع الكبير التي أتمت الصورة.

كنت خائفة.

جلسنا في المقاعد أمامه. لم يعترف بوجودنا، وتظاهر بأنه منشغل بقراءة تقرير أمامه. وبينما كان يقرأ، رفع إصبعه الممتلئ إلى منتصف وجهه وراح ينظف أنفه بلا مبالاة —أو عن قصد. بدا وكأننا لسنا موجودين في الغرفة.

مرت دقائق على هذا الحال. أخيراً، رفع مرتضوي رأسه. متجاهلاً مجاملاتنا والشخصيتين الكبيرتين الحاضرتين للدفاع عني، ثبت عينيه عليّ.

قال: «حسنًا، من يقف وراءك حقًا؟ من يكتب مقالاتك؟»

قلت: «أكتب كل كلمة بنفسي». وأشارت إلى مدير التحرير الجالس بجانبني. «ويمكن للأستاذ المحترم أصغر زاده أن يشهد لي».

قبل أن يتمكن أصغر زاده من الحديث، أطلق مرتضوي اتهامًا آخر ضدي.

قال وهو يقرأ ببطء من الأوراق أمامه: «ليس لديك شهادة، ليس لديك حتى دبلوم. أودعت السجن قبل أن تتمكني من إنهاء المدرسة الثانوية. عملت في همبستغي لمدة عام أو نحو ذلك فقط».

لم يكن لدي رد. لم أفهم لماذا كان يحاول إهانتني.

قال وهو يضرب الطاولة بيده الممتلئة: «أنت غير مؤهلة أو ذات خبرة كافية لتكوني صحفية حقيقية. هناك من يستخدمك، هناك من يكتب مقالاتك باسمك، وأنت تسمحين بذلك لتصبحي مشهورة. من هم؟»

فقلت بسخرية: «لم أكن أعلم أنك من أشد المعجبين بعلمي».

سعل السيد كاوه ليشير لي أن أخرس.

«اعترفي وسأعاملك بلطف. هذا وعد».

«أعطني ورقة وسأعترف. لقد كتبت كل كلمة بنفسي. أعترف بأنني كاتبة مقالاتي. هذا كل ما لدي لأعترف به».

«حسنًا، تزعمين أن مصطفى تاج زاده ومحسن أرمين ليسا من يكتب مقالاتك؟»

«أعرفهما بالطبع، لكن لا تربطني علاقة بهما». كان أرمين عضوًا إصلاحيًا في البرلمان، وكان تاج زاده أحد الشخصيات الفكرية البارزة في حركة الإصلاح.

قال مرتضوي وهو يحدق في عيني وكأنه على وشك الانقضاض عليّ: «أتظنين أننا في السلطة القضائية جهلة أو حمقى؟ نحن نعرف كل شيء عنك. لدينا الكثير من الملفات عنك. لديك علاقات متعددة. أنت ترتكبين الزنا، ويمكننا إثبات ذلك».

كانت وحشية اتهامه صادمة بالنسبة لي. فقد انتقل من مهاجمة عملي إلى استهداف حياتي الشخصية. احمرّ وجهي من الخجل. فالزنا جريمة كبرى، وعقابًا عليها يمكن رجم النساء، أو جلدهنّ، أو شنقهنّ.

إنما لم يكن هذا ما يقلقني. كان مرتضوي يحاول إذلالني بإلقاء هذه الاتهامات الدنيئة والكاذبة أمام رئيسي ونائبه. بدا أصغر زاده والسيد كاوه محرّجين وعاجزين عن الكلام.

كرر مرتضوي وهو يلوح بورقة في يده: «لدينا الكثير من الملفات عنك. نعرف أنك تُقيم علاقات جنسية مع ثلاثة رجال كل أسبوع، وهم الذين ينفقون عليك».

قلت بغضب: «هذا زعمٌ سخيف، وأوقح ما تتفوه به اليوم. أرني تلك الأسماء. أريد رؤية الملفات».

لوح مرتضوي بيده نحو الباب، فنهض رجل نحيل كان يجلس في الزاوية يدوّن ملاحظات، وخرج دون أن ينطق بكلمة. خيم على الغرفة صمتٌ مشوّبٌ بالتوتر. وراح مرتضوي يحدّق بنا نحن الثلاثة. عاد المساعد ووضع على مكتب مرتضوي مجلداً سميكاً، مليئاً بقصاصات الصحف وأوراق أخرى. انحنى مرتضوي لتفحص الملف.

همس أصغر زاده بهدوء: «ليس له الحق في إهانتك هكذا. فحياتك الخاصة لا علاقة لها بهمبستغي».

قال مرتضوي بلهجة المنتصر: «ستعترفين بأنك تقيم علاقات غير شرعية مع رجال متزوجين. وستكون هذه أخبار جديرة بالصفحة الأولى، أعدك بذلك».

«انشر ما تريد». وقفتُ وتحدثت بصوت عالٍ، فسره البعض خطأً على أنه صراخ. «لم أكن مع أي رجل متزوج».

قال مرتضوي بنفس النبرة العالية: «اخفضي صوتك. من تظنين نفسك؟»

قال السيد كاوه وهو يمسك بطرف معطفي ويشدني للجلوس: «اجلسي. لديه صلاحية زجك في السجن. هل لديك المال الكافي لدفع الكفالة؟ إذا لم يكن لديك المال، فاهدئي ولا ترفعي صوتك».

لم يكن لديّ أي مال لدفع الكفالة. بقيت صامتة، لكنني كنت أغلي من الداخل.

استأنف مرتضوي بهدوء: «أو يمكنك كتابة اعتذار، وسنسامحك في الوقت الحالي».

«لن أغادر هذه الغرفة حتى تسمي هؤلاء الرجال، عشاق المزعومين».

كان من الفظاظ محاولة نبش شؤون حياتي الخاصة وكأنه يتحكم بي.

قال: «لماذا تطلعت من زوجك؟ من يدفع إيجار منزلك الآن؟» كنت مطلقة منذ ثلاث سنوات وأدفع إيجاري بنفسني.

«ثم، هل تنكرين أنك تقيمين علاقة مع أرمين؟ هل تنكرين أن تاج زاده هو من يكتب مقالاتك؟»

«لا، ولا، وألف لا. لا أعرف أرمين أو تاج زاده». راحت المقابلة تتحول إلى استجواب شديد الغرابة.

مرة أخرى، راجع مرتضوي وثيقة على مكتبه قبل أن يسألني سؤالاً آخر عن حياتي الخاصة. تكرر هذا النمط مراراً وتكراراً. لم يتطرق أبداً إلى مقالي الذي أزعج القيادة العسكرية العليا.

بعد ساعة من الاستجواب عن حياتي الخاصة، أغلق الملف فجأة ووقف. طلب من زميلي الصامتين أن يرافقه إلى الخارج، لكنه طلب مني البقاء والانتظار.

قال: «لدي ارتباط في المحكمة. ابق هنا حتى أعود».

غادر الغرفة، ولدهشتي، أغلق الباب بالمفتاح. جلست في مكتبه وحيدة لأكثر من ساعة، مرتبكة مما يجري. في نهاية الأمر، جاء أحد المساعدين وفتح الباب لي يسمح لي بالمغادرة. صُرفت، لكن توجب علي العودة في اليوم اللاحق ليتمكن من استئناف استجوابه.

خارج مكتبه، وقفت مجموعة من الصحفيين بانتظاري، لكن لم يكن لدي أي فكرة عما يمكنني قوله لهم. لقد اتهمت بإهانة القوات المسلحة إليّ، إنما كنت مشغولة بالدفاع عن حياتي الخاصة.

في اليوم التالي، ذهبت إلى مكتب مرتضوي وحدي. قال لي كل من أصغر زاده والسيد كاوه إنهما لا يعتقدان أن حضورهما سيفيدني بشيء. واصل مرتضوي التطفل على حياتي الخاصة. واستأنف الحديث عن ملفات سرية تتعلق بنشاطاتي الجنسية، لكنه لم يقدم أي دليل.

كان يقول: «هل لديك علاقة مع السيد فلان؟» ويذكر اسم أحد أعضاء البرلمان.
«لا».

«لدينا الكثير من الوثائق عن علاقاتك».

رددت: «أرني بعض الأدلة. على الأقل أخبرني بأسماء هؤلاء الرجال».

بعد حوالي ثلاث ساعات، صرفني مجدداً لكنه طلب مني العودة في اليوم التالي. استمر هذا الأمر لمدة خمسة أيام. كنت أعود كل يوم إلى العمل وأحاول فهم ما يجري بالضبط.

قال مرتضوي في نهاية الأسبوع: «يجب أن تكتبي خطاب اعتذار في صحيفة همبستغي عن إهانتك لقواتنا المسلحة الشجاعة حامية الحمى. إذا رفضت كتابته، سأغلق الصحيفة. سأحرص أيضاً على أن تنشر جميع الصحف الأخرى تقريراً بأنك ارتكبت الزنا مع ثلاثة رجال».

لم يكن هذا تهديداً بلا معنى. إذ كان بإمكانه تدمير سمعتي من خلال إجبار الصحف على فعل ما يطلبه. كان قد اعتقل وسجن أصدقائي وزملائي.

ومع ذلك، لم أستطع مقاومة الرد عليه.

«لقد حارب والدي وأخوأي في الحرب. إخوتي وأصهارى جميعهم من جرحى الجنباذ» —المحاربين القدامى الذين أصيبوا. «أكنّ لجيشنا عميق الاحترام. إنما لا أحترم الأشخاص الذين لم يخدموا في الجيش يوماً واحداً ويستغلون المحاربين القدامى لمكاسبهم السياسية».

صرخ قائلاً: «أخرسى!» كنت قد لمست وترّاً حساساً. لم يخدم مرتضوى أبداً في الخطوط الأمامية أثناء الحرب. وواصل: «لقد أدركتَ ظهركِ للثورة، وإذا كان إخوتك مثلك، فقد تخلوا هم أيضاً عن قضيتنا. لا قيمة لجهودهم الحربية».

وبإشارة من يده، تم صرفى. قال: «مهمتى هي حماية الثورة».

أجبتة: «مهمتى هي حماية الشعب».

لم أكن أعلم حينها، لكن طرقتنا ستتقاطع عدة مرات أخرى. وعندما عدت إلى الصحيفة، أخبرت أصغر زاده بمطلب مرتضوى.

قال لي مبتسماً: «يا لحظك السعيد! إنه ثمن صغير تدفعينه. اكتبى الاعتذار بسرعة ليُنشر فى عدد الغد».

قلت بغضب: «لكننى لم أرتكب أى خطأ».

كنت أعلم أنه لا مفر من كتابة الاعتذار. مع ذلك، تأخرت قدر الإمكان، وفى النهاية كتبت اعتذاراً أعبر فيه عن أسفى لأن سمعة المحاربين القدامى كانت تُشوه من قبل منظمات شبه عسكرية بملابس مدنية تتصرف كبلطجية محترفين.

فى اليوم التالى، اتصل مرتضوى بأصغر زاده ليشتكى. قال: «هذا ليس اعتذاراً».

ذلك المقال بحد ذاته يشكل أساساً لشكوى ثانية ضد الكاتبة والصحيفة. ستسمعون مني قريباً».

لم تُسفر تهديداته عن شيء، وسرعان ما توقفت عن القلق بشأن تعرضي للاعتقال. وكان عليّ الاستعداد لأول رحلة خارجية لي.

كان وفدٌ برلماني ذاهباً لأداء مناسك العمرة، وكان من المقرر أن يرافقها وفد الصحافة البرلمانية. الحج، وهو أحد أركان الإسلام الخمسة، رحلة سنوية — يذهب ملايين المسلمين إلى مكة، أقدس مدن الإسلام. يُقام الحج في شهر ذي الحجة، الشهر الأخير من التقويم الهجري، ولكن يمكن أيضاً أداء العمرة، أو الحج الأصغر، في أي وقت من السنة. لم أكن متحمسة كثيراً للذهاب في رحلة دينية، ولكن هذه كانت ستكون رحلتي الأولى إلى الخارج، وكان جميع الصحفيين سيذهبون، لذا قدّمت طلباً للحصول على جواز سفر، وحصلت على الوثائق في الوقت المناسب.

مثل ملايين الإيرانيين، لم أكن قد سافرت خارج البلاد من قبل — إلى الخارج. في طفولتي، كنت أعتقد أن الخارج هو اسم دولة مجاورة — أن هناك دولة إيران، وهناك دولة الخارج. فيما بعد، عندما بدأت أفهم البلدان والقارات، لم يفقد مفهوم الخارج سحره بالنسبة لي. كنت أتوق بشدة لزيارة هذه الدول التي كنت أقرأ عنها فقط في الروايات. لكن مثل هذه الرحلات كانت تقتصر على الأثرياء. والآن أتاحت لي الفرصة لزيارة مكة، في السعودية — رغم أن ذلك لم يكن يبدو غريباً أو ساحراً.

كان خمسين صحفياً تقريباً سيذهبون في تلك الرحلة. كان أصدقائي يمزحون بأنني يجب أن أبدأ تعلم كيفية الصلاة في حال قرر المنظمون اختبار معرفتي بالدراسات الدينية. سيكون كارثة لو فشلت. في المطار، شعرنا جميعاً في وفد الصحافة وكأننا أطفال ذاهبون في رحلة مدرسية. تبادلنا القيل والقال، وأطلقنا النكات في صالة

المغادرة. وعلى نحو مفاجئ للجميع، نُودي على اسمي عبر مكبر الصوت.

معصومة علي نجاد، يرجى التوجه إلى أمن المطار. معصومة علي نجاد، يرجى التوجه...»

قفزت من مقعدي. صاح بعض الصحفيين الآخرين بسخرية. قال أحدهم: «ما المشكلة التي تسببت فيها هذه المرة؟»

وقال آخر: «هل نسيت إطفاء الموقد؟ لقد احترق بيتك بالكامل». تعالت ضحكات من حولي.

بإنحناء مسرحية، توجهت نحو باب يحمل علامة «الأمن». رافقني بهزاد نبوي، نائب رئيس المجلس. اصطحبني الحارس إلى الداخل، لكنه بأدب منع نبوي، الوزير السابق، من الدخول. قادوني إلى غرفة بلا نوافذ فيها طاولة وبعض الكراسي الخشبية. دخل رجلان من رجال الأمن بملابس مدنية وأخبراني أنهما من وزارة الاستخبارات. فكرت في نفسي، ماذا الآن؟

قال أحدهم: «هذا مجرد إجراء روتيني، لكن سنسألك بعض الأسئلة». كان من الواضح أن يؤدي دور الشرطي الطيب. أما الشرطي السيئ فكان منشغلاً بمسبحته وينظر إلي بتجاهلهم. في الواقع، لم يكن ثمة فرق كبير بينهما.

ابتسمت وقلت: «عادةً ما أكون أنا من يطرح الأسئلة. فأنا صحفية، كما ترون».

«نحن نعرف من أنت. لا تُكثِّين تقديرًا كبيرًا لنا، أليس هذا صحيحًا؟»

«أنا لا أعرفكم. وليس لدي شيء ضدكم».

قال: «نحن الرجال الذين نحمي هذه الثورة». وأضاف مستدرِّكًا، «ونحمي الشعب».

فكرت على الفور في مرتضوي. هل كان هذا انتقامًا بسبب عمودي الصحفي؟ هل سأُعرض للحجز؟

قلت: «قاتل أخوتي في الحرب—»

قاطعني الشرطي السيئ. كان أجشّ الصوت ولهجته أذربيجانية، مما يعني أنه من شمال شرق إيران.

قال: «نحن نعرف كل شيء عنك».

«إذن أنتم تعرفون أنني مراسلة مجلس الشورى وذهابة إلى مكة لأداء العمرة». أعدت ربط حجابي بعناية شديدة. «سأزور بيت الله».

فسأل بنبرة اتهامية: «كيف تعملين في المجلس ولديك سجل إجرامي بسبب النشاط السياسي؟ أنتِ تشكّلين خطرًا على الأمن القومي».

«لا بدّ وأنك تمزح. أعمل في المجلس منذ عام ونصف».

قال الشرطي الطيب: «لست متأكدًا من أنه يمكننا السماح لك بالسفر الآن. يجب أن نتحقق من كل شيء لنكون على يقين».

نظرت إليهما بدهشة. بالطبع، كنت قد سمعت عن فرض حظر على الخروج — حظر المنتقدين من مغادرة البلاد. لكن عادةً ما يرغب المعارضون في التوجه إلى الغرب — إلى أوروبا أو الولايات المتحدة. لم أسمع من قبل عن إيراني يُمنع من الذهاب إلى مكة، أقدس موقع في الإسلام. كان ذلك يتعارض مع أسس الجمهورية الإسلامية.

قلت: «هذا سخيف. أنتما تمنعانني من الذهاب لأداء الحج».

قُرِع باب الغرفة، وأطلّ نبوي برأسه الأصلع عبر المدخل.

قال بابتسامة ودودة: «هل يمكنني تقديم أي مساعدة؟ لدينا طائرة يجب أن نلحق بها».

أجاب الشرطي الطيب، متظاهراً باللطف: «يمكنك ومجموعتك الذهاب، يا سيد نبوي. لدينا بعض الأسئلة لها».

رد نبوي، وهو يقف مستنداً بظهره على الباب: «إذا تسربت أخبار بأنكم منعتم مراسلة المجلس من زيارة مكة، فلن يكون ذلك في صالحكم».

تدخل الشرطي السيئ قائلاً: «السيدة علي نجاد تشكل خطراً سياسياً»، متحدثاً بنبرة رسمية للغاية. «لقد اعتقلت بسبب أعمال سياسية ضد النظام. كيف يمكن أن تُمنح تصاريحها الصحفية وهناك علامة سوداء في سجلها؟»

أضاف الشرطي الطيب لزيادة الضغط: «هي عضو سابق في منظمة مجاهدي خلق».

اعترضت قائلاً: «لم أنضم لمجاهدي خلق أبداً. ثم إنني قضيت عقوبتي».

قال الشرطي السيئ بنبرة المنتصر: «هناك علامة سوداء في ملفاتها. كيف تم توظيفها؟»

قال نبوي: «ربما أمر شخص ما بتجاوز الأمر».

أجاب الشرطي: «أو ربما دفع أحدهم رشوة لتحقيق ذلك؛ إذ كان صحفي يدين لك بفضل، فقد يكون ذلك مفيداً».

تبادل نبوي والشرطي الطيب النظرات دون أن ينبسا بكلمة. كان الأمنيون يعتقدون أن نبوي هو من ساعدني في الحصول على تصريح الصحفي، وأنه جاء

لحمائتي مرة أخرى.

قلت مستجماً شجاعتي: «السيد كروبي هو من أقرّ تصاريحي الصحفية».

«وهو يعرف كل شيء».

قال نبوي: «إذن، انتهت المسألة. الآن يمكنها الانضمام إلينا».

رد الشرطي: «لا يمكننا الاعتماد على كلمتها فقط. علينا التحقق بأنفسنا».

بعد بعض المساومة، تم الاتفاق على أنه إذا ضمنني كروبي، يمكنني الذهاب في الرحلة. انضمت إلى باقي المجموعة في صالة الانتظار. احتضنتني الصحفيات بينما انفجرت بالبكاء. كنت متأكدة أن هذا كان انتقاماً من مرتضوي. بعد وقت طويل، خرج نبوي لينضم إلى حشد الصحفيين.

قال مازحاً، وهو يناديني بمودة: «مرحباً، يا مثيرة المشاكل، ستذهبين». ولعدة أيام، كان الجميع ينادونني «مثيرة المشاكل». لاحقاً، أخبرني نبوي أن كروبي نفسه قد اتصل لدعم موقفي.

بعد كل هذه الإثارة قبل الرحلة، مثّلت زيارة مكة والمدينة، ثاني أقدس مدينة في الإسلام حيث دفن النبي محمد، خيبة أمل. لم أشعر بأنني ذهبت إلى الخارج. كان علينا جميعاً ارتداء الملابس الإسلامية، والجميع كان يرتدي الشادور، وكان هناك قيود أخرى. شعرت وكأنني لم أغادر إيران. قررت وصحفتان أخريان عدم ارتداء الشادور، وبدلاً من ذلك ارتداء معاطف بيضاء طويلة، وأغطية رأس بيضاء، مغنة. طالما أننا كنا مغطيات بالكامل بهذه الطريقة، لم تكن هناك حاجة لارتداء الشادور أيضاً، خاصة مع حرارة الجو الشديدة. كنا نبرز في ملابسنا البيضاء بالكامل، على عكس النساء الأخريات اللواتي كنّ يرتدين الأسود.

ولم يعجب بعض المراسلين الذكور اختيارنا. ففي أحد الأيام، زرنا المسجد النبوي في المدينة المنورة. وهو المسجد الذي بناه النبي محمد في الأصل، وهو ثاني أهم موقع في الإسلام بعد الكعبة في مكة. ولم يصدق بعض المراسلين الذكور من الصحف المحافظة أننا لم نكن نرتدي الشادور. وشعروا بالانزعاج الشديد - كانت أعينهم بارزة من محجريها ووجوههم حمراء. وذلك لأن من المتوقع أن ترتدي النساء ملابس مغطاة بالكامل في جميع الأوقات، حتى خارج إيران، على حد قولهم.

وقال مراسل من صحيفة كايهان المحافظة بغضب: «إنكنّ وقحات. لقد ألحقتن العار بالوفد الإيراني. أنتن النساء الوحيديات السافرات في كامل المدينة».

كان هناك العديد من النساء، من بلدان مثل تركيا، أو من الشرق الأقصى، بملابس محتشمة، إنما بدون الشادور. والوحيدون الذين اشتكوا هم المراسلون الذكور من الصحف المحافظة.

«الشادور هو جزء ثقافتنا ويجب أن ترتدينه بفخر».

أجبت: «قبل الثورة، كانت ثقافتنا أكثر مرونة بكثير»، فردّ ساخرًا: «أنت من أنصار الملكية سرًّا - كان يجب أن أرى ذلك».

كان الأمر مضحكًا: أطلق علي البعض اسم المجاهدة، والآن يتم تصنيفي على أنني ملكية.

«إذا كنت أفعل شيئًا خاطئًا، فيمكن للربّ أن يرسلني إلى الجحيم. اقلق بشأن خلاصك الفردي، واتركني لشأني».

صادف عيد ميلادي في منتصف الرحلة. كنت أبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، وأردت أن أقيم حفل عشاء في أكثر الأماكن جرأة ممكنة.

بطبيعة الحال، اخترت ماكدونالدز في مكة.

لم أره من قبل، لكن ماكدونالدز كان رمزاً كبيراً لأمريكا. كنت سأعرض للمتاعب بسبب زيارتي لأحد المطاعم، لكنني لم أهتم.

أردت تجربة وجبة بيغ ماك مع البطاطا المقلية.

في أكتوبر، تورطت في فضيحة بخصوص جائزة نوبل للسلام.

بدأ الأمر ببراءة شديدة. إذ كان الرئيس خاتمي قد رُشح في العام 2003 لجهوده في انفتاح إيران. ولسبب ما، اعتقد جميع صناع الرأي في إيران أنه سيفوز. في أعقاب غزو الولايات المتحدة للعراق في وقت سابق من ذلك العام، ظن الجميع أن اللجنة النرويجية ستمنح الجائزة للرئيس الإيراني لتوجيهه صفقة لجورج دبليو بوش.

عندما جاءت الأخبار، فوجئنا جميعاً: فقد أعلن عن فوز المحامية في مجال حقوق الإنسان شيرين عبادي بجائزة نوبل للسلام للعام 2003. عبادي، التي كانت قاضية في عهد الشاه، فصلت من عملها لأنها امرأة. مثل ذلك لفئة عدالة جميلة: عبادي أول إيرانية، وأول مسلمة، تفوز بجائزة نوبل للسلام.

شعرت بفرحة عارمة عند سماعي الخبر. في الواقع، صرخت فرحاً. لم أكن أعرف عبادي شخصياً، لكن إيرانية تحصل على تقدير لإنجازها كان كافياً بالنسبة لي. وزاد من سعادتي أنها قد حازت على الإشادة خارج البلاد.

كان العالم بأسره يهنئ عبادي، التي كانت في فرنسا في إجازة، لكن في إيران كان الرد الرسمي هو تجاهل إنجازها. تم توجيه أوامر لمحطات الراديو والتلفزيون الملوكية للدولة لالتزام الصمت عن الموضوع. كان انتصارها صفقة على وجه النظام السياسي الإيراني—فدائماً ما تدّعي الجمهورية الإسلامية أنها منارة للفضيلة. كيف يمكن

للحكومة تفسير أن محامية حقوق الإنسان فازت بالجائزة؟ غالبًا ما ينكر المسؤولون الإيرانيون وجود سجناء سياسيين وسجناء ضمير، وبدلاً من ذلك يشيرون إليهم باعتبارهم «سجناء أمنيين».

بلا شك، كان خاتمي يتمنى لو أنه فاز بالجائزة بنفسه. ولم يُدل بتصريحات علنية أو خاصة حول الموضوع. بعد الإعلان بأربعة أيام، زار خاتمي المجلس للاجتماع مع النواب الإصلاحيين لمناقشة جدول الأعمال التشريعي. في منطقة الصحافة، شققت طريقي إلى مقدمة المجموعة.

صرخت بأعلى صوتي: «السيد خاتمي، العالم كله يهنئ شيرين عبادي. هل تنوي تهنئة مواطنك؟»

قال خاتمي: «بسم الله الرحمن الرحيم... بصفتي إيرانيًا، أنا مسرور بأن امرأة مسلمة فازت بجائزة نوبل للسلام—»

قاطعته قائلة: «لكن هذا ليس ما سألته. بصفتك الرئيس، يجب أن تكون قد أرسلت لها رسالة تهنئة».

كان جميع الحاضرين يعرفون أن خاتمي تجاهل الجائزة عمدًا.

قال خاتمي: «هل يجب على الرئيس إرسال رسالة لكل شيء؟»

واصلت بإصرار: «لكن، سيدي الرئيس، جائزة نوبل حدث بالغ الأهمية». لم أكن لأتركه يفلت من السؤال.

في العادة كان خاتمي هادئًا وقورًا. إنما لم يكن كذلك في هذا اليوم. نظر إليّ بنظرة حادة وقال: «جائزة نوبل للسلام ليست في غاية الأهمية. الجوائز التي تهم فعلاً هي

العلمية والأدبية. الجميع يعرف ذلك. مُنحت لها على أسس سياسية بحثة».

كانت هذه زلة كبيرة، وقد التقطت الكاميرات التلفزيونية الحادثة. أصبحت تعليقات خاتمي خبراً كبيراً. كان المتشددون الإيرانيون يكرهون عبادي بسبب أنشطتها في حقوق الإنسان ورفضها ارتداء الحجاب خارج إيران. كررت الصحف المحافظة تعليقات خاتمي. تلك الليلة، شاهدت الحادثة دون انفعال على نشرة الأخبار الليلية. حتى وكالات الأنباء الأجنبية غطت القصة، وكذلك صحيفة نيويورك تايمز وغيرها من الصحف الكبرى.

طالب حلفاء خاتمي بأن أعتذر بطريقة ما، فقد أخرجت الرئيس علناً. ووصفني محمد علي أبطحي، نائب خاتمي الممتلئ، بأنني «شابة تفتقر إلى الخبرة»، وكان المعنى واضحاً — كيف أجرو، بصفتي امرأة، على تحدي الرئيس؟

تساءلت في نفسي: هل كان ذنبي أن الرئيس فقد أعصابه؟

لعدة أيام، بقيت زلة خاتمي، ودوري في هذا الأمر، من أهم الموضوعات التي تناولتها الصحف. ولقد حاولت أن أنسى الحادثة برمتها عندما كنت أقود سيارتي إلى غوميكولا في نهاية الأسبوع لقضاء بعض الوقت مع بويان. وكان بويان قلقاً كذلك حيال ما حدث. ولم أعلم من أخبره عن مشاكلي. فقد كان بويان يقضي أغلب وقته مع جديه هذه الأيام.

سألني: «هل ستخسرين وظيفتك؟» فأجبته محتدة: «بالطبع لا».

فقال: «أنا أكره خاتمي».

ضحكت لقوله هذا. ولكنني بعد ذلك بدأت أشعر بالقلق من أنني ربما كنت في ورطة. وعندما عدت إلى طهران، بحثت عن رئيس تحريري.

وسألته: «هل ستطردني من العمل؟»

قال لي مطمئناً: «إن وظيفتك أن تطرحي الأسئلة الصعبة. ولا بد أن يكون الرئيس ذكياً بما يكفي للتعامل معها».

وبعد شهرين تقريباً، اتصل بي مكتب الرئيس لدعوتي إلى لقاء خاص. وكان أول ما خطر ببالي هو الاتصال ببويان -لطمأنته بشأن استقرار وظيفتي.

«عزيزي، أنا في طريقي لمقابلة أهم رجل في إيران».

«هل ستقابلين بابا؟» بالنسبة لبويان، كان والده هو الشخص الأكثر أهمية في العالم.

«لا، بل سألتقي بالرئيس خاتمي»، قلت، بحماسة أقل من السابق.

قال بويان: «يجب أن تصفعيه. لقد كان سيتسبب في طردك من العمل».

كانت نصيحة بويان تدور في ذهني عندما تم اصطحابي أخيراً إلى مكتب الرئيس. قال خاتمي إنه يشعر بالضيق من تحدّثه معي بحدة في المؤتمر الصحفي، مما أثار المطالبات بفصلي. تحدثت عن التحديات التي يواجهها كرئيس وكيف يمكن تفسير الكلمات خارج سياقها. وقد حسب أنه يواجه أزمة كل تسعة أيام تقريباً.

قلت له: «كنت محظوظاً أن ابني لم يكن معي». وتابع: «بويان يريد أن يصفعك لأنك حاولت فصلي». بدا عليه الاستغراب، فأدركت أنه لم يكن يعرف حتى أنني كنت متزوجة، فضلاً عن كوني مطلقة. شرحت له بسرعة زواجي وطلاقي.

واصلت: «يحاول الرجال استغلالك المرأة بمجرد أن يعرفوا أنها مطلقة». كانت هناك شائعات بأنني على علاقة مع نائب يستخدم الاسم الرمزي بويان. قلت لخاتمي: «الآن يظن الجميع أن عشيقتي اسمه بويان، لأنهم سمعوني وأنا أتكلم معه على الهاتف».

بدا خاتمي مُحرجًا لسماع هذه الأمور الشخصية. كان خجولًا ومتحفظًا إلى حد ما، لكنه أراد أن يعطيني هدية.

قال: «لقد كنت قاسيًا معك في المؤتمر الصحفي وأريد أن أعوضك. يمكنك طلب أي شيء في حدود المعقول، وسأحققه لك».

كنت أرغب بشدة في الحصول على منحة لمتابعة درجة جامعية. لكن شيئًا ما تحرك بداخلي. لم أكن بحاجة إلى صدقته، قالت لي كرامتي.

أجبت بابتسامة لدى مغادرتي: «أنت من يجب أن يطلب مني خدمة. فالرئيس الذي يريد أن يحبه الجميع ليس قويًا بما يكفي لهذا المنصب. أنت الذي في ورطة كبيرة. فأنت تحتاج مساعدتي أكثر مما أحتاج مساعدتك».

كان هذا صحيحًا. فقد كان خاتمي لطيفًا إلى درجة جعلته غير مؤهل لمنصب الرئيس. فبعد إعادة انتخابه بفارق كبير في العام 2001 لفترة ولايته الثانية التي استمرت أربع سنوات، أصبح غير مؤهل للترشح مرة أخرى. وبدلاً من دفع أجندة إصلاحية في البرلمان، كان يسعى باستمرار لاسترضاء المتشددين. وكان يتراجع عن عدد من القضايا، من حقوق المرأة إلى حرية الصحافة، كلما واجه معارضة من المرشد الأعلى والحرس الثوري.

ومع نهاية العام 2003، استعد كل من الإصلاحيين والمحافظين للانتخابات البرلمانية في فبراير 2004. وربما يكون خاتمي قد فقد حماسه التقدمي، ولكن المشرعين الإصلاحيين، الذين كانوا يتوقعون الفوز في الانتخابات، أعلنوا مرة أخرى عن خطط لإصدار تشريعات جديدة بشأن حرية الصحافة، وحقوق المرأة، وزيادة الشفافية في التعامل مع الموارد المالية الحكومية.

ثم غير المحافظون قواعد اللعبة. ففي يوم شتوي بارد، استبعد مجلس حماية

الدستور 2,500 مرشح، معظمهم من الفصيل الإصلاحي، قائلاً إنهم لم يكونوا مكرسين بما فيه الكفاية للقيم الإسلامية ويفتقرون إلى الحماس الثوري. ولم يسبق أن شهدت إيران مثل هذه الخطوة من قبل.

تسبب القرار بضجة في المجلس. جال النواب في الممرات، واشتكوا من وقوع انقلاب. ولم يكن المحافظون مهتمين: فقد قالوا إنه في الجمهورية الإسلامية، فإن المرشد الأعلى ومجلس حماية الدستور لهما الكلمة الأخيرة. وكان من بين ضحايا الحظر العديد من زعماء الفصيل الإصلاحي، مثل رئيس تحرير صحيفة همبستغي السابق إبراهيم أصغر زاده؛ ومحمد رضا خاتمي، شقيق الرئيس؛ وجميلة كاديوار، النائبة الراديكالية. فجأة توقفت خطوات إيران الصغيرة نحو الديمقراطية. وبفضل الحظر، لم يتمكن الإصلاحيون حتى من حشد عدد كافٍ من المرشحين للتنافس في جميع الدوائر.

بالنسبة للصحفيين، فقد كانت تلك الفترة مليئة بالإثارة، فكل يوم كان ثمة اضطراب جديد.

لقد استقال أكثر من ثلث أعضاء البرلمان احتجاجاً على الحظر، ونظموا اعتصاماً في مبنى المجلس الضخم، مهددين بإغراق النظام السياسي الإيراني في الفوضى. واحتل النواب المحظورون الطابق الأرضي من مبنى المجلس، وانضم إليهم نشطاء سياسيون آخرون وزعماء طلابيون. وفي مشاهد لم يسبق لها مثيل في الجمهورية الإسلامية، قرأ النواب المستقيلون بيانات نارية من على منصة البرلمان، وبُثَّت مباشرة عبر الإذاعة الإيرانية. واتهم النواب الواحد تلو الآخر المحافظين بالتصرف مثل طالبان. وكتب بعضهم رسالة مفتوحة إلى المرشد الأعلى، متهمين إياه بإذلال المجلس، وعرقلة التشريع، والتدخل في العملية الانتخابية.

استمر الاعتصام لأكثر من شهر، ولكن القرار لم يكن قابلاً للتراجع. تمسك مجلس

حماية الدستور بالقرار، وقال المرشد الأعلى خامنئي إن النواب المشاركين في الاعتصام يمثلون البلطجية و«الرجال الأشداء». وانتظر الجميع أن يتحرك خاتمي ويتحدى المرشد الأعلى.

ولكن خاتمي تراجع عن دعم حلفائه الإصلاحيين. ولم يؤيد الاعتصام. بل دعا إلى الهدوء وطلب من الناس الذهاب إلى صناديق الاقتراع «رغم عدم عدالة الانتخابات».

لقد كان ذلك تصرفاً أحمق.

حقق المحافظون النصر في العام 2004. وبعد أن حصل الإصلاحيون على 195 مقعداً من أصل 290 في انتخابات العام 2000، لم يتمكنوا الآن من الفوز إلا بتسعة وثلاثين مقعداً.

خلال الأزمة، كنت أعيش عملياً في مبنى المجلس، وأغطي الأحداث ساعة بساعة. وبصفتي شاهداً على الأحداث من الصف الأمامي، كتبت أول كتاب لي، الاعتصام، عن الأزمة.

كان المجلس الجديد أكثر محافظة، وأكثر اهتماماً بدفع حقوق المرأة إلى الوراء وفرض القيود على الصحافة.

لقد حل غلام علي حداد عادل، وهو سياسي محافظ قريب من المرشد الأعلى، محل كروبي رئيساً للبرلمان. ولم يكن هذا خبراً طيباً. فهو الرجل الذي اشتكى من حذائي الأحمر «بينوكيو».

الفصل الثاني عشر

أشار لي بإيماءة سرية المجند الشاب الواقف في موقف السيارات خلف مبنى المجلس. بدا مضحكاً بحذائه الكبير وزِيَّه الأخضر الفضفاض المتدلي على جسده النحيل. عندما توقفت عند حاجز الأمن، أدى لي التحية، كما لو كنت ضابطة عسكرية.

قال مبتسماً، مشيراً إلى مكان في الموقف شبه الفارغ: «حجزت مكاناً لسيارتك».

همست لي زميلتي الصحفية مهناز: «أخبرتكَ أنه معجب بك. حان الوقت لأن تهجري عشيقك بويا وتستقري. إنه قروي مثلك تماماً».

تمتمت: «هذا هو الوجه المبتسم الوحيد الذي سأراه هنا اليوم».

داخل مبنى المجلس، كان النواب المغادرون منشغلين بتوضيب أغراضهم، ويمكنك سماع صوت الأدراج تُفرغ في مكاتب متعددة. كان الأعضاء المنتخبون الجدد في طريقهم. كان قرعُ خطواتي بكعبي الجلدي على الأرضية الحجرية يتردد في الممرات. قبل بضعة أيام، تلقيت رسالة تفيد برفض طلبي للحصول على تصريح صحفي لحضور حفل تنصيب المجلس الجديد. ومع ذلك، فالأمر المثير للاهتمام أنني استُدعيت من قبل مكتب الأمن. مجدداً.

كانت مكاتب الأمن خالية، باستثناء شاب بلحية سوداء خفيفة، وقميصٍ مزررٍ حتى ذقنه. كان ينتظرني. سار بي عبر المكاتب الفارغة إلى غرفة صغيرة مفروشة بالسجاد مع بطانية مفروشه في أحد أركانها. أشار لي أن أخلع حذائي وأجلس على الأرض على البطانية. شعرتُ بالحرّج عندما خلعتهما، لأنني نسيت ارتداء الجوارب في ذلك الصباح –

كالعادة.

لم أكن أبداً من محبي الغرف الصغيرة بلا نوافذ — فهي تذكرني بزنزانة الاحتجاز. غادر الشاب، وبعد بضع دقائق، سمعت من خارج الباب صيحات "يا الله... يا الله". يطلق الرجال المحافظون المتدينون هذه العبارة بصوت عالٍ قبل دخول الغرفة لتحذير النساء داخلها لوضع الحجاب. بعد ثوانٍ، فُتِحَ الباب ودخل رجل دين إلى الغرفة. كان بوجه ممتلئ وبطن مستدير كبير، وكأنه حامل. كانت حبات العرق قد تجمعت على وجهه، الذي كانت نصفه مغطى بلحية كثيفة سوداء. بيده الممتلئة، مسح جبينه.

وقفت لأبدي احترامي. لم يكن يرتدي حذاءً، وكانت رائحة جواربه تملأ الغرفة. جلس على الأرض ودعاني للجلوس.

قال وهو يميل إلى الحائط ويخرج نسخة من كتاب الاعتصام: «لقد أبغيت أنك كتبت كتاباً وهرّبته إلى داخل المجلس، دون إذن»، مضيفاً الكلمات بنبرة تهديدية.

أجبت بهز كتفي: «أنا كاتبة. هل يهم إذا كتبت مقالاً أو مقالات كثيرة أو كتاباً؟»

رد قائلاً: «لقد مُنحت تصريح صحفي بسبب جريدتك فحسب، لا كمؤلفة كتب».

«حصلتُ على إذن من إرشاد». كانت وزارة الإرشاد الإسلامي هي مكتب الرقابة — وكل شيء يُنشر من الكتب والأفلام إلى المجلات والموسيقا يجب أن يحصل على موافقتها.

قال بنبرة متعجرفة: «نحن لا ننسق أنشطتنا مع إرشاد».

وكالعادة، لم أستطع أن أمنع نفسي.

قلت: «ليست مشكلتي. افترضتُ أنكم تتواصلون مع بعضكم البعض».

أخذ يفرك باطن قدميه وهو يتأمل خطواته التالية. لم ينتهِ من إزعاجي بعد.

قال مستكماً: «لا يهم. لدينا شهود يقولون إنك هربتِ كتبكِ إلى داخل المجلس في صندوق السيارة. هل تنكرين ذلك؟»

كان يتصرف وكأنني ضُبطت لتهريبي مخدرات أو أسلحة، لا كتبًا. بصعوبة بالغة، منعت نفسي من رفع عينيَّ تجاهه بسخرية. بدلاً من ذلك، تنفست بعمق وقررت أن أكون أكثر دبلوماسية.

قلت: «أراد جميع زملائك الحصول على نسخة. ربما يجب أن تشتري بضع نسخ لمكتبة المجلس».

كانت المقابلة بمثابة تحذير بأنني تحت المراقبة، ولا شيء غير ذلك. بعد نصف ساعة تقريباً، صُرفت. ومع خروجي، سلمني الشاب عند مكتب الأمن ظرفاً. كان بداخله دعوتي لحفل التنصيب.

في موقف السيارات، كان المجند الشاب متكئاً على سيارتي.

انفجرت أساريه عندما رأيته، وكأنه كان يشك، في أعماقه، أنني ما زلت تلك الفتاة القروية التي تتظاهر بأنها صحفية سياسية.

قال وهو يحدق في حذائه متجنباً النظر في عيني: «لقد تركتِ النافذة مفتوحة. مرة أخرى. لكني بقيت بجانب السيارة لكيلا تتعرضي للسرقة».

في يوم حفل التنصيب، وللبحث عن ملابس جديدة أرديها، توجهت إلى ساحة هفت تير في وسط طهران، أحد أكبر مراكز التسوق في المدينة وأشدّها ازدحاماً. كان النواب المحافظون قد تعهدوا بإعادة تقييد أجندة الإصلاح التي بدأها خاتمي وتشديد الرقابة على الحريات الاجتماعية التي مُنحت مؤخراً. كانت ثمة نية لتطبيق قوانين الحجاب وقوانين الصحافة بصرامة أكبر. حتى أمي، كجزء من مكالماتها الصباحية التحذيرية، حذرتني من

الانتباه لتصرفاتي، وقالت لي: «اشتري فستاناً طويلاً أسود يغطي كل شيء».

كالعادة، كانت شوارع طهران مكتظة بالسيارات، تحاول كل منها التقدم بضع بوصات للعثور على مخرج. بطبيعة الحال، كان الجميع يضغطون على أبواقهم. علقتُ في ازدحام طهران المعتاد. حاولت أن أبقى هادئة، لكنني كنت أعلم أنني من المتوقع أن أكون في المجلس خلال بضع ساعات لحضور الحفل، وما زلت بحاجة إلى شيء مناسب لأرتديه. لم أجد أي مكان لركن السيارة في منطقة التسوق.

إلا مكان واحد. مباشرةً تحت لافتة «ممنوع الوقوف». أحياناً عليك أن تتجاوز القواعد قليلاً. حشرت سيارتي الرينو الصغيرة في المكان، قفزت من السيارة، واصطدمت بضابط مرور.

قال لي: «انتظري، يا خانم. لقد دخلت منطقة مرور محظورة و» —أوماً برأسه نحو اللافتة— «ركنتِ سيارتك تحت لافتة ممنوع الوقوف. لا يمكنك فعل ذلك!»

أخرجت بطاقة الصحافة الخاصة بي وابتسمت بأكبر قدر ممكن من اللطف. «أنا في مهمة للمجلس. سأعود سريعاً... سريعاً جداً».

قال: «لا يمكنك الوقوف هنا—»

لكنني كنت قد انطلقت إلى شارع جانبي بحثاً عن محلات الملابس. وجدت أن ذكر المجلس عادةً ما يجدي نفعاً. جربت بعض المحلات، لكنني اكتشفت أن شراء فستان أسود مسألة معقدة. معظمها كان يحتوي على الكثير من الزخارف الوردية والترتر. في أحد المتاجر، اقترب مني صاحب المحل بحذر نظراً لحالتي المتوترة.

قال: «سلام. ما نوع الفستان الذي تبحثين عنه؟ هل هو لمناسبة خاصة؟»

أجبت دون تركيز: «إنه لحفل... حفل تنصيب».

سأل بابتسامة: «ما نوع الحفل؟ ديني؟ خاص؟ مختلط؟ لدينا جميع أنواع الفساتين، وليست باللون الأسود فقط». ثم أضاف مبتسمًا: «لم يعد أحد يرتدي الأسود في الحفلات».

قلت بابتسامة حزينة: «إنه لتنصيب المجلس الجديد، مجلس الشورى الإسلامي الجديد».

حدق فيّ محاولاً أن يفهم إن كنت أمزح. هزرتُ كتفيّ، وعدت لتفحص الرفوف. ذهب صاحب المتجر إلى المخزن، وعاد بفستان أسود طويل من الخلف. قال مشجعاً: «جربيه في الخلف».

بدوتُ وكأنني فزاعة في ذلك الفستان. كان فضفاضاً ويَتَّسع لشخصين من حجمي، لكن الوقت كان ضيقاً.

قال: «أتمنى أن يجلب لكِ البركة»، بينما كنت أندفع خارجاً مرتدية الفستان، ممسكة بكيس يحتوي على الملابس التي كنت أرديها عندما دخلت المحل. لم يكن لدي وقت للذهاب إلى المنزل لتبديل ملابسي. خطوتُ مسرعةً لتتبع طريقي للعودة إلى المكان الذي ركنت فيه السيارة. عندما وصلت إلى سيارتي تحت لافتة «ممنوع الوقوف»، بحثت في حقيبتي عن مفاتيح السيارة، لكنني لم أجدها.

لا مفاتيح في الحقيبة.

للمرة الألف. أُثير جنون جميع أصدقائي بفقداني الدائم لأشياء. «كيف حصلتِ على رخصة القيادة أصلاً؟» جاءني صوت غاضب.

كان ذلك ضابط المرور، ويبدو شديد الغضب. لشدة انشغالي بالبحث في حقيبتني، لم أراه يقف هناك.

قال بلهجة ساخرة: «لا أصدق أنك نجحت بالفعل. قبل مغادرة السيارة، من الجيد أن تُطفئي المحرك وتأخذي المفتاح معك».

نظرت إلى سيارتي. لقد نسيت أيضاً رفع النوافذ. لا!!! كانت المفاتيح ما تزال في قفل التشغيل، لكن الضابط أطفأ المحرك للباقة.

حاولت الاعتذار وقلت: «أنا آسفة جداً، لكن كان علي أن...» لكن الشرطي سلمني نصف دزينة من المخالفات، بما في ذلك مخالفة لـ «إضاعة وقته بإجباره على حراسة سيارتي».

وبعد كل تلك المتاعب، اتّسمت مراسم الحفل بكآبتها. اتّشح جميع المشرعين المحافظين تقريباً بالكوفية على أكتافهم لإظهار التضامن ضد الولايات المتحدة، أو ما يُعرف بالمستكبر العالمي. ارتدت جميع النساء الشادور الداكن. استقبلني بحرّ من السواد عندما وصلت. حتى السياسيات الإصلاحيات القلائل اللواتي كن يرتدين أوشحة ملونة في الماضي، تحولن لارتداء الأسود. بحثت عن وجوه مألوفة، لكنني لم أجد أيّاً منها. أصبح فصيل الأقلية في العام الماضي هو المسيطر. بدا كل شيء في المجلس الجديد مختلفاً، حتى شكل الصحفيين. ارتدت جميع النساء عباءات سوداء طويلة وشادورات. اختفت المعاطف العصرية التي كانت تصل إلى الركبة والتي تُرتدى فوق الجينز.

همست لزميلة صحفية: «ألا يوجد نواب يمثلون النساء اللواتي لا يرغبن في ارتداء

الشادور؟»

في المجلس الجديد، أو المجلس السابع، لن يكون سهلاً طرح الأسئلة الصعبة. تعرّض الصحفيون الناقدون للتجاهل، في حين حصل مراسلو المنشورات المحافظة على أفضلية الأخبار. بدأت تسجيل جميع مقابلاتي كإجراء احترازي. فأخر ما أريده هو أن أتهم بتلفيق الاقتباسات.

بعد بضعة أيام، كنت جالسة في شرفة الصحافة أراقب جلسات المجلس كالمعتاد — أكتب، مسندةً ذقني على يدي الأخرى. كنت أرتدي الفستان الجديد، بأكمامه الواسعة والتي كانت تتدلى كاشفةً عن معصميّ وذراعيّ الهزيلتين. التقت عيناى بعيني رئيس المجلس حداد عادل بينما كان جالساً على منصة المجلس. نقر على ذراعيه لتنبيهي بضرورة تغطية ذراعيّ، خشيةً أن أثير أحد النواب الرجال. في تلك الليلة قمت بخياطة الأكمام، فضيقتها حتى لا يحدث ذلك مرة أخرى.

لم يكن حداد عادل معجباً بتقاريرى. فقد قال عني ذات مرة: «إذا نظف أحدنا أنفه، ستكتب تقريراً وتشتكي من أن المحافظين لا يستطيعون إدارة البلاد لأن أصابعهم عالقة في أنوفهم!»!

تكمن المشكلة في كون أعضاء التحالف المحافظ الجديد غير أكفاء ومتغطرسين. وبصفتى صحفية برلمانية، كنت في مقدمة الصفوف لمشاهدة تصرفاتهم الحمقاء أولاً، وفسادهم واختلاسهم لاحقاً.

في المجلس الجديد، كانت الصحفيات يتلقين باستمرار تنبيهات لتحسين مظهرهن والالتزام بقوانين الحجاب. تلقينا جميعاً تحذيرات شفوية بشأن خصلات الشعر التي تبرز وطول وسُمك الملابس الخارجية. ثم كان هناك إشعارات مكتوبة عن «مخاطر طلاء

الأظافر». وكان ذلك بمثابة تذكير مستمرّ لنا أن المجلس الجديد يختلف عن المجلس السادس الذي هيمن عليه الإصلاحيون. «هذا ليس المجلس السادس».

في أحد الأيام، كنت أقف في أحد ممرات المجلس أتحدث مع نائبين. كانت الممرات المكان المثالي لاعتراض طريق نائب للحصول على اقتباس لخبرٍ ما. كان الحديث عادياً في ذلك اليوم، وفجأة ظهر رجل دين ممتلئ يتهادى في مشيته من جانب لآخر وهو يقترب مني.

قال لي وهو يلوح بقبضته الممتلئة أمام وجهي: «غطي شعرك، وإلا سأطردك من هنا بلكمة».

تراجعت خطوة إلى الوراء، ورفعت يديّ للتحقق من غطاء رأسي. لم يكن يبدو أنه يمزح.

«لا حاجة لكم أو الركل»، أجبته بخضوع، وأنا أبحث عن النائبين ليقدموا لي الدعم. كانا قد اختفيا.

أضفت، محاولاً تهدئته: «كان يمكن اللجوء لتحذير لطيف وودي». نظر إليّ بغضب.

وجدت خصلة أو خصلتين من شعري تخرج من تحت غطاء الماغناي. هل كان هذا سبب غضبه؟ لم أصدق أن مثل هذا الخطأ البسيط، الذي بالكاد يُلاحظ، قد أزعجه. لم ير النائبان اللذان كنت أتحدث معهما بأساً في مظهري.

قلت، وأنا أستعيد رباطة جأشي: «كل هذا الضجيج من أجل خصلتين من الشعر. ينبغي عليك أن تشعر بالخجل لأنك ترغب في صفعني».

صرخ غاضباً: «كيف تجرؤين؟» وتقدم نحوي مترنحاً. «سألقنك درساً». ورفع

قبضته التي كانت تقريباً بحجم رأسي.

قلت: «حتى لو نجحت في صفعي، ماذا عن النساء خارج المجلس؟ هل مشيت في شوارع طهران؟ هل ستصفعن جميعاً؟ هناك الآلاف من النساء—»

صاح غاضباً: «أخربي! أخربي!». واحمر وجهه وبدأ يلوح بذراعيه محاولاً ضربي.
«سألقنك درساً».

كنت أراجع إلى الخلف وأنا أتحدث، وكان عليّ أن أتحرك بسرعة لتجنب الضرب. لفتت الضجة التي تسببنا فيها انتباه الصحفيين والنواب الآخرين، وفجأة امتلأ الممر بالناس، بمن فيهم مصور من وكالة أنباء الطلبة الإيرانية (إيسنا)، الذي راح يلتقط الصور.

كان قلبي ينبض بشدة في صدري حتى ظننت أنه سينفجر. كنت أرتجف من الغضب والإهانة.

قلت للحشد حولي، وأنا أمسك خصلات الشعر التي كانت تخرج: «كل هذه الجلبة بسبب خصلات الشعر هذه؟ هل أستحق أن أضرب بسبب هذا؟»

ظل المهاجم المحتمل يرفع قبضتيه لضرب رأسي، لكن الصحفيين والنواب الآخرين منعوه.

صرخت قائلة: «أي حق لديه ليهاجمني ويضربني لمجرد أن بعض خصلات شعري ظاهرة؟ ما هذا الجنون؟»

في النهاية، أبعد أحمد ناطق نوري، شقيق المرشح الرئاسي السابق، أبعد رجل الدين عني.

ارتديت الحجاب منذ سن السابعة، وغطيت شعري كغيري من النساء في إيران. فالصراع بخصوص فرض الحجاب هو قضية لا يمكن لرجال الدين الحاكمين في البلاد التخلص منها ببساطة. لقد نشأت في الجمهورية الإسلامية ولم أعرف نظامًا سياسيًا آخر، ومع ذلك، فإنني وملايين النساء مثلي نرفض الإهانة التي تفرضها قوانين فرض الحجاب. أنا نتاج الجمهورية الإسلامية، وكما هو حال غيري من ملايين الإيرانيين، أرفض هذا النظام.

«غطي شعرك أولاً» هو رد معتاد على النساء في إيران. إنه وسيلة لإذلال المرأة. أراهن أن كل امرأة سمعت هذا الانتقاد على الأقل مرة واحدة في حياتها. شخصيًا سمعت ذلك عدة مرات. فالنساء أمثالي من ذوات الشعر الكثيف، يواجهن دائمًا مشكلة في تغطيته بالكامل. عندما كنت مراهقة، كان والداي يجلسانني على الأرض لتهديب شعري قبل ربط الحجاب حوله.

لكن النضال ضد الحجاب الإجباري يتعلق بأكثر من مجرد الشعر أو اللباس المحتشم، تمامًا كما أن رفض روزا باركس ترك مقعدها لرجل أبيض في حافلة في مونتغمري، ألاباما، في العام 1955، كان متعلقًا بشيء أكبر من سياسة جلوس غير عادلة. إنه نضال من أجل الحق.

لم يكن هناك ما يوضح غياب الحقوق للمرأة أكثر من الفصل بين الجنسين في قاعة الطعام الرئيسية في المجلس في بداية الدورة الجديدة، حيث سُمح للرجال فقط بتناول الطعام هناك، بينما خُصصت للنائبات غرفة في قبو المبنى.

بعد أيام قليلة من مواجهتي مع رجل الدين، استدعيت لمقابلة رئيس الشؤون العامة في المجلس. قال ببرود: «بصفتك مراسلة برلمانية، لا بدّ وأن تعرفي أنه لا تستطيعين إظهار الكثير من الشعر».

سألته: «لماذا تخبرني بهذا؟»

أجاب: «هذا جزء من عملي».

قلت: «ماذا عن جميع الفتيات في شوارع طهران؟»

قال: «على الجميع التعامل ضمن نطاق مسؤوليتهم. وهذا هو نطاق عملي».

كان الحجاب خطأ أحمر.

الفصل الثالث عشر

كان طريق إلى طردي ممهداً بكشوف الرواتب.

كنت أحب عملي كمراسلة للمجلس. دعونا نتفق على شيء واضح: السياسيون يكذبون. فهم يقطعون الكثير من الوعود، رغم علمهم المسبق بعدم قُدرتهم على الوفاء بها جميعاً. لذا تمثل جزء من عملي اليومي في محاسبة السياسيين وفضح أكاذيبهم. في إيران، كان ذلك عملاً خطيراً. ففي لعبة السياسة الإيرانية، كانت الحقيقة سرّاً ثميناً للغاية، وقد يؤدي بك الكشف عن تلك الحقيقة إلى غياهب السجون.

كانت المناورات السياسية اليومية مثيرة. كنت أشعر بحماس شديد للذهاب إلى العمل. في حياتي الخاصة، كنت غير منظمة ومشتتة الذهن، أما عندما يتعلق الأمر بتغطية السياسة، كان الأمر أشبه بضغطة زر تشغيل. كنت مجتهدة. حفظت أرقام هواتف جميع النواب، وعرفت تاريخهم الشخصي. كان صوتي مرتفعاً، مما ضمن ألا تتعرض أسئلتني للتجاهل.

إلى حد بعيد، كانت حياتي الاجتماعية محدودة، إذ كنت أقضي معظم عطلات نهاية الأسبوع في السفر إلى بابل وقمي كلا لرؤية بويا ووالدي، اللذين سامحاني لطيش مراهقتي، وأصبحت الآن فخورين بعملي صحفية في المجلس. كان عدد قليل فقط من الناس في طهران يعرفون أنني مطلقة ولدي طفل صغير. كانت الصحف المحافظة تشير إليّ بلقب «البطة القبيحة». كان ذلك يؤلمني، لكنني اعتبرته وسام شرف. فهو يعني أن مقالاتي أحدثت تأثيراً.

في أعماقي، كنت ما أزال نفس الفتاة المشاغبة التي كنتها في قمي كلا. فمرة كل

شهر، كانت تجتمع عشرين صحفية تقريباً ممن يغطين أخبار المجلس لتبادل الأحاديث والنقاشات عن المناورات السياسية وراء الكواليس. كان لهذه اللقاءات ميزة إضافية: الطعام المنزلي. اعتدت أن آخذ معي علبة بلاستيكية وأجمع كل البقايا لتكون غدائي وعشائي في اليوم التالي. وصل الأمر إلى أن المضيفة كانت تقدم لي حصة خاصة في العلبة قبل أن نبدأ الأكل. كنت دائماً جائعة وألتهم الطعام بسرعة. حاولت إحدى زميلاتي، شهرزاد، أن تعلمني بعض الآداب — لأصبح أكثر أنوثة، أو على الأقل أتعلّم قواعد تناول الطعام في الأماكن العامة.

قالت لي شهرزاد موبّخة: «لا ينبغي للملقة السيدة أن تمتلئ حتى الحافة. ولا تذهبي برأسك الكبير نحو الملقة كالغراب — بل حرّكي الملقة باتجاه فمك. افعلي ذلك ببطء، وتذكري: لا تحتاجين لابتلاع محتوى الملقة دفعةً واحدة».

كان تغطية المجلس السابع بمثابة العثور على كنز ثمين. إذ تعهّد النواب المحافظون المنتخبون حديثاً بأن يكونوا مجلساً نشطاً وفعالاً؛ ووعدوا بخفض الهدر والفساد وخلق فرص العمل. قطعوا الكثير من الوعود الأخرى أيضاً، من إنهاء المحسوبية إلى تقليل التفاوت في الثروة بين مختلف الفئات الاجتماعية.

افتُتح مبنى جديد للمجلس في العام 2004، ليحل محل مبنى البرلمان الأصلي الذي يعود تاريخه إلى الثورة الدستورية في العام 1906. رغم السحر الخاص للمبنى القديم، فقد كان مصمماً لعصر مختلف. أما المبنى الجديد، فبه نظام صوتي أفضل، وشاشة عرض ضخمة — ليتمكن الجميع من رؤية الأعضاء على المنصة بغض النظر عن مكان جلوسهم — ومساحة أكبر لمكاتب للنواب.

بعد أربعة أشهر من الانتقال للمبنى الجديد، وبعد إنفاق ثروة على المبنى الجديد، قررت اللجنة الإدارية الجديدة للمجلس التخلص من السجاد الذي وُضع، وطلّب حوالي

270,000 قدم مربع من السجاد الجديد من النمسا.

«تسبب السجاد الحالي بتوليد كهرباء ساكنة يمكن أن تعطل نظام الصوت في المجلس»، أوضح حداد عادل على مضض.

حمل مقالي عنوان «فضيحة: ميزة أخرى كبرى لأعضاء المجلس السابع».

تباهى النواب المحافظون الجدد بارتداء بدلات بسيطة وغير ملائمة، اختاروها إظهاراً لتضامنهم مع الطبقات الفقيرة. في المقابل، لشد ما طالبوا بامتيازات إضافية مثل الهواتف المحمولة المجانية وإعانات الإيجار. ووظف بعض النواب أفراد أسرهم حراساً شخصيين أو زوجاتهم بصفة باحثات، وتلقوا رواتباً عنهم. كما غص مرآب المجلس بسيارات سيتروين زانتيا، التي تُعتبر مركبةً فاخرة في إيران.

تلقيتُ تحذيراتٍ مستمرة: لن يُكسبك فضح النفاق والفساد سوى المزيد من العداوات. «ليس من مصلحة البلاد أن تكتبي عن الفساد».

بعد أيام من نشري مقال فضيحة السجاد، كنت أقف وسط مجموعة من الصحفيين في أحد ممرات المجلس عندما لاحظت أن أحد النواب الجدد يحدق بي باستمرار. فكرت في نفسي: ماذا الآن؟ تحققت سريعاً من مذهبي وحجابي، ولم تكن ثمة خصلات شعر ظاهرة.

حذرني صحفي آخر قائلاً: «إنه في طريقه إليك. نائب يتجه نحوك».

لم أكن أرغب في سماع نقدٍ جديد عن حجابي أو محاضرة حول احترام نواب المجلس. توجهت عائدة إلى غرفة الصحافة، لكنه واصل سيره في إثري. أسرعت بخطواتي.

ناداني النائب: «آنسة علي نجاد، انتظري».

استدّرت ببطء، وقد جهّزت حواسي الدفاعية، متأهبة لمواجهة أخرى، لكن لم يكن ثمة داعٍ للقلق. كان النائب يعرج في سيره نحوي بصعوبة واضحة. شعرت حينها بالندم لأنني أسرعت بالابتعاد. تعرفت عليه كعضو جديد في الكتلة المحافظة، لكنني لم أتحدث معه سابقاً.

قال وهو يلهث قليلاً: «لم أكن لألحق بك لو لم تتوقفي». ثم تابع مبتسماً وهو يربت على ساقه: «هدية من صدام حسين». فقد جزءاً من ساقه في الحرب.

قال بصوت منخفض وبنبرة سرية، متلفّطاً حوله: «أريد أن أحدثك في موضوع حساس». كانت عيناه تجولان بسرعة على طول الممر الفارغ. من الواضح أنه كان يتأكد من أن لا أحد يرانا متحدثين معاً.

شدّدت عقدة حجابي تحت ذقني وانتظرتُ أن يتحدث. قال وهو يسحب ورقة مجمدة من جيبه: «هذه الرسالة تشغلني منذ أيام». كان من الواضح أن الورقة قد طُويت أكثر من مرة.

تابع حديثه: «كنت آمل أن يؤوب زملائي إلى رشدهم، لكن لم يعد لدي خيار سوى اللجوء إليك».

انتظر أن أجيبه، لكنني لأول مرة أبقيتُ لساني الطويل في فمي، ولم أمد يدي لأخذ الرسالة منه.

قال: «أريدك أن تكتبي تحقيقاً صحفياً، بطريقة حساسة، من فضلك، لتوقفي هذا العبث. ولا ينبغي أن يكون التحقيق مثيراً للغاية».

دفع الرسالة في يدي ثم ابتعد عرجاً.

سرعان ما تساءلت عما إذا كان قد اختار الصحفية المناسبة. إذ لم أكن معروفة بأسلوبى «الحساس».

جلستُ على مكتبي في غرفة الصحافة وقرأت الرسالة بحماس. كانت دعوة للنواب لحضور اجتماع خاص لبنك افتتح حديثاً لتقديم قروض عقارية يمكنهم من الحصول على قروض بفائدة منخفضة. خلال الانتخابات، انتقد المرشحون المحافظون الإصلاحيين لعدم بناء مساكن بأسعار معقولة لذوي الدخل المحدود. أما الآن، وفقاً لهذه الرسالة، فقد انشغل النواب الجدد بتأمين قروض رخيصة لأنفسهم. يا لها من صفقة مميزة للنواب!

أسرعتُ إلى مقرّ الصحيفة. وبعد بضع مكالمات هاتفية، تأكدت من المعلومات، وتصدّر مقالى الصفحة الأولى بعنوان: «كشف المستور: امتياز إضافي لنواب المجلس».

على الساحة الدولية، وحدّ برنامج إيران النووي الناشئ كلّاً من أوروبا والولايات المتحدة ضدها. ادّعت إيران أن برنامجها يهدف إلى تطوير طاقة نووية سلمية، لكن الغرب اشتبه بأن الجمهورية الإسلامية تسعى لبناء أسلحة نووية، لهذا هدد بفرض عقوبات.

وصل حسن روحاني، وهو رجل دين من المستوى المتوسط وأمين المجلس الأعلى للأمن القومي، وصل إلى المجلس ليطلع الأعضاء والنواب على آخر مستجدّات مفاوضات مع المملكة المتحدة، وفرنسا، وألمانيا، ودول أوروبية أخرى.

فسألته: «هل تظن أن النواب لديهم معرفة كافية بالقضايا النووية لفهم تقاريرك؟»

توقف روحاني لفترة طويلة. لمعت عيناه ثم ضحك ضحكة عميقة.

قال: «من فضلك، لا تورطينا في خلاف مع المجلس».

في تلك الأيام، كانت النزاع النووية مشكلة صغيرة. فقد تسوّد الفساد قائمة القضايا

الرئيسية. في أواخر العام 2004، سرت شائعات عن مدفوعات سرية تُمنح للنواب. أنكر معظمهم وجود هذه «المكافآت»، في حين قال آخرون إنهم أقسموا على السرية. كان النواب المحافظون يخطبون عن العدالة الاجتماعية، ولن يكون موقفهم حسناً إذا ثبت أنّهم يملؤون جيوبهم الخاصة. كما سمع صحفيون آخرون شائعات غير مؤكدة عن الفساد، لكن مصادري الخاصة أنكرت معرفتها بأي شيء.

تواصلت مع عدد من النواب، واتصلت بشكر الله عطار زاده، وهو نائب من بلدة صغيرة في الجنوب. كنت قد قابلت رجلاً مثله في بابل وقمي كلا. كان يأتي إلى المجلس ببدلة عسكرية خضراء، مع كوفية تتدلى حول عنقه. دائماً ما بدا وكأنه في طريقه للتجنيد — جاهزاً لالتقاط السلاح والالتحاق بالجبهة.

سألته عن الشائعات التي تقول إن النواب يحصلون على مدفوعات سرية بالإضافة لرواتبهم. وسألته عن احتمال أن يُريني كشوف راتبه ليثبت ألا شيء مخالف للقانون قد حدث.

قال بغضب: «اخرجني. لست ملزماً أن أريك أي شيء».

شعرت أن بإمكانني تخويفه. ليس بسبب حجمي، بل لأنه يحب كونه في المجلس وسيفعل ما بوسعه لكيلا يفقد منصبه.

قلت: «الركود ضرب البلاد، والبطالة العالية تؤثر على الجميع. ربما لديك ما تخفيه. وسيؤدي هذا سمعتك في بلدتك. وقد يُطلب منك حتى الاستقالة».

كانت تلك خدعة مني، إذ لم يكن لدي أي وسيلة ضغط عليه، لكنه لم يعرف ذلك.

قلت: «أو يمكنك أن تشاركني تفاصيل المكافآت، وسأبقى كمصدر سري. ولن يعرف أحد».

أخرج كشف راتب من درج مكتبه ومزق اسمه منها. «ستُبقين اسمي مجهولاً».

أجبتّه: «أعدك بذلك».

أسرعتُ عائدة إلى صحيفة همبستغي. أظهر كشف الراتب أن النواب قد تلقوا مليون تومان (ما يُعادل 1,100 دولار في ذلك الوقت) من رئيس البرلمان «مقابل مصاريف النواب».

بكشفِ الراتب في يدي، أدركتُ أن هذه لحظة فارقة في حياتي. كان لدي الدليل الأول على وجود صندوق سري لمدفوعات غير معلنة للنواب. لم يكن ثمة طريق عودة. كنتُ سأوضع على القائمة السوداء، لكن السبق الصحفي كان يستحق ذلك. من أجل هذه اللحظات تمردت على عائلتي، وتحملت جميع أنواع الصعوبات. لم أكن ساذجة. كنت أعرف أن هناك ثمناً سيدفع لاحقاً.

أثارت قصتي في الصفحة الأولى ضجة كبرى، وتابعت صحف أخرى التغطية التي بدأناها. ادّعت الصحف المحافظة أنني سرقت كشف الراتب.

قلت مازحة: «وجدتها على الأرض. لدي مصادري السرية، ولا يمكنني الكشف عنها».

كان محرري صحيفتي يثقون بي ويعلمون أنني لا أقدم الخيال باعتباره حقائق ولا أُلّفّق اقتباسات. كما عرفوا أنه لدي مصادر مطلّعة في المجلس تقدم لي خيوط أخبار لمتابعتها.

مع حلول شهر مارس، انشغل الجميع بالتحضير لعيد النوروز. حان الوقت للتركيز على زيارة عائلتي وشراء الهدايا لبويا. لكن تدفق الأخبار لم يتوقف. كل صحفي يعرف هذه الحقيقة: أحياناً تضطر لملاحقة الأخبار، وأحياناً أخرى الأخبار هي من يلاحقك. في هذه الحالة، سعى لمقابلتي نائب إصلاح يَدعى ولي الله شجاعى بور، وهو رجل هادئ

الطباع. كان أستاذًا جامعيًا سابقًا، وقد أجريت معه مقابلة مرة أو مرتين، ولم يكن بيننا اتصال غير ذلك. وهذه المرة، أراد أن يطلعني على سرِّ ما.

قال لي بابتسامة عارفة: «أنتِ تعلمين أنها لم تكن مجرد دفعة إضافية واحدة. بل هناك الكثير من المدفوعات، لكن إذا اكتشف أحد أنني ساعدتك، فسأكون في ورطة كبيرة».

ضحكت وقلت: «إذا كانت هناك كشوف راتب في جيبك، فلن أضع يدي هناك. سيتحدث الناس عنا بالسوء».

قال: «أجازف مجازفة خطيرة، فهل يمكنني الوثوق بك؟»

أجبت بابتسامة واثقة: «لا أحد أفضل مني في حفظ الأسرار. إنما إذا كنت خائفًا، فلا تشارك سرك. سأجد طرقًا أخرى لتأكيد المعلومة». عندما أشك، ألجأ للخداع — هذا هو أسلوب عملي.

قال وهو يشدد على كل كلمة، كأنه يخاطب شخصًا غيبًا: «لا أستطيع أن أعطيك الورقة علنًا، لكن سأمسكها خلف ظهري وأسقطها خلال مشي. سأسقطها، وعليك الإسراع لالتقاطها».

كان يتصرف وكأننا شخصيات في فيلم جاسوسية. تمنيت لو سلّمني الورقة ببساطة لننتهي من الموضوع، لكنني جاريته، وأومأت متفهمة بحماس.

قال محذرًا: «عليك التقاطها بسرعة. ولا تذكرني اسمي».

وبطريقة مسرحية، عقد يديه خلف ظهره ممسكًا بورقة مطوية. وبأكبر قدر من التظاهر باللامبالاة، مشيت خلفه على بُعد خطوات. كان الموقف مضحكًا، إذ كنت أمشي ببطء وأتظاهر بأنني لا أتبعه، وكنت على وشك الانفجار ضاحكة من سخافة الموقف.

وأخيراً، سقطت الورقة من يديه. أسرعْتُ والتقطْتُها بينما كان هو ينحرف مبتعداً.

هذه المرة، كانت المكافأة أكثر سخاءً — 3.5 مليون تومان لما سُمِّي «الواجبات الدينية»، دُفعت من أموال يديرها رئيس البرلمان. حصلنا على قنبلة إعلامية أخرى تُنشر في الصفحة الأولى. نُشر تحقيقي في وكالة *إيلنا* وصحيفة همبستغي، كما نُشر سابقه، وهيمن على دورة الأخبار. ليس مبالغة القول إن تغطية كشوف الرواتب غطّى على جميع القصص المحلية الأخرى. ولم يصدر أي نفي رسمي.

بدلاً من ذلك، صبَّ المسؤولون جامَ غضبهم عليّ. واتَّهمت بسرقة الوثائق وبتصرفاتي «اللعب» مع النواب. كان فحوى الكلام أنني قدمت خدمات جنسية للحصول على المعلومات. وراح بعض النواب يطالب أجهزة الأمن بالتحقيق معي.

واستبدَّ القلق بمحرري صحيفة همبستغي بشأن الكشف الأخير، إذ كانوا يخشون أن يسعى رئيس المجلس للحصول على أمر قضائي لإغلاق الصحيفة.

سألني محرر الصحيفة في اجتماع هيئة التحرير: «كيف حصلتِ على كشوف الرواتب هذه؟»

أجبته: «وجدتها على الأرض».

ثم سألني محرري: «وكيف تصادف كونك الوحيدة التي تجد هذه القسائم على الأرض؟»

مازحته قائلة: «لا تقلق، لا ألجأ لجاذبتي الأنثوية».

انفجر الجميع في الاجتماع ضاحكين. وبالنظر إلى مدى ضحكهم، أيقنتُ ألا أحد فيهم يعتقد بامتلاكي أي جاذبية من هذا النوع.

وعندما بدأت عاصفةُ الكشف تهدأ، ظهر شجاعي بور ومعه كشف راتب آخر.

قال وهو يسلمني الكشف وقد مزق منه تفاصيل هويته: «تلقينا ثلاث مكافآت، وهذه هي مكافأتي الأخيرة لك. فاحرصي ألا يمكن ربطها بي».

وافقت الحكومة على منح مكافآت رأس السنة لجميع موظفي الحكومة — بما في ذلك الموظفون المدنيون والعسكريون والمعلمون — بقيمة تتراوح بين 100,000 و250,000 تومان. في حين كان النواب يحصلون على 1.1 مليون تومان، أي ما يعادل أربعة إلى عشرة أضعاف ما يحصل عليه الموظفون المدنيون.

مرة أخرى، هيمن التقرير على دورة الأخبار — لمدة ثلاثة أيام هذه المرة. وكان البلد بأكمله يتحدث عن جشع النواب ووقاحتهم لقبولهم مكافآت بهذه الضخامة. في المحلات، في سيارات الأجرة، في المكاتب، كان الجميع يتحدثون عن الأمر. حتى البواب أوقفني ذات صباح وقال: «قرأت الأخبار. إنها فضيحة. لم أرَ مليون تومان بعيني طوال حياتي».

نظّم مجموعة من المعلمين مظاهرات خارج مبنى المجلس، رافعين لافتات تقول إنهم يريدون نفس المكافأة التي حصل عليها النواب، وهي 1.1 مليون تومان.

توجهت إلى قمي كلا لرؤية آقاجان وأمي خلال عيد النوروز، الذي تتوقف الحياة بسببه لمدة ثلاثة عشر يوماً. وتمكنت أيضاً من رؤية بويا، وإن كان لبعض الوقت فقط.

كان آقاجان قد دعا لانتصار المحافظين، وكان مبتهجاً عندما استولى المتشددون على المجلس في العام السابق. لكنه نفسه الآن كان مستاءً لأنهم خيّبوا أمله. في اليوم الأول من السنة الجديدة، كما هو حال العديد من الأسر الإيرانية، تجمعنا لمشاهدة الرسائل

العامة المتلفزة لقيادة البلاد السياسية. أولاً، يخاطب المرشد الأعلى الأمة، يتبعه الرئيس من مقره الرسمي، ثم رئيس البرلمان. لم يثر شيء اهتمامي سوى خطاب حداد عادل. رجوتُ الجميع الالتزام بالصمت، وما قاله حداد عادل عن فضيحة كشف الرواتب جعل قشعريرة تسري في جسدي.

قال حداد عادل بنبرة جادة وهو يحدق في الكاميرا: «ربما سمعتم الأكاذيب عن حصول نواب المجلس على مكافآت بمليون تومان. لا تصدقوها. هذه الأكاذيب يروج لها صحفي ناظم. أما نواب المجلس أشخاص طيبون وشرفاء».

شعرتُ بالحيرة من نبرته الدفاعية. عادةً ما تحتوي رسائل رأس السنة على الكثير من العبارات التقليدية والتفاؤل حول مستقبل أفضل. من النادر أن يتم استغلال المناسبة للدفاع عن سجل النواب. افترضتُ أن خبر المكافآت سيختفي بعد عطلة النوروز، لكن ربما أراد حداد عادل أن يستمر النقاش. وفكرتُ أن هذا يعني المزيد من التقارير الصحفية لأعمل عليها.

توجهت إلى المجلس في نهاية عطلة رأس السنة، وتحديدًا في اليوم الرابع عشر. كنت ما أزال أحمل تصريح دخول يوميّ، وكالعادة ذكرت اسمي إلى الحارس عند بوابة الأمن ليتحقق من القائمة التي لديه للسماح لي بالدخول. كان هذا هو الإجراء الذي اتبعته على مدى السنوات الثلاث الماضية.

قال الحارس معتذرًا: «آسف، آنسة علي نجاد، اسمك ليس على القائمة».

ضحكت وأنا أخرج هاتفي المحمول وقلت: «ليس فأل خيرٍ لبدء السنة الجديدة أن تنسى إدارة المكتب الصحفي اسمي في اليوم الأول».

لم أعِر الأمر كثير اهتمام، واتصلت بمكتب الصحافة. بعد تبادل التهاني بالعام

الجديد، طلبت من الرجل على الهاتف أن يرسل ملاحظة للحارس للسماح لي بالدخول. بعد صمتٍ قصير وبعض التلعثم، قال: «قررت اللجنة الإدارية إلغاء بطاقة الصحافة الخاصة بك في المجلس».

شعرت بصدمة شديدة.

قلت بدهشة: «تقصد أنني لا أستطيع الدخول؟ متى تقرر ذلك؟ ومن الذي قرر هذا؟»

أجاب: «شعرت اللجنة الإدارية أن تقاريرك الاستقصائية أضرت بسمعة المجلس. واعتُبر عملك مهيناً لسمعة المجلس ونوابه».

يا له من هراء، فكرت في نفسي.

قال: «لا يمكنك الدخول. تم إلغاء تصريحك».

اتصلت بعد ذلك بمحيي الدين كوهكن، عضو اللجنة الإدارية في المجلس. أكد لي الخبر. لم يعد مسموحاً لي بالدخول إلى المجلس كصحفية.

قلتُ: «أطردونني من مبنى المجلس؟ حقاً؟ كنت أقوم بعملتي فحسب». كنتُ لشدة غضبي عاجزةً عن البكاء.

أجاب كوهكن بحزم، ودون أن يبدو عليه أي أسف: «لقد تم تحذيرك من كتابة موادك التحريضية. لكنك لم تستمعي. فاتخذت اللجنة الإدارية قرارها النهائي».

عبرتُ بوابة الأمن في حالة ذهول. كان المجلس بمثابة بيتي. كنت قد أثبتت نفسي فيه، وها أنا أطرد منه دون محاكمة. حتى في لحظات الصدمة الأولى، قررتُ أن أحول طردي إلى قصة إخبارية. وقفت خارج المدخل، وأخبرت كل صحفي في طريقه إلى الدخول أنني قد طُردت. صُدم الجميع من توجيه هذه العقوبة إليّ لمجرد أداء عملي. وفي ذلك اليوم،

كسبتُ في صفِّي العديد من الصحفيين المتعاطفين معي. كما توجهت إلى جميع النواب الداخلين إلى المجلس، وأخبرتهم بما حدث. قال لي جميعهم تقريباً إنهم لم يكونوا على علم بقرار بطردي. وشجعني الكثيرون على الطعن في القرار ومحاولة استعادة مكاني.

لم تُكسبني انتقاداتي لمن هم في السلطة الكثير من الأصدقاء، لكنني كنت أعمل ضمن نطاق القانون وفي ظل القيود التي فرضتها الجمهورية الإسلامية. طرح الأسئلة الصعبة على السياسيين جزء من جوهر عمل كل صحفي. في العديد من البلدان، كنتُ سألقى الإشادة والتقدير لكشف الفساد، لكن بدلاً من ذلك، طُرِدْتُ لقيامي بعملتي. على الأقل لم أُسجن. فللجمهورية الإسلامية باعٌ طويل في سجن الصحفيين.

وفي حالة من الحزن، توجهتُ إلى وكالة *إيلنا*. عندما دخلت غرفة الأخبار، خرج المدير التحريري من مكتبه وتحلّق حولي زملاء، كلهم يرغبون في سماع القصة. بحلول ذلك الوقت، كانت جميع الوكالات الإخبارية المحلية — *إيلنا*، *إيرنا*، *إيسنا*، ووكالة أنباء فارس — قد نشرت تقارير عن طردي. وكان المتحدث باسم المجلس قد أصدر بياناً يقول فيه إنه لا توجد مشاكل مع همبستغي و *إيلنا* وشجعهما على إرسال مراسلٍ جديد ليحل مكاني.

قال المدير التحريري في *إيلنا* لمن كانوا مجتمعين: «لن نرسل بديلاً للآنسة علي نجاد. هذه سياسة تكميم أفواه».

وتكشّفت خطوط المواجهة. أصدرت وكالة *إيلنا* بياناً رسمياً يدين طردي. وبعد ذلك بوقت قصير، أصدرت همبستغي بياناً بالمثل.

في يوم طردي، وقف الصحفيون في *إيلنا* وهمبستغي معي، متحدّين مجلس الشورى الإسلامي. كانت واحدة من أكثر الأعمال جرأةً في الصحافة الإيرانية، التي

للأسف تخلت في السنوات الأخيرة عن محاولة أن تكون السلطة الرابعة، واكتفت بأن تكون صدىً للسلطة.

لقد طُردت من الوظيفة الوحيدة التي أحببتها حقًا. وكانت نصيحة أمي ترنّ في ذهني. لقد طردوني ظلماً. والآن، عليّ إيجاد نافذة جديدة.

الفصل الرابع عشر

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، نهضتُ بكامل نشاطي وعلى أهبة الاستعداد لملاقاة يومي، وكأن تجربة أمس المؤلمة لم تكن سوى كابوس. كانت الشمس مشرقة، وعقدتُ العزمَ أن أعتبر كل شيء على ما يرام. سخنتُ قطعة من خبز السنغك ولففتها حول قطعة من جبن الفيتا لأتناولها في السيارة. كالعادة، عرّجت على كشك الجرائد لشراء عدد من الصحف قبل توجهي إلى المجلس. تكدست الصحف اليومية في أكوام على الأرض بجانب كشك الشاي والسندويشات: حدّقتُ صورة المرشد الأعلى من بعضها، وعرضتُ الأخرى ابتسامة خاتمي العريضة، واختارت أربع منها أن تضعني على صفحتها الأولى. تحدثتُ العناوين عن «الشهداء»، و«المقاومة»، و«أمريكا»، و«الصحفية المطرودة».

تصدّر خبرُ طردي الصفحة الأولى في صحف همبستغي، واعتماد، وأفتاب. اشتريت نسخة من جميع الصحف اليومية الموجودة، وتوجهت إلى سيارتي لقراءتها. غطّت أربع عشرة صحيفة يومية أخرى خبر طردي في صفحاتها الداخلية.

تكررت في كل خبر العبارة «أول صحفية تُطرد من المجلس». يا له من إنجازٍ آخر أحققه! لم أعلم إذا جاز لي الفخر بهذا الإنجاز. ألقيت الصحف في المقعد الخلفي، وضغطت على دواسة البنزين، وانطلقت بالسيارة. منحتني قيادة السيارة الراحة، وسّحت بسرعة في شوارع طهران دون أي فكرة واضحة عن وجهتي.

بعد ساعة أو نحو ذلك، وجدت نفسي في مرآب السيارات خلف المجلس. أشرق وجه المجند الشاب عندما رأيته. قال بابتسامة خجولة وهو يجري أمامي ليشير إلى المكان:

«وجدت لك مكاناً جيداً لركن السيارة. تأكدي من رفع النوافذ وإغلاقها أيضاً». ثم ضحك وقال: «ليس معي أحد يساعدني اليوم، ولا أستطيع البقاء بجانب سيارتك طوال اليوم».

ناولته المفاتيح بابتسامة عريضة، وشكرته. يبدو أنه لم يقرأ الصحف.

كان يوماً ربيعياً جميلاً، وكل شيء على ما يرام في هذا العالم. ربما سيُسمح لي اليوم بالعودة إلى المجلس، وربما أحظى باعتذار أيضاً. فقد ظهرتُ على الصفحة الأولى لأربع صحف. إذا كان المجلس يعتقد أنه سيتجنب التغطية الصحفية السيئة بطردي، فلا بد أنه تلقى صدمة بسبب كل التغطية التي تلقاها خبر طردي نفسه. نعم، كل شيء سيكون على ما يرام، قلت لنفسني، وأنا أتقدم بخطوات واثقة نحو بوابة المجلس. في الداخل، نظر إليّ الحراس بفضول. توجهت إلى المنضدة.

«سيدة علي نجاد؟»

أدركت من نظراتهم أنني لم أكن موضع ترحيب. شعرت بالخجل من أحلامي الساذجة عن العودة.

قلت وأنا على وشك البكاء: «أحتاج إلى الدخول. أحتاج إلى إخلاء مكثبي. لدي الكثير من الأغراض في غرفة الصحافة».

قال رئيس الأمن: «اسمك غير مدرج في قائمة الصحافة». كان متعاطفاً معي، لكن لا بدّ من اتباع القوانين. ثم أضاف بابتسامة: «لكن يمكنكِ الدخول كعضو من العامة، إذا سجّل أحد النواب اسمك للدخول».

يا للإحراج، فكرت في نفسي. اضطررتُ أن أقف عند البوابة وأطلب من النواب، الذين دعم الكثير منهم طردي، أن يسجلوا اسمي للدخول! كان الأمر مضحكاً، لكن لم

أشعر بالرغبة في الضحك.

مر عدد من النواب، لكنهم جميعاً تجاهلونني. في النهاية، وصل ناطق نوري. كان قد حذرني مراراً من أن أسلوبني الصحفي سيوقعني في المشاكل. والآن، هز رأسه بأسى وقال لي باللغة المازندرانية: «ماذا تفعلين هنا؟» ينحدر وعائلته من بلدة نور التي تبعد أربعين ميلاً تقريباً عن قريتي. «لم أكن أعتقد أنك ستظهرين هنا مرة أخرى».

قلت بصوت متوسل: «ما يزال لدي أغراض في الداخل. لن أسبب أي مشاكل أو أثير ضجةً، لكن لدي الكثير من الدفاتر، وأشرطة كاسيت للمقابلات، والكثير من الأشياء في مكتبي».

رافقني ناطق نوري إلى الداخل. كان شعوراً غريباً أن أكون داخل ممرات المجلس مرة أخرى. جمعت أغراضي بسرعة وودعت الصحفيين في غرفة الصحافة. دخلت شرفة الصحافة، وهي شرفة تطل على قاعة المجلس، لإلقاء نظرة أخيرة. كانت الجلسة منعقدة، ورحتُ أبحث عن وجوه مألوفة في الأسفل.

قال أحد زملائي: «ينبغي عليكِ البقاء قليلاً — لا بدّ وأنهم سيناقشون واقعة طردكِ».

تسارعت دقات قلبي. تجرأت على أن أحلم: ماذا لو صوت النواب على إعادتي؟

طلبت الكلمة عشرت شايق، النائبة المحافظة ذات التعليم الحوزوي والمتشددة التي لم تربطني بها صداقةً أبداً. ولم يكن هذا الأمر مشجعاً. بدت شايق في حالة من الاشمئزاز الدائم بسبب حاجبيها الداكنين السميكين اللذين يرتفعان وينخفضان مع كلامها. قبل بضعة أشهر، كانت قد دعت إلى شنق جميع البغايا علناً.

وعندما أُثير موضوع طردي، قالت: «هذه المراسلة غير أخلاقية». بدت شايق مخيفةً بشوذرهما الأسود الذي يغطيها من رأسها إلى أخمص قدميها. «إنها فاسدة. لديّ معلومات سرية تؤكد أنها سُجنت في بابل بسبب أنشطة سياسية ضد الجمهورية الإسلامية. كيف أمكن أن تصبح مراسلةً في المجلس؟»

صدر صوت شهقة مفاجئة في شرفة الصحافة مع استدارة جميع الصحفيين لينظروا إليّ. لم تكن عقوبة سجنني معلومةً للكثيرين، أما الآن أصبح هذا الأمر جزءاً من السجل العام، وبُثَّ على الراديو. بقيتُ مركّزة على قاعة المجلس.

تحدث نائب آخر قائلاً: «لا أسف على فراقها، فقد كانت لصّة كذلك. سرقت كشوف الرواتب، وقد تلقيت الكثير من الشكاوى من ناخبيّ حول المكافآت بسببها».

أشار شجاعي بور أنه يرغب في الحديث. شعرت بخيبة أمل. هل سيتنكر لي هو أيضاً؟

قال شجاعي بور: «لم تكن لصّة، فأنا مصدر معلوماتها. أنا الذي أعطيتها كشوف الرواتب، لأنني لا أحب نفاق النواب الجدد. إنها لم تسرق كشف راتبي».

ساد هرج ومرج في المجلس. راح العديد من النواب يتحدثون في آنٍ واحد، يصيحون على بعضهم البعض وعلى شجاعي بور. في شرفة الصحافة، ابتسمت ابتسامة عريضة، شعرت أنني قد انتصرت وتلقيت براءتي. لم يكن النواب في الأسفل يعلمون أنني أتابع الجلسة.

صرخ رجل دين يرتدي جبة بنية تصل إلى كاحليه: «كانت لعباً، والكل يعرف أنها حصلت على كشوف الرواتب بتصرفاتها غير الأخلاقية. هكذا كانت تحصل على أخبارها الصحفية».

احمر وجهي من الخجل. كنت قد صددتُ محاولات بعض هؤلاء النواب ذاتهم التحرش بي على مدار السنوات الثلاث الماضية.

ضرب نائب رئيس المجلس، محمد رضا باهنر، بمطرقته لإعادة الهدوء.

ثم قال: «حتى لو أعطاهما أحد النواب كشوف الرواتب، فهذا لا يغير في الأمر شيئاً. كانت وقحة، واشتكى منها العديد من الأعضاء».

دافع عني نائب آخر قائلاً: «لا يمكننا طرد صحفية لأنها تقوم بعملها. الصحفية مثل ميزان الحرارة — لا يمكننا لوم ميزان الحرارة إذا لم تعجبنا حالة الطقس».

رد باهنر بسرعة ضارباً بالمطرقة مرة أخرى، مزهواً بنفسه: «ميزان الحرارة هذا خراب». تعني هذه الكلمة «معطل»، إنما عندما تُستخدم للمرأة، فهي تعني أنها عاهرة. وأضاف: «فلتذهب إلى الجحيم!»

كانت الشاشة التلفزيونية العملاقة في المجلس خلف كرسي رئيس المجلس، وتعرض صورة المتحدث بغض النظر عن قُرب أو بُعد مكان الجالس. أمكن رؤية الشخص الذي يتحدث بوضوح تام. وكان في المجلس على الأقل ثلاث فرق تصوير لمراقبة القاعة والتأكد من تغطية الجميع.

مأخوذةً بالنقاش، نسيت نفسي، فانحنيت قليلاً فوق الشرفة لرؤية أوضح. ثم تصاعد الضجيج من الأسفل. نظرتُ حولي، وأدركت أنني قد اكتُشفت. ركز أحد المصورين الكاميرا على وجهي في الشرفة، فامتلأت الشاشة بملامحي. شعرتُ وكأنني حيوان محاصر، أحرق في صورتني بينما كانت جميع العيون من القاعة تنظر إليّ. ارتفع همس منخفض من الهتافات الاستهجانية، وسرعان ما ازداد وتيرته.

«بوو... بوو... اخرجي...»

كنت أرغب في الهروب، لكن قدمي لم تستجيبا. وقفت بتحدٍ. لم أجرؤ على النظر إلى النواب في الأسفل، بل حدقت إلى الأمام نحو أعمدة بعيدة. ضرب باهر بمطرقتة مجدداً لاستعادة النظام في الجلسة. كنت أرتجف من الداخل، لكنني تمسكت بحافة الشرفة بإحكام. لم أكن لأهرب. وقفت مكاني لفترةٍ أحسستُها أبدية، ثم استدرت وسرت ببطء خارجاً. كان النواب قد أمضوا ساعة في مناقشة طردي.

لم يعد الأمر يعنيني. غادرت المجلس في الرابع من أبريل 2005، ولم أعد إليه أبداً.

أصدرت كل من *إيلنا* وهمبستغي مرة أخرى بيانات علنية تدين طردي. ظنّ زملائي أن المجلس سيتراجع عن القرار ويُسمح لي بالعودة، لكن رد الفعل العدائي في ذلك اليوم أقنعني بأن المجلس بات مغلقاً في وجهي. أفاد موقع بي بي سي أن ثمانين نائباً محافظاً قد وقعوا رسالة تطالب بطردي.

حظي الخبر بتغطية دولية واسعة.

في صباح اليوم التالي، وكالعادة، توجهت إلى كشك الجرائد المفضل لدي. وضعت ثلاث صحف خبر المواجهة في المجلس على صفحاتها الأولى. ونوقش الخبر في جميع صحف إيران تقريباً. حتى الخصوم القدامى وقفوا الآن في صفي. قبل ستة أشهر فقط، وبخني نائب الرئيس، محمد علي أبطحي، واصفاً إياي بالقروية الجاهلة لانتقادي خاتمي بشأن جائزة نوبل للسلام. أما الآن، وعلى مدونته الشخصية، انتقد المجلس بشدة: «285 نائباً ضد صحفية واحدة».

لم يكن أبطحي الوحيد الذي وقف إلى جانبي. إذ بعد أسبوع من تأكيد طردي، قاطعت إحدى عشرة صحيفة إصلاحية تغطية أخبار المجلس، ونشرت صفحة فارغة بدلاً

من التغطية المعتادة لفعاليات البرلمان.

وبدلاً من تخفيض منصبي أو فصلي، قررت وكالة *إيلنا* ترقيتي، وجعلتني محررة لشؤون المجلس، مما يعني الإشراف على جميع تغطية الأخبار البرلمانية. أصبحت الآن مسؤولة عن تحديد الأجندة، وتوزيع مهمات الأخبار، وإدارة فريق من الصحفيين. لم أكن بحاجة للذهاب إلى المجلس لأداء عملي. لكنني قررت أن الإدارة لا تناسبني. كنت أرغب في تأليف كتاب عن طردي، فالكتابة هي علاجي. بعد فضيحة المجلس، كان كل ما أريده هو أن أسرد القصة من وجهة نظري. أردت أن أروي قصة ابني بويان، وطلاقي، والضغوط التي تواجهها النساء يومياً.

وسرعان ما امتلأت أرضية غرفتي بأكوام من الملاحظات وقصاصات المقالات الصحفية. أردت الكتابة والذكريات ما تزال حاضرةً بألمها في ذهني. فالذكريات يمكن أن تتلاشى، وفي النهاية، لا يبقى سوى الكلمات. كان لدي بالفعل عنوان في ذهني: تاج خار (تاج الشوك). لقد صُلبت مجازياً في المجلس. والآن يلزمني تاجي الخاص.

قال علي ذات مساء، وهو يتخطى أكوام الأوراق بحذر: «لديك ما يكفي من المواد لتأليف الكتاب». كان يحمل كيساً بلاستيكيًا مليئاً بالطعام المنزلي. «الآن عليك أن تنشره بسرعة».

الشهرة التي حصلت عليها كانت سلاحاً ذا حدين. فالمقالات عن طردي قد تساعد في خلق زخم لمبيعات الكتاب، بيد أن إرشاد (وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي) قد ترفض إصدار تصريح لنشر الكتاب لنفس السبب. كنتُ مثيرة للجدل للغاية.

«هذه فرصتك لرواية وجهة نظرك بالأحداث»، قال علي. كان قد حصل على وظيفة محرر، ورأى الإمكانيات لنجاح هذا الكتاب. «لا تفوتها».

تدفقت الكلمات مني وأنا أكتب تاج الشوك. كان عليّ أن أفرغ تجاربي في المجلس وأثبت للجميع أنني لم أكن «لعوباً» أو «عاهرة». كنت صحفية استقصائية عوقبت لتوثيقي الفساد.

في غضون شهر واحد، أنهيت المسودة الأولى للكتاب. ولم يبق سوى الحصول على تصريح النشر. وتصادف أنه بعد بضعة أيام من إنهاءي مخطوطة الكتاب، افتتح الرئيس خاتمي معرض طهران الدولي للكتاب، حيث شارك مئات من الناشرين الإيرانيين والأجانب من واحد وخمسين دولة. كان لمحسن جناح يروج للكتب الأكاديمية من شركته، وحرصت على أن أكون معه في اليوم الأول. على المنصة، وبهدوئه المعتاد بعباءته ذات اللون الكريمي، اقتبس خاتمي أبياتاً للشاعر الفارسي حافظ، ثم بدأ يلقي خطاباً مطولاً عن حرية التعبير وضرورة وجود صحافة ناقدة. لم يكن يعلم أنني كنت بين الحضور.

وكما جرت العادة، بعد أن افتتح المعرض رسمياً، قام بجولة على مختلف الأجنحة برفقة وزير الإرشاد. في كل جناح، تبادل بعض التحيات مع الناشر. وعندما وصل إلى جناح محسن، قفزت على كرسي لكي يراني فوق حشد الرجال الذين شكلوا طوقاً حوله.

«مرحباً سيادة الرئيس. أمل أنكم لم تنسوني. أنا الصحفية المطرودة».

أعاد خاتمي النظر للتأكد. من الواضح أنه لم يكن يتوقع رؤيتي.

«بالطبع أتذكرك. كنت للتو أتحدث عنك. يجب علينا حماية حقوق الصحفيين».

قلت: «سيدي الرئيس، أقدر كلماتك اللطيفة. لكنني بحاجة إلى الفعل، لا القول. هل يمكن أن تطلب من وزير الإرشاد أن يمنحني تصريحاً لنشر كتابي الجديد؟»

قال خاتمي: «طبعاً، بالتأكيد، اذهبي وتحدثي إلى الوزارة، وهم سيتولون ترتيب

الأمر».

أجبتة: «سيكون الأمر أسهل إذا أعطيته أمراً مباشراً».

كان خاتمي يريد الابتعاد بأسرع ما يمكن عن جناح محسن، لكن حشد المتفرجين جعل الأمر صعباً. لم يكن هناك ضمان أن الوزير سيلتزم بتوصية شفوية من الرئيس. دفعت ورقة وقلماً نحو الرئيس.

سألته: «هل يمكنك كتابة ملاحظة للوزير؟ إذا كتبت مذكرة، فسيتم الأمر بالتأكيد».

بدا خاتمي متضائقاً للغاية. التفت باحثاً عن مساعد ليخلصه من الورطة.

قال محاولاً التملص: «هذه ليست ورقة رسمية. ينبغي أن تكون على ورق رئاسي رسمي تحمل ترويسة. لا يمكنني التوقيع على أوراق عشوائية».

واصلت بإصرار: «أريد مجرد ملاحظة منك لتسريع الأمور، لا أمراً رسمياً، بل تذكيراً ودياً».

بغضب، أخذ الورقة وكتب ملاحظة من سطر واحد إلى وزير الإرشاد ليمنحني تصريحاً لنشر الكتاب.

لم أخبر خاتمي أنني قد أنهيت الكتاب بالفعل. بدأ محسن العمل على الفور، وتمكن من طباعة الكتاب خلال أربعة أيام فقط. ثم سارع بوضع نسخ في جناح شركته في معرض الكتاب. وبعد يوم واحد، زار مسؤولو الإرشاد الجناح، وطلبوا منه إخفاء الكتب لأنه لم يكن لديه تصريح لبيعها! قيل لنا إن الحصول على تصريح لنشر الكتاب لم يكن كافياً؛ بل يلزمه التقدم بطلب للحصول على تصريح آخر للبيع. استغرق ذلك أربعة أيام أخرى، لكن في اليوم الأخير من معرض الكتاب، تمكنا من عرض الكتاب بشكل قانوني.

بعد نشر كتابي، وقعت أحداث غريبة. كنت أعيش في الطابق السادس من بناية شاهقة، بعد أن انتقلت مرة أخرى. ذات مساء، سمعت صوت حصى ترتطم بنافذتي. عندما نظرت إلى الخارج، أشارت لي جارتي بأن ألقاها في الطابق السفلي. استغربت من ذلك، ونزلت مسرعةً على الدرج، وانتظرتها في بهو المبنى. أمسكت بذراعي وسحبته إلى الشارع، وبعد التحيات المعتادة أخبرته أن شقتي قد تكون مزروعة بأجهزة تنصت.

قالت، وهي تنظر بقلق نحو مدخل المبنى: «دخل عملاء بلباس شخصي إلى شقتك». كانت تعني بذلك العملاء السريين.

سألته: «شقتي؟ كيف دخلوا؟»

أجابت: «أتوا إلى شقتي أولاً. سألوا عن مدير المبنى، لكنه رفض إعطائهم المفاتيح، فأتوا إلى شقتي ليروا إن كان لدي مفاتيح احتياطية». لم تكن تكبرني كثيراً. كنت أراها في البناء مع طفلين وأحياناً مع زوجها. «استدعى مدير المبنى الشرطة، وحضر شرطيان بزي رسمي للتحقق من الوضع».

«لماذا لم يتصل بي أحد؟»

أجابت جارتي في شيءٍ من الخجل: «قال الشرطيان إن العملاء السريين لديهم تصريح خاص لدخول شقتك. وقد حذرونا من إخبارك. لا تبدين وكأنك من النوع المعادي للثورة».

أجبتها: «أنا صحفية».

قالت: «نعم، ذكر ذلك أحد الجيران. أنا لا أتابع الأخبار، لكن أردت أن أخبرك ألا

تتفوهي بأي شيء ممنوع في شقتك».

اتصلت بعلي، وفتشنا معاً الشقة بشكل كامل، فاحصين كل زاوية بحثاً عن أجهزة تنصت أو أي أجهزة إلكترونية غريبة. رغم أننا لم نجد شيئاً، لم أعد أرغب قضاء الكثير من الوقت في شقتي. في كل مرة كنت أستحم فيها، كنت أخشى أن يكون هناك من يتجسس علي. وسرعان ما انتقلت مرة أخرى.

منذ ذلك الحين، أصبحت أراقب محيطي بحذر، وازداد يقيني أنني كنت تحت المراقبة. صرْتُ أرى في المرآة الخلفية نفس السيارات في إثري. ذات مساء، عندما التقيت باثنين من النشطاء من جبهة المشاركة، وهي فصيل سياسي إصلاحي، لتنظيم قراءة كتابي في أحد فعاليتهم، حدّثتهم عن مخاوفي. كنت بحاجة للمساعدة، لكنني لم أستطع اللجوء إلى الشرطة.

قلت للنشطاء: «شقتي مراقبة، وثمة مَنْ يتعقبني، وسأتعرض للقتل».

سأل أحد الرجال، متبادلاً النظرات مع زميله الذي عمل مستشاراً سابقاً للرئيس: «لماذا قد يتتبعك أحد؟»

أخبرتهم أن سيارة سمند فضية، وهي سيارة إيرانية الصنع شائعة في البلاد، كانت تتابعني طوال اليوم. أضفت: «وكانت تتعقبني بالأمس وقبله».

قال المستشار السابق: «دعينا نتحقق إذا كان هناك من يتبعك الآن. سنأخذ جولة بالسيارة ونرى من سيظهر».

ركبنا سيارتي وانطلقنا. وسرعان ما ظهرت السيارة السمند الفضية. استدار المستشار لمراقبة السيارة.

صاح بحدّة: «انعطفي إلى اليسار».

ضغطت على الفرامل، وانعطفت إلى شارع هادئ.

«أسرعي»، قال وهو ينظر عبر النافذة الخلفية. انعطفت السيارة السمند الفضية وتبعتنا.

«انعطفي يميناً... يمين مرة أخرى... ثم يسار...»

مع كل انعطافة، كانت السمند تتبعنا. بعد القيادة لبعض الوقت، طلب مني النشطاء التوقف جانب الطريق. توقفت السمند على بعد خمسين ياردة تقريباً خلفنا. ودون أن ينبس بكلمة، خرج أحد النشطاء من السيارة، وسار بخطى ثابتة نحو السمند. انحنى ليتحدث مع السائق.

قال بصوت عالٍ تمكنا من سماعه: «من تظن نفسك؟ أرني أوراقك».

انطلقت السمند مبتعدةً.

قال لي عندما عاد إلى سيارتي: «تهانينا، أصبحت الآن محط اهتمام أجهزة الأمن». ثم أضاف بعد أن رأى يدي المرتجفتين: «من الأفضل أن أقود أنا السيارة».

كنتُ أزور بويان بانتظام، لكن الرحلات أصبحت أكثر صعوبة بسبب الاهتمام الإعلامي الذي رافق طردي. أخبرت بويان ببساطة قدر المستطاع عن التحديات التي كنت أواجهها. كنت أعلم أن هناك من سيحاول تأليبهِ عليّ.

قال لي بويان أثناء إحدى زيارتي إلى بابل: «أريد أن ألكم أي أحد يصفك باللصّة». كان عمره عشر سنوات، وكنا نذهب إلى الحقول ونركض ونلعب. قال إنني لم أكن كالأمهات الأخريات. كنت أتسلق الأشجار معه وأخذه في جولات بسيارتي. كنت أشتاق إليه كثيراً، لكن لم أستطع النهوض بأعباء عملي ورعايته في نفس الوقت، حتى لو حصلت

على حضانته. في الأيام التي نقضيها معاً، كان يحتاج إلى ساعة أو ساعتين ليألفني، وبحلول الوقت الذي كان عليّ أن أتركه، كان ألم الفراق يطاردني لليوم التالي.

في أحد الأيام، خلال وجودي في وكالة /يلنا/ تلقيت مكالمة هاتفية غريبة.

قال الصوت على الطرف الآخر: «السيدة شيرين عبادي، الفائزة بجائزة نوبل للسلام، تريد التحدث إليك».

ظننتُ أن هذه مزحة. وربما تكون خدعة لإحراجي. فجأة سمعت صوت عبادي المميز تقول: «سلام. أريد أن أمثلك. لقد شوه المجلس سمعتك، وأعتقد أنه يمكنك رفع قضية. لا أريد الحديث عبر الهاتف. تعالي إلى مكتبي».

كيف يمكن لعبادي أن تساعدني؟ رغم أنها متخصصة في قانون العمال والأطفال، فلا بأس في مقابلتها. كانت تعمل من قبو شقتها في شمال طهران. في الواقع، كانت عبادي صريحة ومباشرة، ولم تضيع وقتها في المجاملات.

قالت: «أعتقد أنه يمكننا رفع قضية ضد باهنر وكوهكن. باتهامهما لكِ بسوء الأخلاق وبأنكِ لعوب، فقد أضراً بسمعتك المهنية. لدينا قضية قوية».

دون شك، كانت عبادي قد سمعت وقرأت عن مواجهتي مع الرئيس خاتمي بشأن جائزة نوبل التي فازت بها، وضحكنا طويلاً لذلك. تمخضت أخبار الحادثة عن دعم وطني عريض لها مقابل العداء الرسمي واللامبالاة.

تولت مساعدة عبادي، ليلي علي كرمي، وهي محامية كذلك، تولت مسؤولية إعداد القضية. لم نكن نعلم حينها أنني ويلي سنصبح صديقتين مقربتين بفضل هذه القضية، وسيتقاطع طريقانا مجدداً بعد خمس سنوات عندما اضطررنا للهرب إلى المنفى في

بريطانيا.

بعد طردي، أصبحت أكثر اهتمامًا بالتعرف على ناشطات حقوق المرأة. كان الحديث عن النسوية من المحرمات في إيران. كصحفية برلمانية، لم أكن أستطيع المخاطرة بأن يُنظر إليّ كناشطة في حقوق المرأة أو النسوية. وبصراحة، لم يكن لدي الوقت؛ ولم أرغب في إضافة نقطة سوداء أخرى إلى سجلي.

إنما بعد فترة قصيرة من نشر كتابي، اتصلت بي شهلا شركت، رئيسة تحرير مجلة *زنان* (النساء) المؤثرة، وهي أول مجلة نسوية في إيران بعد الثورة. ولا يمكن المبالغة في تقدير تأثير *زنان*، التي تأسست في العام 1991، ودور شركت في تشكيل النقاش حول حقوق المرأة. فقد كتبت في المجلة بعض من أبرز النسويات في البلاد، بمن فيهن مهرانغيز كار وشهلا لاهيجي.

شركت وأنا من عائلات تقليدية، وكنا نفهم بعضنا البعض. حصلت شركت على درجة في علم النفس قبل أن تصبح صحفية. مع بدء المقابلة، لاحظت أن شركت لم تكن ترتدي الشوذر، وكانت تميل إلى العبث بطيات وشاحها عند جبينها. كنت أعرف تمامًا شعورها. يتفقد جميع الصحفيات وشاحهن باستمرار خوفًا من خيوط الشعر المتمردة التي قد تخرج فجأة. صارت هذه العادة دافعًا للحماية من التعنيف المعتاد: «أصلحي حجابك أولاً». مثلي تمامًا، كانت قامتها الصغيرة غالبًا مغطاة بمعطف أسود كبير الحجم، لكنني كنت أتوق للتحرر. ولم أكن أعلم إذا كان ذلك هو شعورها أيضًا.

أصبحت المقابلة قصة غلاف مجلة *زنان*. تمنيت لو كان وجهي هو ما يظهر في الغلاف، إنما برز للعيان أنفي الكبير المميز لأهل الشمال وفمي المفتوح على اتساعه عن ضحكتي، تحت عنوان «البطة القبيحة لمجلس الشورى».

تقصّدت شركت إبراز اللقب الذي أطلقه عليّ المحافظون. أخبرتُ شركت أنه وسام شرف لي، وأنني لن أسمح لأحد بترهيبني.

في مايو 2005، عندما نُشر الكتاب، أجرى معي صحفيان من *فاينانشال تايمز* مقابلة. لم أكن قد سمعت قبل ذلك عن *فاينانشال تايمز*، وكنت مندهشة بعض الشيء من وجود أحدٍ في الغرب يهتم بقصتي.

بعيداً عن مشكلاتي الشخصية، كانت الغيوم الداكنة تتجمع في الأفق. وتوجب عليّ أن أبقى عيني مفتوحتين. في يونيو 2005، أجرت إيران أشدّ الانتخابات الرئاسية صخباً في تاريخها. خلال موسم الحملة الانتخابية، بدا وكأنّ القوانين المعتادة التي تحكم إيران قد علّقت. اختفت شرطة الأخلاق من الشوارع، واختلط الرجال والنساء بحرية، وانزلقت أوشحة النساء إلى الخلف كاشفة عن الكثير من الشعر. وراح النساء يتجولن مرتديات أضيّق المعاطف، ما أبرز تفاصيل أجسادهن.

صادق مجلس صيانة الدستور على سبعة مرشحين، جميعهم من داخل النظام. كان المرشح الأكثر تمويلاً هو الرئيس السابق، هاشمي رفسنجاني —الذي كان يتنقل دائماً في سيارة مرسيدس-بنز مضادة للرصاص ونادراً ما يسافر خارج طهران. قال ذات مرة «الجميع يعرفني»، متجاهلاً الدعوات للتواصل مع النخبين في المناطق الريفية. خارج مقر حملته الانتخابية، كانت الشابات يرتدين عصابات رأس مكتوب عليها كلمة «هاشمي» بالإنجليزية ويوزعن مواد الحملة للسيارات المارة. بالكاد كنّ يلتزمن بقواعد الحجاب، مما تسبب في حوادث مرور لتحديق السائقين بأجسادهن الجذابة.

بدا شهر الانتخابات بمثابة مهرجان طويل في جميع أنحاء البلاد. ولم يكن مرجحاً فوز أي مرشح من الجولة الأولى، وتوقع جميع المحللين السياسيين جولة إعادة بين

رفسنجاني ومهدي كروبي، رئيس البرلمان السابق. ومع بدء ظهور النتائج، مدينةً بعد مدينة، ولاية تلو ولاية، بدا ذلك أكثر ترجيحًا. تصدر رفسنجاني بفارق مريح، وكان كروبي في المركز الثاني. ومع انتهاء معظم عملية الفرز، ذهب كروبي ليحصل على قسط من النوم. وعندما استيقظ، وجد نفسه في المركز الثالث وخارج السباق عمليًا. إذ تقدّم عليه محمود أحمدني نجاد، المرشح الأقل شهرة، والذي تسلسل إلى المركز الثاني. زعم كروبي وجود تزوير في الأصوات، واشتكى من الاحتيال الانتخابي، لكن دون جدوى.

بعد أسبوع، سحق أحمدني نجاد، ابن الحدّاد، رفسنجاني ليصبح الرئيس السادس والأكثر إثارة للجدل في إيران. وعد أحمدني نجاد بتقديم الكثير من الدراما للشعب الإيراني... ولي كذلك.

الفصل الخامس عشر

بصفته أحد أبناء لورستان، تشكلت رؤية مهدي كروبي للعالم بعيداً عن أجواء طهران الحضرية. أدركت ذلك عندما تبادلتُ مع رجل الدين هذا المعتمر عمامةً بيضاء القصصَ عن كوننا غرباء قرويين، وساعدني في الحصول على تصريح العمل الصحفي. يشتهر أهل لورستان ببساطتهم، وعنادهم، وشجاعتهم. كان كروبي مقتنعاً بأنه قد وقع ضحية لخدعة ما. وبعزيمته الصلبة، قدم استئنافاً إلى المرشد الأعلى، لكنه لم يجنِ من ذلك سوى توبيخاً وتحذيراً بالتزام الصمت.

واحتجاجاً على ذلك، كروبي استقال فوراً من جميع مناصبه الرسمية، وأطلق حزبه السياسي الخاص وصحيفته التي حملت اسم *اعتماد ملي* (الثقة الوطنية). بعد انطلاق الصحيفة بفترة وجيزة، اتصل بي المحرر ليسألني إن كنت أرغب في الانضمام لكتابة عمودين أسبوعياً. كنت قد اشتقت إلى الكتابة، ووافقت قبل أن ينهي حديثه. أطلقت على العمود اسم *دما سنج* (مقياس الحرارة).

قبل تسليم السلطة، عقد خاتمي مؤتمره الصحفي الأخير في يوليو 2005. احتشد ثلاثمئة صحفي في مكاتب الرئاسة لهذه المناسبة. بدا خاتمي أنيقاً برداءٍ رمادي ناعم النسيج. دافع عن سياساته وأعرب عن أمله في أن يحترم الرئيس القادم الإصلاحات التي بدأها هو. كانت الأجواء كثيية؛ فقد توقعنا جميعاً أن يتراجع أحمددي نجاد عن معظم سياسات خاتمي. في نهاية الاجتماع، التّف الصحفيون حول خاتمي والتقطوا صوراً شخصية معه. لم أتجشم عناء التقاط صورة شخصية معه، وتوجهت إلى الخارج. كنت على الدرج عندما وصلتُ سيارته الرسمية، وفي تلك اللحظة جاءتني مكالمة من والدتي على هاتفني المحمول. عندما أخبرتها أنني قد شهدت للتو آخر مؤتمر صحفي لخاتمي، ألحّت

عليّ أن تكلمه.

نظرت خلفي، فإذا بخاتمي يسير نحوي. شرحت لها بلطف أن هذا ليس الوقت المناسب، لكنها أصرت. وعندما كان خاتمي على وشك ركوب سيارته، سلمته هاتفي المحمول.

«سيدي الرئيس، تريد والدتي أن تتحدث معك»، قلت لخاتمي الذي بدا عليه الدهول.

تراجع عن السيارة، وب نظرة مستسلمة أخذ الهاتف المحمول.

«سلام، مادر جان»، كان أقصى ما فهمه. استمع باهتمام، ثم أعاد الهاتف.

ثم قال وهو يهز كتفيه: «لا أستطيع فهم ما تقوله».

قلت له: «سأضطر للترجمة». كانت والدتي تتحدث باللهجة المازندرانية، لهجتنا الشمالية. «فهي لا تستطيع التحدث بفارسية سليمة».

بشكل محرج، كان رأسينا متقاربين للغاية، أمسكت بالهاتف بين أذني حتى أتمكن والرئيس من الاستماع معاً، وترجمت ما قالته والدتي.

«لقد طردت ابنتي من مجلس الشورى — وشوّهت سمعتها. وإذا أصابها أي مكروه، ولو شعرة واحدة من رأسها، فإنك ستكون مسؤولاً أمامي»، هذا ما قالته أُمي، وترجمته أنا. لم أستطع منع نفسي من الضحك لجرأتها. فها هي، بركبتها المتهاكتين اللتين تحتاجان استبدالاً بعد سنوات العمل في حقول الأرز، تهدد رئيس إيران.

والحق يُقال فإن خاتمي تتم بما معناه أنه هو أيضاً لا يريد أن يلحق بي أي أذى. ولا أظنه توقع أن ينتهي آخر لقاء صحفي له بمحاضرة من والدتي.

بوجود أحمدِي نجاد في منصب الرئاسة، كانت إيران فعلاً بحاجة إلى عمود دماسنج

الصحفي — فقد كانت السياسة الإيرانية تزداد سخونة. جاء التغيير بصورة فورية وواضحة. في حين برز خاتمي الأنيق ورجاله بأرديتهم وبدلاتهم المفصلة، تباهى فريق أحمدى نجاد بملابسهم المهمة ومظهرهم غير المرتب. كان ثمة شيء كوميدى في وجه أحمدى نجاد المتجعد، وشعره الأسود اللامع، وابتسامته الغريبة التي توحى بأنه يرى طرفة ما لا يراها أحد غيره. وأدلى بادعاءات مشكوك بصحتها، كقوله بعدم وجود مثليين جنسياً في إيران، وأنه يمكننا حلّ جميع مشاكلنا إذا عدنا إلى التقوى والحماس اللذين سادا في الأيام الأولى للثورة. خلال رحلة إلى نيويورك لحضور الجمعية العامة للأمم المتحدة، دُعي لإلقاء كلمة أمام حشد من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس في جامعة كولومبيا. عندما سُئل عن معاملة المثليين في إيران، قال: «في إيران، لا يوجد لدينا مثليون جنسياً كما في بلدكم. في إيران، لا توجد لدينا هذه الظاهرة». بهذه التعليقات، جعل نفسه أضحوكة أمام العالم.

لعب كثيراً على وتر كونه من خارج النخبة. وسخر منه خصومه بتسميته «أحمقى نجاد». واعتُبرت شهادة الدكتوراه التي يحملها في إدارة المرور اعتُبرت مزحة. إنما تمتّع بدهاء رجل الشارع: فأحمدى نجاد كان سياسياً شعبوياً يعرف أن البلاد مليئة بأشخاص من أمثاله — من الطبقة الوسطى الدنيا، ممّن ليس لديهم الثروة، أو التعليم، أو العلاقات التي تمكنهم من الوصول إلى المستوى الأعلى. فاستغل شعورهم بالاضطهاد. كان يعرف كيف يجتذب أولئك الذين شعروا أنهم يُدفعون دفعاً إلى هوامش إيران الجديدة، وقدامى المحاربين الذين لم يستفيدوا من الطفرة الاقتصادية. كان شعار حملته الانتخابية *ميشافاد فا ميتافانيم*: «الأمر ممكن — وبإمكاننا تحقيقه».

صوّر أحمدى نجاد باعتباره قريباً من الناس. وأظهره أحد مقاطع حملته الانتخابية بين الفقراء، وفي مقطع آخر كان يقف في طابور في مطعم ذاتي الخدمة. كان يُعتبر غير جذابٍ بقامته القصيرة، وخديه الغائرين وحسّه الغائب بالأناقة، إلا إذا اعتبرنا السترات غير

المتناسقة والسترة القطنية تعبيراً ساخراً عن الموضة. على عكس خاتمي، لم يكن لديه مهارة في التعبير، ولا إلقاء الشعر. وإذا أردنا الحديث عن الدخيل على الساحة السياسية، فأحمدي نجاد خير مثال. وقفت المؤسسة السياسية ضده، ومع ذلك، بأقل القليل من الدعم، فاز بالرئاسة بتوظيفه شعارات ثورية تستحضر الأيام الأولى للجمهورية الإسلامية.

وحبست البلاد أنفاسها.

في أسابعه الأولى في منصب الرئاسة، أشعل أحمدي نجاد معارك مع مجلس الشورى لرفضه بعض اختياراته الوزارية؛ بل حتى هاجم مستشاريه الاقتصاديين، وأقال عدداً من الدبلوماسيين المخضرمين لكونهم من بقايا الإدارة السابقة. وكان يتصرف وكأنه ما يزال مرشحاً وليس رئيساً منتخباً. تصرف أحمدي نجاد كالرئيس ترامب قبل أن يظهر على الساحة رئيس اسمه ترامب.

قام أحمدي نجاد بجولة في البلاد، وزار ألفي بلدة تقريباً خلال عامين. لم يكن ينقص سوى أن يلقي المال للجموع التي كانت تستقبله. كان مسؤولوه الرسميين جنوداً سابقين فظّين بملابس سيئة وأخلاق أسوأ. في لقاءات بما يُشبه مجالس البلديات، تعهد أحمدي نجاد على الفور بدفع تمويلات رسمية وسط تصفيق مدوّ. كان أشبه بمضيف برنامج ألعاب أو معالج روحي، أو صانع المعجزات الذي جاء يحمل الإصلاحات السريعة والوعود التي تستدرّ الرضا الفوري. لم يكن لديه أي استراتيجية سوى توزيع الأموال وإطلاق الشعارات الفارغة.

في صحيفة/عتماد ملّى، كنا بلا شكّ في المعسكر المعارض لأحمدي نجاد. وكنا نراقب برعب كيف راح يخلق حالة من الفوضى في البلاد بسبب ترشيحاته ومقترحاته. كنت ما أزال في طور الانتقال إلى كوني كاتبة عمود بدلاً من مراسلة. لكنني وجدت صوتي، وبدأت أعلق على أخطاء الرئيس الجديد، وأعترض على كون الانتخابات قد انتهت في

حين أن الفائز لم يزل يتصرّف بعقلية الحملة الانتخابية.

بعد الإشارة إلى بعض الجدل الذي صاحب فترة رئاسته، كتبت: «السيد أحمدى نجاد، لقد تقبلت البلاد بأكملها حقيقة أن الرئيس السابق خاتمي قد رحل. نفتقده، لكنه رحل. تعلم البلاد أنه لدينا رئيساً جديداً، وهذا الرئيس هو أنت. ألم يحن الوقت لتصدّق ذلك شخصياً؟ إنه صحيح. أنت رئيس إيران. حان الوقت لتقبل ذلك، وتتصرف كرئيس».

ولم يكد يمضي شهراً قليلة على توليه الرئاسة حتى دعا أحمدى نجاد إلى محو إسرائيل عن وجه الأرض. لم يكن الأمر بدءاً من القول في السياسة الإيرانية. فقبل ثورة 1979، كانت العلاقات بين إيران وإسرائيل دافئة، لكن مؤسس الجمهورية الإسلامية، الخميني، دعا إلى تدمير إسرائيل. لذا فأحمدى نجاد لم يكن سوى مقلداً بهذه السياسة. وتسبب بعزلة أكبر لإيران بعد تشكيكه في الهولوكوست. مثّلت تصريحاته كارثة على إيران، كما حذرتُ في أحد أعمدتي، مشبهة الرئيس بـ«بلطجي صاخب» يتسكّع عند زوايا الشوارع ويصرخ على المارة والسيارات. وكتبت: «حتى لو صفق له بلطجية آخرون وربتوا على ظهره عند عودته إلى المنزل، فإن عاصفة قد دمّرت بيته». كانت تصرفات أحمدى نجاد تعزل البلاد، وسيدفع الناس العاديون ثمن عدوانيته. إذا استمر أحمدى نجاد دون رقابة، فستدمر عاصفة إيران.

بطبيعة الحال، لم أكسب أي أصدقاء بين أنصار أحمدى نجاد المحافظين، وتواصلت معي تستكتبني صحف إصلاحية كانت جميعها معارضة لأحمدى نجاد؛ فأصبحتُ أكثر انشغالاً من أي وقت مضى. كانت بعض تصريحات الرئيس محيرة، لكنها كانت دائماً محسوبة لاستمالة قطاعات معينة من الناخبين. لم يتصرّف أحمدى نجاد بطرق متوقعة: فذات مرة قال إن شرطة الأخلاق تقضي وقتاً أكثر مما ينبغي في مراقبة الحجاب، وإنه لا يجب القلق بشأن هذه الأمور. وفي مناسبة أخرى، صرّح بأنه يجب السماح للنساء

بدخول الملاعب الرياضية لمشاهدة مباريات كرة القدم. وكان من دواعي الدهشة أن أحمدي نجاد، بكل نواقصه، يقف مدافعاً عن حقوق النساء. بالطبع، سرعان ما نقض رأيه رجال الدين في قم. كانت تلك واحدة من المناسبات النادرة التي أشدت فيها بأحمدي نجاد — لتناوله قضية تهرّب منها خاتمي. ورغم أن موقفه تعرض لنقض المرجعية الدينية، فقد تصرف أحمدي نجاد تصرفاً صائباً. إذ من الجنون ألا يُسمح للنساء الإيرانيات حضور مباريات كرة القدم أو الكرة الطائرة.

في الوقت نفسه، طرح أحمدي نجاد برنامج السلامة الاجتماعية، الذي دعا إلى نشر سيارات شرطة الأخلاق في الأحياء الشعبية لمضايقة النساء اللواتي يرتدين ملابس غير محتشمة. كما دفع بتشريعات تقوِّض مكانة المرأة في الزواج، وتشريعاتٍ بحصص تحدّ من عدد النساء المقبولات في الجامعات في مجالات معينة.

في مقالتي بعنوان «حكومة الإنكار»، أسفت لإنكار أحمدي نجاد للهولوكوست ووجود المثليين، ورفضه الاعتراف بمساواة النساء، مما جلب العار لكل الإيرانيين. لم يجرؤ الكثيرون على الضحك على أحمدي نجاد داخل إيران. وفي مقالة أخرى بعنوان «حكومة الأكاذيب»، قلت إننا نتعلم منذ الصغر ألا نكذب. ومع أحمدي نجاد، كانت الأكاذيب كبيرة وغريبة لدرجة أن الناس صدقوها. تخصص أحمدي نجاد بإطلاق الأكاذيب الكبيرة. بل جميع أكاذيبه ضخمة. أكسبني مقالاتي الكثير من المعجبين، إنما لا أحد من مسؤولي أحمدي نجاد.

في مايو 2006، زرت بيروت ككاتبة في صحيفة *اعتماد ملي*. وتمثّل الهدف من الزيارة في أن أكتب سلسلة من المقالات عن العلاقة بين إيران ولبنان، وعن حزب الله، لكنني كنت أرغب بشدة في زيارة بلد آخر وتجربة الحياة خارج حدودنا. يُعتبر السفر إلى الخارج أمراً عظيماً لأن الإيرانيين عادة ما يُحرمون من تأشيرات الدخول إلى معظم

الدول — باستثناء تركيا، وأفغانستان، وإمارة دبي — أو تُمنح لهم على مضض. أما السفر إلى أوروبا، فلم يكن أمراً وارداً أصلاً، ولم تكن لدينا أي علاقة مع الولايات المتحدة بسبب حادثة الاستيلاء على السفارة الأمريكية في العام 1979. كل عام، في ذكرى هذا الحدث، تُقام مظاهرات حاشدة في إيران، خاصة في طهران، للاحتفال بهذا الاستيلاء، باعتباره رمزاً لتحدي القوة العظمى الوحيدة في العالم.

تملّقت لمحرري صحيفة *اعتماد* ملي حتى حصلتُ أخيراً على خطاب اعتمادي للسفر إلى بيروت، التي تُعتبر باريس الشرق الأوسط — المدينة الأشبه بأوروبا في المنطقة. بعد الحصول على التأشيرة من السفارة اللبنانية، هرعت عائدة إلى مكتبنا لأتباهى بحظي السعيد. مازحني أحد زملائي قائلاً: «تبدین شديدة الحماسة وكأنك حصلتِ على تأشيرة إلى أمريكا». فانفجر الجميع في غرفة الأخبار بالضحك. بالنسبة لي، كان الأسهل أن أتخيل سفرًا إلى القمر على أن تُتاح لي الفرصة للسفر إلى الولايات المتحدة. ورغم أنني لم أؤمن أبداً أن الولايات المتحدة هي أرض الشيطان الأكبر، كما كانت تروج دعاية النظام، فقد كنت أشعر بالرهبة من ذلك المكان.

بيروت. كانت تلك هي المرة الأولى التي شعرتُ فيها بأنني غادرت الجمهورية الإسلامية حقاً واختبرت السفر إلى الخارج. كنت أهدق مندهشةً بجميع النساء؛ لأول مرة في حياتي، أرى نساءً في الأماكن العامة لا يضعن الحجاب، نساءً دون أغطية للرأس، ونساءً غير محجبات تماماً يمشين بحرية — ولا أحد يهاجمهن، أو يضربهن، أو يعتقلهن. ما تزال للآن صدمة اليوم الأول في بيروت عالقة في ذاكرتي. كنت على مشارف الثلاثين من عمري، وكانت تلك أول مرة أشاهد فيها نساءً يمشين، يقدن السيارات، يجرين، ويتسوّقن دون أغطية الرأس. على الكورنيش، وهو ممشى يطلّ على البحر تنتصب على جانبيه أشجار النخيل، كان العديد من سكان بيروت يمشون بخطوات سريعة، نساءً بالحجاب وأخريات بدونه، يتنزهن جميعاً بلا أي مشاكل.

في اليوم الأول في بيروت، لطالما ترقّبت سماعَ صرير الفرامل، إيذاناً بوصول السيارات المحمّلة بشرطة الأخلاق لاعتقال هؤلاء النساء. كنت أبحث عن رجال متجهمين جاهزين لتوبيخ هؤلاء النساء غير المحجبات أو حتى مهاجمتهن. ولكن لم يكن أحدٌ يهتمّ. لم يُبدِ الرجال اللبنانيون أي رد فعل؛ كانوا معتادين على ذلك. كنت الوحيدة التي تحقق فيهنّ. تساءلت في نفسي: كيف لدولة ذات أغلبية مسلمة مثل لبنان ألا تفرض الحجاب الإجباري؟ اعتادت وسائل الإعلام الإيرانية تلقيننا الأخبار عن قوة ونفوذ حزب الله، المجموعة السياسية الشيعية ذات الجناح المسلح، والتي تمولّها الجمهورية الإسلامية. ومع ذلك، لم يبدُ أن الحريات الاجتماعية مقيّدة في لبنان. إلا أنّ المسؤولين في الجمهورية الإسلامية يصرون، حتى اليوم، على أن رفاه المجتمع يستلزم من النساء ارتداء الحجاب. إنما في بيروت، تمتّع النساء بحرية الاختيار؛ بعضهن اخترن الحجاب، وأخريات لم يخترنه. ومع ذلك، لم ينهر نسيج المجتمع اللبناني. لماذا لا تحصل النساء الإيرانيات على نفس حرية الاختيار؟ سألت نفسي مراراً وتكراراً.

في طهران، وفي بعض المناسبات، عندما كان شعري قصيراً، كنت أرتدي لباس الصبيان، وأعتمر قبعة بيسبول مشدودة بإحكام على جبهتي، وأذهب للمشّي على المسارات الجبلية. دائماً ما وُجد عنصر المخاطرة في الأمر، وكان من الممتع التسلل عبر نقاط التفتيش، وأنا محاطة بالأصدقاء. لكن بمجرد أن أصبحت معروفة كصحفية سياسية، توقفت عن المجازفة بهذه الطريقة.

استغرق الأمر مني يوماً أو يومين في بيروت قبل أن أجرؤ على خلع الحجاب. كنت أخشى أن يبلغ عني أحد المسؤولين الإيرانيين وأواجه عقوبةً عند عودتي. ظللت أعبث بالعقدة، لأقرر ما إذا كنت سأخلع الحجاب أم لا. حتى أنني تمنيت أن تهب ريح قوية وتُطير الحجاب بعيداً، لترُيحي من عبء القرار. أدركتُ أنه من خلال طريقة لبسي فحسب، بمعطف المانتو والحجاب، عرف الجميع أنني من إيران. كنت أرغب في الاندماج

وعدم لفت الانتباه، لكنني كنت أتعذب من الشعور بالذنب، وكأنني إذا خلعت الحجاب سأخذل عائلتي. تلفت خلفي باستمرار أثناء تجولي في المدينة، لخوفي من وجود عملاء سريين يراقبون كل تحركاتي. كان ذلك سخيلاً، لكنني شعرت أيضاً بإحساس كبير بالمسؤولية. في النهاية، أنا كاتبة عمود في *اعتماد ملي*، الصحيفة الرئيسية التي يصدرها مرشح رئاسي سابق. ولم أكن أريد أن أخيب ظن الصحيفة، ولا أن أفقد وظيفتي.

لم يكن أمراً سهلاً ألاّ أشعر بالتأثر بما كنت أشهده. فقد عقدت صداقة مع إيرانية تنزل في نفس الفندق. عرفت أنها إيرانية من طريقة ارتدائها الحجاب طوال الوقت. كنا نناقش أمر خلع حجابنا. وكانت كل واحدة منا كانت تدفع الأخرى للمبادرة بالخطوة الأولى. وأخيراً، بعد ليلتين من التردد، اتخذنا قراراً مصيرياً: سنخلع حجابنا في الأماكن العامة في اليوم التالي. شعرنا بالجرأة والتحدي.

جلست على سريرتي، وقلتُ لها: «يجب أن يظل هذا سرّاً لبقية حياتنا». بعد أن ارتديت الحجاب في الأماكن العامة لمدة تقارب الثلاثة والعشرين عاماً، شعرتُ بحماسةٍ أشبه بالحمى بمجرد التفكير في التجول في المدينة بشعر مكشوف.

«أنا أستطيع الاحتفاظ بالسِر. إنما أشعر بالقلق تجاهكِ أنتِ، فأنتِ الصحفية».

قالت صديقتي الجديدة، باراستو: «وتكتبين عن كل ما يحدث».

رفعتُ يدي كأنني أقسم يميناً مقدساً، في حين واصلت الضحك. «أعدكِ. حتى لو حدث بيننا خلاف أو شجار، يجب ألا نخبر أحداً».

تبادلنا أيماناً مغلظةً للحفاظ على سر ما فعلناه. تمنيت لو كان بإمكانني القول إن ما حدث في بيروت بقي في بيروت.

طوال حياتي، كنتُ ألقنُ أن فضيلتي، وعفتي، وقيمتي كلها مرتبطة بحجابي. كنتُ

مغسولة الدماغ للاعتقاد بأن قطعة قماش تغطي رأسي ستحميني من رغبات الرجال الشهوانية. وأنني شخصٌ بلا أخلاق إذا خرجت للأماكن العامة بدون حجاب.

في صباح اليوم التالي، كان قلبي يخفق بسرعة ونحن نغادر الفندق كالمعتاد، بروؤوسنا مغطاة. بعد تجاوزنا بنايةً أو اثنتين، توقفنا ونظرنا إلى بعضنا. ودون أن ننبس بكلمة، انتزعنا غطاءي رأسينا. كان فمي جافاً. حبستُ أنفاسي، في انتظار سماع صفارات الشرطة والتحذيرات الصارمة لشرطة الأخلاق.

إنما لم يحدث شيء. لم تهدر صفارات الإنذار. ولم يتسابق رجال الشرطة لإلقاء القبض علينا. مر بجانبنا المارة دون أن يُعيرونا أي اهتمام. نظرتُ إلى باراستو — كان على وجهها نفس التعبير المتحمس والمتوتر الذي كنت متأكدة مطبوع على وجهي. ضحكنا وتعانقنا، مرتاحتين لأنه لم يُقبض علينا.

كان شعوراً مذهلاً أن أشعر بالرياح تلامس شعري خلال سيري في أنحاء المدينة، مثل معظم النساء اللواتي رأيناهن ذلك اليوم. كنت ألس شعري ورأسي باستمرار لأتأكد أنني بلا حجاب. كان لدي عدد من الاجتماعات والمقابلات في ذلك اليوم، وعندما كنت ألتقي بمسؤولين من حزب الله، كنت أرتدي حجابي مرة أخرى خوفاً من أن يبلغوا عني السفارة الإيرانية ويتسببوا لي بالمشاكل. عدا ذلك، لم أضع الحجاب.

في تلك الليلة، ونحن في حالة من النشوة بسبب يومنا من الحرية، قررتُ وباراستو أن نغامر أكثر ونستكشف أحد الملاهي الليلية. كنا قد سمعنا عنها فقط، ولم تكن لدينا أي فكرة عما نتوقعه. كان الأمر يتطلب قسماً آخر من السرية.

قلتُ: «علينا فعل ذلك، لأغراض البحث بالطبع».

ردت باراستو ضاحكة: «لن تكتمل رحلتنا دون استكشاف كامل لما في بيروت».

قلتُ: «إذا ذهبنا، يجب أن نقسم قسمًا بعدم الإفصاح عن أي شيء عن زيارتنا للملهى لأي شخص، حتى لو تشاجرنا أو تباعدنا».

أومأت بارتستو بالموافقة. «فليحرقنا الجحيم إذا أفشيننا هذا السر».

لفرط حماستنا، انفجرنا بالضحك. اتصلنا بمعارف كانوا قد انتقلوا إلى بيروت، وتوصلنا إليهم أن يأخذونا إلى ملهى ليلي. ومرة أخرى، أدهشني مدى حرية النساء في ارتداء ما يرغبن به دون أن يتعرضن للمضايقة، أو الهجوم، أو حتى النظرات الوقحة. كنا أشبه بعلماء اجتماع، نراقب كل شيء ونسجل الملاحظات في أذهاننا.

تلك الليلة، تغلبت عليّ أعصابي، فارتديت ملابس محافظة قدر الإمكان، وجهزت كذبةً للتغطية على زيارتي، تحسباً لأن يتم التعرف عليّ. حتى في بيروت، كنت أشعر بالقلق الدائم من أنني تحت المراقبة. ارتديت بنطال جينز وفستاناً أخضر بأكمام طويلة، ولففت حول عنقي وشاحاً طويلاً يمكن أن يُستخدم بسهولة كحجاب إذا لزم الأمر. كما أخذت حقيبتني وحملت مفكرةً وقلمًا. وإذا سألني أحد، فأنا صحفية! وأجمع مواد لكتابة تقرير.

كان النادي ينبض بإيقاع الموسيقى الصاخبة التي كانت تهز الجدران. كان الأمر مربعاً. لم أسمع موسيقى بهذه الصخب من قبل. كانت الغرفة مظلمة، باستثناء الأضواء الملونة اللامعة وأضواء الستروب الومّاض التي جعلت رأسي يدور. كان الرجال والنساء يرقصون على هذه الموسيقى الصاخبة تحت هذه الأضواء. فكرت في نفسي أن هؤلاء الناس لا بدّ مجانيين.

كان البار يقدم المشروبات الكحولية، وصُدمت من كون ذلك أمراً عادياً هنا. عندما كنت متزوجة، جربت عرق السقي، وهو نوع من الفودكا المنزلية المصنوعة من الزبيب. كرهت طعمه اللاذع والمر، ولم أقترّب من الكحول بعدها. من حولي، كان الشباب والشابات

يتحدثون ويضحكون ويرقصون معاً، وهي أفعال محظورة في إيران. الصورة التي زُرعت في ذهني — أن الجنس ينتشر بشكل جامح خارج إيران، وأن مدمني المخدرات والرجال السكارى يتصيدون النساء، وأن النوادي الليلية هي أماكن للخطيئة — كانت تتضح أنها صورة خاطئة.

في إيران، كنا نتلقى تحذيرات دائمة بأن الحجاب هو ما يحمينا من شرور الرجال. وبعد أن سافرتُ إلى الخارج، توقعت أن أرى مظاهر لانتشار للشهوة؛ أردت أن أشهد تصرفات فاحشة لأرويهما للأصدقاء والعائلة عند عودتي إلى الوطن. لكن، حتى الآن، لم يكن ثمة شيء يستحق الحكاية.

تعرفتُ وباراستو على الكثير من الأشخاص تلك الليلة، وبمجرد أن أدركوا أننا إيرانياتان، تباينت ردود الأفعال. عبر الشيعة عن سعادتهم بتقديم إيران الدعم المالي لحزب الله. وأرتنا إحدى النساء قلادة تحتوي على صورة لزعيم حزب الله، حسن نصر الله. نظرتُ إليها بذهول. «كيف يمكنك ارتداء ذلك والذهاب إلى نادٍ ليلي؟ سيكون الأمر أشبه بمشاهدة الباسيجيين أو المؤيدين المتشددین لخاصمني يحضرون حفلات سرية غير قانونية ويشربون الكحول. هذا ببساطة مستحيل». هزرت رأسي غير مصدقة.

كانت انطباعاتي عن لبنان مستمدة من تقارير التلفزيون الإيراني. كنت أقرن لبنان بالألم، والحزن، والمقاومة ضد المعتدين الإسرائيليين؛ لكنهم بدوا أكثر سعادة من المواطن الإيراني العادي بكثير.

لدينا مثل فارسي يقول بمعناه الحرفي: «قبل وجود ثلاثة (من أي شيء)، لن تكون هناك لعبة». وبصياغة أكثر شاعرية، يمكن ترجمته إلى «الثالثة ثابتة» أو «المحاولة الثالثة تجلب الحظ». كنا قد قطعنا بالفعل عهدين بالصمت، ثم جاء الثالث. خلال إقامتي، قدت السيارة عدة مرات بجوار السفارة الأميركية في بيروت، وكان مبنى مثيراً

للرعب ومخيفاً. وفي اليوم قبل الأخير، ومع عدم وجود شيءٍ أفضل لنفعله، أقنعت باراستو بزيارة المكان.

كنت في الثالثة من عمري في العام 1979، عندما احتل الطلاب المتشددون السفارة الأميركية في طهران. واليوم، تغطي الجدران رسوماتٌ وشعارات معادية لأميركا. كنت قد شاهدت أفلاماً وثائقية عن عملية الاستيلاء: حشود تحيط بالمجمع، الذي وصفه الثوريون بأنه «وكر الجواسيس»، وهتفوا «الموت لأميركا»، ووصفوا الولايات المتحدة بأنها الشيطان الأكبر، بينما كان الدبلوماسيون معصوبو الأعين يُعرضون على شاشات التلفزيون — صور شاهدها العالم بأسره. ولقد رسّخت أزمة الرهائنُ العداء بين الجمهورية الإسلامية والولايات المتحدة.

لم يسبق لي اللقاء بأي أمريكي، وها هي الفرصة سانحة، فكرت في نفسي. لقد قيل لي إن الأميركيين هم الشيطان الأكبر ويريدون احتلال بلدنا. فقررت أنه بما أنني وباراستو قد كسرنا بالفعل محرّمين — بخلع الحجاب والذهاب إلى ملهى ليلي — فلماذا لا نلتقي بالعدو أيضاً.

في اليوم التالي، توجهنا إلى السفارة الأميركية في بيروت. كنا غارقتين في أفكارنا لدرجة أننا بالكاد تحدثنا أثناء ركوبنا سيارة الأجرة إلى شمال العاصمة. كنت متوترة ومتحفظة بشأن ما قد يحدث. ومن باب الحيلة، حملتُ في حقيبة ظهري نسخة من بعض مقاطعي الفيديو ونسخة مصورة من مقال *فايننشال تايمز* عني. كان ذلك المقال أول ما كُتب عني بالإنجليزية وأحد أغلى ممتلكاتي حينها.

عندما أستاذكر ما حصل، أوقن أن زيارتنا تلك كانت شديدة الغرابة، لكننا لفرط سذاجتنا وفضولي الشديد لرؤية الأميركيان، منعانا من إدراك ذلك. مرة أخرى، إذا كانت الولايات المتحدة سيئة إلى هذا الحد، فلماذا يسمح لها حزب الله لها بإدارة وكر

جواسيسها بشكل علني؟ أوصلتنا سيارة الأجرة إلى مبنى بجدران عالية وبوابة معدنية كبيرة بنافذة صغيرة.

وقفنا خارج البوابة نتجادل عما يجب فعله بعد ذلك. لم نكن نرغب في الحصول على تأشيرة، ولم أتمكن حتى من مقابلة أو إجراء مقابلة مع أي من الدبلوماسيين، كالقنصل أو السفير، لأن أي تواصل مع المسؤولين الأميركيين كان محظوراً تماماً على الصحفيين الإيرانيين.

«لماذا دفعتِ لسائق سيارة الأجرة؟ ليس لدينا وسيلة للعودة»، قالت باراستو وقد أصابتها رهبة.

مازحتها بقولي: «يمكننا طلب سيارة أجرة من داخل السفارة»، لكنها لم تكن في مزاج للضحك. «لقد فات أوان التراجع الآن».

فقلت: «إذا تسرب الخبر، سنخضع لاستجوابٍ لعدة أيام. وسنفقد وظائفنا، ويُزجّ بنا في سجن /يفين».

مددت يدي وقرعت الجرس. بعد أن وصلنا إلى هذه المرحلة، لم يكن هناك معنى للعودة خاليتي الوفاض.

قلتُ بحزم: «لا أجيد التحدث بالأميركية، لذا قفي أمامي إذا فتح أحدهم الباب».

بعد بضع دقائق، فتح جندي مارينز الباب.

وبلكنة فارسية ثقيلة، قالت باراستو بالإنجليزية: «مرحباً، نحن إيرانيتان، وأردنا أن نرى كيف تبدو السفارة الأميركية. لا توجد لدينا سفارة في إيران».

ابتسمتُ للجندي ابتسامتي الأكثر جاذبية وأظهرت له المقالة من *فاينانشال تايمز*

عني، مشيرةً إلى الصورة المرافقة وأشير لنفسي بفخر. نظر إلينا الجندي، وقال بضع كلمات، ثم أغلق الباب.

قالت باراستو وهي تهز كتفها: «إنه يريدنا أن ننتظر». كانت تتعلم الإنجليزية استعداداً للتقديم في جامعة أميركية. «وسيحضر شخصاً ليأخذنا في جولة».

لم يكن للأمر أي معنى. لماذا يأخذنا الأميركيون جولة في سفارتهم؟ تساءلت في نفسي.

بعد حوالي ست أو سبع دقائق، فتح الباب مجدداً، وخرج شابان يرتديان بدلات وربطات عنق. كانت الابتسامة العريضة تعلو وجهيهما، وبديا ودودين للغاية.

قالت باراستو: «إنهما يسألان إن كنا بحاجة إلى أي مساعدة. ماذا أقول الآن؟»

أظهرت مرة أخرى مقالة *فاينانشال تايمز* ومددت بطاقتي الصحفية الإيرانية.

«قولي لهما إننا صحفيتان مشهورتان، ونشعر بالفضول لرؤية السفارة الأميركية لأنه لا توجد سفارة في بلدنا».

أخذ أحدهما بطاقتي الصحفية والمقالة.

«وأضيفي أيضاً أننا فضوليتان فحسب، وإذا لم نتمكن من رؤية الداخل، فلا بأس».

قال أحد الرجلين ضاحكاً: «أنتما فعلاً إيرانيتين». سارعت باراستو إلى ترجمة ما قاله.

عاد الاثنان إلى الداخل، وتركنا مرة أخرى تحت شمس الظهيرة.

قلت لباراستو: «أرجو أن يعيدوا لي بطاقتي الهوية والمقال الصحفي — فهذه هي

النسخة الوحيدة التي لدي. كما لا يمكنني تفسير كيف فقدت بطاقتي».

فُتح الباب مرة أخرى ودعونا للدخول. عرض الرجلان علينا بعض المكاتب علينا، ثم قادانا إلى قاعة اجتماعات حيث قدما لنا الشاي والمشروبات الباردة وبعض الوجبات الخفيفة.

بعد دقائق قليلة، أدركا أننا مجرد فتاتين بريئتين في أول رحلة لهما خارج البلاد. أخبرناهما كم كان مخيفاً بالنسبة لنا مقابلة أميركيين، وهو ما جعلهما يضحكان.

قدما لنا بعض الكتيبات السياحية عن الولايات المتحدة.

سأل أحد الرجلين: «هل أنتما متأكدتان أنكما لا تريدان إجراء مقابلة معنا؟»

صرخت باراستو: «لا! سينتهي بنا الأمر في السجن».

خلال إجالتي النظر في غرفة الاجتماعات للمرة الأخيرة، خطرت لي فكرة أخرى. قلت لباراستو: «تخيلي لو كان هذا المبنى في إيران. ستكون كل الجدران مغطاة بعبارات مثل "الموت لأمريكا"».

أجابت: «لن أترجم ذلك. هل تراودك دائماً هذه الأفكار المجنونة؟»

في الخارج، مشينا بهدوء بعيداً عن السفارة بطريقة وقورة لمسافة معينة، تحسباً لأن يكون هناك من يراقبنا. ثم رحنا نجري —نصرخ بفرح وكأننا أطفال صغار. «لقد قابلنا أميركيين للتو».

في تلك الليلة، وهي آخر ليلة لنا في بيروت، اصطحبنا لتناول العشاء صديقي محمد جواد أكبرين، رجل دين منشق. أخبرناه عن مغامرتنا في السفارة الأميركية.

قال بإلحاح: «لا نتحدثا عن هذا أبداً. ستُعاملان معاملة الجواسيس. أعيش هنا منذ ثلاث سنوات، ولم أجرؤ حتى على الاقتراب من ذلك المبنى».

قطعت وباراستو عهد الصمت الثالث والأخير تلك الليلة.

فتح لي لبنان آفاقاً جديدة لرؤية إمكانيات مختلفة. فهذا بلد مسلم ليس فيه حجاب إلزامي، ويمكن للرجال والنساء فيه أن يختلطوا دون أن يتعرضوا للاعتقال. كانت ثمة علامات على التغيير في إيران، لكننا كنا متأخرين بعقود عن جيراننا. مع كل خطوة للأمام، كنا أحياناً نتراجع خطوتين.

عدت من لبنان متحمسة لتعلم لغة جديدة تمكنني من السفر إلى بلدان أخرى. أخبرت بويان أن لدي خطأ لاخطافه لنعيش في مكان بعيد، حيث لا يمكن لأحد أن يجدنا. في معظم عطلات نهاية الأسبوع، كنت أسرع في الطريق الجبلي المتجه شمالاً لقضاء الوقت معه.

قال بمنطق الأطفال: «لكن جدي سيستطيعان إيجادنا. بل يجب أن يأتيا معنا أيضاً».

تزوج رضا ونسرین. لكنه كان يشعر بالضغينة بسبب نجاحي، وغير راضٍ عن كسفي تفاصيل زواجنا وطلاقنا في كتابي. وعقاباً لي، قلل مرات رؤيتي لبويان من مرة في الأسبوع إلى مرة واحدة في الشهر. كان يؤلمني أن أبعد عن ابني بهذه الطريقة، لكن القانون منح رضا حضانة بويان. بكيت عندما اتصل بي رضا ليخبرني بقراره، لكنه لم يغيّر رأيه. كان من الصعب على بويان أن يفهم لماذا لا أستطيع أن أقضي الكثير من الوقت معه.

أما علاقاتي العاطفية، فلم تنجح هي الأخرى. خطبتُ مرة، لكنني انفصلت عن خطيبي بعد أن خانني. بعد ذلك، ركزت على عملي — كتبت في عدد من الصحف

والمجلات، بالإضافة إلى اعتماد ملي، وفي أوقات فراغي كتبت كتابي الثالث، أنا حرة. هذه المرة، رفضت وزارة الإرشاد إصدار التصريح اللازم للنشر. كان كتابي الثاني قد حاز على استحسان النقاد، لكنه اعتُبر سياسياً أكثر من اللازم. لم يكن رضا الوحيد الذي لم يعجبه الكتاب؛ إذ كرهه معظم نواب البرلمان أيضاً.

مع تقليص فرص رؤيتي لبويان إلى مرة واحدة في الشهر، قررت أن أتمثل دور الأم المرحلة! اعتنى جدّاه به في معظم الوقت، لذا لم يكن من داعٍ للقلق بشأن حياته اليومية أو عرضي مساعدته في واجباته المدرسية. فحاولت إقناع نفسي بأن هذا الوضع أفضل له. قد لا أكون مع بويان طوال الوقت، لكن عندما أكون معه، أتفرّغ له تماماً. صممتُ على جعل كل لقاءٍ لي به مناسبةً لا تُنسى. وعندما أصل لأخذه، أكون مستعدة لجميع أنواع المغامرات: نذهب للتنزه في غابات بابل، نتسلق الجبال القريبة، ونغني في ظلّ الأشجار.

في أواخر العام 2007، وقبل أن يُتمّ بويان عامه الحادي عشر، غادرت في زيارة قصيرة إلى بريطانيا، ووعده بإحضار أحدث الأجهزة الإلكترونية التي لا يستعملها سوى أطفال الإنجليز. ظننتُ أنه بإمكانني تعلم اللغة الإنجليزية خلال أسابيع قليلة. أما السبب الآخر للرحلة، فكان حاجتي إلى العثور على ناشر خارج إيران لطباعة كتابي، الذي كنت أنوي شحنه إلى إيران وبيعه بشكل سري. بدون تصريح من إرشاد، مثل قبول دور النشر الإيرانية الكتاب مجازفةً غير مرغوبة. كان الطقس في لندن بارداً، وماطراً، وعاصفاً. لم يكن أهل لندن ودودين، وقضيت معظم وقتي مع غيري من الإيرانيين في المدينة، مما لم يساعدني في تعلم اللغة. عثرت على ناشر قبل أن يطبع كتابي مقابل رسوم بسيطة. أرسلت بعض الصناديق إلى إيران، آملّة ألا تتعرض للمصادرة. بعد فترة وجيزة، عدت إلى طهران.

لم أتعلم أي شيء يُذكر من اللغة الإنجليزية خلال تلك الإقامة القصيرة، لكنني خرجت

بفكرة لكتاب جديد.

عزمتُ أن يكون الكتاب حول نحن مقابل هم؛ عن الفرق بين حياة قادتنا وحياة الناس العاديين. وأن يضم الكتاب سلسلة من المقابلات مع مسؤولين حاليين وسابقين عن كيفية حياة القسم الآخر. أعددتُ سلسلة من الأسئلة، تتناول مواضيع تتراوح بين الحجاب، والموسيقا، ودور المرأة. اخترت رؤساء سابقين مثل رفسنجاني وخاتمي، والرئيس الحالي أحمدي نجاد، وحداد عادل، وكروبي، ورئيس البرلمان علي لاريجاني (المرشح الرئاسي السابق)، ورئيس الوزراء الإيراني الأسبق مير حسين موسوي، الذي وصف نفسه بأنه «الإصلاحي الأكثر التزاماً بالمبدأ».

بعثت برسائل إلى هؤلاء السبعة وأملت في الحصول على رد إيجابي.

كان الحصول على ردٍّ من كروبي أسهل الأمور، كوني أعمل لديه. أوقفت سيارتي أمام مقره السياسي في وسط طهران. كان كل ما في مكاتبه يوحي بأنه من الريف. إذ وُجدت مجموعة عشوائية من الأثاث في صالة الانتظار؛ مزهريات، وسجاد، ومشغولات يدوية أخرى من مسقط رأسه لورستان موزعة بشكل عشوائي في أنحاء الغرفة؛ يرتدي موظفوه ملابس غير رسمية، بقمصانهم خارج سراويلهم. ويتجول الرجال بالنعال أو بالجوارب فقط. طُلب مني أيضاً خلع حذائي، واكتشفت مجدداً أنني أرتدي جوارب غير متطابقة. هذه مشكلة دائمة لديّ —إذا تذكرت ارتداء الجوارب أصلاً، فإنها إما تحتوي على ثقوب كبيرة أو تكون غير متطابقة.

قادوني والمصورة الصحفية إلى مكتب كروبي الخاص، حيث كانت كل سطحٍ مستوٍ تقريباً مغطى بأوراق —صحف، ومقالات موقف، وملصقات حملات، وجداول من جميع الأنواع. كان كروبي، الذي نُحِّي إلى هامش السياسة منذ فوز أحمدي نجاد قبل عامين، يخطط بالفعل لخوض سباق رئاسي آخر في العام 2009 .

في وسط الغرفة، كان كروبي على كرسي بذراعين وقد جلس متربّعاً. قال مازحاً: «هيا، دعينا نرى ما نوع المشاكل التي تخططين لها هذه المرة».

بدأت بسؤال بسيط عن الحجاب. كانت فرنسا قد أقرت في العام 2004 قانوناً يحظر ارتداء الحجاب في المدارس. وظلت القضية محلّ نقاشٍ محتدم، إذ خشي العديد من القادة الإسلاميين من أن تفرض أوروبا المزيد من القوانين التي تقيد ما يمكن للمسلمين ارتداؤه.

سألتها: «تخيل أنك تسافر مع زوجتك، وعند وصولكما تُجبر زوجتك على خلع حجابها. ما هو رد فعلك؟»

قال: «سيمثّل الأمر إهانة كبيرة، لأن الحجاب جزء من الثقافة الإسلامية». كان يتحدث ببطءٍ وروية، مكرراً نفسه ومبالغاً في الشرح. أعطيته المجال ليقول كل ما يريد. وأخيراً توقف ليلتقط أنفاسه. «يحرم القانون الفرنسي زوجتي من حقها في اختيار الحجاب. وليس زوجتي فحسب — بل جميع النساء المسلمات في فرنسا يُحرمن من هذا الحق الأساسي، حق الاختيار».

قلتُ بامتعاضٍ مصطنع: «حقاً؟ وعندما يصل الرئيس الفرنسي وزوجته إلى طهران، لماذا تُجبر زوجته على ارتداء الحجاب؟ لماذا يجب عليها أن تضع غطاء الرأس؟ ماذا عن حقها في الاختيار؟»

صرخ كروبي، بين المزح والجدّ: «لقد أوقعتنني في الفخ!» ثم أضاف: «يا لدهائك. تركتيني أتحدث وأتحدث بلا توقف، لكنكِ كنتِ تنتظرين اللحظة المناسبة لإطباق فخكِ. اتركي هذا الأسلوب! سأفقد عقلي إذا أجبتُ على أسئلتكِ». كان يبتسم الآن، مظهرًا تقديره لأسلوبِي.

حاولتُ طرح سؤال آخر: «جميع الإيرانيين تقريباً يستمعون إلى الموسيقى، على الأقل في منازلهم. هل سبق لك أن استمعت إلى أداء مغنية؟»

لم يكن كروبي سعيداً بالمسار التي تسير بها الأسئلة. ضحك، لكنني شعرت بأنه بدأ يشعر بالندم على موافقته إجراء المقابلة.

فقلتُ: «إليك سؤالاً سهلاً. كل الثورات تأكل أبناءها. فمن تكون أنت؟ من الذين يُؤكلون أم يأكلون؟»

فانفجر كروبي بغضب جدّي: «من يجرؤ على أكلي؟ لا أحد. لن آكل أحداً، ولن أسمح لأحد بأن يأكلني». سكت مفكراً للحظة. فقد سُجن عدة مرات في عهد الشاه خلال السبعينيات، وشغل عدداً من المناصب الرئيسية بعد الثورة الإسلامية. «في كل ثورة، يتم التخلص من بعض الأشخاص».

كان خاتمي التالي. استقرّ آنذاك في المعهد الدولي للحوار بين الثقافات والحضارات، وهو منظمة مكرسة لمشروعه المفضل في السياسة الخارجية، ويدعو إلى تعزيز الحوار بين الحضارات، كما يوحي الاسم. دفع الرئيس السابق نحو تعزيز التواصل بين القادة الإسلاميين والغربيين منذ العام 2001، على أمل تحسين العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران. ولكن لم تثمر جهوده عن الكثير سوى بعض الأوراق الأكاديمية.

حتى بعد انتهاء فترة رئاسته، كان خاتمي ما يزال يتسبب بالمشاكل. ففي مايو 2007، وجد نفسه في مأزق بعدما صافح على الأقل امرأتين خلال زيارة إلى مدينة أوديني الإيطالية للمشاركة في ندوة عن الحوار بين الثقافات. كان خاتمي يعتبر نفسه فيلسوفاً أكثر من كونه سياسياً، لكن المحافظين لم يتوقفوا عن مضايقته بسبب المصافحات، والتي ظهرت إحداها على الشاشة. أنكر خاتمي الحادثة وادّعى أن الفيديو

تعرّض للتلاعب من قبل وكالة الاستخبارات المركزية. بالطبع، كانت تلك كذبة، لكن خاتمي لم يستطع الاعتراف بمصافحة امرأة؛ فهذا مخالف لقوانين الجمهورية الإسلامية.

كانت مكاتب خاتمي المرتبة والأنيقة، في منطقة فاخرة شمال طهران، على النقيض تماماً من الفوضى العارمة في مكاتب كروبي. كان جميع موظفيه يرتدون بدلات أنيقة، أو عباءات صوفية فاخرة إذا كانوا رجال دين. وكان الجميع ينتعل الأحذية في المكاتب، حيث اكتست الأرضيات بالسجاد الفارسي اليدوي. واحتلت طاولة قهوة إيطالية الحيز الأكبر في غرفة الانتظار.

عندما دُعيتُ والمصورة للدخول، قررت أن أمزح مع الرئيس السابق.

«بونجورنو»، قلتُ بصوت عالٍ، ومددت يدي إليه. أردت أن أوضح له أنني لا أصدق إنكاره بشأن المصافحة.

تجمدت ابتسامة خاتمي على وجهه، وبأدبٍ متحفّظ دعاني للجلوس على أريكة أمام طاولة قهوة أنيقة. بالطبع، لم يصافحني. بدأت مقابلي بطرحي سؤالاً عن فرض الحجاب على زوجات الزعماء الأجانب الزائرين لإيران.

ومثل كروبي، راح خاتمي يلقي محاضرة عن القيم الإسلامية وكيف يجب على الغرب احترام الحجاب كحق للنساء المسلمات اللواتي يخترنه. وأخيراً ختم حديثه بالقول إن الفرنسيين ليس لهم الحق في حظر الحجاب.

«ماذا لو جاء الرئيس الفرنسي وزوجته إلى إيران؟ لماذا تُجبرونها على ارتداء الحجاب رغم أنه، كامرأة مسيحية، ليس مفروضاً عليها الحجاب؟»

تململ خاتمي وهو يعبث بسُبحته. بدا جلياً ندمه على السماح بإجراء المقابلة، واختار

أن يدافع عن خصوصية إيران. فقال: «لدينا قوانين تنص على أن جميع النساء يجب أن يغطين رؤوسهن ويرتدين ملابس محتشمة. هذا هو القانون. نحن بلد إسلامي، بينما فرنسا بلد علماني ولا توجد فيها مثل هذه القوانين».

كان حجته أن الدول الغربية عليها احترام القوانين والعادات الإسلامية، لكننا لسنا ملزمين باحترام قوانينها وعاداتها. وبما أن الدول الغربية دول علمانية، فهي غير مقيدة بالفتاوى الدينية، لكن إيران ملزمة باتباع قوانينها المستندة إلى الدين.

طرح السؤال التالي. يستمع الإيرانيون العاديون إلى الموسيقى الشعبية، خاصة تلك التي تغنيها نجومات مثل غوغوش وهايده. كل ما عليك فعله هو ركوب سيارة أجرة في أي مدينة إيرانية كبرى لتسمع ذلك. هل استمع الرئيس يوماً إلى مغنية؟

«لا، إنما سمعت نساء يتلون القرآن الكريم».

رفعت حاجبي مندهشة. كرجل مثقف، لا بد أنه استمع إلى الموسيقى. قلت: «تُعتبر هاتان المرأتان رموزاً ثقافية. إنهما جزء من نسيج مجتمعتنا، وتقول إنك لم تسمع أيًا من أغانيهن؟»

ردّ، وهو يهز كتفيه: «لم تتح لي الفرصة أبداً لسماع امرأة تغني».

قلت مبتسمة: «صوتي جميل. سأغني لك».

وقبل أن يفهم خاتمي ما يحدث، رحّت أغني إحدى الأغاني الشهيرة للمغنية هايده. بدت على وجه خاتمي علامات الذعر، وأخذ يعبث بسبحته بعصبية. ونسي تماماً أمر المصورة التي وضعت كاميرتها على الطاولة بيننا.

بعد غنائي قليلاً، راح يصفق بعصبية ليَجبرني على التوقف. كان ذلك مشهداً

كوميدياً للغاية. رئيس سابق لإيران يحاول بقلق إسكات غنائي.

قال: «أنت موهوبة، لكن... يجب أن تركزي على الكتابة». انحنى نحوي، وقبض بيديه بقوة على الطاولة بيننا، وقال: «لا تخبري أحداً عما حصل هنا».

كان هدفي التالي هو رفسنجاني، الذي كان يترأس مجلس تشخيص مصلحة النظام، وهو هيئة غير منتخبة يعينها المرشد الأعلى للفصل في النزاعات بين مجلس الشورى ومجلس صيانة الدستور. كان للمجلس دور استشاري، ولكنه بلا سلطة حقيقية. وللمفارقة، كان مقره في أحد قصور الشاه، وهو موقع يناسب رفسنجاني، أحد أقوى الرجال في الجمهورية الإسلامية. بعد أسابيع من الانتظار، تلقيت إشعاراً بوقت الزيارة قبل ثلاثين دقيقة فحسب. مع حركة المرور في طهران، لم تكن هناك أي طريقة للوصول بالسيارة إلى كاخي مرمر، أو قصر المرمر، حيث كان مقر مجلس تشخيص مصلحة النظام.

مشيتُ إلى تقاطع بالقرب من منزلي. كانت السيارات وسيارات الأجرة تسير بسرعة، لكن نظري كان متوجهاً إلى شيء آخر. رفعت يدي وأوقفت دراجة نارية مارة. عادةً، يجب أن تجد سائق دراجة موثقاً لتكون بمثابة سيارة أجرة، لكن لم يكن لدي وقت.

«إلى أين يا أختي؟» كان السائق شاباً يرتدي سترة جلدية سوداء وبنطال جينز.

«مجلس تشخيص مصلحة النظام. أنا مستعجلة».

نظر إلي ليتأكد مما إذا كنت أمزح. وعندما رأى تعابير وجهي الجادة، أوماً برأسه. «حقاً؟ يا إلهي».

تمسكت به بقوة بينما كنّا نشقّ طريقنا عبر حركة السير. كانت هذه أول تجربة لي مع تاكسي الدراجة النارية، وندمت فوراً على قراري. كان السائق يسرّع محرك الدراجة، ثم يفرمل فجأة أثناء الانحراف بين السيارات. أغلقت عينيّ حتى لا أرى موتنا الوشيك.

أخيراً، أبطأ الشاب سرعته وانعطف بشدة إلى شارع ضيق مغلق ببوابة معدنية. أبدى عدد من الحراس المسلحين اهتماماً بنا بينما نزلت بحذر عن الدراجة. انطلق السائق مسرعاً دون أن يطلب أي مقابل. اقترب مني أحد الجنود وعلى وجهه نظرة ساخرة.

«أنا هنا لمقابلة آية الله رفسنجاني»، قلتُ بنبرة حاولتُ أن تبدو حازمةً بعد تلك الرحلة المليئة بالتوتر.

تم اصطحابي إلى مكتب خارجي ما زال يحتفظ بشيء من فخامة عصر الشاه، على الرغم من أن قصر المرمر لم يعد يحظى بالتقدير.

أخذ أحد المساعدين دفتر ملاحظاتي وقلمي والمسجلة. قال لي: «يتم تسجيل جميع المحادثات. إذا اعتُبر ذلك ضرورياً، سنزودك بنسخة مكتوبة».

قادني المساعد إلى غرفة داخلية واسعة مفروشة بسجاد فارسي وفيها كراسٍ من طراز عصر لويس الخامس عشر. كان رفسنجاني يجلس على كرسي كبير ذي ظهر مستقيم، وكأنه عرش. لم يعد يحظى بشعبية بين الشباب، بسبب اتهامات الفساد التي تحيط به وبعائلته ولصلته بشبكة إرهابية مسؤولة عن اغتيال المعارضين. كان حينها في أدنى مستويات شعبيته، لكن لا يمكنك التقليل من شأن رفسنجاني. إذ دائماً ما كان يجد طريقه للعودة.

نهض وخطا خطوة واحدة فقط نحوي، في إشارة رمزية للترحيب، ورفعت كلتا يديّ كنايةً عن الاستسلام. وأملاً في كسب وده، قلت بابتسامة عريضة: «أدخل هنا كجندي

أعزل، بلا مسجلة، ولا قلم، ولا دفتر ملاحظات. كأنني رجل دين بلا عباءة ولا عمامة».

لم يظهر على وجه رفسنجاني أي تعبير. أشار بيده إلى المكان الذي يجب أن أجلس فيه.

بدأت بقولي: «لديّ عدد من الأسئلة».

«اسألني». كلمة واحدة، إلى صُلب الموضوع، بلا مقدمات أو مجاملات. لم يكن يضيع الوقت. كان غيره من السياسيين ليستخدم تعبيراً أكثر لباقةً، مثل «تفضلي». استرخى في كرسيه وكأنه يتحدثني بنظراته الباردة اليقظة أن أبدأ بأسئلتني مباشرة.

«كيف يمكنني ذلك دون المسجلة ودفتر الملاحظات؟»

«أنت لم تطلبي مقابلة صحفية. في رسالتك قلت إنك تريدان الاجتماع بقيادة البلاد للاستفادة من حكمتهم».

كان من الواضح أنه قرأ رسالتي وفهم أنها مجرد وسيلة للوصول. وبت أدرك حقيقة كونه «أكبر شاه»، اللقب الذي يُطلق عليه من خلف ظهره.

«كنت متأكداً أنني لو قلت الحقيقة، لما وافقت على المقابلة. الحقيقة هي أنني صحفية».

سارعت بإخباره عن نفسي—مسيرتي في همبستغي وإيلنا، وحالياً في اعتماد ملي.

قال: «لقد قرأت بعض مقالاتك». انتظرت، وقلبي ينبض بسرعة.

«أسلوبك في الكتابة جيد. وتابع أخبار طردك».

وكان هذا كل شيء لديه في قائمة الإطراءات. أكمل من فضلك، فكرت في نفسي وكأنني أستحثه من داخل رأسي. شعرت بالرضا لأن مقالاتي حازت على اهتمامه. لكن هذا كان كل شيء. انتهى من مراجعته للصحافة.

«أكتب كتاباً عن القادة وعامة الناس. لدي سبعة أسئلة لسبعة قادة».

«اسألني». مرة أخرى يرد بكلمة واحدة.

«ما أكبر كذبة كذبتها؟»

«السؤال التالي».

وقعت في حيرة من أمري. كان يحدّق فيّ بدون أيّ تعابير على وجهه. لم يكن أمامي سوى الانتقال إلى السؤال التالي.

«هل قمتَ بشيء يجلب لك العار؟»

«التالي».

انتقلت إلى أسئلتي الأخرى، وفي كل مرة كان رده هو «التالي»، إلى أن وصلت إلى السؤال قبل الأخير.

«أنت في زيارة رسمية إلى فرنسا مع عائلتك، وطلبت الشرطة الفرنسية من زوجتك خلع حجابها. ماذا سيكون شعورك؟»

كنت أتوقع أن يرد باقتضابٍ قائلاً «التالي»، لكنه فاجأني.

«يمكن لزوجتي أن تتدبّر أمورها بنفسها. التالي».

«لكن في الجمهورية الإسلامية تجبرون النساء من دول أخرى على ارتداء الحجاب. فلماذا لا تفعل الدول الأخرى الشيء نفسه معنا؟»

كنتُ أرغب في بدء محادثة، لكنه لم ينظر إليّ مباشرة. إنما راح يتلمّس سُبحته.
«هذه ليست أسئلة يومية عادية. التالي.»

كان موضوع الحجاب الإجباري أحد أعمدة الجمهورية الإسلامية، ولذلك كان حساسًا للغاية.

«هل استمعتَ إلى غناء النساء؟ ملايين الإيرانيين يفعلون ذلك، فماذا عنك؟ هل استمع قائد البلاد إلى صوت امرأة تغني؟»

تململ في كرسيه بعدم ارتياح. ثم نهض وشكرني.

«هذه أسئلة جيدة. يرجى التنسيق مع مكتبي للعودة لإجراء مقابلة مناسبة.»

فُتح الباب ودخل أحد المساعدين ليُرَافقني إلى الخارج.

ثم قال رافسنجاني بابتسامة خفيفة: «إنما انتبهي، فقد طرحَ ثمانية أسئلة، لا سبعة.»

لقد كان هو الشخص الوحيد الذي انتبه إلى حقيقة أنني كنت أطرح ثمانية أسئلة وليس سبعة كما وعدت. ولم تُتَح لي بعد ذلك فرصة أخرى للقاء رافسنجاني.

أما أحمددي نجاد فقد كان في إحدى رحلاته إلى إقليم ناءٍ، يوزع الأموال والهدايا مثل باشا هندي يرمي النقود المعدنية للجماهير الفقيرة. كان يعشق تلك الرحلات، متباهيًا كنجم موسيقي في جولة وطنية. كان يستمتع بخرق قواعد التخطيط المالي، ويعلن أنه لا

يصغي إلى الخبراء الاقتصاديين. وفي الكواليس، كان فريق من البيروقراطيين يبذل ما بوسعه لضمان توازن الحسابات، بطريقة ما .

خلال مشاهدتي أداءه على شاشة التلفزيون، كنت مأخوذةً بالعرض، بالحشود التي اندفعت نحو موكبه، والتصفيق الذي رافق توزيعه العقود والأموال الرخيصة. لقد سئمت من التغطية التلفزيونية لتلك الزيارات. ورأيتة أشبه بمدرّب يلقي الأسماك للفقمات وإلا...

كان عمودي التالي بعنوان «أغنية الدلافين» الأكثر جدلاً على الإطلاق في تاريخ اعتماد ملي. شبّهتُ فيه أحمدِي نجاد بمدرّب الدلافين الذي يستخدم الطعام لتعليمها حيلةً جديدة. في كل مكان يزوره، تعلّمت الحشود الالتفاف حوله وأداء «سيمفونية جوع بأعناق ممدودة ودموع» بينما تنتظر الحصول على الطعام. باستثناء وحيد وهو أن أحمدِي نجاد لم يكن يعلمنا أي حيل جديدة — بل مجرد طرق متنوعة للتسول.

في اليوم التالي، كنت في متجر لشراء شطيرة للغداء قبل التوجه إلى المكتب، عندما سمعت تقريراً إخبارياً من راديو على المنضدة.

قال المذيع: «تُعَدُّ مقالة مسيح علي نجاد إهانةً كبيرة لا بحقّ الرئيس فحسب بل بحقّ الأمة الإيرانية بأكملها».

قلتُ لصاحب المتجر: «إنهم يتحدثون عن مقالتي، لكنني لم أهن أحداً».

بحلول ذلك الوقت، كنتُ قد أصبحتُ أكثر تحملاً للنقد، وتجاهلتُ التقرير باعتباره رد فعل مبالغاً فيه في يوم بلا أخبار مهمة. نجح ذلك حتى وصلتُ إلى مكّتي. بدا الجو في الداخل وكأنني في جنازة. وسيطرت على الجميع حالة من الاكتئاب والحزن.

أخبرني أحد الصحفيين: «نشرت وكالة فارس خمس تقارير بالفعل على موقعها

الإلكتروني». تأسست الوكالة في العام 2003، وكانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحرس الثوري والمتشددين المحافظين. نشرت وكالة فارس مقالات منحازة، ودعمت أجندة مؤيدي أحمدى نجاد. في هذه الحالة، كانت وجهة نظرهم أنني أهنتُ جميع الإيرانيين، وأنه يجب على /اعتماد ملي اتخاذ إجراء بحقي. «إنهم يطالبون بطردك».

وقع كروبي تحت ضغطٍ شديدٍ لاتخاذ موقف. لم يكن كافياً أن أتعرض لوحدي للعقوبة؛ بل أرادوا أيضاً إغلاق الصحيفة. لمنع ذلك، أصدر كروبي بنفسه اعتذاراً علنياً، ونأى بنفسه عني، قائلاً: «بعض الناس لا يعرفون الفرق بين النقد والإهانة». ظهر أحد مساعديه في برنامج إخباري وقال إن العمود كتبته «شابة قليلة الخبرة، ليست حتى موظفة دائمة، بل متعاقدة». وكان من المقرر أن تنهي الصحيفة علاقتها بي.

تملّكني الغضبُ والصدمة، وتساءلتُ: هل طُردتُ حقاً؟ لم أكن أتوقع أن يتخلى عني المحررون بهذه السهولة. كان البرلمان قد طردني، ووجدتُ نافذتي، ولكن بدا أن تلك النافذة راحت تُغلق أيضاً. خشية إغلاق الصحيفة، قال بعض الصحفيين أنني تجاوزتُ الحدود في مقالي. لكن عندما تكون في شك، اهجم، هذا أحد معتقداتي الأساسية. أعلنتُ للصحفيين المجتمعين في غرفة الأخبار: «سأتوجه إلى وكالة فارس». هرعْتُ إلى أسفل الدرج، متحمسة لمواجهة الشخص الذي يقف وراء التقارير السلبية عني.

في طريقي إلى الأسفل، اصطدمتُ بشابة في سنّي تقريباً، كانت في طريقها إلى الأعلى. كانت ناهد سيامدوست، مراسلة مجلة تايم. أخبرتها بنيتي.

سألتني: «هل بإمكانني المجيء؟» كانت تتحقق لا شعورياً من المِئِنَّة للتأكد من أنها ملفوفة بشكل صحيح استعداداً لزيارة وكالة فارس.

«أكيد. لا يمكنني أن أتعرض لمزيد من المتاعب»، قلتُ وأنا أموّه، إذ لم يكن لدي أي

فكرة عما سأفعله. إنما على أيّ حال، فقد يكون وجود مراسلة أخرى مفيداً. خاصةً أنها تعمل لصالح مطبوعة أجنبية.

عند وصولنا إلى وكالة فارس، وقف أمامنا بواب أصلع جزئياً يدخن سيجارة رخيصة. «أريد مقابلة المدير العام. مراسلوكم ينشرون أكاذيب عني. جئتُ لأخبره أنني لم أهن الشعب».

همس في سماعة الهاتف، وعينه تراقبنا وناهد عن كذب. ثم قال مبتسماً بانتصار: «آسف، قالوا إنهم لا يستطيعون مقابلتك».

«لنرَ إن كنت ستتمكن من منعي». هرعْتُ متجاوزة إياه.

صاح خلفي، ولكنه لم يفعل شيئاً لإيقافي. وبعد لحظات، لحقت بي ناهد. دخلنا إلى غرفة الأخبار وتوجهنا إلى مكتب محرر شاب. بالطبع، كان البواب قد اتصل بهم، وبالتالي فقدنا عنصر المفاجأة. طالبتُ بإجراء مقابلة.

قال المحرر الشاب: «لا نجري مقابلات مع الجواسيس».

«سأنتظر»، قلتُ وجلستُ على مكتبه. وبعد فترة، وافق رئيس التحرير على مقابلتي.

«إن وصف شخصٍ ما بالدلفين ليس إهانة»، أصررتُ بعد أقصر تعريفٍ ممكن عن نفسي. «يمكنك أن تناديني دلفين ولن أشعر بالإهانة. الدلافين أكثر ذكاءً من البشر».

نظر إليّ رئيس التحرير باندعاش قائلاً: «هل هذا كل ما لديك لتقوليه؟»

«لن أعذر. أحمدي نجاد هو من عليه أن يعتذر لمعاملته الناس بهذه الطريقة. إذ تجعلنا حيله متسولين أفضل فحسب».

عند عودتي إلى /اعتماد ملي، تلقّيتُ إنذاراً نهائياً: اكتبني عموداً جديداً وقدمي اعتذاراً، أو قد تُغلق الصحيفة. تذكرت كلمات أُمي: «حتى لو طردوك، ابحتي عن طريقة للعودة». كان الباب مغلقاً والنوافذ مُقفلة، ولكن على الأقل، إذا اعتذرت، ربما أتمكن من العودة. كنتُ متأكدة من أنني لم أرتكب أي خطأ، ولكنني اضطررت لابتلاع كبريائي وكتابة عمود اعتذار.

كان كروبي مصرّاً. كما حرمني من الكتابة في زاويتي لمدة أسبوعين كعقاب علني. لكنه أخبرني في السرّ أنه نشر اعتذاراً بهدف إنقاذي، وأن وظيفتي آمنة.

عند منتصف الليل، وبينما كنت جالسة على مكتبي، منهكةً من أحداث اليوم، كان الاعتذار مكتوباً وجاهزاً لعدد الغد. كنتُ ما زلتُ أحتفظ في حقيبتني بالشطيرة التي اشتريتها للغداء، دون أن ألمسها. وبينما كنت أفتح غلاف الشطيرة، رن هاتفي.

على الخط كان علي أكبر جوانفكر، المستشار الإعلامي لأحمدي نجاد.

«لقد أفسدت الأمر»، قال بصوت غاضب عبر الهاتف. «لن يكون هناك مقابلة مع الرئيس».

الفصل السادس عشر

بخلاف كلِّ التوقعات لم يتسبَّب مقالي «أغنية الدلافين» بكارثة لمسيرتي المهنية، بل ذاع صيتي بسببه. انتشر المقال على نطاق واسع وأثار النقاشات، وكأنني كنت أول من يصرِّح بأن الإمبراطور بلا ملابس. وأشاد بي النشطاء والسياسيون الإصلاحيين. كنت أعرف صحفيين تعرَّضوا للتوقيف والاعتقال بسبب مقالاتٍ أقلَّ خطورة مما كتبت، وأعتقد أن شهرتي حمتني من الاعتقال.

لم أنتمِ إلى أي حزب أو تيار سياسي، لكوني أحببت حرية الكتابة بعيداً عن ضغوط أي جهة حزبية. ومع ذلك، كنت أنتقد أحمدى نجاد علناً. وبقدر ما كنت أهاجم الرئيس بسبب سياساته المدمرة، كنت كذلك صارمة مع السياسيين الإصلاحيين، إذ طالبتهم بتقديم وعود حقيقية للتغيير السياسي، وتحسين أوضاع النساء، وتهيئة أجواء تمنحنا حرية الصحافة دون الخوف من إغلاق صحفنا.

إنما كان لاستقلاليتي ثمنٌ كذلك — فقد حذّرني السياسيون الإصلاحيون الذين كنت على صداقة معهم بأنه إذا تعرضت للاعتقال، فلن يكونوا قادرين على حمايتي أو مساعدتي.

لم يسهل عليّ دوماً محاولة التوفيق بين حياتي الفوضوية والحفاظ على تأثيرٍ في حياة بويان. لم يعجبني اقتصار لقائي به على عطلة نهاية الأسبوع مرة واحدة كل شهر. ولم يكن النسيان المتكرر عاملاً في صالحِي. في إحدى الأمسيات، كنت في طريقي إلى قوميكولا لأصطحبه. استقبلني أخي علي عند الباب عندما دخلت بسرعة. سألني بشكل عابر عن الهدية التي أحضرتها لبويان.

فسألته بذهول: «ولماذا أحضر له هدية؟»

فردَّ عليّ ضاحكًا بصوتٍ عالٍ: «إنه عيد ميلاده».

يا إلهي! لقد نسيت عيد ميلاد بويان. لم يكن يهمُّ أننا نُولي القليل من الاهتمام لأعياد الميلاد؛ لكن نظرًا لقصر الوقت الذي أقضيه مع بويان، شعرتُ بغصة شديدة من الذنب.

فقلتُ بقدرٍ مبالغٍ فيه من الانفعال: «يا لي من أم فظيعة! لعنة الله علي!»

«هل تعرفين ما يحب؟ ما يزال بإمكانك شراء شيء له في بابل».

لم يكن لدي أدنى فكرة عما يحبّه. كنت أحفظ عن ظهر قلب أسماء جميع النواب في البرلمان وكل الوزراء المعيّنين وتفصيل الاتصال بهم. لكنني كنت جاهلة تمامًا بما يخص الدمى أو الألعاب التي يحب ابني اللعب بها.

لاحظ أخي الذعر في وجهي، فاقترح عليّ: «اشترى له بلاي ستيشن».

«ما هذا؟» لم أكن قد سمعت عنها من قبل.

«حالتُك ميؤوس منها»، ضحك علي من نظرتي المرتبكة، وأجاب: «إنه جهاز يلعبون به الألعاب. لدى الجميع منه».

كالعادة، لم أكن أحمل ما يكفي من المال، فاقترضتُ من علي وبقيّة أفراد العائلة الذين تجمعوا للاحتفال بعيد ميلاد بويان في منزل آقاجان. هرعت إلى متجر الإلكترونيات الوحيد في بابل لشراء جهاز البلاي ستيشن بينما ذهب علي لإحضار بويان.

مزق بويان غلاف الهدية وانهاه عليّ بالأحضان والقبلات. سرعان ما انهمك في اللعب، ناسيًا وجودنا تمامًا. لم أكرثُ جدًّا لعدم انتباهه لي -فقد كنتُ سعيدةً ما دام

بجواني.

في اليوم التالي، خيَّمت عليّ سحابة سوداء من الحزن بعد أن أخذ علي بويان إلى والده. رفضت البكاء أثناء لحظة الفراق، على الأقل ليس قبل أن تستدير سيارة علي عند الزاوية. حينها تهاويتُ إلى الأرض وبكيت طويلاً.

افتقدتُ بويان كل يوم وكل أسبوع. وددتُ لو كان معي عصا سحرية تغيرِ قوانين الطلاق في إيران وتمنحني حضانته. أردتُ أن أحضره ليعيش معي.

بيد أن البقاء في طهران لم يكن آمناً بالنسبة لي. إذ راحت تسري الشائعات عن اعتقالِي، وكان الأمر مسألة وقت فحسب قبل أن أتعرض للتوقيف بتهمة ملفقة. كان الحل الوحيد هو مغادرة إيران لبضعة أشهر والعودة بعد أن تهدأ الأمور. كنت آمل أن تنساني قوات الأمن إذا تركتُ البلاد. وافق كروبي على ترتيب مهنيٍّ يمكنني من كتابة مقالاتي من لندن خلال محاولتي تعلم اللغة الإنجليزية مرة أخرى. لم يكن يريد أن يكون مسؤولاً عني إذا تم اعتقالِي.

بمجرد أن اتخذت قرارِي، تحركت بسرعة. زرت بويان لوداع مشوّب بالدموع. كان من المزمع ألا أراه لعدة أشهر. ثم حُزمت حقيبة سفرٍ واحدة بسرعة، وسلمت مفاتيح شقتي إلى أخي محسن، وطُرتُ إلى لندن.

لطالما كرهتُ وضع الخطط. مثل الخروج من طهران الجزء السهل من رحلتي، ولكن بمجرد أن هبطت في مطار هيثرو الضخم في لندن، أدركت أنني لا أعرف إلى أين سأذهب أو أين سأدرس. كانت لدي قائمة بأرقام الهواتف، وبدأت الاتصال بها واحدة تلو الأخرى. بعد بضع ساعات، وصلت إلى غرفة سكن محمد رضا جلاي بور وزوجته فاطمة شمس. تعرّفت عليهما في طهران. كان جلاي بور قد حقق المركز الأول في

الكونكور سراسري، وهو الامتحان الوطني لدخول الجامعة في إيران. وكان يحضر لنيل درجة الدكتوراه في علم الاجتماع في كلية لندن للاقتصاد. أما شمس، وهي شاعرة موهوبة، فكانت تعمل كذلك للحصول على درجة الدكتوراه. في الدوائر الإصلاحية، كانا يُعتبران «الثنائي المثالي» —شابين، ذكيين، ومنسجمين. وكان ثمة مستقبل سياسي يلوح في الأفق عند عودتهما إلى إيران.

كانا يعيشان في غرفة بسرير واحد فقط. وانطلاقاً من أدب الضيافة الإيرانية المعتاد، سمحا لي باستخدام السرير وناما على الأرض. في الأيام العشرة التالية، أخذنا على عاتقهما تعريفنا بمعالم لندن، بدءاً من عمود نيلسون في ميدان ترافالغار، وصولاً إلى جواهر التاج في برج لندن. قضينا الوقت في مناقشة الوضع السياسي في إيران، وكأننا ما نزال في طهران لا في قلب أوروبا. كانت فاطمة ترتدي الحجاب في جميع الأوقات خارج المنزل. أما أنا، فكنت أرتدي قبعة سوداء —قبعة صحفي، التي أصبحت طابعي الشخصي خارج إيران لفترة من الزمن. لم أكن مستعدة بعد لخلع حجابي.

في نهاية الأمر، وجدتُ لندن مُرهقة. فقد كانت كبيرة جداً، مترامية الأطراف، وصاخبة للغاية. وبدلاً من ذلك، سجلني صديقا في دورة لغة بمدينة أوكسفورد، التي تبعد حوالي تسعين دقيقة إلى الشمال الغربي، والتي وجدتُها أكثر سهولة للتأقلم. حتى أنهما تمكنا من العثور على غرفة لي في سكن الطلاب.

انصبَّ اهتمام العالم على الانتخابات الأميركية. واجه باراك أوباما هيلاري كلينتون في الانتخابات التمهيدية للحزب الديمقراطي. راقب الإيرانيون هذا الصراع عن كثب — فمن ناحية، كان هناك أوباما الأميركي الأفريقي، السيناتور الهادي من ولاية إلينوي وأستاذ القانون السابق، والذي كان من المحتمل أن يصبح الرجل الأكثر نفوذاً في بلد أغلبيته بيضاء. ومن ناحية أخرى، كان هناك هيلاري كلينتون، السيدة الأولى السابقة

والسيناتور عن ولاية نيويورك، والتي كنت أشجعها شخصيًا.

لا يمكنني أن أتخيل فوز أحدٍ من الأقليات الإيرانية —مثل الكرد، أو الأتراك، أو التركمان، أو البلوش— برئاسة الجمهورية. ومع ذلك، فإن فوز هيلاري كان يمكن أن يُلهم النساء الإيرانيات للمطالبة بمزيد من الحقوق السياسية، نظرًا لأن النساء ممنوعات من الترشح للرئاسة في إيران. في الحالة العادية، لا يُولي الإيرانيون اهتمامًا كبيرًا بالانتخابات الأميركية، لكن المنافسة بين أوباما وكلينتون استحوذت على انتباه الجميع تقريبًا.

في إيران، لا يسمح مجلس صيانة الدستور بترشح شخص علماني، أو امرأة، أو مسلم سني، أو أي شخص من الأقليات الدينية الأخرى لمنصب الرئاسة. وقد قضى الرجال الاثنا عشر الذين يشكلون مجلس صيانة الدستور بأن الدستور يحظر تولي النساء للرئاسة. وكانت تُعين بعض النساء بشكل رمزي في أحد مناصب نواب الرئيس المتعددة، ويُكلفن بشؤون المرأة والأسرة. بالمقارنة مع النظام السياسي الأمريكي، لا تبدو فكرة الجمهورية الإسلامية عن الديمقراطية ديمقراطيةً جدًا.

شجعتُ أوباما في الانتخابات العامة ضد السيناتور الجمهوري جون ماكين. وتجراً أحمدي نجاد على التنبؤ بخسارة أوباما، في عبارته الشهيرة أن أميركا لن تنتخب رجلاً أسود لرئاسة البيت الأبيض، لأن مراكز القوة لن تسمح بذلك. لا بد أنه كان يعتقد أن الولايات المتحدة فيها مرشدٌ أعلى يمكنه إلغاء نتائج الانتخابات. كنت سعيدة للغاية عندما ثبت خطأ أحمدي نجاد. رأيت في نجاح أوباما رمزاً للأمل لجميع شعوب العالم، وليس فقط للأميركيين.

في اليوم التالي لفوز أوباما، قررت أن أكون أول صحفية إيرانية تُجري مقابلة معه. طبعاً كان ذلك ضرباً من الجنون. إذ لو كنت في إيران، لما تجرأت حتى على الحلم بإجراء

مقابلة مع أوباما. كان الاتصال مع المسؤولين الأميركيين محظوراً ما لم يكن ذلك بموجب تصريح رسمي. ومع ذلك، كنت أدرس في لندن، وبدافعٍ من انتصار أوباما، تجرأت على الحلم.

في إحدى الليالي بعد الانتخابات، دعوت سحر، وهي طالبة دكتوراه تُدرّس أيضاً في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية المرموقة بجامعة لندن، دعوتها لمساعدتي في صياغة رسالة إلى البيت الأبيض. وبعد أكواب لا تنتهي من الشاي وعلبة من حلوى غاز، وهو نوع من النوغا الفارسية المغطاة بالدقيق الأبيض، كتبنا المسودة الأولى. كنت أُملي باللغة الفارسية، وكانت سحر تترجم كلماتي إلى الإنجليزية، لأن إتقاني للغة لم يكن مثالياً.

افتتحتُ رسالتي: «عزيزي السيد الرئيس، أنا امرأةٌ مثيرة للمشاكل وصحفية إيرانية سيئة السمعة».

ضحكت سحر بتوترٍ وسألت: «هذه مزحة، أليس كذلك؟»

«أريد جذب انتباهه. لا بد أنه يتلقى مئات الطلبات من وسائل الإعلام».

ومع ذلك، كان لسحر وجهة نظر. واصلنا العمل طوال الليل، ويدانا وأفواهنا مغطاة بالدقيق الأبيض من كثر تناولنا للحلوى. حتى الرسالة نفسها كانت مغطاة بمسحوق أبيض، وضحكنا بشكل هستيري لفكرة أن يظنّها أحدهم نوعاً من السم.

كنت مقتنعة أن أوباما سيُسعد جداً بإجراء مقابلة معي. ولسذاجتي اعتقدت أنه لن يكون مشغولاً للغاية في الأيام التي تسبق توليه المنصب، وأن بإمكانه تخصيص وقت لي في جدول أعماله المزدحم. من السمات الوطنية المشتركة لدى الإيرانيين اعتقادنا أن العالم يدور حولنا، وأن الجميع يفكرون بنا ويتحدثون عنا. لم أشدّ نفسي عن هذا النمط من التفكير.

إنما اعترتني دهشة كبيرة لموقف أصدقائي الذين تعرفت عليهم في أكسفورد؛ فعندما أخبرتهم عن رسالتي لأوباما، اعتقدوا أنني فقدت عقلي.

وسخر فاضل، الفلسطيني، قائلاً إن كتابة الرسائل لم تحقق شيئاً أبداً. وبملامح الجدّ على سيماءه قال: «لماذا لا تطوي رسالتك على شكل طائرة ورقية وتطلقها عبر المحيط الأطلسي؟ ومهما بلغ بك اليأس، أنصحك ألا تتسلقي جدران السفارة. فقد يظنون أنك خاطفة رهائن!» ضحك الجميع، وكنت أضحك بأعلى صوت.

لم أتأثر بالسخرية، وأرسلت الرسالة بعنوان بسيط إلى «الرئيس أوباما» عن طريق السفارة الأمريكية —إنما مع قدر كبير من التردد. وسرعان ما نسيت الأمر، إذ كنت منشغلة بواجباتي في اللغة الإنجليزية ومقالاتي لصحيفة/اعتماد ملي في إيران.

مر ثلاثة أسابيع تقريباً قبل أن أتلقي بريداً إلكترونياً من «مايك دي» في السفارة الأمريكية يؤكد استلام رسالتي. في البداية، ظننت أن البريد الإلكتروني كان مزحة — ربما أرسله أصدقائي — لذلك أرسلت بريداً إلكترونياً رداً عليه، أطلب من مايك دي أن يتصل بهاتفي المحمول للتحقق. اتصل متحدثاً بلكنة أمريكية مثالية، وقال إنه موظف في قسم الشؤون السياسية بالسفارة ويريد مقابلي. شعرت براحة كبيرة لأنه صوته بدا كمسؤول أمريكي، دون أي أثر للكنة بريطانية أو فارسية.

«أردت التأكد من أنك حقيقية»، قال مايك دي. فقد أصابت رسالتي موظفي السفارة بالحيرة، وكان عمله هو التأكد من أنها ليست خدعة.

«أنا حقيقية»، أكدت له. كانت إنجليزيتي سيئة لدرجة أنني جعلته يكرر كلامه عشرات المرات قبل أن أتمكن من فهمه.

قلت: «أفضل المقابلة شخصياً. فقد بدأت للتو تعلم الإنجليزية. هل سأقابل أوباما؟»

«نريدك أن تحظي بالفرصة»، قال مايك دي بعفوية. «طلبك قيد الدراسة الجادة». مرة أخرى، اضطررت إلى أن أطلب منه أن يكرر ما يقول، هذه المرة ثلاث أو أربع مرات، قبل أن أفهمه.

ثم فاجأني بقوله: «لا تقلقي»، بالفارسية.

«تتكم فارسي؟» سألته بدهشة. لم أتوقع أبدًا أن أقابل أمريكيًا يمكنه التحدث بالفارسية.

قال: «قليلاً»، ثم عاد للكلام بالإنجليزية.

بمجرد أن أنهى المكالمة، اتصلت بسحر وصرخت: «الأمريكيون يريدون مقابلي!»

مبنى السفارة الأمريكية، الممتد على كامل مربع في غروسفينور سكوير، هو بناء مهيب مكوّن من ستة طوابق فوق الأرض وثلاثة تحتها، ويتوسط أحد أكثر مناطق التسوق ازدهارًا في لندن. على السطح، يقف نسر برونزي ضخم يراقب المكان. يعبر كل شيء في ذلك المبنى عن القوة والعظمة الأمريكية. ارتديت ملابس محافظة ووضعت قبعتي لتغطية شعري. كنت أشعر بارتباك شديد مع اقترابي من المدخل، وأنا أقاوم الرغبة في الاستدارة والعودة إلى أوكسفورد. كنت أخوض مغامرة مجهولة تمامًا بطلب مقابلة دون أي دعم من محرريّ طهران.

جاء مايك دي ليصطحبني شخصيًا إلى الداخل. كان طويل القامة، بشعر أسود كثيف ومجعد، وفكّ مربع، وعزم قوي في المصافحة. عندما مد يده، صافحته تلقائيًا، لكن هذا التصرف البسيط المحرم في إيران بدا محرّجًا لي.

«يرغب رئيسي في العمل مقابلتك»، قال وهو يمشي بجانبني ونحن نصعد الدرج.

«لم تكن مقابلة رئيسك في العمل جزءاً من اتفاقنا»، قلت وقد تملّكني الذعر فجأة.

فأجابني ضاحكاً: «لا نستقبل الكثير من الصحفيين الإيرانيين الراغبين في إجراء مقابلة مع الرئيس الأمريكي. ظننا أن رسالتك كانت مزحة، وضحكنا عليها كثيراً. الآن يجب أن آخذك لمقابلة مسؤولي».

تساءلت في نفسي بسذاجة عما إذا كان يعرف أن الرسالة كانت نتاجاً لمزيج من الشاي والنوغا والسكر.

من مكتبه، التقط كومة من الأوراق من مكتبه وقادني عبر ممر. لمحت ما كان يحمله، وشعرت بخيبة أمل. فوق نسخ مطبوعة من مقالات صحفية عني، كانت هناك مقالة فاينانشال تايمز عن طردي من مجلس الشورى الإسلامي. للحظة، عادت بي الذاكرة إلى أكوام الأوراق لدى مرتضوي، «الأدلة» على سلوكي الفاسد. تذكرت كيف كان المدعي العام يدخل جلسات الاستجواب وهو يحمل أكواماً جديدة من «الأدلة» على جرمي.

«ما هذا؟» قلت وأنا أمسك بذراع مايك دي.

«هذا هو بحثنا عنك. إنه مهمتي للتأكد أنك حقيقية».

شعرتُ بالارتباك. بحث؟ قد يبدو هذا سخيلاً، ولكن مفرداتي الإنجليزية كانت محدودة إلى حد ما، وفهمت أن المقصود هو استجوابي. توقفت في مكاني. وعندما أدرك مايك دي أن هناك سوء فهم، حاول تهدئتي مستخدماً الكلمات الفارسية التي تعلمها وبعض الكلمات الإنجليزية البسيطة. عندئذٍ فقط وافقت على مقابلة رئيسه.

دخلنا مكتباً ضخماً، وكانت اللقاء قصيراً للغاية. ألقى خطاباً صغيراً كنت قد حفظته مسبقاً عن رغبتني في أن أكون أول صحفية إيرانية تُجري مقابلة مع الرئيس أوباما. «قد

يكون الأمر خطيراً، لكنني أريد أن أفعله»، ختمتُ كلامي. لا أعتقد أنهم كانوا يعلمون المخاطر التي كنت أتعرض لها لمجرد الحديث معهم داخل السفارة.

بعد ذلك، ومع احتسائنا قهوة فاترة، طلب مني مايك دي رأيي عن الوضع السياسي في إيران.

«لا أكشف أي أسرار بقولي إن الإصلاحيين بحاجة إلى ترتيب صفوفهم. يحتاجون إلى مرشح قوي واحد، وليس ثلاثة أو أربعة أو خمسة. مجرد مرشح واحد لمواجهة أحمدي نجاد وجهاً لوجه».

رددتُ نفس الكلام في مقالاتي منذ فترة. على الأقل، أثبت الاجتماع أنني شخص جاد. قال مايك دي إن رسالتي ستُحال الآن إلى وزارة الخارجية والبيت الأبيض. لكنه أضاف أنه علي ألا أرفع سقف توقعاتي؛ فنادراً ما يمنح الرؤساء مقابلات للصحافة الأجنبية. ومع ذلك، كنت الصحفية الإيرانية الوحيدة التي تسعى لإجراء مقابلة مع أوباما، مما جعلني متقدمة جداً على زملائي.

بعد بضعة أيام، دعاني مايك دي إلى حفلة عيد الميلاد في السفارة. قال بلكنته الأمريكية المميزة: «تعالى وقابلي السفير. لن يضر ذلك قضية مقابلتك».

عندها أدركت أن ثمة اهتمام لدى موظفي السفارة الأمريكية بمساعدتي في تأمين المقابلة. لم يكن مستبعداً أن أوباما، الذي أراد أن يقطع مع إرث جورج دبليو بوش العدائي تجاه إيران، ينوي إقامة علاقات أفضل معها. يمكنه فعل ذلك من خلال مقابلة معي. أو هكذا حلمت.

لم أحضر حفلة عيد ميلاد من قبل في حياتي، وبالتأكيد لم أفكر يوماً في حضور حفلة في السفارة الأمريكية. كانت سحر مندهشة للغاية عندما علمت أنني تلقيت دعوةً.

«ماذا سترتدين؟ هل لديك فستان؟ فهذه مناسبة خاصة جداً».

«لا يهمني ما أرتدي. ما يهم هو ما أكتبه وما أقوله في العلن».

كان ذلك صحيحاً حينها وما زال صحيحاً للآن. نادراً ما أضع المكياج، ولا أميل للملابس باهظة الثمن. لم ترتكز حياتي أبداً إلى الموضة، ولا أستطيع تسمية مصمم أزياء حتى لو كانت حياتي تعتمد على ذلك.

بالنسبة للحفلة، قررت عمداً أن أرتدي ملابس محافظة. ارتديت قميصاً طويلاً فوق بنطال أسود ومعطفاً طويلاً، وضغطت قبعتي على شعري المتموج. بدوت وكأنني وصلت مباشرة من شوارع طهران. عندما دخلت الحفلة، شعرت وكأنني في وسط موقع تصوير فيلم — فقد ارتدت كل النساء فساتين تبدو باهظة الثمن، وارتدى الرجال بدلات توكسيديو أو بذلات وربطات عنق. كان النادلون يتجولون في الغرفة حاملين صواني أطعمة خفيفة وشمبانيا.

بحثت عن وجه مألوف. لم أكن أعرف أحداً سوى مايك دي، وعندما وجدته بدا مشتتاً.

«هناك الكثير من الفوضى في حياتي»، قال مشيراً إلى زوجته وأطفاله الأربعة الذين كانوا يحومون بالقرب منه.

«عذراً، ولكن ما هي هذه — الفوضى؟»

«هل تمارسين مهاراتك في اللغة الإنجليزية معي؟ هل تظنين أن هذا واجب منزلي؟»
ثم ضحك على نكتته.

أجبت: «في الواقع، كانت الرسالة إلى أوباما هي واجبي، لكن حصلت على علامة عالية جداً لدرجة أنني قررت إرسالها إليكم».

نظر إلي مايك دي بدهشة، ثم انفجر ضاحكاً. لاحقاً، رافقني وزوجته وأطفاله الأربعة إلى محطة القطار لتوديعي في طريقي إلى أكسفورد.

كنت تركيزي منصباً على الانتخابات الرئاسية الإيرانية، التي عُقدت في يونيو 2009، أي بعد نحو سبعة أشهر من الانتخابات الرئاسية الأمريكية، في يونيو 2009. بعد ما يقرب من أربع سنوات من رئاسة أحمددي نجاد العشوائية والفوضوية، راح الإصلاحيون يستعدون للحملة. كانت ثمة ضغوط هائلة عليّ للانضمام إلى حملة الإصلاحيين وكتابة مقالات تدعم خاتمي، الذي ألح إلى إمكانية عودته لخوض سباق الرئاسة —وبالفعل عاد.

على المستوى الشخصي، أحببتُ خاتمي؛ فقد كان واسع المعرفة وطيب القلب. لكنه كان رئيساً ضعيفاً لا يحب اتخاذ القرارات. في إحدى مقالاتي، كتبت أن خاتمي كان «لطيفاً ورحيماً أكثر مما ينبغي» ليكون رئيساً. كان منشغلاً جداً بمجاراة مشاعر الآخرين وحكمهم عليه، في حين أن الرئيس يحتاج إلى اتخاذ قرارات حاسمة. لم أكن أنوي دعم أي مرشح.

مع نهاية فبراير 2009، انسحب خاتمي لصالح مير حسين موسوي، الذي شغل منصب رئيس الوزراء في العقد الأول من الجمهورية الإسلامية. كان موسوي شخصية غير معروفة لمعظم الإيرانيين الذين ولدوا بعد الإطاحة بالشاه. باعتباره يسارياً إسلامياً، كان موسوي رئيس وزراء حياًدياً ومتزماً في معاداته لأمريكا خلال سنوات الحرب. اعتزل السياسة قبل ذلك بعشرين عاماً، وعمل أستاذاً في الهندسة المعمارية، ومارس الرسم في أوقات فراغه. لكنه عاد الآن، وأعلن ترشحه في 10 مارس 2009، وأعرب خاتمي فوراً عن دعمه له.

لم أكن متأكدة من موقفي حيال موسوي. كان نشطاً في الأيام الأولى للجمهورية الإسلامية، وهي فترة لم تتسامح مع أي معارضة؛ وأعدم الآلاف من اليساريين خلال فترة رئاسته للوزراء. كان هذا العار يلطخ حملة ترشحه. لم يرغب أحد في التطرق إلى مسألة الإعدامات داخل إيران، بينما في الخارج، لم يتحدث المغتربون الإيرانيون إلا عنها.

«هل يمكننا الوثوق به؟» سألت فاطمة ومحمد رضا ذات مساء، بعد ساعات من النقاش أثناء العشاء.

«إنه أفضل من أحمد نجاد، وهذا كل ما يهم»، قالت فاطمة، مرددة بذلك أقوال الإصلاحيين.

كما سجّل ناشري، كروبي، نفسه كمرشح. كان برنامج السياسي الأكثر تقدمية بين جميع المرشحين في القضايا التي تهمني — حقوق المرأة، وحقوق الإنسان، وحرية الصحافة. حتى إنه تحدث عن الحد من دور مجلس صيانة الدستور ودور المرشد الأعلى. لكن بترشح كل من كروبي وموسوي، سيتشتت صوت الإصلاحيين.

في خضم كل تلك الحماسة المرافقة للانتخابات الإيرانية، نسيْتُ تماماً طلبي لإجراء مقابلة مع أوباما. لذلك صُعِقْتُ عندما تلقيت، بعد أيام قليلة من إعلان موسوي، بريداً إلكترونياً من مايك دي.

كتب فيه: «تهانينا، تعبّر وزارة الخارجية عن استعدادها لمساعدتك في الحصول على تأشيرة صحفية». كان هذا أمراً عظيماً، نظراً لندرة حصول الصحفيين المقيمين في إيران على هكذا تأشيرات لانعدام العلاقات بين البلدين. اقترح مايك دي أن تتعاون وزارة الخارجية والبيت الأبيض لترتيب صحفيٍّ ما بمجرد وصولي إلى الولايات المتحدة.

كان ينبغي أن أكون سعيدة للغاية بهذا الخبر، ولكن بدلاً من ذلك شعرت بالحيرة. كانت مشكلتي الرئيسية أنني لم أخبر محرري في *اعتماد ملي* عن خططي لإجراء مقابلة مع أوباما. وربما كان المسكين كروبي سيُصاب بنوبة قلبية لو علم بمخططاتي. بالإضافة إلى ذلك، كنت في طريقي للعودة إلى طهران لتغطية الانتخابات. وآخر شيء كنت أحتاجه هو إلصاق تأشيرة صحفية من الولايات المتحدة على جواز سفري، والتي من الممكن أن تؤدي إلى اعتقالني.

اتصلت بمايك دي لأطلب منه تأجيل الأمور.

«كنت أظن أنك متلهفة لإجراء مقابلة مع الرئيس. لماذا التأجيل الآن؟» بدا صوت مايك دي غاضباً.

«سأحتاج إلى التحدث مع محرريّ أولاً والحصول على موافقتهم، وبعدها يمكنني الذهاب إلى أمريكا».

قاطعني بصوتٍ مرتفعٍ من الدهشة: «ماذا؟ هل تقصدين أن محرريّك لا يعلمون أنك تقدمتِ بطلب لإجراء مقابلة مع أوباما؟»

«لو طلبت الإذن ورفض المحرر، فلن أستطيع المضي قدماً على الإطلاق». حاولت أن أبدو واثقة مما أقول. «هذه هي الطريقة التي تعمل بها الأمور في إيران. لكن الآن يمكنني إخبار محرريّ بأنه لديّ تأشيرة. لا يمكنهم رفضي».

«وماذا لو رفضوا؟» بدا مايك دي أقل ثقة. «حسبما أرى، فإن جماعتك لن يصلوا إلى السلطة قريباً». لم يكن مايك دي يعتقد أن الإصلاحيين يمكنهم التغلب على أحمددي نجاد.

«لا أرى كيف يمكنني مقابلة أوباما دون إخبار محرري».

مثلً التحدث مع المسؤولين الأمريكيين مخاطرة كبيرة لي، وكنت لأواجه مشكلات خطيرة إذا تم الكشف عن مصادري. فالعديد من القوى في إيران، مثل الحرس الثوري ورجال الدين المتشددين، كانوا يعارضون أي تحسّن في العلاقات بين إيران والولايات المتحدة. وكان الرئيس بوش شديد الانتقاد للجمهورية الإسلامية، خاصة برنامجها النووي، وهدد بفرض عقوبات واتخاذ إجراءات عسكرية لمنع إيران من تطوير سلاح نووي. حتى أوباما، خلال حملته الرئاسية، هدد باتخاذ إجراءات صارمة ضد البرنامج النووي الإيراني. في المقابل، أصرت السلطات الإيرانية على أن البرنامج لأغراض سلمية فحسب. لم أكن أرغب في التورط في قضايا الأمن القومي.

في النهاية، قررت أن أكشف عن خططي في مدونتي، التي كانت تُقرأ على نطاق واسع في إيران. أردت أن أكون راوية قصتي الشخصية، بدلاً من أن تُكشف الأمور عبر تسريب من نوع ما.

كتبتُ: «بعد أشهر من الدراسة، أعود إلى إيران لتغطية الانتخابات والتقدم للحصول على تأشيرة إلى أمريكا لأتمكن من إجراء مقابلة مع أوباما. لقد رفض الرئيس أحمدي نجاد منحي مقابلة. ربما أكون أوفر حظاً مع الرئيس أوباما».

لم يكن لقاء أوباما جريمة، لكنني كنت أطلق تحدياً مباشراً للسلطات الإيرانية. قبل انتخابات الولايات المتحدة في نوفمبر، احتجرت وزارة الاستخبارات أحد عشر صحفياً وصادرت جوازات سفرهم لأنهم أرادوا السفر إلى الولايات المتحدة لتغطية الانتخابات. والآن كنت أتحدى الأجهزة الأمنية لاتخاذ الخطوة التالية.

في الأيام التي سبقت عودتي إلى طهران، حضرت فعالية ثقافية في لندن حيث كان

رئيس البرلمان السابق حداد عادل هو المتحدث الرئيسي. وفي الحفلة بعد ذلك، اقترب حداد عادل مني بهدوء. كان هو من دبر طردي من البرلمان قبل أربع سنوات، لكنني لم أعد أشعر بالخوف منه.

قال بصوت منخفض حتى لا يسمعه أحد: «لا تضعي نفسك في خطر. مقابلة أوباما ليست الأمر الصحيح». ليست مستحسنة.

أجبت: «أنا صحفية، وإجراء المقابلات مع مَنْ هم في السلطة هي وظيفتي».

أوماً برأسه وابتعد. لم يكن حداد عادل صديقاً لي، لكنه شعر بقلقٍ دفعه لتحذيري. كنت أعتقد أن الشفافية يمكن أن تحميني من المتاعب. إلا أن الشفافية لم تكن خطة دفاعية ناجعة.

قررتُ العودة لإيران مهما حدث. كان هناك سبب آخر لعودتي. فقد هرب زوجي السابق وزوجته الجديدة إلى ألمانيا وطلبا اللجوء السياسي هناك، تاركين بويان مع جدّيه من جهة والده. أصبح لدي الآن فرصة للمطالبة ببويان حتى نعيش معاً. اتصلت ببويان عبر سكايب لأخبره أنني أعمل على خطة.

في منتصف أبريل 2009، سافرت إلى مطار الإمام الخميني الدولي في طهران، وأنا أشعر بالتوتر حيال ما يمكن أن يقع لي. كانت الساعة الرابعة صباحاً تقريباً عندما توجهت نحو الصف الطويل جداً في قسم الجوازات. جاء شاب من الصف المجاور واقترّب مني بتردد. كاد قلبي يتوقف عن النبض. اعتقدتُ أنه عنصر أمني جاء لاعتقالي.

«سيدة علي نجاد؟»

أوماًت برأسي، وأنا أنتظر مصيراً أسود.

«تعرفت عليك من صورتك في عمودك في اعتماد ملي. أنا من أشد المعجبين وأردت أن أخبرك بذلك».

«ما بالك يا رجل؟» قلت بصوت عالٍ. «ظننت أنك جئت لاعتقالي!»

احمرّ وجه المسكين خجلاً في حين انفجر الجميع من حوله بالضحك. الخوف من توقيفك في المطارات هو هاجس مشترك لغالبية مواطني الجمهورية الإسلامية.

مررت عبر قسم الجوازات دون أي مشاكل. بالكاد ألقى الموظف نظرة عليّ وأعاد لي جواز السفر دون أن يطرح أي سؤال.

ظننت أنني قد تجاوزت العقبة الكبرى. لو كانوا ينوون اعتقالني، لفعلوا ذلك عند قسم الجوازات. وتوجهت بخطوات خفيفة نحو منطقة استلام الأمتعة.

«معصومة علي نجاد... معصومة علي نجاد... الرجاء التوجه إلى...» ردد النداء رجلاً بنبرة رتيبة عبر النظام الصوتي.

اقترب مني رجلان بملابس مدنية، وعلمت فوراً أنهما رجال أمن. في تلك اللحظة، تلاشت كل سعادتي فجأة وشعرت بإرهاق شديد.

«سيدة علي نجاد؟ من فضلك تفضلي معنا» قال أحدهما بأدب. قاداني إلى غرفة بلا نوافذ، فيها طاولة بلاستيكية وثلاثة كراسي. كان الرجلان مهذبين، إذ عرض أصغرهما سناً أن يحضر لي بعض الماء. كان يبتسم كثيراً، في حين بدا شريكه أكثر جدية.

قال الرجل الأكبر، الذي كان من الواضح أنه المسؤول: «نريد إجراء حديث ودي فحسب. هذا ليس استجواباً. في الواقع، نحن بحاجة إلى مساعدتك».

مدّ يده لأعطيه جواز سفري، وراح يقلب صفحاته. لم يسألني عن آرائي السياسية أو

ما إذا كنت قد التقيت أي معارضين.

«هذه عودتك من إنجلترا. كم مكثت بها؟»

أجبتة بحذر: «قضيت فيها بضعة أشهر لتعلم اللغة الإنجليزية. هل ارتكبت أي خطأ؟»

قال معذراً وهو يضع وثيقة سفري العريضة في ملف: «لا أعلم بشأن ذلك». كان زميله يستند بصمت إلى الباب يراقبني دون كلام، وقد اختفت ابتسامته الآن.

«سنُبقي جواز سفرك معنا».

كنت أعلم أنه بمجرد احتفاظهم بجواز سفري، سأصبح فعلياً سجيناً داخل البلاد. إنما لم يكن بإمكانني مناقشتهم في ذلك.

أوضح العميل الأكبر سناً: «يبدو أن هناك خطأ إدارياً ما. فثمة جواز سفر آخر صادر باسم معصومة علي نجاد، ونحتاج إلى حجز جوازك مؤقتاً لتسوية الأمر».

كتب عنواناً في شارع فرشته، في حي فاخر يحمل الاسم نفسه شمال طهران. كانت الأجهزة الأمنية تستخدم العديد من المباني السكنية والمكاتب السرية لإجراء عملياتها.

قال: «يمكنك استلام جواز سفرك من هناك».

سألته بريبة: «هل أنت متأكد من وجود خطأ؟ فأنا الوحيدة التي تُدعى معصومة علي نجاد من قوميكولا. أعرف الجميع هناك. ومن المستحيل حدوث مثل هذا الخطأ».

ابتسم بطريقة ودية وقال: «قد تكونين محقة. كل ما عليك فعله هو مراجعة هذا العنوان بعد بضعة أيام وسيُبت في الأمر. حتى مع أجهزة الكمبيوتر المتطورة لدينا،

تحدث مثل هذه الأخطاء».

بعد يومين، خُضْتُ وأُخِي محسن حركة المرور الصباحية الكثيفة للوصول إلى المبنى المحدد في شارع فرشته. وبالنظر إلى الكراسي الإيطالية والأرائك الجلدية في قاعة الانتظار، كان من الواضح أن هذا لم يكن مكتباً نمطياً لوزارة الاستخبارات.

خلال انتظاري، فكرت في مدى سهولة تسخيف من لم يمروا بتجارب الاستجواب التنازلات التي يضطر لتقديمها من ينجو منها. لقد تعرضت للاستجواب عدة مرات من قبل، ومع ذلك كنت ما أزال أشعر بالخوف مما قد يحلّ بي.

عند العاشرة صباحاً تقريباً، نادوني وتركت محسن في قاعة الانتظار أسير القلق وحده. وقف رجل أنيق من كرسيه وعرّف بنفسه. لم أعر اسمه اهتماماً كبيراً، لأنني كنت أعلم أنه مجرد اسم مستعار على الأرجح.

«هذا ليس استجواباً. نرغب في أن تساعدنا في تحقيقاتنا فحسب»، قال ذلك بابتسامة عريضة.

«هل عثرت على معصومة الأخرى؟» سألت بابتسامة عريضة بدوري.

«لا أفهم قصدك»، قال مرتبكاً خلال تقليبه أوراق الملف الذي أمامه. «أنا آسف، لا أفهم».

«في المطار، قيل لي إنه بسبب خطأ إداري، هناك شخص آخر يحمل نفس جواز سفري».

لم تكن هذه أول مرة أواجه فيها رجال الأجهزة الأمنية المختلفة، ولم أستطع مقاومة الرغبة في السخرية منهم قليلاً. ثم تابعتُ: «كما تعلمون، يبدو أن هناك الكثير من

الأخطاء الإدارية، لأنني طالما أقرأ وأسمع قصص الصحفيين، والناشطين، والمفكرين الذين ينتهي بهم الأمر في مثل هذه الأماكن».

«أنا مصدوم»، ردّ وهو يمد ذراعيه على اتساعهما ليظهر براءته. «نريد إجراء حديثٍ وديٍّ من أجل أمن وطننا القومي».

بالنسبة لرجل يمتهن العمل في الخداع، لم يكن بارعاً جداً في الكذب.

«بما أنه لم يعد هناك معصومة أخرى تتسبب بالخطأ، فأنا جاهزة».

«قبل أن نبدأ، أريد أن أذكرك أن كل ما يدور هنا غير قابل للنشر، وأنت لن تكتبي شيئاً عن هذه الجلسة».

لم أقل شيئاً. كنت أعلم أنني سأكتب عن هذه التجربة في مدونتي، إن لم يكن في اعتماد ملي. كما توقعت أن تكون الغرفة مزودة بأحدث أجهزة التسجيل.

غادر الغرفة وعاد حاملاً نسخة من القرآن الكريم.

«أريد منك أن تعطيني بشيء واحد منذ البداية، وهو أن كل ما تقولينه صحيحاً. بعدها يمكننا المتابعة».

«لقد كذبت عليّ لإحضاري إلى هنا»، انفجرتُ غاضبة. «أحضرتُموني إلى هنا تحت ذريعة كاذبة لحلّ خطأ إداري. لقد صادرتُم جواز سفري بشكل غير قانوني. إنما ليس لديّ ما أخفيه، فتفضل بأسئلتك».

رغم ذلك، أجبرني على وضع يدي على القرآن الكريم لأقسم بأن أقول الحقيقة. نظر إلى قائمة الأسئلة أمامه.

«لماذا غادرتِ إيران؟»

«لدراسة اللغة الإنجليزية».

«لماذا اخترتِ إنجلترا؟»

«بدا لي من المنطقي دراسة الإنجليزية فيها بدلاً من تركيا أو السعودية»، قلت ساخرةً.

تابع أسئلته بلا اكتراث: «هل قابلتِ أي أمريكيين؟»

«لقد قلت بالفعل إنني أنوي طلب مقابلة مع أوباما. كل ذلك موجود في مدونتي. أنا متأكدة أنكم قرأتموها»، أجبت عن سؤال لم يطرحه بعد.

«هل قابلتِ أي شخصيات سياسية؟»

«طبعاً، فقد قابلت حداد عادل».

«لا، لا... أعني هل قابلتِ أي شخصيات معارضة للجمهورية الإسلامية؟ تذكرني، لقد أقسمت على القرآن الكريم».

«قابلتُ صحفيين اضطروا لمغادرة إيران لأنهم كانوا يخشون السجن أو ما هو أسوأ».

بدأ بتدوين الملاحظات.

«هل زرتِ السفارة الأمريكية؟»

قلت بجرأة: «نعم، فكيف لي أن أقدم طلب تأشيرة دون زيارتها؟» لم يعد هناك أي خوف بداخلي.

توقف عن الكتابة وحقق في وجهي بعينين متسعيتين، مصدوماً من صراحتي.

«ألا تعلمين أن السفارة الأمريكية أرض العدو؟» قال بحدة. «لا يمكنك التعامل مع أعدائنا».

«أنا صحفية، ولست جنديّة. إذن هي ليست أرض عدو بالنسبة لي».

فسأل: «لماذا أنت هنا؟»

«إيران هي بلدي، وأنا أعمل مع السيد كروبي في اعتماد ملي. جئت للحصول على إذنه ومباركته لمقابلة أوباما».

«لقد فعلتِ الصواب بطلب الإذن، لكن لا سلطة لكروبي في قضايا الأمن القومي»، قال بلهجة رسمية. «وإذا أصررتِ على مقابلة أوباما، فلا يمكنني إعادة جواز سفرك إليك».

جلسنا بصمت لعدة دقائق. ثم بدأ الصمت يستبدّ بالغرفة أكثر فأكثر.

«لقد قررت القيادة أن الولايات المتحدة هي عدونا، ولا يمكننا السماح لأشخاص مثلك بكتابة مقالات قد تساعدكم. فهذا يتعارض مع المصلحة القومية».

كان هذا تحذيراً رسمياً بعدم متابعة السعي لمقابلة أوباما. والآن كان عليّ أن أظهر الأسف.

«إذا كان المرشد الأعلى لا يريدني أن أجري مقابلة مع أوباما، فعليّ أن أعيد النظر في خططي»، قلت بصوت خافت. «لكنني بحاجة إلى جواز سفري، لأنني أفكر في التقديم

للدراسة في إحدى الجامعات في إنجلترا».

«الدراسة أمرٌ طيّب. هل ستقومين بتغطية الانتخابات؟»

عبّرت حملة موسوي عن رغبتها في انضمامي رسمياً لفريقه. وكان كروبي يتوقع أن أكون ضمن حملته. ومع ذلك، لم أكن أرغب في الارتباط بمرشح محدد.

قلت: «لم أقرر بعد، وأريد رؤية ابني ووالديّ أولاً. متى يمكنني استعادة جواز سفري؟»

«آه، هذا عائدٌ لك». أخرج المحقق عدة أوراق وقلمًا من درج المكتب ودفعها باتجاهي. «عليك أن تقومي بدورك».

سرت قشعريرة في جسدي. لم أرغب أن أصبح مخبرةً للأمن. توقعت أن يطلب مني كتابة أسرار عن زملائي وأصدقائي مقابل استعادة جواز سفري.

سألت بصوت خافت: «ماذا يجب أن أكتب؟»

«أريدك أن تؤكد لي، أن تكتبي لي تعهدًا بأنك لن تغطي الانتخابات».

«هل هذا كل شيء؟»

«أريدك أن تكتبي تعهدًا خطيًا بأنك لن تغطي الانتخابات قبل أن أفكر في إعادة جواز سفرك»، كرر المحقق. «أنت كاتبة، وتعرفين كيف تكتبين هذا. وتأكدي من وضع التاريخ كذلك».

نفذت ما طلب، ووقعت التعهد. رفع الورقة قُرب عينيه وقرأ كلماتي ببطء. ثم نظر إليّ منتصرًا.

«عودي إليّ عندما تحصلين على تذكرة طائرة لمغادرة إيران»، قال بابتسامة منتشية.
«عندما تعودين، ستحصلين على جواز سفرك. واحرصي على مغادرة البلاد قبل
الانتخابات بوقت كافٍ».

خارج المكتب، كان محسن ينتظر بصبر، وعانقني بحرارة عند خروجي. رويت له
بسرعة ما حدث أثناء قيادته للسيارة عائداً بي إلى مقر الصحيفة.

أخبرت محسن: «لقد طلب مني تعهداً بعدم تغطية الانتخابات».

«ماذا عن مقابلة أوباما؟ هل قدمت تعهداً بشأنه أيضاً؟» سأل محسن وهو يضغط
على بوق السيارة تجاه السيارات أمامه.

«لقد حذرني، لكنني لم أتعهد له بشيء. لا أعتقد أنه صدق أنني قد أذهب إلى أمريكا
لمقابلة أوباما».

استدار محسن لينظر إليّ: «هل ستستمرين في موضوع المقابلة؟»

قلت: «سنرى»، وللمرة الأولى في حياتي قررت أن أحتفظ بخططي لنفسي.

ضحك كروبي بصوت عالٍ عندما رأيته، وسأل: «ما هذا الأمر الذي بينك وبين أوباما؟»

أخبرته عن استجابتي في وقت سابق من ذلك اليوم، ثم شرحت له خطتي لمقابلة
أوباما وطلبت موافقته للتقدم بطلب تأشيرة أمريكية.

قال كروبي: «إذا قدمت تعهداً خطياً بعدم تغطية الانتخابات، فلا يمكنك الإخلاف
به».

توقعت منه أن يقف بجانبني.

«كيف تسمي نفسك مالكا لصحيفة إذا كنت لا تستطيع الدفاع عن مراسليك؟ لماذا تريد أن تصبح رئيساً عندما لا توجد فيك روح القتال؟ يجب أن تدافع عن نفسك».

لحسن الحظ، كان كروبي معتاداً على انفعالاتي، ولم يشعر بالإهانة. كنت أخطط للبقاء وتغطية ما بدا أنه سيكون انتخابات تاريخية.

في التاسع والعشرين من أبريل، نظم الإصلاحيون أكبر تجمع لهم لتوحيد الحزب خلف موسوي. تجمع آلاف النشطاء في مركز مؤتمرات بشمال طهران، بالقرب من برج ميلاد، أطول بناء في طهران، والذي يبدو كإبرة مع حبة يوسف في منتصفها.

لأول مرة، ظهر كل من خاتمي وموسوي في نفس المؤتمر السياسي. لَوَّح الآلاف من مؤيدي خاتمي بالأوشحة والأعلام الخضراء الصغيرة، ورددوا شعارات سياسية.

شعرنا جميعاً أنه بعد أربع سنوات من سياسات أحمدي نجاد الرجعية، كان لدى الإصلاحيين فرصة للفوز.

تلقيت دعوة خاصة للجلوس في الصف الأمامي إلى جانب خاتمي وموسوي وغيرهم من المتحدثين الرئيسيين. على عكس السياسيين الآخرين الذين أبقوا زوجاتهم في البيوت أو بعيداً عن الأضواء، أحضر موسوي زوجته، زهرة رهنورد، الفنانة والمثقفة، للمشاركة في حملته، وانضمت إليه في تلك الليلة. كنا نشهد مولد إيران جديدة.

دعا خاتمي موسوي إلى المنصة، ثم لَفَّ وشاحه الأخضر حول كتفي موسوي، في حركة رمزية لإظهار الوحدة داخل الفصيل الإصلاحي. انفجرت الحشود بالهتاف والتشجيع لفترة طويلة.

بنظارته السمكية، وشعره الفضي، ولحيته، بدا موسوي أشبه بأستاذ جامعي. ومع

ذلك، في تلك الليلة، اعتقدت أنه من الممكن رؤية بارقة أمل بالفوز ونهاية رئاسة أحمدى نجاد.

تستمر الدورة الانتخابية الرسمية في إيران من أربعة إلى ستة أسابيع، وخلال هذه الفترة، يبدو وكأن القواعد العادية لا تطبق. تتحول التجمعات الانتخابية إلى حفلات في الشوارع، حيث يبقى الجميع حتى وقت متأخر، وتبقى الشرطة على الحياد دون تدخل. وتصبح الصحف أكثر جرأة في انتقاداتها، وكأن الرقباء في إجازة لمدة شهر.

في ظل هذا الجو، لم أرغب في مغادرة إيران؛ أردت البقاء ومشاهدة التاريخ وهو يُصنع —لأشهد المرة الأولى التي يُهزم فيها رئيس حالي. تجاهلت الرسائل النصية والصوتية من أجهزة الأمن التي طلبت مني الحضور لاستلام جواز سفري. كنت مأخوذةً بسحر الانتخابات. زرت مقار الحملات الانتخابية للمرشحين، وخالطت المتطوعين الذين كانوا يوزعون المنشورات والمواد الدعائية. أطلت الوجوه المبتسمة للمرشحين الأربعة من كل مساحة متاحة، وغطت الملصقات كل المدينة.

في أماكن رئيسية مثل ساحة ونك، شمال طهران، تجول الناشطون على الأرصفة وتراكموا بخفة بين السيارات العالقة في الازدحام لتوزيع المنشورات.

مع اقتراب موعد الانتخابات، كنت قد نسيت تمامًا أمر أوباما حتى تلقيت رسالة إلكترونية مفاجئة من مايك دي بيلغني أخبارًا مذهلة. كان أوباما سيلقي خطابًا عن العلاقات الأمريكية-الإسلامية في جامعة القاهرة في الرابع من يونيو، وأراد البيت الأبيض دعوتي. قال مايك إنني سأتمكن من إجراء المقابلة في القاهرة، أو في أسوأ الأحوال سأتمكن من طرح سؤال على الرئيس في مؤتمره الصحفي. ووصفها بأنها

«فرستي الذهبية».

كان أوباما على بُعد خطوة واحدة فقط، لكن أجهزة الأمن كانت تحتجز جواز سفري، ولم أكن قد حصلت بعد على موافقة كروبي لإجراء مقابلة مع أوباما. كان الأمر قريباً، لكنه بعيد المنال.

بعد بضعة أيام، جاء ابن كروبي، حسين، للبحث عني في اعتماد ملي. كان حسين طويل القامة ونحيفاً بشكل لافت، ويدير حملة والده. أخبرني أن أجهزة الأمن غير راضية عني.

قال: «يبدو أنك وعدت بعدم تغطية الانتخابات، وهم مصريون على أن تغادري البلاد». بدا أمام مكتبي كعملاق يتحدث.

كنت أتلقي رسائل نصية وصوتية يومية تطالبني بالذهاب لاستلام جواز سفري.
«لن أغادر، ولا يمكنهم إجباري».

«لا يمكننا حمايتك إذا تم اعتقالك... أو...»

لم يكن بحاجة لقولها صراحة، فللجمهورية الإسلامية تاريخ دموي في تصفية المعارضين والمنتقدين.

قال: «لا تحتاجين للغياب لفترة طويلة، فقط حتى تنتهي الانتخابات».

كان من المرجح فوز الإصلاحيين، إذا كان حماس الناس مقياساً يُعتمد عليه. وقال حسين يمكنني العودة بعد تشكيل حكومة موسوي-كروبي.

قلت مساومةً: «إذا كنتم تجبرونني على المغادرة، فأنا أريد مقابلة أوباما. أحتاج منكم

خطاب اعتمادٍ لأحمي نفسي».

وفي النهاية، أعطاني رئيس تحرير اعتماد ملي خطابًا رسميًا يصرح لي بمقابلة أوباما. في الوقت ذاته تقريبًا، تلقيت بريدًا إلكترونيًا آخر من مايك دي، يحثني على عدم الاستسلام. كان يعتقد أن البيت الأبيض يريد التواصل مع إيران وأن مقابلة أوباما كانت احتمالًا قويًا.

تلك الليلة، وبعد تحذيرات حسين كروبي والشعور العام بعدم الارتياح، نمتُ في بيت صديقتي سودابه، الصحفية في آفتاب يزد. في صباح اليوم التالي، اكتشفت أن سيارتي، وهي من طراز برايد فضية اللون، قد تعرضت للتخريب؛ حُطِّمت النوافذ وسُحب مسجل السيارة، ولكنه رُمي على بُعد خمسين قدمًا. أما محتويات الحقيبة التي تركتها في السيارة فكانت متناثرة في الشارع. وجدت بطاقتي الصحفية محشورة تحت العجلة. جاء شرطي للتحقيق، وألقى نظرة سريعة، وقال إن الحادث يبدو مريبًا؛ ومن الغريب أن شيئًا لم يُسرق.

قال الشرطي: «ربما لديك أعداء. يبدو هذا انتقامًا شخصيًا منك».

قلتُ له: «عدوي هو أحمدي نجاد. هل ستدون ذلك في تقرير الشرطة؟»

«لا، لن أفعل»، قال وهو يمزق الصفحات من دفتر ملاحظاته ويلقي بها.

قدت سيارتي إلى مقر الصحيفة، واتصلت بمعارفي في السلك السياسي. كان من الواضح أنني تحت المراقبة.

«غادري الآن قبل فوات الأوان»، قال لي سياسي مقرب من الرئيس السابق خاتمي.

«حاليًا، لا أحد يستطيع حمايتك».

كلما طُلب مني المغادرة، زاد إصراري على البقاء. حجزت تذكرة سفر واستعدت جواز سفري من المبنى في شارع فرشته. ثم ألغيت التذكرة وعدت إلى الصحيفة. في اليوم التالي، تلقيت اتصالاً من الأجهزة الأمنية يسألون فيه عن سبب إلغاء التذكرة. كنت أعرف أن كل تحركاتي تحت المراقبة، فبدأت أبيتُ كل ليلة في مكان مختلف عن الليلة السابقة.

في الثالث من يونيو، اجتمعتُ مع أصدقائي لمشاهدة مناظرة تلفزيونية بين أحمدى نجاد وموسوي، وهي الأولى من نوعها بين المرشحين الرئيسيين. ورُوج لها باعتبارها الحدث الأهم في الانتخابات، تماماً كما في المناظرات الرئاسية الأمريكية.

منذ البداية، شنَّ أحمدى نجاد وابلًا من الاتهامات والتلميحات، وكأنه كان مرشحاً منافساً وليس الرئيس الحالي. حتى إنه أخرج صورة لزوجة موسوي، زهرة رهنورد، وقال: «لدي ملف عن سيدة. وأنت تعرف هذه السيدة، إنها تجلس بجانبك في حملتك».

عمَّ البلاد صمتٌ مذهول، إذ لم يسبق لأحد أن هاجم زوجة مرشح آخر على الهواء مباشرة. بدا أن أحمدى نجاد مستعد لفعل أي شيء للفوز بالانتخابات. أما موسوي، فقد كان متزنًا في ردوده، وأظهر أنه لن يسمح لأحمدى نجاد بإخافته. لم يقدم موسوي وعوداً بإصلاحات جذرية، بل ركز على ملف إدارة البلاد بشكل أفضل. على الأقل، لم ينكر موسوي الهولوكوست، لذلك ربما كان هناك بعض الأمل.

بعد المناظرة، نزل مؤيدو كلٍّ من موسوي وأحمدى نجاد إلى الشوارع لمواجهة بعضهم البعض. وهتف أنصار موسوي: «باي باي، أحمدى نجاد». سادت أجواء احتفالية في البلاد لدرجة أن مؤيدي أحمدى نجاد من الأحياء الفقيرة جنوب طهران توجهوا إلى الأحياء الراقية في العاصمة، لا للقتال، بل للمشاركة في الاحتفالات بالشارع.

في الليلة التالية لتلك المناظرة الأولى، وبعد أن حجزت رحلة جديدة، توجهت إلى

المطار في الوقت الذي احتشد فيه مؤيدو موسوي بعشرات الآلاف في طهران، وشكلوا سلسلة بشرية امتدت لاثني عشر ميلاً على طول شارع ولي عصر، وهو أطول شارع في طهران.

كرهت الشعور بأنني مُجبرة على المغادرة. حاولت تسليّة نفسي بالاعتقاد أن غيابي سيطول لبضعة أسابيع فقط، وأنني سأعود بمقابلة حصرية مع أوباما.

دوّى صوت محركات الطائرة بينما كنت أشدّ حزام الأمان وأدير وجهي نحو النافذة، ممسكة بمسند الذراع بقوة. أقلعت الطائرة في ظلمة الليل، ومع تأملي لأضواء طهران المتلألئة، أغلقت عينيّ واستسلمت للنوم، حاملةً بعودتي.

وكانت تلك آخر مرة أرى فيها طهران.

الفصل السابع عشر

وصلتُ مرةً أخرى إلى مطار هيثرو الضخم في لندن. إنما لم أشعر بأي حماس هذه المرة، لأنني تركت قلبي وعقلي في طهران. أوشكت الانتخابات أن تمثل حدثاً تاريخياً، وكرهت أن يفوتني الطوفان الغامر من البهجة المتوقعة لهزيمة أحمدى نجاد.

توجهت مباشرةً إلى شقة ليلى على كرامى في غرب لندن. وهي المحامية التي ساعدت شيرين عبادى فى قضيتى ضد النواب الذين طردونى من مجلس الشورى قبل أربع سنوات. وكما كان متوقعاً، رفضت المحكمة الثورية القضية. بعد فوزها بجائزة نوبل، أصبحت عبادى هدفاً للهجوم داخل إيران وخارجها، واضطرت إلى مغادرة البلاد. اتحد الإصلاحيون والمحافظون ضد عبادى لموافقتها على الدفاع عن قادة الديانة البهائية المعتقلين. تعتبر الجمهورية الإسلامية أتباع الديانة البهائية مرتدين، وتعتقلهم وترسلهم إلى الإعدام بشكل عشوائى. كرد فعل على دفاعها، داهمت قوات الأمن مكاتب عبادى وصادرت أجهزة الحاسوب والملفات الخاصة بها. غادرت عبادى إيران بعدها إلى ملاذ آمن فى بريطانيا. وكانت ليلى أيضاً فى لندن لمتابعة دراساتها العليا.

تابعت أخبار الانتخابات عبر الإنترنت ومن خلال معارفى. كنت واثقة أن الحماس الانتخابى الذى شهدته فى طهران، والذى ترددت أصداؤه كذلك على فيسبوك ومنصات أخرى، سيُفضى إلى فوز موسوى. قدمت جواز سفرى إلى السفارة الأمريكية للحصول على التأشيرة، أمله أن أتمكن بسرعة من ترتيب مقابلة مع أوباما. لم أكن ساذجة لأظن أن موسوى سيفوز من الجولة الأولى، بل توقعت أن ينتقل موسوى وأحمدى نجاد إلى

جولة الإعادة، وأن يفوز موسوي في النهاية.

كان يوم الجمعة 12 يونيو، يوم الانتخابات في إيران، جميلاً ومشمساً. أرادت ليلى وبعض أصدقائنا التصويت في القنصلية الإيرانية الواقعة في حي كنسينغتون الراقى بلندن، حيث أُعدّت صناديق اقتراع خاصة. أدركت بعد فوات الأوان أنني لا أستطيع التصويت لأن جواز سفري كان في السفارة الأمريكية. التفت طابور الناخبين حول مبنى القنصلية. أخرجت كاميرتي الصغيرة لتصوير تقرير قصير قررت إعداده. لطالما حلمت بالظهور على شاشة التلفاز، لكنني لم أتصور قط أنني سأتمكن من ذلك. مشيت بين الحشود ورحتُ أسأل الناس عن سبب وجودهم ولمن ينوون التصويت. ومن طريقة لباسي فحسب، بديتُ إيرانيةً وصلت حديثاً إلى الغرب — إذ كنت أضع حجاباً أزرق فاتح اللون وملابس شديدة الاحتشام تغطي كل شبر من جسدي. كنت أنوي العودة إلى إيران، ولم أرد أن تواجهني تهمة ارتداء «حجاب سيئ». لم تكن معظم النساء الإيرانيات في لندن يرتدين الحجاب بأي أشكاله. ومع ذلك، فقد كُنَّ يحملن أغطية رأسٍ معهن ويضعنها على رؤوسهنّ بشكل فضفاض قبل دخول القنصلية مباشرة.

بدا الحدث وكأنه حفلة في الشارع — فرصة للقاء الأصدقاء أكثر من كونه مشاركة في انتخابات. ولم يفسد الأجواء وجود بعض المتهكمين. على الطرف المقابل من القنصلية، تجمع نحو اثني عشر متظاهراً، يهتفون بشعارات ضد النظام الديني، واصفين الانتخابات بأنها مجرد حيلة علاقات عامة لإضفاء الشرعية على الجمهورية الإسلامية. وسخروا من الذين اصطفوا للتصويت، ووصفوه بـ«الخونة». ورداً على ذلك، رد بعض المنتظمين في طابور التصويت بهتافات «بي وطن»، أي عديمي الانتماء.

باستثناء الهتافات المتنافسة، لم يكن هناك أي توتر حقيقي. حتى رجال الشرطة البريطانيون الواقفون حول القنصلية بدوا في حالةٍ من الملل. بدا وكأن الجميع في لندن

يصوتون لصالح موسوي، وكانوا على أهبة الاستعداد للاحتفال بنهاية عهد أحمدى نجاد. وبينما كنت أسمع اسم موسوي يتكرر مرة تلو الأخرى، فكرت في نفسي: ماذا لو حدث ما لم يكن في الحسبان؟ لم يكن لدي أي معرفة خاصة، إنما لم أحب يومًا التفكير بعقلية القطيع. لقد سعتُ طوال حياتي لشقّ طريقي الخاص. والآن، محاطة بأنصار موسوي، بدأت أتساءل: هل حكام الجمهورية الإسلامية الحقيقيون —الحرس الثوري ورجال الدين الذين لم يخوضوا انتخابات قط— مستعدون حقًا لقبول التغييرات التي يريدها مؤيدو موسوي؟

سألت أولئك الذين انتظموا في طابور التصويت: «هل أنتم واثقون أن أصواتكم ستُحتسب؟ كيف يمكنكم التأكد من عدم حدوث تزوير؟» لم يعتقد أحد منهم أن التزوير ممكن. واعتقد الجميع في ذلك اليوم أن فوز موسوي أمر محسوم. ومع هذا المستوى الساحق من الدعم لموسوي، فإن أي تلاعب سينفضح بسهولة.

عند عودتي إلى منزل ليلي، سرعان ما كتبت مقالي لعدد اليوم التالي عن نسبة الإقبال في لندن. وأمضيتُ ضعف الوقت الذي استغرقتُه في كتابة المقال أمضيته على الهاتف في جدالٍ مع محرري عن ضرورة نشره في عدد الغد.

بدا محررو الصحيفة مشتتين، وهو أمرٌ مفهوم. وتعطلت بشكلٍ غامض شبكة الرسائل النصية القصيرة في البلاد، وانتشرت قوة من رجال الأمن بالقرب من مكاتب الصحيفة، كما تعرض العديد من مستشاري موسوي للاعتقال. كانت بعض مراكز الاقتراع ما تزال مفتوحة عندما أعلنت وكالة أنباء فارس، الوكالة نفسها التي شنت العديد من الحملات ضدي، فوز أحمدى نجاد بأكثر من عشرين مليون صوت. وإذا كان هذا صحيحًا، فإنه يُعتبر انتصارًا كاسحًا لم يتوقعه أحد.

شككتُ بصحة التقرير على الفور. إذ لم تُغلق مراكز الاقتراع ما بعد، وستبقى

مفتوحةً لعدة ساعات بعد ذلك لاستيعاب الإقبال الكبير. توقع معظم المحللين أن الإقبال المرتفع سيصب في مصلحة موسوي، كونه المرشح المنافس. وعادةً ما كانت عملية فرز الأصوات مرهقةً وتستغرق وقتًا طويلًا، نظرًا لغياب أنظمة تصويت إلكترونية أو الحاسوبية. لذا توجّب على كل ناخب كتابة اسم مرشحه بالكامل بخط اليد.

رفعتُ مقطعي المصور على يوتيوب، ثم جلست أراقب حاسوبي المحمول، متسمّرةً أتابع النتائج الأولية للانتخابات. وصلتني رسالة جديدة كل بضع دقائق من أصدقائي ومصادر معلوماتي داخل البلاد، وكانت كل رسالة أكثر كآبة من سابقتها. فقد اعتُقل نشطاء وصحفيون إصلاحيين، كما أغلقت قوات الأمن مقر حملة كروبي ودمرت جميع المعدات، كما تعرّض مقر حملة موسوي للمداهمة.

عندما أُغلقت مراكز الاقتراع في الساعة العاشرة مساءً (6:30 مساءً بتوقيت لندن)، عقد موسوي مؤتمرًا صحفيًا وأعلن فوزه. قال لوسائل الإعلام التي كانت أجنبية بغالبها: «أي نتيجة أخرى غير فوزي ستكون كاذبة ومزورة». عندما قرأت تلك التصريحات على الإنترنت، قفزت من مقعدي مندهشةً.

سألتُ ليلي: «هل يمكنه إعلان نفسه فائزًا؟ يبدو الأمر شديد الغرابة».

بعد ذلك بفترة وجيزة، أعلنت وكالة إيرنا النتائج «الرسمية» بفوز أحمدني نجاد، مدعية أنه حصل على 63% من الأصوات. في حين حصل موسوي على 34%. شحبت ملامحي ورحتُ أرجف من الغضب. كانت النتائج «الرسمية» مشابهةً جدًا لما توقعته وكالة فارس، حتى مع وجود أربع ساعات كاملة قبل انتهاء التصويت.

اتصلت بزملائي في اعتماد ملي، وأخبروني أن قوات الأمن قد داهمت الصحيفة واعتقلت بعض المراسلين. كان عليّ نشر الأخبار، ولكن كيف؟ وعلى جناح السرعة،

سجلت تقرير فيديو آخر ورفعته على يوتيوب: «أنا مسيح علي نجاد، كاتبة في صحيفة /اعتماد ملي. لقد داهمت قوات الأمن مقر صحيفتنا واعتقلت زملائي. لقد حدث تزوير في الانتخابات الإيرانية».

وفي حيرةٍ من أمرنا عن الخطوة التالية، انطلقتُ ولى مرة أخرى إلى القنصلية الإيرانية. راحت تتكشف أمام عيني أزمة سياسية ذات أبعادٍ هائلة، وكنتُ موقنةً أنّ إيران بأكملها تتابع الأحداث بقلق. وكنت متأكّدة أن علي ومهدي قد صوّتا للمعسكر الإصلاحي، وبنفس القدر متأكّدة أن آقاجان قد صوّت لصالح أحمددي نجاد. ومرة أخرى، وجدت نفسي ووالدي على طرفيّ نقيض.

بالكاد أغمضتُ عينيّ تلك الليلة، إذ كنت أتابع التلفزيون وحاسوبي المحمول باستمرار بحثاً عن آخر الأخبار. كان أصدقائي ومصادر معلوماتي السياسية إما هاربين أو قد تعرضوا للاعتقال. وكان ذلك هو المصير الذي ينتظرني لو أنني بقيتُ في البلاد. في اليوم التالي، تجمع الآلاف من المتظاهرين أمام وزارة الداخلية، المسؤولة عن إدارة الانتخابات. فقابلهم رجال شرطة مكافحة الشغب المسلحون بالهراوات والدروع البلاستيكية—نسختنا المحلية من روبوكوب. وقعت اشتباكات، وأطلقت قوات الأمن الغاز المسيل للدموع على الحشود قبل أن تطلق الرصاص الحي.

أصبح ميسم عبادي، عامل الخياطة ذي الستة عشر ربيعاً، أول ضحية للاحتجاجات في العام 2009. كان قد اتصل بعائلته ليخبرهم بأنه سيقابل بعض الأصدقاء ويعود بعدها. إنما أصيب برصاصة في معدته. كان ميسم المعيل الرئيسي لأسرته، إذ لم يكن والده قادراً على العمل بسبب المرض.

في ذلك المساء، هنا خامنئي أحمددي نجاد، ووصف إعادة انتخابه بأنها «آية إلهية»، وحثّ المرشحين الخاسرين على قبول النتائج ودعّم أحمددي نجاد.

قالت ليلي، التي كانت على دراية جيدة بالقانون الدستوري: «لا يمكن لخامنئي فعل ذلك. عليه الانتظار حتى يصادق مجلس صيانة الدستور على النتائج. إنه يجعل أمر إلغاء النتيجة مستحيلاً على المجلس إذا ثبت وقوع التزوير».

فقلت: «لا يهم الأمر على أي حال، لأن مجلس صيانة الدستور لن يجرؤ أبداً على معارضة خامنئي. فهو من عيّنهم جميعاً».

في إيران، تباطأت سرعة الإنترنت بشكل كبير، مما كان محبطاً للغاية. أغلقت قوات مكافحة الشغب مقر حملة موسوي، وعرضت موظفيه ومراسلي وسائل الإعلام الأجنبية للمضايقات. من المثير للصحفيين والنشطاء أن يشهدوا لحظة تاريخية كذلك، إنما اتسم الأمر بالرعب في الوقت نفسه. لم أستطع تناول الطعام، ولا أعتقد أنني نمت أكثر من ساعتين في الليلة، بل كنت أغفو لفترات قصيرة خلال النهار. بكيت من الإحباط والحزن خلال متابعتي للأخبار. كان مزاجي يتحسن مع كل رسالة تحدّ من معسكر الإصلاحيين، ويُصيبني الإحباط مع كل خبر اعتقال جديد. كنت أرغب بشدة في العودة إلى إيران، لكنني كنت أعلم أنني لن أتمكن من مغادرة المطار سوى للسجن.

في يوم الأحد، 14 يونيو، بعد يومين من الانتخابات، ظهر أحمدي نجاد أمام تجمع احتفالي ضمّ مئات الآلاف من مؤيديه، الذين جلب معظمهم بحافلات من خارج طهران. خلال مشاهدتي التجمّع على الهواء مباشرة، شعرت بالغثيان لرؤية أحمدي نجاد يبتسم ويلوح للجمهور مرتدياً معطفه الأبيض الباهت. شبّه أحمدي نجاد الناخبين المؤيدين لموسوي الذين كانوا يحتجون في الشوارع شبّههم بمشجعي فريق كرة قدم خسر مباراة ويرفض قبول النتيجة. لكنه لم يكثرث، ووصف معارضيّه بأنهم «خس وخاشاك»، تراب وغبار. وقال: «لقد شارك أربعون مليوناً في الانتخابات في إيران. والآن يمكن لأربعة أو خمسة خس وخاشاك يتسللون من الزوايا فعل شيء بسيط. إنما يجب أن تعلموا أن الأمة

الإيرانية كالنهر الصافي الذي لن يسمح لهم بإظهار أنفسهم».

عُرضت في جميع أرجاء العالم صور الاشتباكات التي اعتدت فيها قوات مكافحة الشغب بالضرب الوحشي على أي شخص لم يكن سريعاً بما يكفي للهرب أو الاحتماء. وهتفت الحشود احتجاجاً على نتائج الانتخابات: «أين صوتي؟»

تردد صدى ليالي طهران بهتافات «الله أكبر» التي أطلقها المحتجون من أسطح المنازل. وهي المفارقة التي لم تغب عن القيادة الدينية؛ فخلال الثورة الإسلامية قبل ذلك بثلاثين عاماً، ردّد الإيرانيون الشعار ذاته ضد حكم الشاه الاستبدادي. والآن دارت عجلة التاريخ دورة كاملة، لكن الجمهورية الإسلامية أثبتت أنها أكثر قسوة من شرطة الشاه. قُتل محتجّان آخران في يوم 14 يونيو.

في الخامس عشر من يونيو، أي بعد ثلاثة أيام من الانتخابات، خرج في طهران أكثر من مليوني شخص في مسيرات داعمة لموسوي، في أكبر مظاهرة شهدتها إيران منذ الثورة الإسلامية في العام 1979. في لندن، شاهدت مقطع فيديو يظهر فيه بعض المتظاهرين وهم يحاولون اقتحام قاعدة للباسيج شمال شارع آزادي (الحرية). في البداية، أطلق رجال الميليشيا المتمركزين على سطح القاعدة النارَ في الهواء، ولكن عندما رشقتهم مجموعة من المتظاهرين بالحجارة، أطلقوا النار بشكل عشوائي على الحشد. ثم هاجم أفراد الأمن باللباس المدني غرف سكن الطلاب بجامعة طهران، وألقوا قنابل الغاز المسيل للدموع وأطلقوا الرصاص المطاطي. تعرّض خمسة طلاب للضرب حتى الموت، وقُتل اثنان آخران بالرصاص. كما اعتُقل نحو مئة شخص آخرين.

أقمتُ أودي بنظام غذائي يتكوّن من الأخبار، والفواكه، والقهوة. لم أستطع استيعاب

كيف وصلت البلاد الآمنة، التي تركتها قبل أيام، فجأة إلى شفا حرب أهلية. تحولّ الجو الاحتفالي الذي سبق الانتخابات إلى كابوس من الاعتقالات والوفيات. في اليوم التالي، 16 يونيو، نزل مئات الآلاف إلى الشوارع للتعبير عن دعمهم لأحمدي نجاد.

وكانت البلاد بأسرها تنتظر تعليق المرشد الأعلى خامنئي، والذي قيل لنا إنه سيصدر يوم الجمعة، 19 يونيو. مثلّ الوضع أزمة دستورية غير مسبقة في تاريخ الجمهورية الإسلامية. وللمرة الأولى منذ سقوط الشاه، تردّدت في الشوارع هتافات «الموت للديكتاتور». عندما حلّ التاسع عشر من يونيو، كان فمي جافاً من الخوف. كنتُ على يقين في أعماقي أن خامنئي لن يتراجع، ولم يخب ظني. وبّخ خامنئي المحتجين بلهجة قاسية. وفي كلمة ألقاها أمام آلاف المصلين في صلاة الجمعة بجامعة طهران، نفى مزاعم تزوير الانتخابات، واتهم الإعلام الغربي والعملاء الأجانب بتأجيج الاضطرابات سعياً منهم للإطاحة بالنظام. وقال: «التحدي في الشوارع غير مقبول». ووجّه تحذيراً خاصاً لقادة الإصلاحيين قائلاً: «سوف يتعرّضون للمحاسبة».

دعا موسوي إلى مظاهرة في اليوم التالي لخطاب خامنئي، 20 يونيو، إنما بعد تحذير خامنئي الصارم، بات واضحاً أن قوات الأمن قد حصلت على الضوء الأخضر لقمع المتظاهرين. ورغم ذلك، تدفّق مئات آلاف الإيرانيين إلى الشوارع بأعداد غفيرة لتحدي خامنئي. شعرت بفخر كبير تجاه مواطني الإيرانيين لشجاعتهم الكبيرة. لكن للأسف، أسرفت القوات الأمنية أيضاً في استعراضها للقوة. وبدأت وحدات من شرطة مكافحة الشغب، بعضها مصحوب بشاحنات مدافع المياه، بدت مصممة على تفريق الحشود. أظهرت مقاطع الفيديو المصورة بالهواتف المحمولة الشرطة ووحدات الباسيج وهي تهاجم الحشود وتضرب المتظاهرين بهراواتها وعصيها.

وعبر حاسوبى المحمول، أركمت أنفي رائحة الخوف والعنف في شوارع طهران. كنت

أحدت صفحتي على فيسبوك كل ساعة بأخبار آخر التطورات. ولعدم قدرتي على نشر المقالات بسبب تكبيل عمل صحيفة /اعتماد ملي، لجأت إلى مدونتي لنشر المعلومات. دعنتي بي بي سي لاستضافتي كمحللة زائرة في أحد برامجها الإخبارية لمناقشة آخر التطورات.

اعتمدت على مقاطع الفيديو التي كانت تظهر في بريدي الإلكتروني بانتظام مؤلم. وفكرت طويلاً بالدراما الإنسانية التي صاحبت الاحتجاجات. من هم هؤلاء الأشخاص التعساء الذين قُتلوا؟ هل كانوا شباباً أم كباراً في السن؟ هل كانوا متزوجين ولديهم أطفال؟ لم نكن نعرف شيئاً عن الضحايا. كنت أكتب عن صناع القرار في السياسة الإيرانية، عن الأقوياء وأصحاب النفوذ، إنما لم يكن هؤلاء هم من يتواجدون في الشوارع ويخاطرون بحياتهم. والآن، أردت أن أعرف المزيد عن الناس العاديين الذين استجابوا لدعوة موسوي وكروبي لحماية قدسية أصواتهم. لقد سئمت من الكتابة عن الأقوياء وأردت أن أحكي قصص المستضعفين.

خلال انتظار دوري في غرفة الاستقبال في بي بي سي، فتحت حاسوبي المحمول لمتابعة آخر المستجدات، ووجدت مقطع فيديو جديداً في صندوق الوارد. صورته أحد المارة على هاتفه المحمول، ولكنه كان مختلفاً عن كل المقاطع الأخرى. فقد وثق المقطع آخر أربعين ثانية في حياة الموسيقى ندا آغا سلطان على شوارع طهران بعد أن أُصيبت برصاص قناص. شاهدتُ، كما شاهد الملايين غيري، لحظة سقوطها ووفاتها. لم تكن ندا ناشطة سياسية أصلاً. كانت مجرد شابة في السابعة والعشرين من عمرها. وضعها حظها العاثر في المكان الخطأ مع مدربها الموسيقي، عالقين في ازدحام مروري خلال مطاردة شرطة مكافحة الشغب مجموعة من المحتجين. خرجت ندا من السيارة لمعرفة ما يحصل، فأطلق عليها أحد عناصر الباسيج النار. في الفيديو، تسقط ندا برفق على الأسفلت في حين يصرخ من حولها بياس. هرع طبيب نحوها، وضغط بكفه على جرحها

ليوقف النزيف. حدّقت عيناها مباشرة بالكاميرا، وحاولت أن تتكلم. إنما تدفق الدم من فمها مع مفارقتها الحياة.

انتشر الفيديو على نطاق واسع. عرضت شبكات التلفزة حول العالم المقطع مرارًا وتكرارًا. قُتل ما لا يقل عن خمسة عشر شخصًا في يوم 20 يونيو، الذي أُطلق عليه لاحقًا اسم «السبت الدامي»، ولكن وجه ندا الملطخ بالدماء أصبح رمزًا للحركة الخضراء، وهو الاسم الذي أُطلق على مؤيدي موسوي وكروبي.

خلال مشاهدتي ندا تنهار وتموت، صرخت في شاشة حاسوبي المحمول: «انهضي. أرجوكِ انهضي»، متوسّلة إليها. أردت لها أن تتحرك، أن تبقى على قيد الحياة. نظر الضيوف الآخرون إليّ بفزع، لكنني لم أكتثر. لقد ماتت ندا لتوها أمام عيني. بكيت بحرقة. عندما وصلت مساعدة المنتج، لوحت لها بالابتعاد في البداية.

قالت بلطف: «هل تريدان زيارة غرفة المكياج؟»

هزرت رأسي نفيًا. ظهرت على الهواء ذلك اليوم للحديث عن مقتل ندا والضحايا الآخرين، بوجهي الخالي من المكياج، وعيني المنتفختين، وأنفي ذي اللون الأحمر كحبة طماطم.

في خضمّ كل تلك المشاكل، كنت أشعر بالقلق لبقاء بويان عالقًا في إيران. كان بأمان مع جدّيه، لكنني اشتقتُ إليه كثيرًا. أدركتُ بعد دوامة العنف التي أعقبت الانتخابات أن عودتي إلى إيران قد تستغرق وقتًا طويلًا.

قلت له مُطمئنةً خلال إحدى مكالماتنا عبر سكايب: «سأخرجك من إيران». لم أكن أعرف كيف، لكن كانت تلك مهمة أخرى على قائمة مهماتي. كان يقترب من عمر الثالثة عشرة، ولم أقضِ معه وقتًا يذكر في العام السابق. أردت أن أجلب بويان إلى بريطانيا،

حتى أتمكن من الحصول على حضانته.

وسط دراما الانتخابات الإيرانية، اتصل بي مايك دي ليخبرني أن تأشيرتي جاهزة.

وأضاف: «لا تعمل الاحتجاجات في طهران لصالحك. فالبيت الأبيض لا يريد إرسال رسائل خاطئة».

قلت له: «يجب على أوباما أن يُظهر أنه معنا».

رد مايك دي: «لم نتوقع أن تبلغ الأمور هذا الحد من سوء. وعلى أوباما أن يتحرك بحذر شديد».

بعد بضعة أيام، والقلق يغمرنى، ركبْتُ طائرة تغصّ بالسياح البريطانيين: عائلات تحاول حشر حقائبها في صناديق الأمتعة العلوية وتحاول تهدئة أطفالها المشاكسين، وأزواج شباب يمسكون بأيدي بعضهم البعض ويعيشون أجواء رومانسية. لم أكن في حالة مزاجية طيبة. كما لم أكن أعلم ما الذي ينتظرني في الولايات المتحدة. أثارت مكالمات مايك دي لديّ بعض الشكوك عن إمكانية موافقة أوباما فعلاً على منحي مقابلة. لكنني شعرت أنه لا خيار لدي سوى المضي قدماً، كسمكة القرش التي يجب أن تسبح باستمرار للبقاء على قيد الحياة: عليّ أن أستمِر. لم يكن ثمة مجال للعودة إلى طهران.

ألقي موظف الهجرة في نيويورك نظرة سريعة على وثائقي قبل أن يرسلني إلى مكتب خلفي لإجراء فحص أكثر تفصيلاً. كنت مرهقة، ومتعبة من السفر، ومتشوقة للعثور على زاوية هادئة أفتح فيها حاسوبي المحمول لأطلع على آخر الأخبار. فقد مضت تسع ساعات أو أكثر منذ أن طالعت الأخبار. بغير اكتراث، أشار لي لأقرب أحد رجال أمن المطار بزيه الأزرق، وكان ضخّم البنية. كان أطول مني بشكل ملحوظ، وبدأ من المعقول أنه قد يسحقني لو سقط فوقى.

«إذن، أنتِ من إيران؟»، قال وهو يتفحص وثائقي وجواز سفري، ويضغط على أزرار جهازه الحاسوب دون أن يرفع نظره إليّ. عادت بي ذاكرتي إلى رحلتي إلى إيران قبل بضعة أسابيع، عندما اضطررت لتسليم جواز سفري لإجراء فحص مشابه.

«نعم، لكنني لست إرهابية». قلت بابتسامة خافتة، محاولةً أن أبدو ودودة.

حق رجل الأمن بي طويلاً. بقبعتي السوداء ومعطفي الطويل، لا بد أنني بدوت غريبة بعض الشيء. ابتسمت مرة أخرى.

«لماذا قلتِ ذلك؟»

«عيد ميلادي، الحادي عشر من سبتمبر... كانت مجرد مزحة».

«لا تمزحي أبداً في هذا الموضوع. اجلسي وسنستدعيك».

يا للعجب، فكرت في نفسي. لم أدخل الولايات المتحدة بعد، وقد أزعجت أحدهم بالفعل. بعد نصف ساعة من الانتظار والقلق، سلمني رجل الأمن جواز سفري.

«مرحباً بك في أمريكا»، قالها دون أن يلقي عليّ نظرة تذكّر. تطلب الأمر مني درجةً عاليةً من ضبط النفس لكيلا أصرخ فرحاً.

خفتت حماستي بشكل كبير خلال رحلة سيارة الأجرة الصفراء إلى بروكلين، إلى شقة روزبه مير إبراهيمي وزوجته سولماز شريف، الصحفيين اللذين هربا من إيران. كان روزبه قد سُجن فترة في إيران بسبب عمله الصحفي.

لم تُشبه بروكلين الصورة التي تخيلتها عن أمريكا. لطالما أردت ركوب سيارة أجرة صفراء مثل تلك التي تظهر في الأفلام، لكن شوارع بروكلين كانت مليئة بالحفر، واتّسم الجو بعد الظهر بالحرارة والزوجية، وصدحت أبواق السيارات بلا توقّف. حتى أنني

رأيت عدداً من النساء المحجبات يتجولن في الشوارع. تخيلت أنني سافرتُ نصف العالم لأجد نفسي في النهاية عائدةً إلى طهران.

بعد يوم أو يومين، أخذني مضيفاي في جولة لمشاهدة معالم مانهاتن. بدت مألوفةً لي ناطحات السحاب والأماكن السياحية مثل تايمز سكوير —أشبه بما كنت أتوقعه. كنت قد طلبت من علي أن يجد الوقت المناسب ليخبر آقاجان وأمي أنني ذهبت إلى أمريكا. كان علي من مؤيدي موسوي، بينما كما ذكرت سابقاً، كان آغا جان قد صوت لأحمدي نجاد.

لم تسرِ آخر محادثة لي مع آقاجان على ما يرام. فقد حذّرني قائلاً: «لا تذهبي إلى بريطانيا. فإذا استقرّيت للعيش هناك، لن أزورك أبداً». كان في مزاج معكّر ذلك اليوم. «عليك أن تبقي هنا مع أهلك. إذا غادرت البلاد، فلن أراك مرة أخرى».

كان آغا جان ما يزال مستاءً من كوني لم أتزوج مجدداً. حتى أُمي كانت تؤيد رأيه. قالت لي بنبرة حادة: «ما الشيء المميز هناك الذي يضطرك للسفر؟ ابقِي في طهران. تعاملِي بلطف مع رضا، وسيوافق على أن تري بويان كل أسبوع».

لم يكن لدي الجرأة لإخبارهم بأن رضا قد هاجر إلى ألمانيا.

جعلني التجول في شوارع نيويورك وسط المباني الشاهقة أشعر بالتضاؤل، كما لو كنت نملة صغيرة. لم تكن الشوارع مرصوفة بالذهب، إنما كان بإمكانك رؤية مظاهر الثروة والقوة في المدينة. في الوقت ذاته، صدمتني أكوام القمامة المكدسة على الأرصفة، حيث تتجول الجرذان البنية الضخمة ليلاً، خاصة في مناطق وسط المدينة. ومثّلت أعداد المشردين الهائلة اكتشافاً صادمًا بالنسبة لي.

كنت متوترة جداً لدرجةٍ منعّني من الاستمتاع بوجودي في مانهاتن. شعرت بغربة

عميقة عن كل شيء بعد طردي من إيران. بعيداً عن وطني، شعرت وكأنني ورقة تتطاير في مهبّ الريح.

كانت نيويورك مدينة ساحرة، لكن سرعان ما أدركتُ أن المرء بحاجة إلى الكثير من المال ليستمتع بها حقاً. كنت أعيش على ميزانية محدودة، وأقيم مع أصدقاء، وأنام في غرف الضيوف أو على الأرائك.

بعد بضعة أيام في نيويورك، تلقيت دعوة لحضور اجتماع في وزارة الخارجية في العاصمة واشنطن. عندما نزلت من القطار في محطة يونيون، فغرت فاهي دهشة من رؤية الأعمدة العالية، والسقف المزخرف، والنقوش المنحوتة. بالمقارنة، بدت محطة بين في نيويورك وكأنها من العالم الثالث. كنت أتشوّف لاستكشاف واشنطن، التي تُعتبر «قلب الإمبريالية الأميركية النابض». منذ خطواتي الأولى في محطة يونيون، شعرت أنني في المكان المناسب.

لطالما تمنيت رؤية البيت الأبيض، فاتجهت نحوه عبر ناشيونال مول، وسرتُ بجانب المباني والمعالم التاريخية. كل شيء كان نظيفاً وبراقاً! عند البيت الأبيض، فكرت في الوقوف مع السياح الآخرين الذين قدموا من جميع أنحاء العالم لإلقاء نظرة على البناء من الداخل. تساءلتُ في نفسي عما إذا كان الرئيس أوباما موجوداً وإذا كان بإمكانني التسلل إلى المكتب البيضاوي. بالمقارنة مع إيران، بدت الإجراءات الأمنية في حدّها الأدنى.

وحيثما نظرتُ، رأيتُ عشرات الأعلام الأميركية العملاقة ترفرف بلطف في الرياح. كان من المدهش رؤية هذا العدد الكبير من الأعلام الأميركية دون أن تكون مشتتة بالنيران. فكل طفل في إيران يتعلم كلمات أغاني مثل «أمريكا، أمريكا، مرغ بر نيرنغ تو» (أميركا، أميركا، الموت لخداعك). لسنوات عديدة، قيل لي إن علم النجوم والخطوط هو علم العدو،

وها أنا الآن محاطة بالمئات منها. كان الأمر مربكاً للغاية.

وأخيراً وصلت إلى وزارة الخارجية. راح قلبي يخفق بسرعة، وشعرت بصعوبة في التنفس. كان الأمر مزعجاً، لكنني أقنعت نفسي أنه إذا كانت هذه الخطوة الأولى لمقابلة أوباما، فهي تستحق العناء. ارتديت نفس قبعة الصحفية التي كانت رفيقتي الدائمة في لندن. بدونها شعرت وكأنني عارية.

أدخلوني إلى غرفة فيها ثلاثة أو أربعة مسؤولين خبراء في الشأن الإيراني، وأرادوا معرفة ما إذا كنت أحمل خطاب اعتماد من صحيفتي. عرّفوا بأنفسهم، لكنني نسيت أسمائهم على الفور.

راحوا يسألونني للحصول على معلومات عن كيفية تطور المواجهة السياسية في إيران. قلت لهم: «نحن في منطقة مجهولة. لم يجرؤ أحد من قبل على معارضة المرشد الأعلى، لكن لدينا الآن شخصيتان ذات مصداقية تتحدّيان سلطته».

«كيف ستنتهي المواجهة؟» سأل أحد المسؤولين.

أجبتة مازحة: «في إيران، نلومكم دائماً على كل ما يحدث، لذا أخبروني أنتم كيف سينتهي الأمر»، وقصدت أن الأمريكيين قد يعرفون الإجابة.

تحدثنا أكثر عن الوضع في إيران، ثم حولت الحديث إلى طلبي لمقابلة أوباما.

قال نفس المسؤول: «الأمر معقد». وأردف أنه كان يود ترتيب لقاء لي، لكنه أوضح أن رؤية الرئيس أوباما ليست بالأمر السهل.

أضاف مسؤول آخر، بدا أعلى رتبة: «لا يستمع البيت الأبيض دائماً لنصائح وزارة الخارجية. ما رأيك بحضور إحدى المؤتمرات الصحفية لوزيرة الخارجية هيلاري

كلينتون؟ ويمكنك أن تطرحي سؤالاً كذلك».

كان العرض مغرياً. كنت سأصبح أول صحفية من الجمهورية الإسلامية تطرح سؤالاً على هيلاري كلينتون، لكنني لم أقطع كل هذه المسافة من أجل مقابلتها.

«سنتابع الأمر خطوة بخطوة»، أوضح المسؤول المسؤول عن اللقاء. «قد نتمكن من ترتيب مقابلة قصيرة معها. سنرى رد الفعل على تلك المقابلة، ومن ثم يمكننا مخاطبة البيت الأبيض مرة أخرى».

كنت أعلم أنهم يحاولون المساعدة، إنما رغم خبرتهم ومعرفتهم، بدا أنهم لم يفهموا العلاقات البيئية المتشابكة. كانت هيلاري كلينتون تُعتبر من الصقور، وقد أطلقت تصريحات قوية معادية لإيران، في حين أبدى أوباما استعداداً لإصلاح العلاقات. لن يوافق كروبي أبداً على نشر مقابلة مع كلينتون في صحيفته.

قلت: «لا ضمانات بأن صحيفة /اعتماد ملي لن تتعرض للإغلاق قريباً جداً. فنحن تحت ضغط كبير حالياً، وليس أمامي سوى فرصة واحدة، لذا يجب أن تكون المقابلة مع الرئيس أوباما حصراً».

ساد الصمت في الغرفة.

«إذا كان الحال كذلك، دعينا نجرب إمكانية حضورك مؤتمر صحفي للرئيس أوباما»، قال المسؤول عن الاجتماع، بنبرة لم تكن مقنعة جداً.

كان اللقاء محبطاً للآمال. كنت أظن أن المسؤولين الأمريكيين سيتسابقون لترتيب مقابلي مع أوباما. وأديت واجبي، فقرأت عن الرئيس، وأعددت أسئلتي. ورغم ذلك، بدا أن المسؤولين الأمريكيين حائرين في كيفية المضي قدماً. إنما لم يكن الاستسلام أمراً

أقبله بسهولة.

قلت بجرأة في نهاية الاجتماع: «سأبقى في الولايات المتحدة حتى أحصل على مقابلي».

لم يكن واضحاً ما إذا كانت الاحتجاجات في الشوارع في بلدي تساعدني أو تعرقل جهودي للوصول إلى أوباما. في غضون ذلك، لم يكن لدي ما أفعله سوى الانتظار.

سافرت إلى بوسطن، وأطلقت مع بعض الناشطين موقع صحيفة جارس الإلكترونية التي خصصناها للحركة الخضراء. أصبح لدى الإصلاحيين الآن وسيلتهم الإعلامية خارج البلاد لمواجهة أكاذيب حكومة أحمدي نجاد ولتسليط الضوء على الاحتجاجات. كتبت العديد من المقالات، ونشرت بعضها تحت اسم مستعار.

صرفتُ شطر انتباهي لمراقبة التطورات السياسية في إيران، والشطر الآخر بانتظار تحرك البيت الأبيض. أدركت أنه يجب علي ترسيخ سمعتي للضغط على فريق أوباما. في نيويورك، التقيت لورا سيكور، الكاتبة في مجلة نيويوركركر، التي وثقت محاولاتي لمقابلة الرئيس أوباما. كنت أدعو أن يقرأ موظفو البيت الأبيض المقال. لخصت سيكور معضلتي قائلة: «بالنسبة للبيت الأبيض، فإن الطلب الذي بدا في الربيع فرصة للتواصل، أصبح الآن يمثل معضلة». وأضافت سيكور أن أوباما قد وقع في مأزق. فإذا التقى بي، قد يُعتبر منحازاً لطرف ما، وإذا رفض، فقد يبدو وكأنه يدير ظهره للإيرانيين الذين يحتجون على الديكتاتورية.

بعد نشر مقال /نيويوركركر، تلقيت اتصالاً من وزارة الخارجية يفيد بأنهم يعملون على تأمين دعوة لي لحضور المؤتمر الصحفي الرئاسي القادم في البيت الأبيض، حيث ستتاح لي الفرصة لطرح سؤال على أوباما. لا ينبغي لأحد التقليل من شأن نيويوركركر

أبدًا. شكرًا لك، يا لورا.

توجهت إلى الساحل الغربي لإلقاء كلمة أمام تجمع احتجاجي نظمته الجالية الإيرانية في سان فرانسيسكو. لم أكن قد تحدثت أمام جمهور من قبل، لكنني قبلت التحدي بجرأة. فكرت أن الحضور سيكون محدودًا، وألا ضرر في المحاولة. لطالما أعجبت بخطابات أوباما، لكن عندما كنت في إيران درستُ خطب زعيم حركة الحقوق المدنية مارتن لوثر كينغ جونيور، لا سيّما خطابه «لدي حلم»، الذي أثر فيّ كثيرًا بلغته المميزة وأسلوب التكرار. وخلال جهودي في تعلم اللغة الإنجليزية، استمعت إلى الخطاب مرارًا وتكرارًا.

لم يكن لديّ الكثير من المعارف في سان فرانسيسكو، وعندما وصلت إلى التجمع، بدت وكأنني لا أنتمي إلى المكان بأي شكلٍ من الأشكال، بزيي المكون من قبعة سوداء ومعطف طويل -في حين كان الجميع يرتدون قمصان تي شيرت وسراويل جينز. احتشد آلاف الإيرانيين في ساحة سيفيك سنتر، أمام مبنى بلدية سان فرانسيسكو، للاستماع إلى متحدثين ينددون بالقمع في طهران. كانوا يتحدثون الفارسية، لكن معظمهم قد ترك إيران منذ سنوات طويلة، إن لم يكن عقودًا.

صعدتُ إلى المنصة ببطء مع إعلان المقدم اسمي وسط تصفيق متفرق. كان اليوم حارًا، ودعوتُ في سرّي أن أتمكن من تحمّل الحرارة. قلت بصوت مرتجف:

لقد سُجنتُ، وضُربتُ، وطُردتُ، ومُنعتُ من إكمال تعليمي، لكنني لم أفقد الأمل. أنا مجرد مسافرة من إيران، ذلك البلد الذي يكفي فيه أن يشكّك في إيماننا مجرد حارس مسجدٍ متواضع، فتتعرض حياتنا للدمار. لكن اليوم، نحن من نشكّك —نحن من يشكّك

بنزاهة الانتخابات التي دمرت سمعة هذه الحكومة... لقد فقد الناس أرواحهم، وسُجن الكثير غيرهم — لكن الحكومة نفسها هي سجينة أكاذيبها.

لثلاثين عاماً كنا نحن من يخاف. أما الآن، فعلى الجمهورية الإسلامية أن تخاف.

بث القسم الفارسي لصوت أمريكا (VOA) وقنوات تلفزيونية أخرى مقرها لوس أنجلوس كلمتي التي استمرت عشر دقائق مراراً وتكراراً. لم يسبق لأحد أن هاجم الجمهورية الإسلامية بهذا الوضوح وبهذه المصطلحات من قبل. ورفع أحدهم الكلمة على يوتيوب وانتشرت بسرعة على نطاق واسع. وفي غضون بضعة أيام، أصبح العديد من الإيرانيين في الشتات يتحدثون عنها. وأطلق موقع Iranian.com عليّ لقب «إيراني اليوم». لم يكن أصدقائي النشطاء في إيران سعداء بذلك. حتى كروبي اتصل بي موبّخاً.

«كان من المفترض أن تنتقدي أحمدي نجاد، لا الجمهورية الإسلامية بأكملها»، قال لي أحد النشطاء في طهران. «لا يمكنك أن تقولي إن الجمهورية الإسلامية كانت ديكتاتورية على مدار ثلاثين عاماً».

لم يكن الإصلاحيون ينشدون الإطاحة بالنظام بأكمله؛ فهم لم يكونوا راضين عن أحمدي نجاد فحسب. وأشعرني كبار قادة الإصلاحيين بأنني منبوذة ومهملة. والآن أصبح أمر رجوعي إلى إيران بعيد المنال أكثر من أي وقت مضى.

في بروكلين، كنت مشغولة بكتابة العشرات من الأخبار اليومية لدونتي وصفحتي على الفيسبوك. كنت أشعر بالضياع وعدم اليقين بشأن خطوتي التالية. استمر مسؤولو

وزارة الخارجية الأمريكية في حثي على التحلي بالصبر. لم أكن أعلم حينها أن حياتي بأكملها على وشك أن تتغير.

تلقيت اتصالاً من كامبيز فروهر، صحفي في وكالة بلومبرغ. كنت قد سمعت عن بلومبرغ بشكل عابر. وقد شاهدت برامجهم التلفزيونية التي كانت مليئة بالأرقام المتحركة أسفل الشاشة. بعد ظهوري في سان فرانسيسكو، اعتدت تلقي طلبات لإجراء مقابلات وافترضت أنه اتصل لإجراء مقابلة معي. بدأت في إلقاء خطابي الذي كنت قد أعدته بعناية عن كيفية وصولي إلى أمريكا، لكنه قاطعني على الفور.

«ما الذي تفعلينه هنا حقاً؟» سألني.

«سأجري مقابلة مع أوباما»، أجبت بثقة.

«حقاً؟» قال بنبرة شبه ساخرة. «هل تلقّيت تأكيداً بشأنها؟»

«ليس بعد، لكن...»

«أنا أعمل لدى بلومبرغ، وهي منظمة إخبارية كبرى، ومع ذلك نواجه صعوبة في الحصول على مقابلة مع أوباما. ليس الأمر بالسهولة التي تبدو من حديثك».

«حسنًا، وزارة الخارجية تساعدني»، حاولت أن أظهر بعض التفاؤل. «هل تكتب تقريراً صحفياً عني؟»

«ليس أمرك جذاباً لقراءنا»، قال موضحاً. «لكن ربما يمكنني دعوتك للغداء والحصول على بعض التفاصيل عن السياسيين الإصلاحيين. وربما تشاركونني جهات الاتصال الخاصة بك».

وافقت ونسيت الأمر على الفور. وفي اليوم التالي، فوجئت عندما اتصل لتذكيري

بموعد الغداء.

«كيف حصلت على رقمي أصلاً؟»

«تذكري أنني صحفي. هذا عملي. ما يزال عرض الغداء قائماً».

كنتُ لم أغادر الشقة لثلاثة أيام. جلست أمام الكمبيوتر المحمول أتابع التطورات السياسية وأنسق تغطية الاحتجاجات. ولم يكن لديّ رغبة في الخروج.

«لا أشعر أنني على ما يرام. غيرت رأيي. لماذا لا تأتي لتناول الغداء هنا في بروكلين؟»

أجاب: «لا أحد يذهب إلى بروكلين لتناول الغداء». تبع ذلك صمت طويل. «أراهن أنك لم تغادري المنزل منذ أربع وعشرين ساعة، أو ربما ثمان وأربعين ساعة. سيجعلك الخروج تشعرين بتحسن كبير».

كان مُلحاً دون أن يكون مزعجاً، وبعد ساعتين وجدت نفسي في شارع ليكسينغتون أمام مبنى بلومبرغ. كنت أرتدي قميصاً وردياً وبنطال جينز، ولولا أنني فقدت قبعتي السوداء في مترو الأنفاق، لكنت سأعتمرها. على الرصيف، ضربت الرياح شعري بعنف، ما جعله يتطاير في كل اتجاه. كنت أجاهد للسيطرة على شعري عندما سمعت صوتاً يقول: «خانم علي نجاد؟»

بدا كامبيز في غاية القلق. «أين عباةك؟ وقبعتك؟»

«خارج إيران، أرتديها في المناسبات الرسمية فقط. كيف تعرفت عليّ؟»

«في الحقيقة، لم أعرفك. لكن رأيت شخصاً عالِقاً في دوامة من الشعر، وخمّنت أنه أنت».

أخذني في جولة في مكاتب بلومبرغ. كان أكثر مباني نيويورك التي أثارت إعجابي. خرجنا من أبواب المصعد في الطابق السادس إلى منطقة مركزية تشبه سطح قيادة مركبة فضائية، ويغمر المكان ضوء النهار المنساب عبر النوافذ الضخمة. قدمت قاعة الطعام مشروبات غازية مجانية وتشكيلة متنوعة من الفواكه والوجبات الخفيفة. وخلال تجوالي في استوديوهات التلفزيون وغرفة الأخبار، شعرت لأول مرة أنني آتية من بلد من العالم الثالث.

«لا شبه أبداً بين غرفة الأخبار هذه وتلك التي لدينا في *اعتماد ملي*». حدثت في أجهزة الحاسوب المصطفة على المكاتب. «نضطر لمشاركة أجهزة الحاسوب التي تُعتبر تاريخية مقارنة بأجهزتك».

كان الحديث مع كامبيز عفويًا، وراح يطرح أسئلة للحصول على معلومات عن الفصائل السياسية المختلفة. أثناء الغداء، سألتني إن كان بإمكانني أن أوصله بموسوي أو كروبي لإجراء مقابلة معهما.

قلت وأنا أغرز شوكتي في قطعة من سلطة الدجاج: «لن يتحدثا معك مباشرة. لا يمكنهما الظهور متحدثين مع وسائل الإعلام الغربية. يمكنك الوصول إلى مستشاريهم، لكن ليس الشخصيات الرئيسية».

قبل خمس سنوات، كان كامبيز قد كتب تقريرًا استقصائيًا عن ثروات عائلة الرئيس الإيراني السابق رفسنجاني. فاز بجائزة دولية، لكن الجمهورية الإسلامية أوصلت له رسالة واضحة بأنه لم يعد موضع ترحيب في إيران بعد ذلك.

سألني: «كيف سينتهي هذا الأمر؟»

«لم نشهد شيئًا مثل هذا من قبل. لا أحد يعرف».

كنت بحاجة إلى قبعة سوداء جديدة لتحل محل التي نسيتها في المترو، فأخذني كامبيز إلى متجر بارنيز. لكنه لم يخبرني أن هذا المتجر يُعتبر من أغلى متاجر الملابس في المدينة. اخترت قبعة كاب سوداء وتوجهت إلى المحاسب.

ابتسم المحاسب بلطف وقال: «سعرها مئتي دولار».

ظننت أنها لا تساوي سوى عشرين دولارًا، لكنني لم أرغب في إحراج نفسي أمام كامبيز. أخرجت ورقتين نقديتين من فئة المئة دولار، وأنا أفكر كيف أنني أصبحت مثل أمي، قلقة بشأن حفظ ماء الوجه».

قال لي كامبيز بصوت يعكس انبهاره: «لا بد أنك ثرية إذا كنتِ قادرة على دفع مئتي دولار لشراء قبعة».

سألته لاحقًا: «كم كنت ستدفع؟»

«كنت سأدفع نحو عشرين دولارًا لبائع جوال على ناصية الشارع».

بعد ذلك، جلستُ على مقعد في سنترال بارك. كان يومًا جميلًا. من حولي، كان العدائون يركضون، وراكبو الدراجات يتسابقون، والمتزلجون على العجلات يمرون بسرعة. كنت غارقة في التفكير. كان عليّ إخراج بويان من إيران — لم تكن ثمة طريقة أتمكن بها من العودة إلى البلاد في المستقبل القريب. كان السؤال الوحيد هو كيف أخرجه. إذا وجدتُ شخصًا يأخذه عبر الحدود إلى تركيا، حينها أستطيع أن آخذه معي إلى بريطانيا.

قضيت أيامي في كتابة تقارير لمجلة *جارس واعتماد ملي* خلال انتظاري قرار البيت الأبيض. استمرت المواجهات في إيران. لم تكن حركة الخضراء تختفي، لكن الأمور وصلت إلى طريق مسدود. كانت تُقام مظاهرات حتى خارج بناء الأمم المتحدة في نيويورك لتسليط الضوء على الانتخابات المثيرة للجدل. وكان من المحتمل أن يحضر أحمدى نجاد إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة في سبتمبر، لكنني لم أستطع قضاء كل هذا الوقت منتظراً في نيويورك.

بعد أسبوع، أخذني كامبيز إلى غداء في مطعم بي جيه كلاركس، وهو مطعم قديم في وسط المدينة.

«أما زلت ترغب بمقابلة مع موسوي؟» سألته بينما كنت أمضغ بشهية مفتوحة شريحة لحم متوسطة النضج. لم أتناول طعام الإفطار للعمل على فيلم وثائقي عن أحداث العنف التي أعقبت الانتخابات.

أوماً رأسه بحذر.

قلت: «وأنا بانتظار أوباما. كلانا في حالة انتظار، وسينجح أحدهما بإجراء المقابلة التي ينتظرها».

قال كامبيز: «لا يبدو موسوي ودوداً مع وسائل الإعلام، فكيف يحظى بهذه الشعبية الكبيرة؟»

أجبت: «لأنه ليس أحمدى نجاد، هذا هو السبب».

كنت أحب تلقي الدعوات لتناول الوجبات في المطاعم، ربما لأنني لا أحب الطهي. تحدثنا عن كل شيء، لا سيما عن خططي بعد أن أحصل على مقابلي مع أوباما.

«ربما يشعر بالتوجس من مواجهة صحفية صعبة المراس. فأنتم كصحفيين أمريكيين تتعاملون معه بلطف شديد».

اتّسمت الحديث بالمرح، بالإضافة إلى نقاشٍ عن آخر التطورات السياسية. على الطاولة المجاورة جلست امرأة ترتدي ملابس غريبة، وزيّنت سترتها بالكثير من الدبابيس والبروشات. أثناء تناولها الطعام، انشغلت برسم شيء ما في دفترها. لم نعرها الكثير من الاهتمام، لكنها كانت تولي اهتمامًا بنا.

مع مغادرتها المطعم، طلبت أسماءنا وكتبتها على رسم كاريكاتيري رسمته لنا أثناء الغداء.

«تبدوان كزوجين رائعين. آمل أن تبقى كذلك طوال العمر»، قالت وهي تسلمنا الرسم.

غمرني وكامبيز إحراجٌ شديد. صحيحٌ أنني شعرت بانجذاب نحوه، إنّما شغلت الكثير من الأحداث الحيّز الأكبر من اهتمامي.

لم تكن الأخبار الواردة من طهران مشجعة. ففي أوائل أغسطس، بدأت محاكمة صوريّة لمئة من المسؤولين الحكوميين السابقين، والذين واجه معظمهم تهمة التآمر مع قوى أجنبية لإشعال ثورة ضد الجمهورية الإسلامية. كان معظم المتهمين إما من أصدقائي أو معارفي السياسيين. عُرضت المحاكمة مباشرة على التلفزيون الإيراني، وكان من الصادم رؤية المسؤولين السابقين يرتدون زيّاً أزرق فاتحاً يشبه البيجامات، ووجوههم هزيلة وشاحبة.

بعد يوم من بدء المحاكمات، أدى أحمددي نجاد اليمين الدستورية رئيساً للبلاد. وتعاونت شرطة الشغب والحرس الثوري والباسيج لمنع المتظاهرين من التجمع لتشكيل مظاهرة حاشدة.

أُجريت مقابلة معي في برنامج «أخبرني المزيد» على إذاعة إن بي آر لمناقشة مساعي لعقد مقابلة مع أوباما. وبعد أيام قليلة من المقابلة، أمر المدعي العام في طهران سعيد مرتضوي بإغلاق صحيفة اعتماد ملي. وهكذا لم يعد لدي صحيفة أنشر بها ما أكتب، حتى لو وافق البيت الأبيض على المقابلة.

بعد ذلك بفترة وجيزة، ذهبتُ إلى واشنطن لإعداد برنامج خاص عن الانتخابات الإيرانية في العام 2009. اتصل بي بعض معارفي في وزارة الخارجية وعرضوا علي فرصة لإجراء مقابلة مع وكيل وزارة الخارجية المساعد لشؤون الشرق الأوسط. قال لي أحدهم: «الوضع متوتر جداً. لنرَ كيف تسير هذه المقابلة، ومن ثم نتابع الأمور».

فقدت صبري.

وقلت: «رفضت مقابلة كلينتون من قبل، والآن تعرضون علي مقابلة وكيل الوزارة المساعد. لا أرضى بذلك».

«نحن حريصون على عدم إرسال رسائل استعدائية».

كان ذلك آخر اتصال لي مع وزارة الخارجية.

كنت أفهم وجهة نظره. فقد أصبح أحمد نجاد رئيساً لإيران، ووضعني ارتباطي بكل من كروبي وموسوي في خانة المعارضة. يبدو أن أوباما لم يكن راغباً في استفزاز النظام الديني.

مساء يوم الجمعة، اتصلت بكامبيز من غرفتي في الفندق بواشنطن.

من بين جميع من قابلتهم في الولايات المتحدة، كان الحديث معه الأكثر عفوية. نشأ

في لندن، وكان واثقًا من نفسه دون أن يكون مزعجًا.

قال: «كنت أفكر في ذريعة للاتصال بك».

«أنا في غرفة الفندق بمفردي، وقد تعبت من كل الأشخاص حولي. عليك أن تأتي وتنقذني».

«سأوافيك غدًا لأعيدك إلى نيويورك. جهزي حقائبك».

«يوجد الكثير ممن يريدون رؤيتي. ماذا أقول لهم؟»

«قولي لهم وداعًا».

في اليوم التالي، وصل في سيارة ساب سوداء متهاكة. لم يكن يحاول إثارة إعجابي بسيارات فاخرة. أمضينا الساعات العشر التالية مسافرين نحاول فهم بعضنا البعض في الطريق إلى نيويورك. كان لديه طفلان من زواجه الأول، وكان «نوعًا ما» يواعد امرأة أخرى. وأوضح أن علاقتهما ليست أمرًا جدًّا.

قلت: «توقيت لقائنا غير ملائم، فأنا عائدة إلى لندن ومن ثم إلى تركيا».

كنت قد رتبت مع صديق أن يأخذ بويان إلى إسطنبول بالحافلة.

«وعدته بأن أخرجه من إيران بحلول سبتمبر. ولا تنقص حياتي المزيد من التعقيدات. لا يمكننا بدء علاقة». كنا واقفين خارج منزل الصديق في بروكلين حيث كنت أقيم. تجاوزت الساعة منتصف الليل، ولم يكن ذلك أفضل وقت لاتخاذ قرارات مصيرية في الحياة.

«سنجد حلًا».

«لديك طفلان. ولم أرَ ابني منذ فترة طويلة».

«لا داعي للعجلة أو الضغط. أخرجي ابنك من إيران. وسنرتب الأمر». عند وداعه، مددت يدي لمصافحته.

«تعالى عانقيني عناقاً حقيقياً. أنا لا أصافح». عانقني بشدة، ولكنه لم يحاول تقبيلي، وهذا ما أعجبني. لم أكن مستعدة بعد لأي علاقة حميمة.

في اليوم التالي، وأنا جالسة في مقعدي بالطائرة، لم أستطع منع نفسي من مراسلته بأشياء غير مهمة. مجرد دردشة.

أرسل لي رسالة نصية: «لم تحسلي على أوباما، لكنك حصلتِ عليّ بدلاً من ذلك. هذه صفقة رائعة».

رددت برسالة: «هاها».

كنت أرغب في البقاء، لكن عجلة الأحداث في إيران كانت قد بدأت بالدوران.

كان عليّ قد رتب لصديقٍ أن يأخذ بويان إلى طهران من بابل، ثم يصطحبه زوجان أكبر سنًا إلى إسطنبول.

الفصل الثامن عشر

هبطت طيارتي في لندن، ثم أقلعت مرةً أخرى في اليوم التالي إلى إسطنبول، وأنا أشعر بالحماس لأنني سأجتمع أخيراً بابني الصغير.

لكنه لم يعد صغيراً. فقد أصبح ولدي الحبيب، الذي كان صغيراً، أصبح ذا شارب خفيف أشبه باليرقة على شفته العليا. كان ما يزال نحيفاً وصغير البنية بالنسبة لعمره — لكنني الآن أمٌ لمراهق. لم يغب عن بالي تمرّدي في سنوات مراهقتي. إنما لم يكن ذلك مهماً بالنسبة لي حينها. أردتُ أن أصرخ، وأغني، وأرقص عندما رأيته. أخيراً أصبح ابني معي، ولن يأخذه أحد مني بعد الآن.

كان ثمة إخراج من نوعٍ ما. إذ قاوم بويان محاولاتي لاحتضانه وتقبيله في البداية. واحتج قائلاً: «أنتِ تخرجيني»، وهو يحاول الإفلات مني. «لم أعد طفلاً».

أردت أن أقضي بضعة أيام في إسطنبول للقاء الأصدقاء وغيري من الصحفيين الذين فروا من القمع في إيران — ولتوثيق علاقتي ببويان. لسنواتٍ طويلة، لم أكن أماً تكرّس كامل وقتها لابنها، وأدركت أنني بحاجة لتعلّم الكثير عن ولدي. اشتريت له آيس كريم الشوكولاتة — فكل الناس يحبون الآيس كريم. إنما على الفور، وبعد لقمة واحدة، بدأ بويان بالعطس. بعد العطسة الرابعة أو الخامسة، نظرت إليه باستغراب.

فقال لي: «لدي حساسية من الشوكولاتة. إنني أحبها، لكنني أعطس طوال الوقت». ثم عطس مرة أخرى.

«متى أصبتَ بهذه الحساسية؟ لماذا لم يتناه ذلك لعلمي؟»

«ربما لأنك لم تشتري لي الشوكولاتة من قبل».

تساءلتُ في نفسي: يا ترى ما الذي أجهله كذلك عن ابني؟ أردتُ أن أعوضه عن كل السنوات التي لم يكن معي فيها، وأن نسجّل ذكريات سعيدة معاً. أخذته إلى آيا صوفيا، الكاتدرائية المسيحية التي أصبحت مسجداً إمبراطورياً، والآن هي متحف. لم أصبح متدينة فجأة، لكنني أردت أن أري بويان مقدار ثقافتي. كان الأمر طريفاً، إذ انصبّ كل اهتمامي على كيفية ترك انطباع إيجابي لدى ابني.

دخلنا أخيراً، بعد الانتظار في الطابور لفترة طويلة. ولفّت انتباهي على الفور اللوحات الدائرية المزخرفة التي تتدلى من الأعمدة، والتي تحتوي على أسماء الله؛ النبي محمد؛ وخلفائه الأربعة، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي؛ وأحفاد محمد، الحسن والحسين. كُتبت الأسماء بالذهب على خلفيات سوداء. وشكّل الفن الإسلامي تناقضاً صارخاً مع التصاوير المسيحية الأرثوذكسية في الفسيفساء التي ضمت: ملوك وقديسين مع هالات ذهبية تحيط برؤوسهم. كان من الصادم رؤية التصاوير المسيحية والإسلامية جنباً إلى جنب.

عندما غادرنا المبنى، كان الأذان يتردد في الساحة، وفجأة شعرت أنني قد انتقلت إلى إيران. إنما لم يدم هذا الشعور سوى للحظة، لأن كل من حولي كانوا سياحاً لا يضعون أي غطاء للرأس.

لم يُظهر بويان أي اهتمامٍ يُذكر بالمتاحف، وسرعان ما شعر بالملل من أي نشاط ثقافي. في اليوم التالي، فكرت أن أترك انطباعاً كبيراً عليه بأخذه إلى بيوك آضه، إحدى الجزر في بحر مرمرة والتي لا تبعد عن إسطنبول سوى ساعة بالعبّارة. انضم إلينا الزوجان اللذان أحضرهما من طهران، وقاما بدور المرشدين بحكم زيارتهما المتكررة للمدينة. وقف بويان مذهولاً عند حاجز القارب طوال الرحلة. كانت تلك أول رحلة له

بالعبارة.

من السمات الفريدة لبيوك آضه أنه لا توجد سيارات على الجزيرة، بل عربات تجرها الخيول، ولها مقاعد جلدية حمراء. استأجرنا واحدة لجولة استغرقت ساعة. تحدثت إلى بويان عن حياتي وعملي منذ مغادرتي إيران. أصبح هو الآن كل عائلتي بعد أن صار كلانا خارج إيران.

سألني: «هل التقيت بأوباما؟»

«لم يكن التوقيت مناسباً»، أجبت. كنت أرغب بشدة في نيل إعجابه. «ربما في المرة القادمة».

أراد بويان الوصول إلى إنجلترا بأسرع وقتٍ ممكن. وفي ذلك المساء في الفندق، سألني عما إذا كانت إنجلترا مجاورةً لألمانيا.

قال: «أريد أن أذهب لرؤية بابا رضا. وربما أستطيع البقاء عنده».

شعرت وكأنني تلقيت ركلة في معدتي. لم أستطع أن ألومه حقاً، فقد أمضى بويان معظم حياته مع والده. ومع ذلك شعرت بالخيبة.

في اليوم التالي سافرنا بالطائرة إلى بريطانيا لبدء حياتنا الجديدة معاً. بمجرد أن انتهينا من قسم الجوازات في المطار، بدأت مشاكلنا. لم يكن إتقاني للغة الإنجليزية جيداً، وحتى بويان استطاع ملاحظة عدد المرات التي طلبت فيها من الناس أن يكرروا ما يقولون قبل أن أفهمهم. ضللنا الطريق في مترو الأنفاق، ووجدنا أنفسنا في إيرلز كورت، نقطة تجمع الرحالة العامرة بمحلات المراهنة، ومطاعم الوجبات السريعة، ومتاجر الخمر، وهو ما لم يكن في حسابان بويان. سعدنا بحقائبنا الثقيلة على درجٍ

قصير للخروج إلى الشارع، لنكتشف أننا كنا في المحطة الخطأ. بعد الحصول على إرشادات مفصلة من ليلي، ركبنا حافلتين مختلفتين قبل أن نصل إلى حيها. حلّ الإرهاق الشديد ببويان. وتناولنا شطائر كباب في مطعم للوجبات السريعة، وبما أنني أحب البصل، طلبت كمية إضافية لكلينا. وبعد ذلك، اعترف لي بويان أنه يكره البصل وكاد أن يستفرغ في المطعم. كنت قد عشت بمفردي لمدة تسع سنوات دون التفكير بالاعتناء بأي شخص آخر. أدركت أن دور الأم أصعب مما كنت أتصور.

أخيراً وصلنا إلى شقة ليلي. كان ابنها بارسا أصغر من بويان بثمانية عشر شهراً تقريباً، وسرعان ما أصبحت صديقين مقربين، وذهبا معاً إلى غرفة بارسا.

«لا أعتقد أنني أستطيع أن أكون أمّاً مرة أخرى»، أسررتُ ليلي. «أردتُ حقاً استعادة ابني، إنما الآن بعدما أصبح معي، صرتُ أشعر بالخوف. كيف تتعاملين مع الأمر؟ هل عليّ أن أطبخ كل يوم؟ أنا التي أكره الطبخ».

ثمة سبب آخر جعلني متوترة. لطالما أردت أن تكون حياتي مؤثرة. إذ كنت أرى نفسي كاتبة، وصحفية، وناشطة. والآن إيران في حالة فوضى، وهذه فترة حرجة. أردت أن أحدث فرقاً.

«ستعتادين على الأمر سريعاً»، قالت ليلي.

حتى قبل طلاقي، كنتُ معيلةً أسرتي، وكنتُ أكره أن أكون أمّاً ربّة منزل. لم يكن ثمة مفرّ من واقعي الجديد: عليّ أن أتعلّم كيف أكون أمّاً لمراهق.

فأردفتُ والذعر يتملّكني: «عليّ أن أربي ابني وأكسب لقمة عيشي بمفردي في بلد أجنبي. وأنا نفسي بالكاد أجيد التحدث بالإنجليزية».

كنت أريد أن أعيش بالقرب من ليلي، لكنني سجلت للحصول على شهادة جامعية في أكسفورد، وكان علي أن أجد مكاناً في المدينة في أسرع وقت ممكن. كما توجب علي تسجيل بويان في مدرسة في وقتٍ قريب جداً.

«سنتقنين الأمر سريعاً»، كررت ليلي.

«ولكن متى؟» كلما فكرت في الموضوع أكثر، زاد قلقي.

بعد يومين مع ليلي وبارسا، ركبنا حافلة من لندن إلى أكسفورد. استأجرت غرفة بسرير مزدوج لننام فيها خلال بحثي عن مكان أكثر استقراراً. سجلت في جامعة بروكس، لكن لم يكن لدي أدنى فكرة عن كيفية العثور على مدرسة لبويان. أما بالنسبة للعثور على منزل مناسب، فقد كان الأمر صعباً — فوكلاء العقارات يريدون خطابات توصية، وسجلي الوظيفي السابق، وكشوف رواتب. ولم يكن في حوزتي أي شيء من هذا القبيل.

أخبر بويان جدته على الهاتف: «نسكن في منزل جميل، لكنه صغير للغاية لدرجة أنني أصطدم بمسيح طوال الوقت». كانت غرفتنا ضيقة إلى حد ما. وتساءلت عما إذا كنت قد اتخذت القرار الصائب. قبل أسابيع، كنت قد ألقيت كلمةً أمام عشرة آلاف إيراني في سان فرانسيسكو، وقبل بضعة أشهر من ذلك، جلست إلى جانب موسوي والرئيس السابق خاتمي في أحد أهم الاجتماعات السياسية في التاريخ المعاصر. قبل الوضع السياسي الحالي، كنت كاتبة عمود بارزة في صحيفة مرموقة، اعتمد ملي، وكانت كل الأبواب مفتوحة أمامي. أما الآن فقد أُغلقت صحيفتي، واعتُقل أصدقائي، ولم يكن بوسعي حتى استئجار شقة.

لم تزد الأخبار القادمة من إيران إلا قتامةً. فقد قُتل عدد من المتظاهرين المناهضين للحكومة، الذين كانوا محتجزين في سجن كهريزك في طهران، واغتصب الحراس بعض المحتجزين الأصغر سنًا. شهد كل أسبوع اعتقال المزيد من مستشاري موسوي وكروبي. وسُجن أكثر من مئة صحفي ومدون.

صحيحٌ أنني كنت أكتب لصالح عدد من الصحف الإيرانية الإلكترونية، إلا أن المال كان شحيحًا. طلبت من أخي محسن أن يبيع جميع ممتلكاتي المتبقية ويحوّل المال إلى أكسفورد لأتمكن من دفع رسوم دراستي.

وسط الفوضى من حولي، حلّت ذكرى ميلادي الثالثة والثلاثين. لم تكن لدي رغبة أو ميل للاحتفال. كنت بعيدة عن الأصدقاء والعائلة، مجبرة على العيش في المنفى في بلد غريب. لم يكن لدي أحد سوى بويان في غرفتنا الصغيرة، التي نجلس بها على الأرض لتناول الطعام. وأكلنا كثيرًا طعام مكدونالدز وغيره من الوجبات السريعة لانخفاض ثمنها، وسهولة الحصول عليها، وعدم الحاجة لطهيها. لم أتلّق راتبًا منذ فترة، وكانت مدخراتي على وشك النفاد.

في يوم عيد ميلادي، عند الظهيرة تقريبًا، طُرق باب شقتنا. سلمني عامل التوصيل زهرة أوركيد زهرية اللون في مزهرية خزفية وصندوقًا كبيرًا يضم أنواعًا مختلفة من الفواكه الغريبة —أناناس، مانجو، كيوي— بالإضافة إلى الإجاص، والتفاح، والخوخ. كانت تلك هدية عيد ميلادي من كامبيز. حسّنت تلك السلة من حالتي المزاجية على الفور. لم يسبق أن أهداني أحدٌ ما الفواكه كهدية عيد ميلاد. كانت الهدية مثالية تمامًا.

توجهت في نزهة مع بويان إلى النهر الذي يمر عبر أكسفورد.

«لديك أصدقاء يُهدونك الفاكهة؟» سأل بويان وهو يحطم ثمرة جوز الهند على

ابتسم الحظ لي بعد عيد ميلادي. فبعد فترة وجيزة، ومن خلال المعارف، وجدت زوجين إيرانيين يؤجران منزلاً في قرية كيدلينغتون، على بعد خمسة أميال شمال مدينة أكسفورد. ولم يطلبوا مني توصيةً أو سجلّي الوظيفي السابق. ألحقتُ بويان بمدرسة قريبة، واستقرت في الحياة بأدوارٍ ثلاثة: طالبة، وصحفية، وأم.

كنت مدركة تماماً أنني أبني بيتاً وحياة جديدة لابني ولنفسي في حين تغرق بلدي في الفوضى. أصبح ابني الآن قريباً مني، لكنني كنت أجري مقابلاتٍ يومياً مع أمهات قُتل أبناؤهن، أو اعتُقلوا، أو تعرضوا على الأرجح للتعذيب. أثقل كاهلي هذا التناقض بين حياتي وحياة أولئك الأمهات. كان إحساساً غير منطقي تماماً، إنما شعرت بالذنب بسبب حظي السعيد لوجود ابني معي.

لم يكن بويان يتحدث الإنجليزية، لذا خصصت له مدرسته معلماً خاصاً لتطوير مهاراته اللغوية، رغم حضوره الحصص مع بقية الطلاب. استقرت حياتي على روتين من نوع ما — إذ كنت أنهض باكراً كل صباح وأتصل بمصادر معلوماتي ومعارفي في إيران قبل أن أعد الفطور لبويان وأوصله إلى المدرسة. بعد ذلك، أتوجه إلى الجامعة حيث أدرس لنيل شهادة في دراسات الإعلام. وكتبتُ مقالاتي بين المحاضرات في الكافتيريا أو في المساء بعد أن أطمع بويان.

طلب مني معلمو بويان أن أقرأ له كل ليلة. لم تكن لغتي الإنجليزية ممتازة، لكنها كانت على الأقل أفضل من لغته. كنت أستلقي بجانبه في السرير وأقرأ له. في إحدى الليالي، بعد أن انتهيت من القراءة، نظرت إليه ورأيت الدموع تنهمر على خديه. لم أعتقد

أن القصة كانت مأساوية إلى ذلك الحد، لكنه بدا متأثراً بها.

فقلت له واحتضنته: «أنا فخورة بك لأنك بقيت منصتاً للنهاية».

قال بويان: «ليس كذلك، فأنا أبكي لأنني لم أفهم كلمة واحدة مما قرأت لي».

حاولت طمأنته بأنه إذا اجتهد بما فيه الكفاية، فسيتعلم اللغة بسرعة، لكنه لم يقتنع.

سألني: «ألا يوجد مسحوق يمكنك أن تسقيني إياه، مثل الفيتامينات التي تخططينها لي في الماء، حتى أتعلم الإنجليزية؟»

للأسف، ليس ثمة حبوب أو مساحيق سحرية. إذ لو وجدت، لكان لدي قواي السحرية الخاصة لئلا أضطر إلى الطهي. في الحقيقة، تمنيتُ وجود مسحوق سحري لبويان كي يتمكن من الطهي بنفسه. فقد رأني أعاني في المطبخ، وأصبح حريصاً على الطهي لنفسه. لم يكن لدي وقت لطبخ وجبة مناسبة كل مساء، لذلك اقتصرت عشاءاتنا أحياناً على المعكرونة، أو البيتزا، أو الأرز وأرجل الدجاج المسلوقة. أعتقد أن قلة حماسي لشؤون المطبخ شجعت بويان على تعلم الطهي.

بعد مرور عام أو نحو ذلك، حضرتُ مسرحية مدرسية اشترك بها بويان. هذه المرة جاء دوري أنا للبكاء. فقد اعتلى بويان خشبة المسرح بلغته الإنجليزية الطلاقة لدرجة أنني لم أتمكن من فهمه. أدّى ثلاثة أدوار مختلفة، وبعد العرض بحثت عني معلمة المسرح لتهنئتي. في طريق العودة إلى المنزل، سألني بويان بجدية تامة: «هل تعتقدين أنه يمكنك تحسين لغتك الإنجليزية؟ فعندما تظهرين على الراديو، تبدو لهجتك...»

صرخت فيه: «ماذا تقول؟ كيف تجرؤ على السخرية من لغتي الإنجليزية؟ أتذكر ذات

ليلة، عندما لم تستطع-»

لم يدعني بويان أكمل جملتي، فقال: «لا أتذكر».

بعد بضعة أسابيع من استقرارى في أكسفورد، سافر كامبيز بالطائرة إلى لندن لزيارتي. فكرت أن الشخص الذي يرسل أناناسًا كهدية عيد ميلاد لا يمكن أن يكون سيئًا تمامًا. أردت أن أعرفه على ليلى وزوجها. كانا أقرب أصدقائي في إنجلترا، وكان لدي شعور بأن كامبيز جاد في أمر علاقتنا.

كان يرتدي سترة زرقاء فوق قميص أبيض وبنطال جينز، وكان ينظر إلى ساعته ليتأكد مما إذا كنت متأخرة عندما توقفت أمامه بسيارتي الفضية المستعملة وأطلقت بوق السيارة. لم يصدق عينيه عندما رأى السيارة.

قال وهو يضع حزام الأمان: «ظننت أنك فقيرة. ماذا الذي حدث؟»

«استلمتُ شيكات راتبي، والآن هذا هو الرجل في حياتي». نقرت على عجلة القيادة.
«لماذا أحتاج أحدًا طالما لدي سيارة؟»

سألني: «ما هي وجهتنا الآن؟»

«إلى أحد الأماكن المفضلة لدي في العالم كله»، قلت أثناء ركني السيارة في مقبرة.

«ما هذه الرومانسية...»

«المقابر عامرة بالتاريخ، والأموات لا يجادلونك».

حتى في إيران، كنت أحب زيارة المقابر والمشى بين القبور ومراقبة المعزين. كان

البريطانيون أشدَّ تحفظاً؛ وُجد عدد أقل من العائلات المفجوعة. أمضيت ساعات في المقابر، أقرأ شواهد القبور وأحاول تخيل حياة الأشخاص المدفونين حولي؛ دائماً ما تركتُ المقبرة وأنا أشعر بنشاطٍ أكبر، وأكثر إصراراً على عيش الحياة بكل ما فيها.

حذرتة: «عليك أن تتصرف بأفضل سلوك، فستقابل بويان وليلى».

«سأتصرف باحترام، لكن ماذا عنك؟»

«أنا مسموح لي بالمشاكسة».

سحر كامبيز الجميع. أما بويان فما يزال صغيراً ومهتماً أكثر بمشاهدة فيلم سيد الخواتم على التلفاز. بعد العشاء، قدت السيارة لأوصل كامبيز إلى لندن آي، مقابل محطة ووترلو، ليلحق بالقطار. تأكدت علاقتي العاطفية مع كامبيز بقبلة.

قال وهو يغادر السيارة، وغمز بعينه: «أعتقد أنني اجتزت الاختبار. وفي المرة القادمة، دعينا نلتقي بمفردنا».

«لقد مررت بتجربة طلاق واحدة. لا أريد تكرارها. ولدي ابني لأفكر فيه».

«مفهوم. أنا أنوي بدء شيءٍ يدوم. وأنت كذلك».

أعجبتني ثقته بنفسه. كان شخصاً قوياً يمكنني الوثوق به. في ديسمبر، سافرت مع بويان إلى نيويورك، حيث أقمنا مرة أخرى مع روزبه وسولماز. قضيت معظم وقت فراغي مع كامبيز، فقد أصبحنا الآن مرتبطين بعلاقة.

في يوم شتوي مثلج، دعاني كامبيز إلى بيته لمقابلة طفليه، داريا وبهمن، اللذين رmqاني بربيةً للحظة، ثم قررا إشراكي في لعبتهما التمثيلية عن الجنيات والقراصنة.

قلت له: «أحب أطفالك أكثر مما أحبك أنت». أنساني اللعب مع الأطفال كل المشاكل في إيران. لطالما أردت إنجاب المزيد من الأطفال، والآن يواجهني احتمال أن يكون لدي ثلاثة منهم. «سنكون عائلة كبيرة، إذا نجح أمر علاقتنا».

قال كامبيز مبتسمًا: «لقد اجتزت الاختبار. لو لم يعجب الأطفال بك...» وحرك إصبعه على عنقه في إشارة قطع.

قلت وأنا ألكمه على كتفه: «كل الأطفال يحبونني لأنني طفلةٌ مثلهم، إنما أكبر حجمًا».

واصلت الكتابة للعديد من الصحف، وظهرتُ في البرامج التلفزيونية لتسليط الضوء على الأزمة الانتخابية. غالبًا ما كان يُطلب مني الدفاع عن وسائل موسوي التكتيكية لأنني كنت أكتب للصحف الإصلاحية، رغم أنني انتقدت موسوي مرات عديدة من قبل. وكما هو الحال دائمًا، اعتمرتُ قبعتي السوداء، في احترامٍ ضمنِي لقواعد الحجاب، ومن أجل والدي. لم أكن أؤمن بقواعد الحجاب الإجباري، لكنني أردت أن أظهر الاحترام تجاه أمي وآغا جان. كنتُ سأخلع حجابي في الظروف المناسبة، عندما يحين الوقت الملائم.

شنت الحكومة حملة لتشويهه بسبب هذه المقالات والخطب. تعرضت للاتهام بكوني أقف وراء «فتنة» العام 2009، وهو الوصف الذي أطلقته الحكومة الإيرانية على

الاحتجاجات.

بدأت العام 2009 على أمل إجراء مقابلة مع أوباما. وفي العام 2010، كنت أجري مقابلات مع العائلات التي فقدت فلذات أكبادهما في حملة القمع التي أعقبت الانتخابات الإيرانية.

الفصل التاسع عشر

دخلت إيران في حالة اضطراب.

في العام 2010، كرّستُ اهتمامي لتسليط الضوء على انتهاكات حقوق الإنسان بسبب استمرار الاحتجاجات وحملة القمع المرافقة لها. تمثّل القسم الأكبر من عملي في تحديد هوية المعتقلين، والمصابين، والقتلى، وإجراء مقابلات مع عائلاتهم. ولم يكن كشف هذه المعلومات بالأمر السهل.

ففي كثيرٍ من الأحيان، لم تعلم العائلات لفترة من الوقت أنها فقدت بالفعل أحد أحبائها. ولإبقاء تعداد الضحايا منخفضاً، لم تنشر السلطات معلومات عن القتلى. والأنكى من ذلك، أمرت العائلات بعدم التحدث إلى الصحافة أو إقامة جنازات علنية. فاضطرت بعض العائلات لدفن موتاهن ليلاً.

لكنني أردتُ للعالم أن يعرف الحقيقة وألا يغض الطرف عما يحصل. لم أكن الصحفية الوحيدة التي تتابع هذه الأخبار، فقد أرسلت لي سرّاً معصومة ابتكار، عضو مجلس بلدية طهران، أرقام هواتف ومعلومات عن ضحايا حملة القمع.

كانت ابتكار إحدى الطالبات المشاركات في احتلال السفارة الأمريكية في العام 1979، ولمع نجمها آنذاك باعتبارها الناطقة باسم محتجزي الرهائن. إنما الآن كانت تعمل على تقويض سلطة أحمدي نجاد. (وبمجرد انتخاب روحاني، توقفت عن التعاون معي، وقطعت علاقتها بي). وراح التلفزيون الحكومي الإيراني يبثّ برامج تروج لفكرة أنني واحدة من النساء اللواتي يقفن وراء «الفتنة». وزعم أنني أخلق حالات وفيات وهمية. وهكذا أصبحت التهديدات بالقتل سمةً ثابتةً في حياتي.

لم يكن لدي الوقت لمجرد التفكير بالقلق. إذ كنت أستيقظ في منتصف الليل لمتابعة الأخبار في إيران، ثم أوقظ بويان وأوصله إلى المدرسة قبل أن أتجه إلى جامعتي. ثم أعود مسرعةً من المحاضرات لإعداد الطعام لبويان، وأبدأ العمل من جديد.

كان وضعنا المالي صعبًا، فحوّلت غرفة المعيشة إلى غرفة نوم إضافية وأجّرتها لتغطية نفقاتي.

ذات صباح، كنت مستيقظة لساعات أعمل على إحدى المقالات، عندما ناداني بويان قائلاً إن الوقت قد حان لأوصله إلى المدرسة. «ماما... سأتأخر»، نادى من الطابق السفلي. في الصباح، كان يعد فطوره بنفسه خلال انهماكي بالعمل.

فناديتُ بأعلى صوتي: «ها أنا قادمة. ارتدِ معطفك وانتظرني في السيارة».

أمسكت بهاتفني واندفعت إلى الطابق السفلي، قافزة درجتين درجتين، ثم ركبت السيارة، مشغولةً بالتفكير في عملي. قدت السيارة كأنما على وضع الطيار الآلي، ولم أقل لبويان أي كلمة طوال الطريق. في غضون خمس دقائق، توقفت أمام المدرسة، متلهفة للعودة سريعًا وإنهاء المقال قبل التوجه إلى محاضراتي.

قلتُ وأنا أستدير ناحيته: «حان وقت النزول، يا حبيبي». تجمدت الكلمات على شفتي. لم يكن بويان في السيارة.

كنت شديدة الانشغال لدرجة أنني قدت السيارة إلى المدرسة دون التأكد من ركوب بويان السيارة معي. لم أصدق أنني تركته خلفي. صرخت وضربت المقود قبل أن أعود

بالسيارة إلى الخلف، ثم أتجه عائدةً إلى المنزل. كان بويان واقفًا أمام البيت، وبدأ عليه الارتياح عندما رأيته.

«أين ذهبت؟ كنت أحضر معطفي و...»

«اركب بسرعة، لقد ذهبتُ لشراء الحليب لغداً». لم أكن لأخبره أنني نسيت اصطحابه.

«إذن، أين الحليب؟» سألت ببراءة. «سأخذه معي».

«لم يكن لديهم سوى الحليب بالشوكولاتة، وأنت لديك حساسية منها».

كنتُ وبويان في طور التعرف على بعضنا بعضاً في بيئة جديدة —وفي بلد جديد بالنسبة له— ولم يكن ثمة يقين عن مدة بقائي في بريطانيا. انتابني الشعور بالذنب لعدم قضاء وقت كافٍ معه، لكنني كنت مضطرة للعمل. كأم وحيدة، لم يكن لدي خيار آخر.

تمثل أحد التحديات خلال تلك الفترة في الضغط الذي مارسته السلطات الإيرانية على ضحايا القمع لمنعهم من الحديث إلى الصحفيين المهاجرين، ولم يكن سواهم قادراً على الكتابة عن القمع دون خوف من الانتقام. فجميع وسائل الإعلام الإيرانية تخضع لسيطرة الحكومة بدرجات متفاوتة، وتصرف الصحفيون داخل إيران كمشجعين للنظام أكثر من عملهم صحفيين حقيقيين.

أحياناً، عند نشر مقال مثير للجدل لي في صحيفة *جاراس* أو كلام وقت، مارست السلطات الضغوط على من أجريت مقابلات معهم لدفعهم للتراجع عن تصريحاتهم أو إنكار أنهم تحدثوا معي من الأساس. فتتصل العائلة بي، وغالباً في حالة بكاء، وتسألني

بتردد أن أُجري بعض التعديلات.

«لكم ذلك»، كنت أقول لكل عائلة. «فأنا في صفّكم. وعندما تكونون مستعدين، يمكننا إعادة نشر تلك التفاصيل».

بالطبع، كان يؤلمني كثيراً حذف مقال. في أحد الأيام، تلقيت مكالمة في الجامعة من لادان مصطفائي، زوجة علي حسن بور، أحد ضحايا أحداث العام 2009. كان علي أباً لطفلين، وقد تلقى رصاصة في وجهه وقُتل في ميدان آزادي، لكن السلطات الأمنية احتجزت جثمانه لمدة 104 أيام.

كنت قد أجريت مع مصطفائي مقابلة دامت لساعات، إنما الآن أرادت مني تعديل المقابلة أو حذفها. كانت تخشى على سلامتها، فقد حذّرها صحفيون آخرون من تعرّضها للمشاكل لمجرد الحديث معي. أخبرتها أن ذلك هراء، لكنني حذفت المقال من الموقع. تمسّكت بصحة ما أوردته في تقريرتي، لكن العائلة تعرضت لضغوط السلطة.

في كل مرة حدث ذلك، اتهمتنى مواقع الأخبار الحكومية بنشر مقابلات مفبركة. وراحوا يتشقّون بقولهم «لماذا حذفتُ المقال المسيء إن لم يكن مضللاً؟»

ثم عمدتُ إلى تسجيل جميع مقابلاتي. كان تفريغ التسجيلات مهمة صعبةً غالباً ما جعلتني أذرف الدموع. دفعتني المهمة الشاقة لإيجاد حل، فخطررت لي فكرة رفع جميع مقابلاتي على ساوند كلاود، وهي خدمة بث كانت آخر صيحة آنذاك. أعتقد أنني كنت من أوائل الصحفيين الإيرانيين الذين استخدموا ساوند كلاود. لم يكن أحد غيري يبث مقابلاته.

وهكذا شرعتُ في إنشاء ما أصبح فيما بعد أكبر مجموعة من الملفات الصوتية لمقابلات مع عائلات ضحايا احتجاجات العام 2009.

لم يكن لدي أدنى فكرة عن قيمة ما بحوزتي من تسجيلات حتى زارني في بيتي ذات يوم علي همداني، الصحفي المرموق في بي بي سي فارسي. بينما كنت أعد له كوباً من الشاي، مرر إصبعه على حافة النافذة ليفحص الغبار المتراكم، ونظر بصمت إلى كومة الصحون غير المغسولة في حوض المطبخ. لم يكن لدي أي ضيافة أخرى أقدمها له.

عرض علي شراء مجموعتي من المقابلات الصوتية.

قلت له: «لا يمكنني بيعها لك، فهذه قصص عن فقدان والألم. أعرف هذه العائلات، وعشت حزنهم، وبكيت معهم. فلا يمكنني تقاضي المال عن هذه التسجيلات».

في ذلك المساء، أسمعتهُ تسجيلاً تلو الآخر، موضحة له الخلفية التاريخية لكل حالة، وكيف وجدتُ العائلة، وما حلَّ بهم منذ ذلك الحين، وكيف تعاملوا مع خسارتهم. وبدلاً من شراء التسجيلات، قرر همداني إعداد برنامج عني، باعتباري حارسة سجلات الجرائم التي ارتكبت خلال الاحتجاجات.

بعد ذلك بوقت قصير، اتصل بي نيوشا بُقراتي، رئيس تحرير راديو فردا، وهي محطة إذاعية ناطقة بالفارسية مقرها في براغ، وطلب مني إعداد مسلسل وثائقي متعدد الحلقات عن أولئك الذين قُتلوا في الاحتجاجات.

تعرفتُ على نيوشا في إيران خلال عملنا الصحفي في صحف متنافسة.

قال لي: «أريد حلقة مدتها نصف ساعة عن كل ضحية. فجهزي كل ما يمكنك العثور عليه عن حياتهم، وبالطبع عن وفاتهم. سنبت حلقة كل أسبوع، وسنعيد بثها أيضاً. لن

نسمح للعالم بالنسيان».

وسرعان ما رفض احتجاجي بعدم خبرتي في إعداد برنامج إذاعي من قبل.

«سنخصص شخصاً ليعلمك، لا تقلقي».

بعد أسبوع، تلقيت درساً لعشر دقائق فحسب عن فنّ إعداد الوثائقيات الإذاعية، ثم تركت لأعتمد على نفسي.

أردتُ الابتعاد عن العمل في *جارس* وكلام وقت وغيرها من الصحف الإصلاحية. ولوجودي خارج إيران، عشتُ متحررة من الرقابة الذاتية، وخارجةً عن الخطوط الحمراء التي فرضها النظام؛ ومن الناحية السياسية، تجاوزت خطوات الإصلاح البسيطة التي يقترحها تيار الإصلاحيين.

ذات مرة، عند زيارتي لكامبيز في نيويورك، اتصلت بي محطة إذاعية أوروبية لإجراء مقابلة عن الاحتجاجات المستمرة. اتصلتُ بكامبيز لأخبره أنني لا أظن مستوأي باللغة الإنجليزية جيد بما يكفي لإجراء المقابلة، وأنني بحاجة إلى بعض العبارات الجزلة التي تستحق أن تُنشر في الأخبار.

قلتُ له: «صوّت الشعب من أجل التغيير، لكن صوته سُرق. والناس يطالبون بالتغيير. ما الذي يمكنني إضافته؟»

«قولي لهم إن الشعب يريد تغيير النظام، وستسير مقابلتك على ما يرام»، قال كامبيز قبل أن يغلق الهاتف بسرعة.

كانت المقابلة قصيرة، واعتقدتُ أنها كانت ناجحة. لم أفكر بشأنها كثيراً حتى وقت لاحق من مساء ذلك اليوم، عندما تلقيتُ اتصالاً من إيران من ابن كروبي، الذي لم يكن

سعيداً.

«لقد دعوتُ إلى تغيير النظام. هل أصبتُ بالجنون؟» سألني بغضب. «نحن نطالب برحيل أحمدى نجاد، ولا نريد الإطاحة بنظام الجمهورية الإسلامية».

أدركتُ أن كامبيز قد خدعني. وعندما واجهته بذلك، انفجر ضاحكاً.

«لم أتصور أنك قد تفعلين ذلك. على كل حال، ليس بالإمكان الاكتفاء بإجراء تغيير بسيط. يجب تغيير بنية النظام بأكمله، لا مجرد تغيير شكلي».

بالنسبة لي، فمطالبتي بحقوق الإنسان كانت للجميع، وليست مقتصرة على مجموعتي السياسية. أردتُ أن أكتب عن السجينات من منظمة مجاهدي خلق اللواتي كنَّ محتجزات مع أطفالهن. رأيتُ في ذلك انتهاكاً جسيماً لحقوق الإنسان. لكن رئيس تحرير جارس اعتبر أن عليَّ التركيز على السجناء الإصلاحيين فحسب. وبعد عدة مشادات كلامية بيننا، قررتُ الاستقالة. غادرتُ صحيفة كلام وقت في نفس الفترة تقريباً.

كان من الواضح أن وضعي المالي سيصبح أكثر صعوبة، حيث بات دخلي مقتصراً على برامج راديو فردا وبعض الأعمال الصحفية المستقلة. بدأتُ في إنتاج سلسلة وثائقية بلغت فيما بعد سبعة وخمسين حلقة، تضمنت في البداية برنامجاً إذاعياً لنصف ساعة أسبوعياً، خُصص كُلُّ واحدٍ منها لحياة وموت أحد الضحايا. كان لهذا العمل تأثيرٌ كبير، إذ تضمنت كُلُّ حلقة تسجيلات صوتية من عائلات الضحايا، ومقابلات، وسردي الشخصي للأحداث.

كنتُ أعيش على النيكوتين والقهوة. وعندما أنكبَّ على للعمل، لم يكن ما يهدِّئني

سوى السجائر. كل صباح، غصّ صندوق بريدي الوارد برسائل مؤلمة، أخبار عن شخصٍ يتعرض للتعذيب، أو آخر مفقود، أو آخر محتجز في مركز اعتقال سري. ازدحم رأسي بأصوات الأمهات الباقيات يروين لي بتفاصيل موحجة مقتل ابنهن أو ابنتهن. وأخبرنني عن الإذلال الذي تعرضت له العائلة أثناء محاولتها استعادة جثمان فقيدها. أحياناً كان الأب هو من يتكلم. خلال استماعي لرواياتهم عن الفقد، كنتُ أشعل سيجارة مارلبورو منتول لتساعدني على رباطة الجأش. وأحياناً كنتُ أدخن سيجارة تلو الأخرى خلال بكائي. كنتُ أقول لنفسي إن هذه هي خطيئتي الوحيدة، فأنا لا أشرب الكحول.

كره بويان رائحة التبغ بشدة، لذا حرصتُ على فتح جميع النوافذ ونفث الدخان إلى الخارج عندما يكون في المدرسة. وفي أحيان أخرى، كنتُ أخلق ذريعة للخروج في مشوار سريع لتدخين سيجارة. وكل المدخنين، دائماً ما حملت الكثير من العلكة والنعناع لإخفاء رائحة التبغ.

ذات يوم، كنتُ واقفة أمام نافذة غرفتي، أدخن سيجارة وأنفث دخانها إلى الخارج، عندما رأيتُ بويان عائداً إلى المنزل مع أصدقائه. لم أشعر بمرور الوقت. في عُجالة، رميتُ السيجارة، ورششتُ نفسي بالعطر، وفتحتُ المزيد من النوافذ، ورُحْتُ ألوح بذراعي في الهواء لتبديد الرائحة. وعندما دخل بويان إلى المنزل بعد المدرسة، كنتُ متوترة لدرجة أنني نادیته قائلة: «مرحباً حبيبي، هل تريد سيجارتك الآن أم لاحقاً؟» كنتُ أريد سؤاله إذا كان جائعاً.

انفجر أصدقائه ضاحكين.

«أنا أكره التدخين، يا ماما» قال وهو يحتضنني عندما نزلتُ إلى الطابق السفلي. «هل تظنين أنني لا أعرف أنك مدخنة؟»

استنزفت كل حلقة من البرنامج الوثائقي جزءًا كبيرًا من قواي. شعرتُ أن غرفتي تحولت إلى مشرحة: مشرحة رقمية مليئة بحكايات التعذيب والموت. كانت جميع تقاريرني عن السجناء، ضحايا القمع الوحشي الذي مارسه الجمهورية الإسلامية بحق المعارضة.

أصبح لبارفين فهمي حضورًا ثابتًا في حياتي لشهور طويلة. فهي والدة زهراب عربي، الطالب البالغ من العمر تسعة عشر عامًا والمؤيد للديمقراطية، والذي خرج ذات يوم للمشاركة في مظاهرة احتجاجًا على نتائج الانتخابات، إنما لم يعد إلى البيت بعد ذلك. وفقًا لما أخبرتني بارفين، افترضت في البداية أنه تعرض للاعتقال. فقصدت السلطات بحثًا عن إجابات، لكنها لم تجد شيئًا. كل يوم، محتضنة صورة زهراب، أصغر أبنائها الأربعة، صعدت التل الشاهق المؤدي إلى سجن إيفين، حيث كانت تلتقي بعائلات أخرى تنتظر أبناءها كذلك.

قالت لي: «كنتُ أنتظر في الخارج، وبمجرد الإفراج عن أي سجين، أسرع نحوه وأسأله إن كان قد رأى زهراب. حتى أنني سجلت مقطع فيديو ونشرته على يوتيوب».

بعد ستة وعشرين يومًا من التنقل بين السجون، والمستشفيات، والمحاكم، استدعيت بارفين إلى المحكمة الثورية للتعرف على صورة ابنها ضمن ستين صورة لجثث قتلى. ثم عُرض عليها تقرير الطب الشرعي، المؤرخ 19 يونيو، والذي أوضح أن ابنها قد قُتل برصاصة في الصدر. اختفى زهراب في 15 يونيو.

وصفت لي بارفين بتفاصيل مؤلمة حبها العميق لزهراب. أصابها موته في مقتل؛ كان ألمها غصًا وجليًا. وكانت معاناتها واحدة من الألوف في نفس وضعها.

مع كل مقال كتبته، وكل مقابلة أجريتها، وكل منشور نشرته على فيسبوك، كانت

فرص عودتي إلى إيران تتضاءل أكثر فأكثر. كنتُ آمل أن تصل الأزمة السياسية إلى حلّ بطريقة ما، لكن الأوضاع ازدادت سوءاً يوماً بعد يوم.

في فبراير 2011، تلقيتُ اتصالاً مذعوراً من إحدى بنات موسوي، فقد جاءت قوات الأمن لاعتقال والدها. كنتُ أول صحفية تنقل خبر وضع موسوي وكروبي، زعمي الحركة الخضراء، تحت الإقامة الجبرية.

توقع الكثيرون أن يُشعل الاعتقال موجة أخرى من الاحتجاجات، لكن شيئاً لم يحدث.

للحفاظ على استمرارية علاقتنا عن بُعد، تناوبت وكامبيز على السفر لرؤية بعضنا البعض. تمثّل روتيني في كيدلينغتون في أخذ جميع مقابلاتي وملاحظاتِي واحتلال زاوية في مقهى كوستا، المنافس لستاربكس. أصبح الجميع هناك يعرفونني، لأنني غالباً ما كنت أنفجر في البكاء خلال كتابة ملاحظاتي والاستماع إلى مقابلاتي.

في أحد الأسابيع، وصل كامبيز في فترة صعبة بشكل استثنائي. انهزت تماماً، ولم أعد أتحمل الاستماع إلى قصة أخرى لعائلة مكلومة. أخبرت نيوشا أنني سأترك برنامج راديو فردا.

«لقد سجلت ثلاثين حلقة»، قال كامبيز وهو يحتضنني برفق، كما لو أنني قد أتعرض للكسر بين ذراعيه. بدوّ نحيلة جدّاً، وبلغ وزني أقل من مئة رطل. كنا نقف في طابور كوستا.

«اثنتان وثلاثون، توخياً للدقة»، قلت، ولم يكن ثمة شيءٍ قادر على مواساتي.

«اعتبري نفسك مشتركةً في كتابة التاريخ. فأنتِ توثقين تاريخهم. ستعيدنيهم إلى

الحياة، وستظل عائلاتهم تذكرك دائماً».

«أعلم كل ذلك، لكن الاستماع إلى بكائهم، إلى قصص الألم والفقدان...»

«أنتِ أحضري القهوة وسأتدبر الأمر»، قال كامبيز، مصمماً على أن أكمل ما بدأته.

عدتُ إلى مقعدي في الزاوية ومعِي كوبان من اللاتيه. بدا كامبيز شاحباً ومنهمكاً في مسح دموعه.

«ماذا حدث؟»

«استمعتُ لثلاثين ثانية فقط. هذا كل ما استطعت تحمله. لا أعرف كيف يمكنكِ الاستماع إلى هذا الكمّ من الألم».

رَبْتُ على ذراعه برفق. طالما أنه بجانبِي، يمكنني الاحتمال.

في نوفمبر 2013، فاز البرنامج الوثائقي الذي أطلق عليه اسم «ضحايا 88»، في إشارة إلى العام الإيراني 1388 (2009)، عام الانتخابات والاحتجاجات، فاز بجائزة التميز الإعلامي الدولي من رابطة البث الإذاعي الدولي ضمن فئة الأفلام الوثائقية الاستقصائية/الإذاعية. كان الأمر أشبه بالفوز بجائزة الأوسكار عن البرامج الإذاعية الدولية. في حفل توزيع الجوائز، انفجرت في البكاء عندما قرأ المذيع توصية الحكام: «البحث المُتقن هو أساسه». واصلت البكاء طوال حفل الاستقبال، وكان التوتر الذي شعرت به خلال العامين الماضيين يتدفق مني. في جميع الصور الملتقطة في تلك الليلة، بدوتُ وكأنني في حالة حداد، بعينين حمرأوين وأنف يسيل.

خلال إعدادي البرنامج، خطرت لي فكرة التواصل مع المسؤولين في الجمهورية

الإسلامية ومطالبتهم بتفسير أفعالهم. قد يبدو هذا الأمر شيئاً عادياً لمن يعيشون في الغرب. إنما في الجمهورية الإسلامية، كان طرح الأسئلة الصعبة أمراً خطيراً. وفي إيران، لم يجرؤ الصحافيون قط على تحدي مَنْ يمسك بزمام السلطة: رؤساء الأجهزة الأمنية، والحرس الثوري، ورجال الدين، وكبار آيات الله الذين يديرون لجاناً سرية. إنما الآن أصبحت بعيداً عن قبضتهم، وكل ما أحتاج إليه هو أرقام هواتفهم المحمولة. فقررت ملاحقة سعيد مرتضوي، المدعي العام الذي استجوبني في طهران. وبحلول ذلك الوقت، كان جزار الصحافة قد أغلق أكثر من مئة صحيفة.

هذه المرة، كنت أنا في موقع القوة. إذ لم يكن بإمكانه تهديدي بالسجن، أو إغلاق صحيفتي، أو استجوابي عن حياتي الخاصة. الآن أصبح هو تحت الضغط، وفاجأته بالاتصال على رقمه الخاص. حتى لو أغلق الهاتف في وجهي، فذلك بحد ذاته خبرٌ يمكنني استغلاله في تقرير إذاعي. لكنه لم يغلق الهاتف، بل انخرط معي في محادثة.

تسبب سماعُ صوته في جفاف حلقي. كان هذا الرجل مسؤولاً عن اعتقال وتعذيب مئات المحتجين، ومتورطاً في مقتل المصورة الإيرانية-الكندية زهرة كاظمي. وهو نفسه من استجوبني لمدة خمسة أيام. رأيت نفسي مجدداً في غرفة التحقيق، ورغم أنه كان في إيران بينما كنت في أوكسفورد، فقد ارتجفت يدي خلال حديثي مع هذا السفاح على بُعد آلاف الأميال. ومع ذلك، هذه المرة كنت أنا من يطرح الأسئلة. ولم أكن وحدي، إذ كان أصدقائي في الطابق السفلي في المطبخ يعدّون وجبة؛ غير مدركين للمواجهة التي كنت أخوضها مع مرتضوي.

«ما هو شعورك وأنت تحمل لقب القاتل؟» سألتُهُ. «أنت أكثر رجل مكروه في إيران. ما شعورك حيال ذلك؟»

«أنت معادية للثورة»، قال بصوت هادئ ومراوغ. «سأمنحك مقابلة بشرط واحد:

عودي إلى وطنك وتوبي، وستُعاملين بإنصاف».

سألتها: «إذا عدتُ، ما الضمان بأنني لن أواجه مِيتَةً مثل مِيتة زهرة كاظمي؟»

«إذا تبّت، فلن يكون هناك أي مشكلة».

«لكنك أنت من استجوب زهرة كاظمي، وانتهى بها الأمر مقتولة».

أغلق الهاتف. نزلت متعثرة إلى الطابق السفلي، وانهرتُ على الأريكة. أحضر لي أصدقائي شايًا محليًا أثناء روايتي تفاصيل المواجهة.

نشرتُ تسجيل المقابلة على صفحتي في فيسبوك، وأعادت بي بي سي فارسي بثها. للمرة الأولى، يرد المدعي العام الإيراني على صحفية في المهجر. نادرًا ما منح المسؤولون الإيرانيون مقابلات أو حتى تجاوبوا مع الصحفيين خارج البلاد. فهم يعتبرون هؤلاء الصحفيين أعداءً. تُفضّل سلطات الجمهورية الإسلامية التعامل مع المراسلين الذين يمكن ترهيبهم أو تهديدهم بالسجن أو ما هو أسوأ.

انضمتُ إلى صوت أمريكا كمذيعة مساهمة، وقدمتُ فقرات خاصة تمزج بين السخرية والسياسة. ومن خلال هذا المنبر، مارستُ أسلوبًا صحفيًا جديدًا تمثل في الاتصال بمسؤولي الجمهورية الإسلامية على هواتفهم الخاصة، إذ وصلتني أرقامهم من مسؤولين ساخطين من الرتب الدنيا.

لم يكن آقاجان يتحدث معي. عندما غادرتُ إيران، تنكّر لي. أراد مني التوبة عن معارضتي للمرشد الأعلى، وحتى حدوث ذلك، فلن يكون تواصل. حتى أمي رفضت التحدث إليّ عندما كان حاضراً. كان علي ومحسن في صفّي، لكن كان من المؤلم ألا أتمكن من الحديث مع والدي. أطلعهم علي على أخباري، إنما على الأغلب أن أنباء

أنشطتي كانت تصلهم بوسائل أخرى.

«أحياناً أصل متأخراً جداً. إذ تصل الأخبار إلى أُمِّي عن طريق أحد الجيران»، قال علي بفخر.

تغيرت الأحوال في قمي كلا. فقد ثبتّ جيراننا الصحون اللاقطة، وأصبحوا يشاهدون برامج تلفزيونية محظورة مثل صوت أمريكا باللغة الفارسية.

كانت مكالمتي الأكثر شهرةً مع آية الله أحمد خاتمي، وهو متشدد وإمام صلاة الجمعة في طهران. صرّح ذات مرة بأن البلاد يجب أن تسفك الدماء، إذا لزم الأمر، للحفاظ على الحجاب الإلزامي. لذا، اتصلتُ به وسألتُه أن يشرح لي بالضبط ما الذي يقصده. ودون أن يمنحني فرصةً للتعريف بنفسي أصلاً، راح يكرر الرواية الرسمية — أن الحجاب الإلزامي جزء من العقيدة الإسلامية للبلاد.

«لكننا نشهد تعرّض النساء فعلياً للهجوم والضرب. هل هذا ما كنت تقصده؟»

ساد الصمت. لم يسبق أن خالفه صحفي من قبل في حياته.

«من أين تتصلين؟ ولصالح أي وسيلة إعلامية؟»

عندما عرفته بنفسي، جنّ جنونه.

ثم صرخ: «كيف تجرئين! كيف تجرئين على الاتصال بي؟ أنت معادية للثورة. غير مسموح لك الاتصال بي!» ثم قطع المكالمة بغضب.

قلقتُ على صحته. وخشيتُ أن يكون قد أصيب بنوبة قلبية.

انتشر التسجيل الصوتي للمقابلة على الإنترنت في أوساط الإيرانيين، وتناقله الناس

داخل البلاد، مخزنًا على الفلاشات. كان خاتمي هذا —الذي لا تربطه صلة بالرئيس السابق— بلطجيًا تابعًا للنظام، يهدد الشباب من منبره كل يوم جمعة. استمتع جميع الإيرانيين بالاستماع لإذلاله في المكالمات.

بحلول العام 2012، كنتُ أعمل مع ثلاث قنوات تلفزيونية في المهجر —أقدم تقارير حصرية وأخبارًا عاجلة لقناة مانوتو التي انطلقت حديثًا في لندن، وأعدّ مقاطع أسبوعية لصوت أمريكا، وأساهم بتحليلات من حين لآخر لبي بي سي فارسي.

تخرجتُ من جامعة أوكسفورد بروكس في نفس العام، بعد ثلاث سنوات من الدراسة. في إيران، حُرمتُ من فرصة إنهاء المدرسة الثانوية والالتحاق بالجامعة، ولطالما شعرتُ بالألم بسبب الإهانات التي وُجّهت لي لكوني «غير متعلمة»، لكن كل ذلك أصبح ورائي خلال صعودي بهدوء إلى المنصة مرتدية ثوب التخرج، وقبعتي الأكاديمية بالكاد متوازنة على رأسي.

طار كامبيز من نيويورك لحضور المناسبة. وابتسمتُ له وهو يصور الحفل بهاتفه المحمول. كان هو لا غيره مَنْ أردتُ أن يكون معي في هذه اللحظة، ولم يخذلني. كان الكتف التي استندتُ إليها في حياتي. فقد كان «يفهمني» — ويفهم حاجتي لأن أكون مفعمة بالحياة، أقفز هنا وهناك، وأغني بصوت عالٍ في الشوارع.

كنتُ أطلب نصيحتَه أولاً، وكان الشخص الذي أصغي إليه أكثر من غيره.

مع تحذيرٍ بسيط: كنتُ أستمع إليه، لكنني لم أتقيّد دائماً بنصيحتَه.

بعد التخرج، تقدمتُ بطلب للحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة لقضاء الصيف مع كامبيز في نيويورك، كنوع من التجربة لمعرفة إذا كنا قادرين على العيش معًا. لطالما تحدثتُ هو عن الزواج، لكنني لم أرغب في إفساد حبنا بالارتباط بعقد رسمي. كنتُ قد زرتُ نيويورك عدة مرات خلال فترة علاقتنا، ولذلك حجزتُ رحلتي حتى قبل موعد المقابلة في السفارة الأمريكية.

سارت المقابلة بسلاسة. ابتسم الموظف بلطف ونحن نتحدث عن الحياة، وتخرجي، والصيف في نيويورك. كنتُ مفعمة بالحماسة تجاه المرحلة الجديدة من حياتي. خلال دقائق قليلة، انتهت المقابلة، وأعاد لي جواز سفري. ألقى نظرة سريعة للتأكد من ختم التأشيرة، ثم خطرت لي فكرة «نكية» بأن أفضي له بسرّي.

«أتحدث وشريكي مجرد حديث عن فكرة الزواج»، قلتُ وأنا أبتسم لأؤكد له أن الخطط ليست جادة تمامًا. «هل من الأسهل الزواج هنا أم في نيويورك؟»

«هل شريكك... مواطن أمريكي؟»

«بالتأكيد، هو...»

«وتخططان للزواج؟»

«هو من يتحدث عن الموضوع، لكننا لم نقرر بعد. أريد أن أعيش معه أولاً قبل أن أقرر»، قلتُ بتلعثم.

«هلا أعطيتني جواز سفرك للحظة من فضلك؟» وختم جواز سفري مرة أخرى: لقد ألغى تأشيرتي.

«إذا كنت تفكرين في الزواج، عليك التقدم بطلب للحصول على تأشيرة خطوبة أو

زواج».

لم تسعفني الكلمات، وخرجت من المقابلة لا أدري تمامًا ما الذي حدث للتو. كنت على وشك الذهاب إلى نيويورك، ولكن الآن رُفِضَ طلبي. خرجت من السفارة في حالةٍ من الذهول، ثم أدركت ما حدث. أطلقت صرخة عالية، وقذفتُ جواز سفري على جدار السفارة. جلست على الرصيف واتصلت بكامبيز. كان الوقت في الصباح الباكر في نيويورك، فأيقظته من نومه.

«الذنب ذنبك لأنك تعيش في ذلك البلد الغبي»، قلتُ وأنا أبكي. كنتُ غاضبة. «لقد رفضوا طلبي».

ارتكبتُ خطأً فادحًا، ولم يكن بحاجة ليخبرني بذلك.

«لقد ظنوا أنني أحاول التسلل إلى البلاد. لم يُرفض طلبي من قبل».

«يجب أن نتزوج أولاً، ثم نتقدم بالطلب».

«لن أتزوج لمجرد الحصول على تأشيرة غبية. لن أذهب إلى أمريكا». أغلقتُ هاتفي لباقي اليوم.

ذهبتُ إلى منزل ليلي وبكيتُ مطولاً. لشدَّ ما تحمَّست لفكرة الانتقال إلى نيويورك، إنما أصبح الآن كل شيء معلقاً. بعد أسبوع أو أكثر، جاء كامبيز إلى لندن. لم أعد أستطيع زيارته، لذا توجب عليه السفر لرؤيتي كل ستة أسابيع أو نحو ذلك.

بعد عام من تلك المقابلة، عدتُ إلى السفارة الأمريكية، للتقدم بطلب تأشيرة سياحية جديدة. وهذه المرة ذهبت مع بويان.

سألني موظف الهجرة سؤالاً واحداً: «هل ما زلتِ مع نفس الشريك؟»

ركلني بويان ركلة خفيفة على ساقي. «أمي، قولي الحقيقة».

«نعم، ما زلتُ معه».

رفض موظف السفارة طلب التأشيرة مرة أخرى. «يجب أن تتقدمي بطلب تأشيرة خطيبة».

اتصلتُ بكامبيز لأخبره الأخبار السيئة. فقدتُ حماسي تمامًا لفكرة الانتقال إلى نيويورك.

«كل ما كان عليك فعله هو القول إنك لستِ على علاقةٍ بي، وكنتِ ستحصلين على التأشيرة».

«لن أنكر أننا معاً».

«لن يعتبر ذلك إنكاراً»، قال كامبيز. «لماذا لم تصابي بفقدان الذاكرة لخمس دقائق؟»

«لم أستطع فعل ذلك. لن أكذب».

قد يبدو هذا سخيلاً، لكنها الحقيقة. سنة أخرى في المملكة المتحدة. انتقلت وبويان إلى منطقة كيو غاردنز في لندن، المليئة بالمساحات الخضراء، والكثير من الأشجار، والحدائق النباتية الضخمة التي تحمل الاسم نفسه.

الفصل العشرون

في الانتخابات الرئاسية الإيرانية للعام 2013، التفت الإصلاحيون حول حسن روحاني، الذي وُصف بالمعتدل. في غضون أسبوعين فحسب، وبعد وعوده بتخفيف العديد من القيود الاجتماعية، انتقل روحاني من مرشح هامشي إلى الفائز المطلق في سباق ضمّ ستة مرشحين. كان روحاني رجل دين يتمتع بضحكة ودودة، كما وعد بإطلاق سراح السجناء السياسيين، وخاصة موسوي وكروبي. لكنه كان من داخل النظام، مشاركاً في قرارات أمنية رئيسية. إنما في إيران، دائماً ما تكون الانتخابات خياراً بين المرشح السيء، والمرشح الأسوأ، والمرشح الكارثة. قدّم روحاني باعتباره الأفضل ضمن مجموعة سيئة، وتواصل معي عدد من النشطاء الإصلاحيين طالبين دعمي العلني له. إنما لم أتمكن دون وخز ضميرٍ أن أنصح أحداً بدعم روحاني أو أي مرشح آخر.

لكنني وافقت على التزام الصمت وعدم دعم حملة مقاطعة الانتخابات. في اليوم التالي للانتخابات، عندما اتضح أن روحاني قد فاز، انفجرت طهران في احتفالات عفوية. في ذلك الأسبوع، كان قلبي يعتصر ألماً. فقد كنت أفقد طهران بشدة، وأرغب في الرقص في الشوارع مع أبناء شعبي، وإطلاق أبواق السيارات، واحتضان أصدقائي وعائلتي. لم يكن يهمني أن فوز روحاني كان انتصاراً للمرشح الأفضل ضمن مجموعة سيئة؛ كنت أفقد إيران، وأفقد احتضان والدتي وتقبيلاً؛ وأفقد الثروة مع أخي محسن، ومناقشة السياسة مع علي. لم أرَ والدتي منذ خمس سنوات. ولم يكن أمامي أي طريقة قد تمكّني من العودة إليها.

قال لي كامبيز ذات ليلة في لندن خلال إحدى زيارته المنتظمة: «لا أرى إمكانيةً لعودتك إلى إيران. فقد نجحت في إغضاب جميع الفصائل السياسية. فرجال الدين

يكرهونك، وكذلك الملكيون واليساريون».

كان على حق. في رحلتي الأخيرة إلى نيويورك، في يناير 2012، بدأت أفكر في إجراء مقابلة مع رضا بهلوي، نجل الشاه الأخير لإيران. سألت كامبيز رأييه بالفكرة.

«لو كنتَ مستشارًا لرضا بهلوي، كيف ستتعامل مع طلب مقابلة مني؟» سألتَه بألطف صوت لدي.

«سأنصحه بالرفض. سأنصحه بتجنبك بأي ثمن».

«كيف تجرؤ على قول ذلك؟ وتدّعي أنك صحفي؟ من المفترض أن تكون في صفّي، في صف الصحافة»، قلت له بسخرية.

«إذا كنتَ مستشارًا نزيهاً، فعليّ أن أحذّره من أنه لن يخرج منتصرًا من المقابلة».

غضبتُ بشدّة. التقطت هاتفي المحمول واتصلت بمكتب بهلوي على الفور. بعد بضع رنات، أجابت سكرتيرته.

قدمتُ نفسي: «أنا مسيح علي نجاد، صحفية مستقلة. أود ترتيب مقابلة مع السيد بهلوي». يناديه الكثير من الإيرانيين بلقب «صاحب السمو»، لكن نفسي لم تطاوعني لاستخدام هذا اللقب.

«هو غير متاح حاليًا، لكننا سنتواصل معك لاحقًا».

قال كامبيز: «حتى لو وافق، فستكون المقابلة في المستقبل البعيد، وستكونين قد عدتِ إلى أكسفورد. لقد أجريت مكالمة بلا جدوى».

بعد ثلاث دقائق، عاودت السكرتيرة الاتصال بي.

«سيُسرّ صاحب السمو بإجراء مقابلة معك. هل أنت متاحة الأسبوع المقبل؟»

كان التعبير على وجه كامبيز لا يقدر بثمن.

قال: «سمعتها، لكنني ما زلتُ غير مصدق أنه وافق».

لم أكن أرغب في إجراء مقابلة لموقعي الإلكتروني. فللحصول على تغطية أكبر، كان لا بد من إعداد تقرير مصور. لكن القنوات التلفزيونية الإيرانية المعروفة لم ترغب في تكليفي بالمهمة. في ذلك الوقت، لم يكن لدي أي خبرة كصحفية تلفزيونية أو كمخرجة أفلام وثائقية.

اتصلت بحسن سربخشان، المحرر السابق للصور في وكالة أسوشيتد برس في طهران، والمقيم في واشنطن، ليكون مصور الفيديو الخاص بي.

عند وصولنا إلى مزرعة بهلوي، بدت السكرتيرة مترددة عندما رأت معدات التصوير. قالت لم يكن ثمة اتفاق بتصوير المقابلة.

«لم يخبرنا أحد أنك ستجلبين مصوراً».

كان عليّ أن أخادعها للحصول على مبتغاي.

«هل تعتقدين أنني جئت إلى هنا من المملكة المتحدة لإجراء مقابلة كتابية فحسب؟ إذا كانت هذه مشكلة، فلا بأس، يمكننا إلغاء الترتيبات».

فوافقت على مضض أن يصوّر حسن المقابلة. بدا رضا بهلوي سعيداً جداً بوجود الكاميرا. أراد أن يراه الجيل الأصغر من الإيرانيين الذين كانوا جمهور عملي الصحفي. لم

يطلب أسئلة المقابلة مسبقاً؛ ولم يطلب التحقق من اقتباساته أو رؤية النسخة النهائية من المقابلة. ولم يُبدِ أي تردد عندما سألته عن شعوره حيال كره بعض الإيرانيين لعائلته.

«لقد فعل والدي الكثير لصالح البلد كذلك»، قال بهدوء. لقد شيدت عائلة بهلوي إيران الحديثة. «لست قلقاً بشأن حكم التاريخ».

نشرتُ المقابلة على قنواتي الخاصة في وسائل التواصل الاجتماعي، على يوتيوب وفيسبوك، حيث كنتُ أعلم أنها ستحقق العديد من المشاهدات. تلقيتُ قدرًا كبيرًا من الإساءات من أنصار الجمهورية الإسلامية، إنما جاء القدر الأكبر من الإساءات من طرف أنصار بهلوي. فجريمتي في نظرهم: لم أخاطب بهلوي بلقب «صاحب السمو».

أحب أن أشق طريقي بنفسي، حتى لو وقف العالم بأسره ضدي.

راح شعوري بالارتياح في لندن يزداد، فبها كَوْنْتُ دائرتي من الأصدقاء واعتدتُ على روتيني اليومي. كان كامبيز ما يزال يزورني بانتظام، لكننا كنا بحاجة لاتخاذ قرار بشأن علاقتنا. في إحدى زيارته خلال ربيع العام 2014، أصرَّ على أن نخرج في جولة تسوق استمرت لساعات، رغم أننا لم نشتر شيئاً في النهاية. وجدنا أنفسنا في نهاية كينغز رود، الشارع الرئيسي الراقي في تشيلسي. كنتُ جائعة ومتعبة وأرغب في العودة إلى المنزل، وأخذ حمام طويل، ثم تصفح الإنترنت.

اقترح كامبيز أن نتناول عشاءً مبكراً في أحد المطاعم القريبة. وبينما كنا ننتظر في البار، اقتربت منا الجرسون.

«هل ترغبان بالجلوس على طاولتكما الآن، أم تفضلان الانتظار حتى يصل باقي الضيوف؟»

«فيما بعد»، تمتم كامبيز ولوّح لها بيده ليصرفها.

«أي ضيوف آخرين؟» سألت، وقد استبدّ بي القلق فجأة. أكره المفاجآت.

«دعيني أجلب لك مشروب كولا، لا بد أنك متعبة جداً»، قال كامبيز، وبدأ عليه الذنب. عندها أدركت الأمر. كان يُخطط لشيء ما.

«هل ستتقدّم لخطبتي؟ لا... لا... أنت تعرف أنني أكره المفاجآت. سأغادر المكان». انطلقت نحو الباب.

أمسك كامبيز بذراعي وقادني إلى طاولتنا. «لقد دعوت العديد من أصدقائنا».

«ألغ كل شيء. سألغي كل شيء». ورحتُ أتصل بالأصدقاء الذين اتضح أنه دعاهم، وطلبتُ ألا يكلفوا أنفسهم عناء الحضور. كان معظمهم في طريقهم، ورفضوا العودة.

ارتسمت على وجه كامبيز ابتسامة المنتصر، وقال: «حتى أنني أحضرتُ خاتماً»، ثم انفجر ضاحكاً.

«لستُ مستعدة بعد. لا تتقدّم اليوم. سأشعر بإحراج شديد، وقد أقول لا. سأكون متوترة».

فقال: «الطريقة الوحيدة لنكون معاً هي أن نتزوج الآن أو أن تحسلي على تأشيرة خطوبة».

«فلنجرب خيار التأشيرة».

عندما وصل أصدقائنا، لم نأتِ على ذكر أي شيء بخصوص عرض الزواج أو الخاتم.
تلك الليلة، تقدّمنا بطلب لتأشيرة خطوبة.

الفصل الحادي والعشرون

في أبريل، كَفَّتْ الرياح العاصفة عن الصراخ، وأوقفت الأمطار الثلجة رشقها، وغادرت السحائب المظلمة إلى مناطق أشد اكتئابًا. أخيرًا، صفت سماء لندن واستطعت أن أتلقف قطعًا من الأزرق وخيوطًا من الشمس الذهبية. كان الربيع يحاول أن يبدأ فصله بعد طول انتظار. تحسن مزاجي أيضًا لأن كامبيز زارني وهو على طريقه إلى فيينا لتغطية المحادثات النووية بين إيران والقوى الدولية. على مدى أكثر من عامين، كان يسافر إلى فيينا أو جنيف لتغطية المفاوضات، التي كانت قد بدأت أكتوبر السابق. كان لسعادتي سبب آخر. لقد قُبلت فيزتي للسفر إلى الولايات المتحدة. أخيرًا، يمكنني أن أنتقل إلى نيويورك. طبعًا، كان هذا يقربني من مسألة الزواج. صدقًا، كنت أخاف الزواج مرة أخرى. كان يعجبني الاستقلال وأردت أن أركز كل اهتمامي على الكتابة وعلى عملي في حملات الصحافة.

قلت لكامبيز: «سيقتل الزواج حبنا. يتحطم الشريكان بالمهام اليومية فور زواجهما».

كان كامبيز قد اعتاد آرائِي المناهضة للزواج.

«فلننظر إن كان يمكن أن يتحمل أحدهما الآخر شهرين من الزمان، ثم فلنقرر».

أعرف أنه كان يمزح، لكنني مع هذا كنت ممتلئة بالخاوف. كنت قد عرَفته لكل أصدقائي وتحديتهم أن يجدوا عيوبه، فإذا بهم يحبونه جميعًا. حتى أسرتي في قمي كلا وإخوتي في طهران كانوا إلى جانبه، يترجّونه حرفيًا ألا يتركني. أمّا أمي، فمن بين كل الناس، كانت تحضّني على شكر القدر. كانت لا تفوت فرصة في محاضرتي عن واجبي في تعلّم كيف أكون «زوجة مطيعة» وأعتني بزوجي المستقبلي.

قالت أمي: «أدعو لك كل يوم أن تظلّي دائماً في حماية ظل كامبيز. أنت محظوظة جداً لأن رجلاً مستعداً للزواج بك».

«لستُ في حاجة إلى رجل يعتني بي. كفي عن قول هذا، إنه مزعج».

كنت مشاركة في حملات حقوق النساء وناشطة بها، وكانت أمي تشجعني على تعلم الطبخ والاعتناء بزوجي المستقبلي.

قالت أمي كذلك إن الآقاجان ارتاح لوجود خاطب لي.

الربيع في لندن يشحن الإنسان بالطاقة. كنت أمشي مع كامبيز في شوارع كيو غاردنز الساحرة، وتعجبت من أزهار الكرز الوردية في كل مكان. لم أستطع أن أضبط نفسي. كنت أقفز مع كل خطوة، كانت دفعة كبيرة من الطاقة، وبدأت أركض ذهاباً وإياباً وأجمع الأزهار الوردية التي تساقطت وأرميها في الهواء وأضحك كطفلة. كان الشعور بدفء الشمس على بشرتي ومرور الريح بين خصلات شعري ممتعاً. كانت الحياة جميلة. أما كامبيز فكان يلتقط الصور بكاميرته. تحسن مزاجي.

كنت في حاجة إلى تغيير. منذ مدة وكتابتي لم تكن إلا عن اليأس وخسارة الوطن والاعتقال وموت المتظاهرين. كنت قد أنهيت ضحايا 88، لكنني لم أزل أعطي انتهاكات حقوق الإنسان في الجمهورية الإسلامية حينها في 2014. لقد استمرت الانتهاكات دون هوادة رغم انتخاب روحاني قبل عام. حتى بويان اشتكى من أن حاسوبه المحمول كان يحتوي كثيراً من قصص الموت والتعذيب. أحياناً كنت أرى كوابيس يتقاطر فيها الدم من حاسوبي.

أردت أن أكتب عن سعادتي بحريتي الجديدة في الركض والقفز والصراخ والغناء. أردت أن أكتب عن الأجزاء السعيدة من حياتي. في أحد الأيام كنت أقلّب بين صوري الحديثة واخترت صورة كان قد التقطها كامبيز لي وأنا أركض بحرية في شارع ممتلئ بزهور الكرز. كنت أردي سترة برتقالية زاهية، وذراعي مفتوحتان، مستعدة لاحتضان العالم، والريح تمرّ

بين خصلات شعري.

كتبت على صفحتي في الفيسبوك رسالة بسيطة:

كلما ركضت بحرية وراقصت الريح شعري، تذكرت أنني أتيت من بلد حُبس فيه شعري بضعةً وثلاثين عاماً، على يد أصحاب السلطة في الجمهورية الإسلامية. أعلم أن شوارع إيران تشتاق إلي، تشتاق إلى حضوري السعيد، إلى خطواتي السريعة، إلى رقصي، إلى ضحكي. لا أشك في ذلك مطلقاً.

أتيت من بلدٍ لم تستطع فيه امرأة منذ بضعة وثلاثين عاماً أن تحرر شعرها من أيدي مختطفوها، الذين لم ينفكوا يقولون: «الوقت ليس مناسباً».

غيرت هذه الصورة مع الرسالة المكتوبة حياتي.

لقد استعملت عبارة «اختطاف» عمداً، وكانت عبارة ممتلئة بالمعنى: كانت الجمهورية الإسلامية قد عززت حكمها عام 1979 بإدارتها لأزمة الرهائن المختطفين. كذلك فإن الجمهورية الإسلامية جعلت شعري رهينة-ليس شعري وحدي، بل شعر كل نساء إيران.

لطالما وجدت الحجاب الإلزامي أحد الخصائص المزعجة في الجمهورية الإسلامية، لكنني عندما كنت أعيش هناك لم أكن أشتكى إلا لخاصّتي. كان الحجاب خطأً أحمر لدى النظام. في عملي الصحفي، استطعت أن أدفع الحدود قليلاً، وفي الجلسات الخاصة كنت أسبر المسألة مع الشخصيات السياسية الكبرى مثل الرئيسين السابقين خاتمي ورفسنجاني؛ لكنهم كانوا جميعاً يلقون باعتباراتي عرض الحائط. كانوا يقولون إنها ليست مشكلة كبيرة. «في البلد مشكلات أكبر ينبغي حلها أولاً». كانوا يريدون أن يعالجوا أمراض المجتمع لكنهم لم يجدوا وقتاً للاستماع لمطالب النساء. استطعت أن أرى أن الحريات الاجتماعية للنساء لم تكن في الأجندة مطلقاً. داخل إيران، كان علي أن ألتزم بالخطوط الحمراء وأعرف متى يجب أن أراجع. لكن عندما خرجت من البلد أدركت أهمية مسألة الحجاب الإلزامي

للنساء العاديات. أزعجني أن الدول المسلمة المجاورة لإيران في المنطقة -تركيا وباكستان وأذربيجان وتركمانستان والعراق ولبنان وسوريا- لم تكن تفرض هذه الممارسة المقيّدة.

كان لدي أكثر من مئتي ألف متابع على الفيسبوك، وجلب منشوري بزهوره الكرزية مقداراً ضخماً من التعليقات. يبدو أنني أصبت بين قرائي وتراً حسّاساً. شورت صورتي والرسالة المرفقة بها مرة بعد مرة، على الفيسبوك وغيره من مواقع التواصل الاجتماعي. وكان أشدّ إثارة للاهتمام من ذلك، النقاش المحتدم الذي بدأ في قسم التعليقات. كنت مناصرة للحوارات على الإنترنت، لحمل الناس على التحاور وجلب التحول السياسي من خلال تغيير الثقافة حتى تصبح الإصلاحات دائمة. كنت سعيدة جداً بالحوار الذي سببته على الفيسبوك بشأن الحجاب الإجباري. كان ذلك مساحة للنساء العاديات، في قبال الناشطات، ليتحدثن بحرية عن الطبيعة القمعية للحجاب الإجباري. كانت المفاجأة الكبرى أن بعض النساء نشرن صوراً لأنفسهن دون حجاب في قسم التعليقات. لكن مخاوفي كانت عاجلة أكثر. في 17 أبريل، كنت في طريقي لأدير بعض الأمور لبويان عندما رنّ هاتفي. في اللحظة التي سمعت فيها الصوت على الطرف الآخر، وقفت شعرات ذراعي. كانت المكالمة من الجناح 350، أحد الأجنحة داخل سجن إوين. عرفت صوت المتصل: سيامك قادري، أحد كبار المحررين في وكالة أنباء الجمهورية الإسلامية، وكان حينها يقضي حكمه بالسجن أربعة أعوام لانتقاده انتهاكات حقوق الإنسان في مظاهرات ما بعد الانتخابات عام 2009.

كان صوت قادري ممتلئاً بالغضب. في خلفية الصوت سمعتُ كل أنواع الصراخ وأصوات العنف المؤلمة. وصف لي قادري قصة مرعبة عن نحو مئة عنصر أمن من مكافحة الشغب دخلوا الجناح 350 «للتفتيش». أمر المساجين بترك زنازينهم، فقاوموا، وقالوا إنهم أرادوا أن يكونوا حاضرين خلال التفتيش. كان هذا لأنه في المرات السابقة فُقدت بعض أغراضهم الشخصية، ولم يكن المساجين يثقون بالسلطات. عندما رفض المساجين المغادرة، هجم عليهم عناصر الأمن بالعصي وضربوهم على سوقهم وأذرعهم وحتى على رؤوسهم،

وسحلوا بعضاً منهم على الأرض وهم يمزقون ثيابهم ويضربونهم. عُصبت أعين بعض المساجين وكُبِّلَت أيديهم قبل أن يُضْرَبُوا. أُصِيبَ أَكْثَرُ من ثلاثين مسجوناً؛ بعضهم بكسور في الأضلاع والجماجم، وأربعة منهم كانت إصاباتهم شديدة إلى درجة أنهم نُقِلُوا إلى مشفى خارج السجن. أما بقية المصابين فانتَهَى بهم الحال في زنازين انفرادية بدلاً من أن يُؤْخَذُوا إلى المشفى.

أخبرني قادري بهذه القصة وكثير غيرها. كان الحراس يبحثون تحديداً عن الهواتف المحمولة التي هُرِّبَت، كالذي كان قادري يستعمله للاتصال بي. وافق قادري ومحامي حقوق إنسان مسجون أيضاً على أن تُجرى معهم مقابلة وهم داخل إوين. أصبح عندي رواية شهود عيان على وحشية السجون.

لستُ أكثر الناس خبرة بالتقنية. وضعت هاتفي قريباً من مايكروفون حاسوبي لتسجيل المقابلة. أدار بويان عينيه إلى أعلى، وكان واقفاً في المدخل خلال حديثي على الهاتف. همس لي بعنجهية المراهقين تجاه أهلهم: «لو عرف الناس أنك تعملين هكذا لما اتصل بك أحد». أسكَّته لكنه ظل واقفاً، متأثراً وضوحاً بالقصة التي تصدر من هاتفي. روى قادري والمحامي، الذي يجب أن أحمي اسمه، أحداث ذلك اليوم، حتى أسجلها أنا.

سألني بويان بعد انتهاء المكالمة: «هل كنت تحدثين أحداً من داخل السجن؟».

قلت وأنا منشغلة أحاول أن أكتب ملاحظاتي: «نعم، من إوين».

«كيف استطاعوا أن يتصلوا بك من داخل سجن إوين؟».

«يهرَّب الناس الهواتف المحمولة إلى داخل السجون ولا يستطيع الحرس أن يجدوها كلها».

«لماذا اختار هؤلاء السجناء أن يتصلوا بك أنت وفي إيران منظمات وصحفيون مقيمون هناك؟ أليس في إيران أحد يساعدهم؟ أنت في لندن!»

طبعاً، كان في إيران منظمات تعتني برفاه السجناء والصحفيين الذين كانوا مهتمين بتغطية الأخبار. لكن الحقيقة أن إيران خالية من أي هيئة ناشرة يمكن أن تكتب عن وحشية السجون. الخطوط الحمر كثيرة، وتجاوزها يؤدي إلى مشكلات صعبة. الكتابة عن السجناء السياسيين خط أحمر، لأن السلطات تنفي وجود سجناء سياسيين. إذا تطرق الصحفيون للأمر فقد ينتهي بهم الحال في إوين أيضاً.

«أنا خارج البلد والسلطات لا تستطيع الوصول إلي. لن يعتقلني أحد، إن من مسؤوليتي أن أنشر الأخبار».

اتصلت بقناة بي بي سي الفارسية وأخبرتهم أن لدي أصواتاً من داخل إوين. لم يكن لدى مراسلي القناة ما لديّ من الأرقام، لذا وافق المحررون سريعاً على وجوب إقامة برنامج خاص عن السجن. في اليوم التالي، فيما كنت مع كامبيز في المترو، جاء اتصال آخر من إوين. هُرعنا خارج المطار. كنت أمسك بحقيبة ظهري وهاتفي ولابتوبي-لا بد أن يسقط شيء. طار اللابتوب وتحطم على الأرض وسقطت فوقه. كنت منهارة، لكن وضع اللابتوب كان أسوأ.

أنفقت كل أموالي من العمل الحر على شراء حاسوب جديد. لم تكن هذه أول مرة، كنت أمشي خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء. كنت غاضبة على نفسي بسبب حماقتي.

قلت: «أعد أن أكون حذرة أكثر بعد الآن».

قال كامبيز: «حتى تأتي المرة القادمة»، ولفّ عينيه إلى الوراء. كان قد اعتاد إضاعتي للهواتف وبطاقات الائتمان وتحطيمي للأجهزة الإلكترونية. في الحقيقة، قبل أقل من عام، نقرت كأس مياه فوق جهاز ماك بوك أير الذي كان لي، لكن تلك قصة أخرى.

كانت قصص إوين عاطفية وتلقّت شهرة كبيرة، لكن عدد القراء لم يبلغ قطّ عدد المشاهدين الذين شاهدوا صورتي وأنا أركض حرة في لندن. تلقت تلك الصورة والنص المرافق لها

أكثر من 14,000 إعجاب، وشوركت 741 مرة، وعليها أكثر من 500 تعليق. اشتكى نقّادي على الفيسبوك من عدم توفر هذه الحريات في إيران. صدقوا، لكن ملايين النساء الإيرانيات وجدن طرقاً للالتفاف على قوانين الحجاب الإلزامي. أنا كنت قد وجدت طريقة. وجدت لنفسني صورة شخصية من أيامي في إيران وأنا أقود السيارة شمالاً من طهران إلى قمي كلا.

لم أكن أحاول الاتصاف بالتمرد. كان ملايين النساء الإيرانيات ليفعلن الأمر نفسه لولا وجود شرطة الأخلاق. لو أُتيحت نصف فرصة، لأزالت ملايين النساء في إيران حجاباتهن، لا سيما في خصوصية سياراتهن. كنت متأكدة من أن كل امرأة إيرانية عندها صورة مثل هذه الثورة، التُقطت في لحظة خاصة، وحيدة أو مع أصدقاء. في يوم من الأيام كتبت عبارة *أزادي يواشكي* -حرية مستترة- وعرفت أن كل امرأة في إيران ستفهمني. عرفت وحدي. إذا كنت امرأة في الجمهورية الإسلامية فلا بد أنك عشت جزءاً من حياتك مستترة. نصف هذا الجزء بأنه حياتنا السرية.

إذا كنت امرأة إيرانية، فقد أُحببت سرّاً، وأزلت حجابك خفية، وحضرت حفلة بصمت، وذهبت في رحلة سرّاً. كل النساء اللواتي كن يرسلن لي الآن صورهن دون الحجاب كن يعرفن بالضبط ما يحتجن عليه.

كن يعرفن المذبة المذنبة في خرق القانون الظالم. كلما قضيت مزيداً من الوقت على الإنترنت مع هؤلاء النساء اللواتي كن يرسلن صورهن وفيديوهاتهن ويخاطرن أن يُعتقلن أو يُسجنن أو ربما أسوأ من ذلك، أدركت أننا كنا جميعاً مرتبطات. لم يكن يهم أنني لست في إيران بجسدي. كنا مرتبطات بغض النظر عن الطبقة أو الثروة أو العمل أو المكان الجغرافي. نحن النساء، كنا مضطرات جميعاً لمواجهة خيبات الأمل نفسها في الجمهورية الإسلامية. كان مطلوباً منا جميعاً أن نخفي أجزاءً من هوياتنا-أن نخبئ أجزاءً من نفوسنا الصادقة. لم أعد أقبل بالاختباء بعد ذلك.

نشرتُ صورةً لنفسي وأنا أقود في إيران سيارة دون غطاء رأس، في الأول من مايو. كتبت مع الصورة نصًّا:

إذا كنتِ امرأة لا تؤمن بالحجاب الإجباري، فأينما كنتِ ستصنعين لنفسك حريتك المستترة
أزادي يواشكي حتى لا يحطّمك ثقل الإكراه والإجبار.

الإجبار ليس فقط من گشت إرشاد (شرطة الأخلاق). يكون الضغط أحيانًا من الأسرة، أحيانًا من مكان العمل؛ أحيانًا يكون الضغط للموافقة تجنبًا للحُكم السلبي. لقد جربت كل أنواع الإكراه هذه، ولي أن أراهن أن أغلبية النساء الإيرانيات اللواتي لا يؤمنّ بالحجاب الإجباري تذوّقن الحرية المستترة.

لي كذلك أن أراهن رهناً آخر، هو أن هؤلاء النساء لديهن صور للحظات الحرية المستترة هذه التي لا تضر أحدًا.

هل ننشر صورنا ونحن نقود دون حجابات، ونحن نمشي دون حجاب في الغابات أو قرب البحر، أو فوق شجرة أو في الصحراء حيث لنا أن نتنفس بحرية؟ هذه صورة لي من لحظة حرية مستترة على طريق هراز متجهةً شمالًا.

مباشرةً تقريبًا، أرسلت امرأة أخرى صورة لنفسها في وضعية مشابهة وهي تقود دون حجاب. رجّتني: «لا تنشري اسمي رجاءً. سيعتقلونني».

نشرت الصورة على صفحتي وكتبت تعليقًا آخر: «من الناس من يقول إن الحجاب همّ صغير والبلد يواجه مشكلات أكبر. بريدي الوارد ممتلئ برسائل من نساء يعتقدن أنه مسألة كبيرة. فلنحترم (المخاوف الصغيرة، لغيرنا من الناس)».

في عدد من التعليقات، رأيت ذكرًا للحرية المستترة. بدا أن الكلمة كان لها صدّى معين بين الإيرانيين. كان كل من يعيش في إيران يعرف ما أتحدث عنه—لحظات التمرد الصغيرة،

التحديات الضئيلة التي بفضلها نتنفس، متعة الذنب في مخالفة القوانين الظالمة، المتعة التي تتيح لنا نزرًا من الكرامة. اعتقدت أن هذا الاسم يليق جدًا بحملة جديدة.

فيما كان يجري هذا، أسس أحد قرّائي صفحة على الفيسبوك باسم آزادي يواشكي، وجعلني مشرفًا عليها. بعد يومين، في 3 مايو، أطلقت صفحة آزادي يواشكي/حرיתי المستترة.

أدركت مباشرة أنني أردت أن أجعل قضيتنا عالمية وبدأت أحداث أصدقائي طالبة أن يترجموا النص الذي سأنشره. انفجرت صفحتنا، وتلقّت قدرًا كبيرًا من الاهتمام من داخل إيران ومن وسائل الإعلام العالمية.

قبل مئة عام من الزمان، كان النساء الإيرانيات يشاركن في الشؤون العامة ويتقلدن مناصب مهمة في التعليم والصحافة. لم يكن النضال من أجل الحقوق ظاهرة جديدة في إيران، وإن كانت مسألة الحجاب لم تزل شائكة في إيران. في ثلاثينيات القرن العشرين، حظر الشاه رضا بهلوي الحجاب في إطار سعيه للتحديث. عندما اعتلى ابنه محمد رضا العرش لم يفرض الحظر، وصارت مسألة الحجاب مسألة اختيار شخصي. كان للنساء الإيرانيات أن يخترن؛ وكان لهن أن يتقلدن مناصب مهمة في البلد، وأن يُكلّفن بالوزارة أو حتى أن يعملن في القضاء. كانت الفائزة بجائزة نوبل للسلام شيرين عبادي قاضية قبل الثورة، لكنها أُنزلت من منصبها إلى أمانة سر بعد ذلك. في 8 مارس 1979، بعد شهر واحد من الثورة، تظاهرت مئة ألف امرأة ضد الحجاب الإجمالي.

في أسرتي أنا، كان كل النساء يرتدين حجابات، حتى في السرير. لكن مقاومة الحجاب الإجمالي كانت شائعة في البلد. لم أكن ضد الحجاب بل ضد الإجمالي. أردت أن يكون للنساء حرية الاختيار.

كانت أول صورنا في حرיתי المستترة صورة امرأة طويلة ترتدي فستانًا كرزّي اللون يبلغ

ركبتها، فوق بنطال جينز، وهي واقفة في منتصف طريق مهجور. كانت أشجار الدلب المشرقي مصطفة على جانبي الطريق على مدّ النظر. كانت المرأة الغامضة هذه فاتحة ذراعيها واسعاً، كما لو كانت معلقة على صليب خفي، وكان رأسها راجعاً إلى الخلف حتى لا يُرى وجهها. كانت خصلات شعرها السوداء الملتفة هابطة برفق عليها. لم تكن ترتدي حجاباً.

نشرنا صورة أخرى في مايو 5. كان موضوع الصورة هو امرأة تخلع الحجاب، ويظهر الحجاب طائرًا في السماء. مضيت في نشر صور النساء وهن يخلعن حجاباتهن. كانت الاستجابة لهذه الصور تدهشني. كنت أشعر بالقشعريرة فيما يمتلئ بريدي الوارد بصور النساء الشجاعات. كان في بعض هذه الرسائل حس فكاهة. في إحدى الصور، كانت امرأة غير محجبة تقف أمام إشارة في الطريق كُتب عليها: أيها الأخوات، احفظن حجابكن. كان هذا مكافئاً لرفع الإصبع للسلطات. لكن مع ابتسامة! كتبت الشابة: «هل سألت نفسك يوماً لماذا تقف النساء أمام إشارات الحجاب، وبدلاً من أن يحافظن عليه فإنهن يخلعنه؟».

في صورة أخرى، كانت امرأة حمراء الشعر تقف قرب أنقاض تخت جمشيد، وهي عاصمة فارس القديمة. كُتب في الرسالة المرفقة بالصورة: «حريات لا تدوم أكثر من عدة ثوان». في منشور آخر، كانت شابتان دون حجابات ترقصان على شواطئ بحر قزوين. طبعاً، لم يكن في إيران اختلاط في الشواطئ. بعد يوم واحد نشرنا صوراً جماعية لنساء يرمين حجاباتهن في الهواء. كان شيء ما يحدث أمام أعيننا. في إيران، كانت الفتيات تُربى على خفض الرؤوس والابتعاد عن إظهار النفس—على الإخبات والوداعة. تُعاتب كل امرأة تجذب الانتباه، ولا سيما في القرى والمدن الصغيرة. معظم النساء في إيران يتخذن وضعيات تُظهر انعدام السلطة في صورهن، لكن النساء اللواتي كن يرسلن الصور إلى حريتي المستترة كنّ على العكس من ذلك—يقفن شامخات، ويفتحن أذرعهن، ويُظهرن للعالم كله أن النساء الإيرانيات حرائر وأقوياء، ولا يخجلن من أجسادهن. كن يبتسمن سعيدات غير

عابسات-كما لو أن فعل التمرد البسيط هذا يمكن النساء.

كان يمكن أن تواجه أي امرأة تنشر صورها على صفحة عامة دون حجاب الاعتقال بتهمة خرق القانون. لكن هؤلاء النساء لم يبالين. بدا أنهن يتمتعن بلحظات الحرية والتحدي الموجزة. كانت الفكرة العامة هي: الحجاب ليس اختياري، وأنا أريد حرية الاختيار.

قفز التفاعل والحضور في صفحة الفيسبوك، حتى خرق السقف المجازي. في كل يوم، كان الآلاف ينضمون إلى حملتنا. لم يكن ذلك سيئاً بالنسبة لصفحة مختصة. في ثلاثة أيام، جمعنا أكثر من 27,000 متابع. كان تلفزيون مانوتو أول منظمة إعلامية تغطي الحملة بالفارسية، وفي 7 مايو 2014، عرفت الصحافية غولناز إسفندياري في إذاعة فري يوروب/إذاعة ليبرتي عن الحملة وكتبت مقالة صغيرة عنها.

فجأة فتحت بوابات الطوفان الإعلامي. نشرت فوكاتيف، وهي صحيفة على الإنترنت، حزمة رائعة عن الحملة، تلقت دعماً كبيراً بفضل تغريدة من جورج تاكي، من ستار تريك.

عندما أخبرت كامبيز، صمت للحظة. قال لي على الهاتف من نيويورك غير مصدق: «جورج تاكي غرّد عنا؟ حقاً؟». كنا نتكلم خمس أو ست مرات في اليوم العادي، أما في تلك الفترة فكنا دائماً على اتصال. «هذا سولو، الشخصية في ستار تريك؟».

«من هذا ستار تريك؟»

«ليس من بل ما. ستار تريك مجموعة كلاسيكية من أفلام ومسلسلات خيال علمي». ثم توقف قليلاً. «ليس لديك أي فكرة عما أتحدث عنه؟».

«أنا لا أشاهد إلا فريندز. ستار تريك، ستار وورز، ستار ما تشاء-هذا مجالك أنت. هل تستطيع أن تتعامل معه؟»

كان مقدار العمل ضخماً في البداية. أولاً، كان عدد الصورة المرسلّة من إيران مدهشاً، ولم

أكن أستطيع نشر أي صورة مباشرة. كان لا بد أن أجري بحثاً عن كل صورة، لأتأكد أنها غير زائفة وغير مرسلة دون إذن صاحبها. حركة خاطئة واحدة سوف تفقدنا مصداقيتنا. تلقيت عدداً من الصور من حسابات وهمية. لم أستغرب حين حاول عملاء الجمهورية الإسلامية أن يفقدونا مصداقيتنا بإرسال صور زائفة.

في ذلك الشهر الأول المجنون، كان الأصدقاء مثل عهد ق.، وهي امرأة إيرانية أرسقراطية تتحدث بلهجة بريطانية، يزورونني مع مساعدات غذائية لأتناولها. في عمل الحملات، لا يمكن إهمال الزخم. كنت أهرع من مقابلة إلى مقابلة لأشرح كيف أن حركتنا كانت دفاعاً عن اختيار النساء. لسنا ضد الحجاب؛ لسنا ضد الإسلام.

«أنا لست ضد الحجاب. أمي امرأة تقليدية ترتدي الحجاب الكامل، وكذلك أختي، ولكن ملايين النساء في إيران لا يردن هذا». مع بلوغ هجمات عناصر الحكومة الإيرانية على الحملة ذروتها، انضمت ناشطات آخر إلى الحملة، ليجبن على الرسائل وينشرن في المنتديات ويغرّدن باستمرار. كانت هذه حرباً ثقافية، وكان خط الجبهة مرسومًا على وسائل التواصل الاجتماعي.

كانت النساء الإيرانيات يخبرن العالم أنهن لو كان لهن الاختيار لما اخترن الحجاب. كانت هذه هي الرسالة المحورية من حملتي، التي كانت خطرة على الفقهاء في إيران. قبل ذلك، كانت رواية الجمهورية الإسلامية أن النساء الإيرانيات يحببن الحجاب الإجباري. خلال مدة ثلاثة أسابيع، بلغ عدد المعجبين بالصفحة 350,000.

من صوري المفضلة صورة نُشرت في مايو 20، وهي صورة لامرأة ترتدي الشوذر الطويل الكامل وتمسك بلوح أبيض في يدها أمام وجهها حتى لا تظهر من ورائه إلا عيونها. كانت هذه المرأة بحسب القانون الإيرانية متحجبة بالكامل، لكن الطبيعة الانفجارية لتصريحها المكتوب على اللوح أمامها جعلت هذه الصورة استثنائية: «أنا امرأة إيرانية وأومن

بالحجاب، وفي الوقت نفسه أمقت الحجاب الإجباري».

سهرت ليالي كثيرة قلقاً على أن تُعتقل إحدى «المستترات». لم يحدث شيء من ذلك.

كانت قوات الحكومة همّاً واحداً من همومي. حتى في المجموعات المعارضة للجمهورية الإسلامية، لن تجد إجماعاً على أي مسألة، ولا سيما الحجاب. كان بعض الراديكاليين يعتقد أنني لا أعارض بما يكفي وأن علي أن أشجب الحجاب والإسلام. هاجمني اليساريون الدوغمائيون لأنهم قالوا إن مسألة الحجاب ليست بتلك الأهمية وإن علي أن أركز على الفقر والبطالة. اتهمتنى مجموعة من الناس بأنني عميلة لإسرائيل، واتهمتنى أخرى بأنني عميلة للجمهورية الإسلامية. قال البعض إنهم لا يستطيعون الثقة بي لأن أبويّ كانا خادمين ولأنني عملت في صحف إصلاحية.

لم أكن على يقين ممن ينبغي أن يكون الذي يمولني . قال بعضهم إن الاستخبارات الأمريكية المركزية تمولني، قال آخرون إنه الموساد الإسرائيلي. قالت فئة أخرى إن آية الله رفسنجاني كان وراء حملتي. كانت نكتتي حينئذ أن كل وكالات الاستخبارات هذه تدين لي بالكثير، حتى أنني قد أتعاعد وأنا مليونيرية. في الواقع، لم أكن حتى أستطيع تلبية حاجاتي الأساسية إلا بتحويل غرفة معيشتي إلى غرفة نوم وإيجارها.

اتهمتنى مجموعة أخرى بأنني أؤدي النساء الإيرانيات وأتبط قضية الناشطات. «ألا تعلمين بأن الحرية لا يمكن أن تكون مستترة؟» هكذا كانوا يقرّعونني.

ساعات الهجمات جداً في الشهور الأولى إلى درجة أنني فكرت في إنهاء المشروع كله. فقدت من وزني نحو عشرين رطلاً، وانخفض وزني إلى نحو ثمانين رطلاً. كنت مكتئبة ومستعدة للاستسلام في أي لحظة.

قال كامبيز في إحدى محادثاتنا على الهاتف: «هل أنت مجنونة؟ الاستسلام الآن جنون. لقد بدأت لتوّك. كل الذين يرسلون الصور والقصص الشخصية يعيشون في إيران. هؤلاء ناس

حقيقيون ويريدون منك أن تكوني بطلتهم».

«حسنًا، لكنني سأغير الاسم من حريتي المستترة إلى حريتي الواضحة، حريتي الصريحة...»

سمعت موجة من الضحك. «سعيد بأن حس الفكاهة عاد إليك. إنه لا يقدر بثمن».

ظلّ الاسم على حاله.

كانت الحقيقة أن النساء اللواتي كنت أصل إليهن لم يكن غنيّات أو متعلّقات أو فاعلات سياسيًا، لكنهن كن يشعرن بألم الحجاب الإجباري. كن يشعرن بالإهانة من شرطة الأخلاق التي كانت تأمرهن بإصلاح حجاباتهن أو ارتداء معاطف أطول تبلغ الكواحل. كانت متابعاتي نساءً عاديات صاحبات رغبات عادية. لم يردن حل كل مشكلات المجتمع، لم يردن إلا أن يُعاملن بكرامة. كانت هذه هي الخطوة الأولى؛ وبقية المشكلات سيأتي وقتها لاحقًا.

في منشور من منشوراتي كتبت:

لو كانت الحرية تعني حرية الموافقة، فهي ليست حرية. الحرية هي حرية المخالفة. إذا لم تكن حريتي إلا بين جدران غرفتي الأربعة، فهذه ليست حرية معتبرة. لست حرة عندما أكون مجبرة على الوداعة، عندما تجبرني القوانين الظالمة على أن أعطي نفسي، وعلى أن تكون حقوقي أقل من حقوق الرجال. إن منعي من حق السفر إلى الخارج دون إذن زوجي، ومنعي من ملاعب الرياضة، كل هذا ليس من الحرية في شيء. إن الذي يُقلق الجمهورية الإسلامية هو أن تجد النساء صوتًا ليتحدثن بصوت عالٍ عن فقدانهن الحرية.

عندما قال نقّادي إن الحرية لا يمكن أن تكون مستترة، كان علي أن أرد بهدوء وحكمة. كتبت على صفحتي في الفيسبوك مرة بعد مرة: «طبعًا، الحرية لا يمكن أن تكون مستترة. عندما نجد آلاف النساء الإيرانيات يحتجن بهذه الطريقة العامة على الفيسبوك وعلى

وسائل الإعلام العالمية، فلا شيء مستتر في حملتنا. إنما تهدف صفحة حريتي المستترة على الفيسبوك إلى إشاعة الحريات».

اعترض عدد من النشطاء السياسيين بأن الحجاب كان مشكلة صغيرة ستُحلّ في وقتها المناسب بعد إصلاح المجتمع الإيراني. «أعتقد أن الحجاب الإجباري هو أكبر مشكلتنا؟».

الحجاب الإجباري ليس مشكلة صغيرة. بل هو أكبر مشكلة. من عمر سبع سنوات، يُفرض على النساء الإيرانيات الالتزام بقوانين الحجاب الإجباري، حتى إن كنّ غير مسلمات. دون الحجاب لا يمكن أن يحصلن على تعليم أو عمل ولا يمكن أن يظهرن في الأماكن العامة دون أن يُعتقلن ويُسجنن.

أردت اسمًا بارزًا إلى جانبي، وجاءت لتنصرني أشهر محاميات حقوق الإنسان الإيرانيات. نسرين ستوده، التي دافعت عن الناشطين في احتجاجات 2009 وعملت مع الفائزة بجائزة نوبل شيرين عبادي، كانت قد اعتُقلت هي نفسها في 2010 وقضت ثلاثة أعوام في السجن. حين أُطلق سراحها في سبتمبر 2013، قبل رحلة روحاني إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك، مُنعت من ممارسة القانون أو مغادرة البلاد.

كتبت ستوده رسالة عامة إلى حملة حريتي المستترة ذكرت فيها حادثًا من داخل السجن. عندما اعتُقلت في 2011، رفضت ستوده أن ترتدي الشوذر. كانت السلطات تحاول أن تكسر إرادتها القوية، لكنها مُنحت خيارين: إما أن ترتدي الشوذر وإما أن تخسر حقوق الزيارة. كان فقدان حقوق الزيارة يقتضي ألا تستطيع رؤية أبنائها -ابنها ذو الأربع سنوات نيما وبناتها المراهقة مهراوه- مطلقًا لمدة أربعة أعوام. كما ذكرت في رسالتها العامة، لم تتراجع ستوده بل كتبت رسالة خاصة جدًا إلى أبنائها لتحضرهم للأسوأ وتشرح قرارها. بعد أن أخبرتهم بحبها العظيم لهم وشوقها لمعانقتهم وتقبييلهم، عبّرت عن الفكرة

مباشرة.

كل شيء أفعله ستحكمون أنتم عليه يوماً ما، سواء أعجبني ذلك أم لم يعجبني.

لذا، أريد أن تعلموا أنني لن أسمح لهم أن يجبروني على رؤيكم وعليّ شيء أردت به بالإكراه. أفضل أن أحرّم من النظر إليكم على أن أستسلم لمطالبهم الظالمة. لن أسمح لهم أن يجبروني على ارتداء الحجاب.

في النهاية، استسلمت السلطات وسمحت لها برؤية أبنائها. قالت لي ستوده: «احتجاجك ليس أمراً هيناً».

بوجود ستوده بجانبني، شعرت بالثقة الكافية لأستمر بالدفع.

لطالما كررت في المؤتمرات: «إذا لم يكن لك أن تختاري كيف تغطي رأسك، فلن تستطيعي أن تسيطر على ما يجري داخله». إن قوانين الحجاب الإجباري أوضح العلامات على اضطهاد النساء.

يتمتع النساء في إيران بحقوق أكثر من أخواتنا في السعودية مثلاً، لكننا نعاني من التمييز مثلهن تماماً. تعترض ملايين النساء الإيرانيات على معاملة السلطة لهن على أنهن مواطنات من الدرجة الثانية. من قوانين العمل التي تميز ضد النساء، إلى قوانين الطلاق التي تعطي حضانة الأطفال للرجال، إلى حقيقة أن النساء لا يستطعن الترشح إلى المنصب الأعلى في الحكومة، ولا أن يعملن في القضاء، في كل هذه الممارسات تُكبت النساء عن تحقيق إمكاناتهن. إذا كنتِ امرأة غير متزوجة في الجمهورية الإسلامية، فلن تستطيعي السفر إلى الخارج دون إذن زوجك أو أبيك. أفضل لاعبة كرة قدم إيرانية مُنعت من السفر مع المنتخب الوطني إلى مباراة مهمة لأن زوجها رفض أن يسمح لها. هذه التقييدات نفسها تطبّق على العمل خارج المنزل. قيمة المرأة تساوي نصف قيمة رجل: إذا ماتت امرأة في حادث سيارة، فديتها نصف دية الرجل. لا تنتهي قائمة الممارسات التمييزية ضد النساء،

وأوضح علامة على أن النساء في إيران مواطنات من الدرجة الثانية هي أنهن لا يستطعن اختيار ما يرتدين.

لم أكن أنتظر أن تتغير قوانين الحجاب الإجمالي مباشرة. أردت أن أغير الثقافة، أن أمكن النساء من رؤية الإمكانيات. أرسلت إلي شابة من مجتمع زراعي في محافظة لرستان، وهي معقل للمحافظين بعيد عن زهوة لندن، رسالة مع صورتها أعادتني إلى أيامي في بابل: «أنا من مكان يفرض عليّ فيه تغطية شعري حتى أمام أبي وإخوتي وكل أقاربي الذكور. في مجتمعنا، كل شيء مفروض علينا. لا أريد أن أجبر النساء على خلع حجاباتهن ولا أن أجبر على ارتداء الحجاب. يجب أن يكون لنا حرية الاختيار».

في مجتمعها الصغير، كان إرسالها لصورتها مخاطرة كبيرة. اتصلت بي لاحقًا لتخبرني أن كثيرًا من الأصدقاء ميّزوها في الصورة وأنها تلقت تهديدات وشتائم. لكنها كانت سعيدة بأنها أرسلتها وكانت شامخة أمام الشتائم.

كلنا لدينا لحظاتنا المستترة يو/شكي، ولكننا نصبح أقوى عندما نكفّ عن عيش الكذبة. كان لي أن أمثل أنني ملتزمة بقوانين الحجاب في الأماكن العامة، وأن أخلعه في الأماكن الخاصة، لكن هذا كان ليكون نفاقًا. أردت أن تكون النساء الإيرانيات قويات بما يكفي ليدافعن عن حرياتهن.

النساء، حتى في الغرب، مُجبرات على أوضاع يجب عليهن فيها أن يقبلن بقرارات لم يصنعنها بأنفسهن. تصبح النساء فاعلات أقوى للتغيير عندما يبدأن عيش حيواتهن.

مع نهاية مايو، أي بمدة لا تزيد عن خمسة أسابيع، اقترب عدد المتابعين لحملة حريتي المستترة من خمسمئة ألف.

كان العالم كله يتكلم عن النساء الإيرانيات الشجاعات اللواتي يخاطرن بأن يُضربن اثنتين وسبعين جلدة أو يُسجن لاعتراضهن على قوانين الحجاب الإجمالي. لم يكن بدّ من أن

يظهر رد فعل من جهة الجمهورية الإسلامية. لم أعرف ما أتوقع. لكنني كنت أعرف أن شيئاً
ما سيأتي.

الفصل الثاني والعشرون

لطالما سُرَّت أُمِّي بأن تخبر الجميع كيف كُنْتُ وأنا طفلة أنكر المنحلة بعضًا صغيرة. كانت النحلات دائماً تطاردني بعدها، حتى أصل إلى البيت.

سألت أُمِّي: «لم أنكرها إلا نكزة خفيفة—لماذا تلاحقني النحلات لتلسعني؟».

ردت أُمِّي: «حتى النكزة الصغيرة تزعج النحلات»، وهي تمسح بالمرهم على اللسعات على جلدي.

لقد نكزت الآن الجمهورية الإسلامية بحملة حريتي المستترة. لا شك أنني كنت على وشك اكتشاف مدى الألم الذي تحدثه لسعات النظام الإيراني.

كانت ظهيرة سبت رائعة في مايو، الجو مشمس ودافئ، والهواء لطيف وغبار الطلع قليل. أردت أن أقضي مزيداً من الوقت مع بويان. لم أكن قد قابلته في الشهر الفائت، وكنا ننتزه في كيو غاردنز، بحقولها الغناء وأشجارها المورقة من كل أنحاء العالم. تسكعنا معاً ولعبنا بعض ألعاب الكلمات الساذجة وأطلقنا بعض النكات الحمقاء. لطالما أردت أن أتصرف مثل «أم صالحة»، لكنني في أكثر الأوقات أردتُ أن أكون طفلة أيضاً. أم وولد، كلاهما بشعر أشعث—شعره قصير على الطراز الإفريقي وشعري يبلغ كتفي وتتبعثر وشائع خصلاته التخينة السلكية في كل اتجاه. كانت كيو غاردنز بحراً من الخضرة. كانت تذكرني بالوطن.

قلت لبويان وقد تأثرت واشتقت لبلدي: «الحياة هنا كالحياء في قمي كلا».

قال بويان ضاحكاً: «هذا ما تقولينه عن كل مكان تحببته. لا شيء هنا يشبه قمي كلا، إلا الأشجار، وهي ليست من نفس النوع أصلاً».

قلت: «المراهقون، أحياناً قاسون جداً»، وبدأت أضحك معه. صرختُ: «أنا مشتاقة لبلدي».

«أراهن أنك إن ذهبت إلى باريس فستقولين إنها مثل قمي كلا تماماً». كان بويان يضحك بشدة إلى درجة أن الدموع سالت على وجهه. «باريس مثل قمي كلا تماماً...».

لا أعرف ماذا كان بقية زوار كيو يقولون عنا ونحن نضحك بهستيرية قرب أورانجري، وهو بيت زجاجي زراعي في وسط المنتزه.

لم يكن المزاج السعيد قد فارقني بعد عدة دقائق عندما رنَّ هاتفي وجرت في نخاعي الشوكي رعشة طفيفة عندما وجدت أن المتصل هو أخي علي من إيران. كنا عادةً نتحدث في الصباح؛ قلما اتصل بي متأخراً بعد الظهر.

حالما سمعت صوت أخي علي، أدركت أن شيئاً ما قد حدث. لم يكن علي مجرد أخي الأكبر؛ بل كان صديقي المقرب ومستودع أسرارتي وحاميّ. شعرت بالتوتر والقلق من خلال سماعه الأذن. كان حديث علي غريباً ومضطرباً؛ كان يتحدث بدفعات قصيرة، ولا يتيح لي أن أتحدث؟

«خوبي؟» هل أنت بخير؟ كانت الكلمات عادية، لكنها كانت محقونة بالتوتر وبمعنى خفي.

«كل شيء بخير؟ كيف بويان؟ هل بويان معك؟ هل هو بخير؟ يجب أن تكون قوية. قلت لأننا أن تكون قوية أيضاً».

فجأة، لم تعد كيو غاردنز الممتلئة بالسياح والأسر والأزواج والعشاق يمشون ويتحدثون ويقبلون ويضحكون ويركضون، المكان اللطيف الذي كان قبل عدة دقائق.

«ما خطبك؟ كلامك غريب. ماذا فعلت؟».

كان بويان قد غرق في أفكاره ومشى بعيداً عني عدة خطوات.

«اسمعي، لقد كنتِ اليوم في الأخبار مرة أخرى، لكن يجب أن تكوني قوية». كان علي ينازع ليصل صوته إلي من بُعد ثلاثة آلاف ميل. كان التوتر مناقضاً لجو المرح من حولي.

«ما دمت بأمان... فلا تسمحي لهم أن يصلوا إليك».

كنت أتحدث مع علي مرتين أو ثلاثاً كل أسبوع، وكان بيننا دائماً ارتباط تخاطري، لا سيما عندما كنا أصغر، لكنني لم أستطع فهم ما يقوله.

«لا أفهم ما تقول. لم أر في الأخبار شيئاً مزعجاً. أعطني أمك أتحدث معها».

كنت قد اشتقت للحديث معها، ولعلها ستكون واضحة أكثر من علي. كان حديثه ملتوياً عن عمد.

«لاحقاً. لا تريد أن تكلمك الآن، هي منزعة». توقف علي عن الكلام قليلاً وأنا أحاول هضم كل هذه المعلومات. لم يكن الآقا جان قد كلمني منذ أكثر من خمسة أعوام، لكن أُمي كانت دائماً إلى جانبي.

قال علي: «تابعي الأخبار أولاً. سيمرّ هذا».

ما الذي سيمر؟ كنت أتساءل. ماذا فعلت الآن؟ ركضت أنا وبويان إلى شقتنا، نسابق الزمن في ثلاثة دورات من الدرج، وقد انقطع نفسنا واضطربت أمزجتنا. بحثت باضطراب على الإنترنت. كانت شبكة خبر، وهي خدمة الأخبار في التلفزيون الرسمي الإيراني، قد نشرت تقريراً من تسعين ثانية عني. تسعون ثانية... دقيقة ونصف. كم يمكن أن تضرّ المرء دقيقة ونصف؟

منعني القلق من الجلوس. وقفت أمام حاسوب وذرعاي مطويتان على صدري، أنتظر تحميل المقطع.

جاء صوت المذيعة الأنثى مع صور أرشيفية لي: «مسيح علي نجاد، إحدى أهم الصحفيات التي تروج للفتنة...».

الفتنة؟ هكذا كانت الجمهورية الإسلامية تسمي الاحتجاجات التي اندلعت عام 2009 ضد الانتخابات الرئاسية المختلف فيها التي أبقت محمود أحمدينجاد في السلطة. كان ملايين الإيرانيين يعتقدون أن الانتخابات تعرضت للتلاعب.

استمرت المذيعة: «... تحاول مسيح الآن خداع الشابات في إيران لخلع حجابهن... في شوارع لندن، تعرضت علي نجاد للاغتصاب من ثلاثة لصوص بعد أن مزقوا ثيابها تحت أثر العقاقير المهلوسة». لم يقف الأمر هنا. ذكرت نشرة الأخبار أن بويان، الذي ربما شهد حادثة الاغتصاب، يتلقى الآن دعماً طبياً نفسياً.

مرت في ذهني ألف فكرة. لقد ذكرت الأخبار أنني اغتُصبت، وهي على التلفاز، فلا بد أنها صحيحة، أليس كذلك؟ نظرت دون تصديق. بعد كلمة «اغتصاب» تجمدت في مكاني، وأنا أنظر إلى الشاشة بخدر، وقد عجزت عن فهم أي شيء آخر. لم أتعرض للاغتصاب. هل حدث شيء ما بطريقة ملتوية ما يمكن أن يُسمى اغتصاباً؟ هل حييت أحداً بطريقة خاطئة؟ لم أستطع أن أفهم شيئاً. لم أكن أرتاح مطلقاً للقبلات في الهواء، وحتى عناق الأصدقاء الذكور لم يكن مطروحاً. ظلّ عقلي يفتّش في كل اجتماعاتي ولقاءاتي في الأيام والأسابيع القليلة منذ غادر كامبيز إلى نيويورك.

لو أنني اغتُصبت، لحرصت على أن أخبر العالم كله بذلك.

لم أكن خائفة حقاً. كنت غاضبة ومتحيرة وفي حالة من الحيرة الكاملة. اختار علي، الذي كان طبعه الدماثة دائماً، ألا يسألني إن كان التقرير صحيحاً. كان يعلم أنه غير صحيح، لكنه مع هذا كان غاضباً من عجزه عن إيقاف هذه الكذبة.

لماذا نشرت القناة الإيرانية الحكومية هذه الكذبة؟ ليس جديداً أن الجمهورية الإسلامية

تقتل نقّادها. لم أكن مزعجة إلى درجة استحقاق القتل. لكن إنشاء تقرير أخباري كاذب ونشره على القناة الوطنية مستوى جديد من التحكم بالفكر. الظاهر أن القناة الوطنية كانت تستعمل رواية 1984 لجورج أورويل على أنها دليل إرشادي للعمل. كان الواقع والخيال يختلطان يومياً لينتجا عالماً موازياً مناقضاً للواقع الذي نعرفه أنا وأنت.

كنت قد اعتدت التهديدات بالقتل على الهاتف أو البريد الإلكتروني. قبل عامين من ذلك، وبعد تهديد سيئ على وجه الخصوص، اتصلت بفرع خاص من الشرطة البريطانية، تعقب المكالمة ليجد أنها من رقم داخل إيران. لا تفهمني خطأً. أنا لست شجاعة، بل أبعد الناس عن الشجاعة، ولكنني لم أكن أعتقد أنني أستحق أن يقتلني أحد. كنت أفكر دائماً أن عملي الصحفي مزعج، ولكن ليس إلى الدرجة الكافية لقتلي. لست إلا ذبابة. لقد أعلمني التقرير التلفزيوني هذا أنني قد تجاوزت خطأ خفياً، لقد انتقلت من طفل مزعج إلى تهديد على النظام. لقد تغيرت القواعد الآن، لكن أحداً لم يعبأ بإخباري.

ركضت إلى الحمام ورششت على وجهي ماءً بارداً. كانت يداي ترتجفان. في المرأة، تفقدت انعكاسي وجعلت أفكر. ما الجريمة التي اقترفتها حتى أتعرض لهذا؟ دارت في ذهني قطع من التقرير.

«اغتصبها ثلاثة لصوص... تحت تأثير العقاقير المهلوسة... خلعت ثيابها في مكان عام»

في عملي الصحفي، أركّز دائماً على الكلمات. هل كانوا يقصدون رجال عصابات أم لصوصاً؟ جعلت أفكر. كانت لندن قد خلت من العصابات منذ قرون. ولا شك أن حيي في كيو فيليج خالٍ منهم، بكل النظام في مروجته وأسيجته وشوارعه الضيقة وأصحاب الدكاكين الذين يتمنون لي صباح الخير كل يوم.

في لندن، كنت حرة لأكون نفسي دون خوف من أي هجوم. لم أشعر يوماً أنني في خطر. لكن الآن بعد أن ذكرت القناة الإيرانية الرسمية أنني اغتُصبت... من يدري ماذا يمكن أن

يحدث. انتابني غضب كبير. في تسعين ثانية، شعرت بالصدمة والإحباط والألم والفرع والتحدي والعار. ثم فكرت في ردة فعل أسرتي. كنت حزينة فوق الوصف.

فيما دقت دقائق الساعة، كنت أتخيل عار أُمي. لا شك أنها شاهدت التقرير، وكنت أعرف أنها شعرت بالذل. في إيران، الاغتصاب دائماً ذنب المرأة. إذا اغتُصبتِ فلا شك أنك طلبت ذلك. كان التقرير كذباً، لكن أُمي فقدت سمعتها في قريتها الصغيرة في شمال إيران، حيث يعرف كل أحد كل أحد آخر وكل ماضيه الأسود. بدأت أبكي، وشعرت بالإحباط لعجزتي وبُعدي عنهم كل هذه المسافة.

اتصلت بكامبيز في نيويورك لأخبره أنني بخير. بعيداً عن طرود كل هذا، ضحك كامبيز على القصة الزائفة، وقال: «في كل مرة يفتحون أفواههم يكذبون. عجيبٌ كيف أن الجمهورية الإسلامية تزدي شعبها إلى درجة أنها تكذب عليه بهذه الصفاقة».

شغل بويان التقرير مرة بعد أخرى، متعجباً من الكذب والتحريف فيه.

«لقد انتصرتِ يا أُمي. إذا كان أقصى ما في وسعهم أن يخلتقوا الإشاعات عنك، فقد غلبتهم بالحجة. استمري في النضال».

الجدال الحر العادل مخيف في الجمهورية الإسلامية، لا سيما بشأن قضايا المرأة. لن تجد في إيران نقاشاً عن أسباب منع المرأة الذهاب إلى ملاعب الرياضة لتشجع الفرق الرياضية في كرة القدم أو الطائرة أو السلة. إن حرية اختيار الملابس نوع من حرية التعبير، وهي رفاهية غير متاحة في إيران.

الحجاب الإجباري أحد أركان الجمهورية الإسلامية. إذا أقرت الجمهورية بأن كثيراً من النساء، وربما نصف الشعب، يعارض هذه السياسة، فإن هذا سيقوّض شرعية النظام. أمام تسونامي الاحتجاجات على مواقع التواصل الاجتماعي من النساء المجبرات على ارتداء الحجاب، قررت السلطات في إيران أن تركز هجومها عليّ بوصفي ممثلة هذه الحركة

لرفض القانون.

اتصلت صديقتي أزاده لتحذرنى بعد أن شاهدت التقرير. قلت لها وأنا أبكي إنها قد تأخرت. سألتني: «رأيت ما يقولونه عنك؟». بكينا معاً على الهاتف. هي واحدة من أقرب أصدقائي وأشد داعمي. كانت مصدومة من الهجمات ضدي، إذ كانت هي أيضاً ناشطة إصلاحية. «لا أصدق أنهم بلغوا هذا الحضيض».

شعرت أزاده بالخيانة والغضب، لكن شعور أُمي بالعار هو المعتاد بين نساء جيلها. تعتقد أُمي أن مجرد الشك بالاغتصاب يفسد سمعة المرأة. العار شيء مخيف لدى الإيرانيين. فقدان السمعة رعب. وبصراحة، لقد فعلت الكثير مما يسوء أبوي. كانت أُمي تؤمن بالجمهورية الإسلامية. كيف يمكن للفقهاء، وهم رجال الله أن يخلتقوا هذه الكذبات؟ هل كانت تعتقد حقاً أنني اغتصبت؟ لم أكن أعلم.

الجزء الحزين هو أن داعمي النظام أسعدتهم الأخبار. كنتُ مصدومة من قدرتهم على السعادة من خبر أن إحدى مواطنات بلدهم اغتصبت. عندما حاولت أن أشرح الحالة للصحفيين الأجانب، نهلوا تعجباً من السبب الذي قد يدفع الجمهورية الإسلامية إلى بث قصة اغتصاب زائفة. سئلت مرة بعد مرة: ألم يعرفوا أن الاغتصاب اعتداء صارخ على المرأة؟

الفصل الثالث والعشرون

بعد أقل من شهر ، في يوليو 2014، اتجه كامبيز إلى فيينا من أجل المحادثات النووية الإيرانية. كانت الخطة أنه بعد توقيع الاتفاق النووي، فسنذهب إلى نيويورك معاً. كانت حملة حريتي المستترة على أشدها، وكنت مشغولة ببرنامج أسبوعي، ن/ نيوز ميكرو، على قناة فويس أوف أميركا بالفارسية. كنت كذلك أنتج قطعاً أخبارية لقناة مانوتو. لم يبد الوقت أفضل وقت للذهاب إلى نيويورك، لكن علاقتي عن بُعد بكامبيز كانت قد بدأت منذ 2009، وبعد خمس سنوات، حان وقت الخطوة الجريئة.

استغرقت المفاوضات في فيينا مدة طويلة. كانت إيران تحبس نفسها الجمعي، آملة باتفاق يلغي العقوبات حتى يُتاح للمال التدفق إلى البلاد. كنتُ ألحّ على المنتجين في فويس أوف أميركا أن يرسلوني لأصنع برنامجاً عن المفاوضات. لم أرد أن أفوت أكبر انقلاب دبلوماسي في البلاد منذ أكثر من مئة عام. وافقت القناة أخيراً، ووصلتُ إلى فيينا مساء 18 يوليو. هُرعت إلى التكسي واتجهت إلى فندق بالاييس كوبورغ، وهو قصر ملكي سابق وفندق فخم، كانت تُعقد فيه المحادثات.

كان الدبلوماسيون في الداخل، والصحافة مطوّقة في الخارج، وشكلت الشرطة المسلحة سوراً بينهما. وراء الحواجز المعدنية، كانت جموع الصحفيين والمصورين تتدافع وهم ينتظرون أن يخرج أي دبلوماسي ويعود سريعاً، ليقدم آخر الأخبار بشأن المحادثات. شاهد الصحفيون الإيرانيون وصولي بقلق. كانت الحكومة قد أعلنتني عملياً عدواً للدولة، ولكن هذا لم يمنع كثيراً من زملائي السابقين من أن يأتوا ليعانقوني ويسلموا علي. لقد عملت مع عدد جيد منهم في طهران، لكنني علمتُ أنهم كانوا مراقبين من حراس الإرشاد ولم أُطل. كان الحراس قد وصلوا بوصفهم صحفيين زائفين، يحملون بطاقات تعريفية من هيئات

صحفية لم تكن إلا غطاءً لأجهزة الأمن. على الأقل صحفيان من منظمات محافظة اتصلا بمكاتبهما وأخبرا القائمين عليها بأنني صرت داخل المشهد.

كان غائبًا عن الجو شعور الإنهاء. لم أشعر أن الاتفاق سيحدث. كان الدبلوماسيون ومساعدوهم الذين يخرجون من الفندق يبدو عليهم الشحوب لا البهجة—كانوا ليبتهجون لو أنهم أتموا اتفاق العقد، إن لم نقل اتفاق القرن. من عجلتي نسيت أن أحمل مؤهلتي الصحفية، وعلى كل حال، كما شرح أحد مسؤولي البروتوكول، فإن بطاقات الصحافة كانت قد نفدت عندهم. عندما رأى الخيبة على وجهي، أعطاني شارة دبلوماسية بدلاً من الصحفية. مرت ساعة أخرى، وعندما اقترب منتصف الليل، فُتحت أبواب الفندق الزجاجية وتدفعت الصحافة داخل الفندق. حُضِرَ قبو الفندق سريعاً لمؤتمر صحفي. انتظرنا مزيداً من الوقت قبل أن ينزل جواد ظريف وزير الخارجية الإيراني وكاثرين آشتون وزيرة الخارجية الأوروبية. في ذلك الوقت، رأى الحارس الأمني الذي كان يحجز الصحفيين شارتي الدبلوماسية ورفع الحبل الأرجواني ليسمح لي باتباع ظريف وآشتون في الدرج والممرات الطويلة إلى أن وصلنا إلى صالة مغلقة فيها أحجار مكشوفة تعود إلى القرن السادس عشر. حافظت على مسافة عشرة أقدام منهم، لكنني كنت متأكدة أن ظريف كان ليُصاب بنوبة قلبية لو أنه رآني. لم أرد أن أسبب حادثاً دبلوماسياً وانتظرت خارج الغرفة إلى أن وصل بقية الصحفيين. رغم كل الحماسة، لم يُبرَم في تلك الليلة الاتفاق التاريخي. بل أعلن ظريف وآشتون تمديد المحادثات.

عُدت إلى لندن، عارفةً أنني سأتجه إلى نيويورك لأبدأ حياة جديدة. امتزجت أيامي القليلة السابقة كأنها يوم واحد وأنا أجري وداعاتي الباكية. أغلقت كل حساباتي ووزعت كل أملاكي، إلا زرافتين خشبيتين طويلتين، إذ الزرافة هي حيواني المفضل. قرر بويان أن يبقى في لندن مع بعض أصدقائنا لينهي عامه الأخير في المدرسة الثانوية، وكان قد استقر في بيتهم حينها. جعلتني مغادرة بويان مرة أخرى أشد قلقاً من الانتقال إلى نيويورك، ولكنني

كنت سأسافر مع كامبيز.

كانت الرحلة ستأخذنا من مطار هيثرو في الساعة 11:00 من صباح الأحد 24 يوليو. خلافاً لعادتي القديمة بالوصول باكراً إلى المطار، ظللت أجهّز حقائبي وأجهّزها، محاولةً تأجيل رحيلي. لطالما أحببت أن تكون حقائبي خفيفة، إذ أحمل حاسوبي المحمول وحقيبة كتف فيها غيار أو غياران من الثياب، ولكنني ارتأيت أنه سيكون فالاً سيئاً هذه المرة إذا تركت أي شيء من ثيابي أو تذكاراتي. أخيراً، قفلت الباب قفلاً مزدوجاً ووضعت المفاتيح في المكتب العقاري والدموع في عيني. عند مراجعة الوصول في المطار، لم يقتنع موظف التذاكر بفيزا خطيبي، فجعل ينظر في المستندات بشك وسأل بدمائة إن كنت أمانع أن يتصل بمشرفه لينظر في المستندات كذلك.

سألت كامبيز بخبث: «إذا لم تكن الفيزا صالحة، هل يمكن أن نبقي؟ إنها علامة من السماء».

لفّ كامبيز عينيه إلى الوراء وعبر عن رفضه. لكنه كان ذكياً بما يكفي ليناقدش ترقية المقاعد، فانتهى بنا الحال كلانا في الدرجة الأولى.

قال كامبيز وهو يعطيني مستندات الهجرة: «لا يتزوج المرء إلا مرة واحدة... في حالتنا مرتين، لذلك فلتكن رحلتنا هذه باذخة».

انضمت إلى صف طويل من المسافرين الذين ينتظرون أن يُفحصوا، أمسك بحذائي في يد وبظرف مستندات الفيزا في اليد الأخرى. لقد مررت بهذه الإجراءات مرات كثيرة، لكنني شعرت أن هذه المرة مختلفة بطريقة ما. كنت على وشك اكتشاف إن كنت مستعدة لحياة جديدة.

بعد أن تجاوزنا الأمن، اتجهنا إلى ردهة خطوط الطيران البريطاني حتى أرفع مزيداً من الصور إلى الموقع. في كل يوم، كنت أنشر آلاف الأخبار والصور عن نساء يشتكين من

الحجاب الإجباري. لن يكون اليوم مختلفاً. مع مرور الدقائق، تنحنح كامبيز.

«أحم... حبيبتي، يجب أن نتحرك».

كنت في خضم محادثة على الإنترنت مع متطوعين أرادا ترجمة نصوصي في حملة حريتي المستترة إلى الفرنسية، وكنت أحمل فيديو من إيران أردت أن أرفعه في صفحتي.

مرت عدة دقائق أخرى.

«إذا غيرت رأيك، فالآن وقت مناسب لإخباري. حتى ألحق بالطائرة على الأقل».

«سأتي معك لكن...» كان الإنترنت في الردهة سيئاً جداً. جاء صوت من مكبر الصوت: «هذا هو النداء الأخير للرحلة...».

أخذ كامبيز حاسوبه.

ركضنا إلى البوابة معاً، وكنا آخر اثنين يركبان الطائرة.

ثم مرّت لحظة -عندما غادرت الطائرة المدرج وانطلقت إلى الغيوم المتدنية، لتنبثق بعدها إلى ضوء الشمس والسماء الزرقاء- أعطتني جرعة كبيرة من الأمل. حقاً، يصعب الاكتئاب جداً والمرء يشرب عصير البرتقال على علو عشرة آلاف قدم والشمس ساطعة وهو متوجه إلى مغامرة. هدأت أعصابي، شاهدت فلماً وغفوت، محاولةً ألا أفكر في كل احتمال يمكن أن يفسد الأمور.

استيقظت على خبر أننا سنقترب من النهج النهائي إلى مطار جون كينيدي. كانت الساعة الثانية بعد الظهر. عندما وقفنا في طابور الهجرة، نظرتُ إلى كل شيء حولي وإلى كل الناس بعين مختلفة، أحاول أن أرى نفسي على أنني مهاجرة جديدة. كانت تلك أول مرة أعود فيها إلى أمريكا بعد زيارتي قبل عامين، لكنني كنت حينها سائحة، والآن أخطط

للبقاء. حتى عبوس المسؤول وراء المكتب لم يزعجني. أخذ الرجل نظرة على أوراقني ثم أرسلنا إلى مكتب خلفي بأقل عدد ممكن من الكلمات.

همست لكامبيز: «ماذا لو رفضونا الآن؟». جلسنا على مقاعد بلاستيكية في المنطقة المفتوحة أمام طاولة. كان موظفو وزارة أمن الدولة بثيابهم الزرقاء المميزة واقفين يعملون.

استدار كامبيز نصف استدارة من مقعده. قال وهو يمस्क بيدي: «هذا هو أسهل الأجزاء. بعد أن نتزوج، سنجري معاملات ومقابلات أكثر». لفّ كامبيز عينيه إلى الوراء. «تذكري، هذا ليس المكان المناسب للحديث عن الحب الحر. لقد أحضرتك إلى هنا بوصفك خطيبتني، وإذا...» -وهنا أوماً كامبيز إلى الضباط خلف الطاولة- «إذا سمعوك تتكلمين عن التردد في الزواج، فسيرفضون قبولك. رجاءاً»، ومدّ آخر كلمة. «فلنتجاوز هذا الآن. ليس هذا المكان المناسب لتشاركي شكوكك».

«لقد أصبحت طريفاً جداً الآن وأنت في نيويورك».

جلسنا بصمت. ثم نادى ضابط يبدو عليه الملل اسمي.

«عالي نجاد... قومي؟ فورروا؟»

قفزنا من مقاعدنا كما لو كان في أرجلنا نابض. أعاد الضابط الأوراق إلي ثم ختم جوازي دون أي شعور.

سألته وعلى وجهي ابتسامة كبيرة: «ألن تقول «أهلاً في أميركا؟»».

ابتسم الضابط لي: «أهلاً في أميركا. لا تنسي أن تتزوجي».

بعد أن عبرنا منطقة الأمتعة، رأيت وجهاً لوجه فوضى جون كينيدي وحرارة نيويورك في أواخر يوليو. تأملت بذهول في كل شخص ونحن نحاول الوصول إلى خط سيارات

التكسي. آخر مرة كنت في نيويورك نجوتُ من عاصفة ثلجية، لكنني الآن أشعر بالدوار من الحرارة والضجيج وحركة الناس. حاولتُ أن أرتمي وجهًا شجاعًا وأنظر إلى الجانب المشرق، لكن مطار جون كينيدي ليس أكثر المطارات ترحيبًا. أما الرحلة في التكسي فلم تكن أفضل. مشينا ببطء شديد في الازدحام المروري. لم أكن قد استعملت التكييف في السيارة مطلقًا في إنكلترا، لكنني الآن كنت محتاجة إليه بشدة وبالمطلق. لم يكن في التكسي تكييف، ولم يخفف من الحالة فتح النوافذ. التف السائق من الطريق العام إلى ساحة واسعة. تهياً لي أنه يتعمد أن يمر فوق كل حفرة في الطريق. مع كل ارتجاج مزلل، كنت أشعر أن أحداً يطرق مسماراً في عمودي الفقري.

«هل أنت متأكد أننا ما زلنا في نيويورك، أم أننا انتقلنا سرّاً إلى جنوبي طهران؟».

قال كامبيز بشيء من الفخر: «نيويورك تشبه الكابوس، لكنني أعدّها وطنًا».

تأملت في المتاجر غير المألوفة واللوائح التي كانت بالكتابة الكيريلية، ثم تحولت شيئاً فشيئاً إلى العبرية ثم الأوردو وحتى العربية. تساءلت في نفسي إن كانت هذه أمريكا أو مزيجاً من البلدان.

أوقف السائق السيارة أخيراً أمام بيت فيكتوري في شارع تصطف على جانبيه الأشجار في بروكلين. بدلاً من السعادة، شعرت بالذهول وأنا أمشي. كان كل شيء يبدو أجنبيًا. البيت ضخم، لكن في أمريكا كل شيء يبدو كبيراً، أو هكذا ظننت حينها. سيكون هذا بيتي الجديد، لكنني وأنا أمشي في الطوابق الثلاثة، لم أستطع أن أبني ارتباطاً بالبيت.

«لديك كثير من الطناجر والمقالي والأطباق. ما حاجتك إلى كل هذه السكاكين والشوك؟»

قال كامبيز بمزاح حسن: «لا بد أن نأكل على شيء ما».

«كل ما نحتاجه هو طبقان». أعرف أنني كنت أصعب الأمور، لكنني كنت في لندن أعيش

وجوداً بأقل ما يمكن، بأقل ما يمكن من الأثاث.

«عندي أطفال. ونريد أن ندعو أصدقاءنا إلى البيت، وقد يعترضون على تشارك الأطباق فيما بينهم».

قادني كامبيز بيدي بلطف إلى الخارج.

«ما رأيك أن نجرب العلاج النفسي للفقراء ونطلع على شيء من بروكلين؟»

كان كامبيز يملك غراند تشيروكي وعلى عدادها 110,000 ميل وبعض الآثار على ألواحها الجانبية، وركبنا السيارة. قال كامبيز إن الوقت قد تأخر لزيارة مانهاتن، ولكن يمكننا أن نذهب إلى مركز باركليز التجاري.

انفجرتُ باكياً.

قلتُ: «كل الناس هنا ضخام». كان الناس أطول وأملأ من الأوروبيين. «كل شيء وسخ ونتن. لماذا لا أعود إلى طهران أيضاً؟».

وصلنا إلى ضفة ريدهوك. عن بعد، قدّم لي تمثال الحرية دليلاً آخر على أنني في أميركا.

في اليوم التالي، ركبنا المترو الممتلئ بالضجيج إلى شارع كانال ثم مشينا قليلاً إلى فدرال بلازا 26، وهو برج مكاتب من واحد وأربعين طابقاً يحتوي كثيراً من الوكالات الفدرالية، منها مكتب زملائي في فويس أوف أميركا الفارسية. كان طابور طويل من مختلف الجنسيات قد اصطفوا خارج المبنى.

كنت أبحث عن وجه ودود، لكنني لم أجد وجهاً يبتسم. لقد ابتذلت هذه العبارة، لكن بدا لي حقاً أن كل الناس في نيويورك مستعجلون دائماً عابسون دائماً. بعد أن تجاوزنا أمن البناء، ركبنا المصعد إلى الطابق الثالث والثلاثين.

خرجت من المصعد بطاقة جنونية وذهبت أبحث عن زملائي، الذين لم ألتق بهم إلا باتصالات المؤتمرات والمحادثات على الإنترنت. أخذني المنتج سامان أربابي لألتقي بالجميع، وانتهى بنا الحال في مكتب بوب ليفيرون، رئيس مكتب نيويورك.

قال سامان: «متى يمكن أن تبدئي؟ عندي كثير من الأفكار».

قلت، وأنا جالسة على الأريكة: «أنا عندي الكثير من الأفكار أيضاً، ولا أطيق الانتظار لأبدأ». كان لمكتب بوب إطلالة جميلة على أعمدة الضوء وراء أبنية مانهاتن، وهي أثر الشمس عندما ترتطم أشعتها بناطحات السحاب. «ما رأيك أن أبدأ الآن؟»

سأل بوب «ما هي حالة فيزتك؟»

نظر هو وسامان إليّ. ونظرت أنا ببطء إلى كامبيز.

ناشدت كامبيز: «أمورنا صالحة، أليس كذلك؟ يمكنني أن أبدأ؟»

«لم تزل بعض التفاصيل بحاجة إلى الإنجاز»

قاطعها سامان. «مثل ماذا؟ فلننجزها الآن. عندنا عرض ينتظرنا».

صمت كامبيز قليلاً وتظاهر بالتفكير.

«يجب أن تقول نعم».

سأل سامان وقد نفذ صبره: «على أي شيء؟ ما هو السؤال؟»

قلت، تدخلاً لأقاطع كامبيز: «يريدني أن أتزوجه، ولكن لا حاجة إلى مناقشة حياتنا الخاصة الآن».

شرح كامبيز بصبر: «لا بد أن نتزوج حتى تحصلي على البطاقة الخضراء لتعملي». لقد

جرت الأمور كما يحب تمامًا، وإن كان لم يخطط لها.

قال سامان، وهو يصفق بيديه: «أذهب إلى البلدية وتزوجا الآن. اليوم. ما الذي تنتظرانه؟».

قلت وأنا أقف مستعدة للمغادرة: «نحن نفكر في الأمر». لم يكن الوداع دافئًا كما كان الاستقبال. كان الجميع يحثني على الحصول على إذن العمل في أقرب وقت ممكن. دخلت مع كامبيز المصعد وانتظرت إلى أن تغلق الأبواب قبل أن أستدير إليه.

«لن أتزوج من أجل إذن العمل أو البطاقة الخضراء. أفضل ألا أعمل مرة أخرى في حياتي على أن أتزوج لكي أحصل على ورقة».

«لن يكفي الحب لتحصلي على إذن بالعمل. كلما أسرعنا في الزواج، استطعت العمل أسرع».

«لست مستعدة للزواج. لا تستعجلني».

مع عدم قدرتي على العمل في فويس أوف أميركا، عدت إلى كتابة المقالات والقطع بوصفي كاتبة مستقلة. كنت أستيظ في منتصف الليل لأبدأ دوامي، وأتصل بإيران لأجري مقابلات مع سياسيين أو مع ضحايا انتهاكات حقوق إنسان. لكن هذا لم يكن كالسابق.

كان شهري الأول ممتلئًا بالتوتر وأنا أحاول التكيف مع حياتي الجديدة. لم أكن أعمل، لذلك كان الوضع المالي ضيقًا، ولم أرد أن أعتمد على كامبيز.

وكان كذلك أطفال كامبيز. كانت دريا، وعمرها أحد عشر، وبهمن، وعمره سبعة، سعيدين برؤيتي مرة أخرى لكنهما كانا يتساءلان عن دوري في البيت. لقد كنت أنا الجديدة التي دخلت عالمهم. كان الثلاثة قد أسسوا نمطًا، والآن أنا أشوش هذا النمط بطريقة كبيرة. كانت دريا لطيفة لكنها حساسة تجاه وجودي.

أسرّت إليّ: «أنا سعيدة بوجودك هنا، لأنك تُسعدين أبي». مع هذا، لم يكن الحال سهلاً عليها. أما بهمن فكان سعيداً ما دام عنده من يلعب معه.

أردت أن أغير العالم، أن أتخلص من الحجاب الإجمالي، لكنني لم أعرف كيف أجد مكاني في البيت. اعتدت أن أحمل جواز سفري معي في كل مكان. لقد كنت مهاجرة في بريطانية والآن مهاجرة أيضاً، لكن في نيويورك. كنت ملتزمة بحياتي الجديدة، لكنني أردت أن أعرف أن في وسعي دائماً أن أذهب إلى المطار وأهرب إذا ساءت الأمور.

ذات مساء في نهاية أغسطس، بعد ستة أسابيع من السكن معاً، أخذ كامبيز الطفلين إلى النوم وقعد بجانبني على أريكته الزرقاء المخملية العتيقة، كان في عيونه نظرة تصميم. كنت أكره تلك الأريكة. كان عمرها عشرين عاماً.

«لقد ضيّعنا ما يكفي من الوقت إلى الآن. سنتزوج غداً في البلدية».

قلت: «يا لك من رومانسي. تعرف كيف تحمل الفتاة على الموافقة».

«سنشتري فستاناً غداً ونتجه إلى المدينة».

في الصباح التالي، تكوّمنا جميعاً في سيارة الجيب واتجهنا إلى مجهّز عرائس في فلاتبش كان يقدم عدداً من فساتين الزفاف، فيها كثير من الساتان والأشرطة. فيما كنت أتجول في المتجر، تقلصت معدتي ووجدت نفسي عابسة.

قال كامبيز بسرعة وهو يختار فساتين مختلفة لي لأنظر إليها: «فلنختر شيئاً بسرعة، حتى نذهب بعدها إلى السجل وننهي الأمر».

كان بهمن ودريا يضحكان وهما يمشيان في أرجاء المتجر: «ها هي العروس... ها هي العروس...».

أضافت سعادتهما شيئاً إلى قلقي بشأن الزواج.

طلبت إلى كامبيز: «قل لهما أن يكفّ رجاءً. الأمر ليس نكتة».

لاحق كامبيز الطفلين في أرجاء المتجر، لكن هذا جعلهما يضحكان أكثر، كما لو أن الأمر لعبة. لم أستطع أن أرى نفسي في فستان زفاف. ارتجفت وأنا أفكر باللباس الأسود الذي ارتديته في زفافي الأول. جاءت مساعدة مبيعات إليّ لتساعدني.

«عن أي شيء تبحثين؟ هل تريدين فستان حورية بحر أم فستان حفلة؟ أم فستاناً بلا شرائط؟» جعلت المساعدة تذكر الخيارات المتعددة. «فستان بشريطة عليها خرز ومعه وشاح؟».

لم أكن أفهم شيئاً مما تقوله.

«ها هي العروس... ها هي العروس» كان بهمن ودريا يلوّحان بالأشرطة ويقلبان خزائن الثياب.

كان رأسي يكاد ينفجر.

نظرتُ إلى كامبيز: «لستُ مرتاحة إلى شراء فستان الآن»، لكنه كان مشغولاً بشاحنة جرّ في الشارع. كان السائق يضع سلسلة حول محور دولاب سيارة جيب.

قال كامبيز قبل أن يتلفت إليّ: «انظري، إنهم يجرون سيارة رجل مسكين». «أعرف أنك لم تريدي زفافاً كبيراً، لكنني أشعر أن علينا أن نحاول وننظر على الأقل» ثم توقف. «أوه تُعساً-إنها سيارتي. انتظري هنا». صرخ الرجل وهو يركض خارج المتجر. لاحق كامبيز شاحنة الجر التي كانت تمشي ببطء بسبب الازدحام، ودقّ على نافذتها لتقف.

سأل بهمن، وهو لم يزل غارقاً في اللعب: «لماذا لا يمكن أن نقول: «ها هو العيس». أريد أن

أقول «ها هو العيس»..

قالت دريا تصحح لأخيها الأصغر: «عريس، بالراء». «ثم إنها لا تتناغم. فلنسأل مسيح».

نظر الطفلان إليّ بترقب، كما لو أنني سأحكم بينهما. أنقذتني عودة كامبيز. نظر إلي وإلى الطفلين.

قال بهدوء: «لقد فُزت. لن نشترى فستاناً اليوم».

«شكراً لك». عانقته بشدة. كنت سعيدة إلى حد البكاء. أسرع الطفلان ليصبح العناق عناقاً جماعياً.

قال كامبيز بعد أن تكومنا جميعاً في السيارة: «سنذهب إلى مانهاتن ونتسلى بشيء ما».

«ما الذي حدث؟ هل غيرت رأيك؟»

«لقد أخذت السيارة، لكنني استطعت استعادتها».

«هذا جيد».

«لكن عليّ أن أدفع ثمن إطلاقها. لقد كلّفني الأمر مئة وخمسة وثلاثين دولاراً لئلا أتزوج- صفقة رابحة، برأيي». قال وهو يضحك بصوت عالٍ.

انطلقنا بالسيارة ووجدنا للمفاجأة مكاناً نركننا فيه في وسط المدينة. شعرت أن ثقل العالم كان قد أزيح عن كتفي وأنا أتناول الغداء الفخم وأمشي حول مركز روكفيلر. كنت سعيدة أنني لن أضطر إلى ارتداء فستان. كان قد حل أول المساء عندما عدنا لناخذ السيارة. لكن السيارة لم تكن هناك.

سألت: «هل سرق أحد السيارة؟»، وأنا أتأمل في البقعة الخالية التي ركنّا فيها السيارة قبل

عدة ساعات.

قال كامبيز: «هذه الجيب عمرها اثنا عشر عامًا. لا أعتقد أن أحدًا سيسرقها»، واتجه إلى بائع في السوق كان يبيع الهوتدوغ والبسكويت المملح.

عاد كامبيز بعد عدة دقائق وعلى وجهه نظرة ضعيفة.

قال كامبيز ضاحكًا: «لقد جُرّت السيارة مرة أخرى. مرتان في يوم واحد. إذا لم تكن هذه إشارة لئلا نتزوج، فلا أعرف ما الإشارة».

في الأسبوع التالي، أخذني كامبيز إلى ساكس واخترت فستانًا فضيًا. لم يكن فستان زفاف، وكان هذا من أهم أسبابي اختياري له. في اليوم التالي، اتجهنا إلى مكتب كاتب المحكمة—نحن الاثنان فقط. كنا قد رتبنا لقاءً مع مصور داخل البلدية—كان سيصور اللحظة. لا ضيوف غيره ولا شهود. المصور فقط. في هذه المرة ركن كامبيز السيارة في موقف سيارات. «هكذا أرخص».

مع اقترابنا من المبنى، بدأت الفراشات تدور في معدتي.

«عندي بعض الأسئلة التي يجب أن أحلها. فلنأخذ غداءً ونتكلم عنها قبل أن نذهب لنتزوج». أعرف أنني كنت أماطل.

«المصور ينتظرنا، ولا أريد أن تجري المراسم على استعجال. سنأكل من بعدها».

«هل تهتم بالمصور أكثر من اهتمامك بي؟ أنا جائعة»

قال كامبيز بحزم: «الكثير من الناس سيتزوجون اليوم، سنفوّت فرصتنا إذا ماطلنا».

لا أعرف ما الذي حل بي، لكنني صرت أبكي وأطلب الطعام.

تمشّى كامبيز إلى مقعد قائلًا: «سأنتظر حتى تهدئي»، وجعل يتفقد بريده على هاتف الآيفون.

وقفت إلى جانبه، أبكي بشدّة، إلى درجة أن شرطية أتت لتسأل إن كنت بخير. أفسدت مكياجى. انتفخت عيناى، وسالت على خدودى خطوط سوداء من الآيلاينر، وصار أنفى أحمر وسيّلاً.

صاح صوت بالفارسية: «هل أنت مسيح علي نجاد؟ يا إلهي، لا أصدق!». لفّت شابة فجأة ذراعيها حول كتفى ووجهت الأخرى هاتفها إلينا. «فلنأخذ صورة-أنا وأمي من أنصارك الكبار».

«ما الذي تفعلينه هنا؟»

«التقيت برجل قبل بضعة أسابيع وتزوجته قبل قليل»

«بهذه البساطة؟»

«بهذه البساطة. علي أن أذهب» وهكذا ذهبت.

مشيت إلى المقعد الذي كان ينتظر عليه كامبيز.

قلت له: «فلنتزوج». كنت مصممة.

مشينا الخطوات معًا وذراعانا مشتبهان، ثم سمعنا فرقعة، كُسر كعب حذائي الأيمن.

أمضيت بقية اليوم حافية. وهو أمر رائع.

حلّ عليّ هدوء ونحن ننتظر دورنا. وضعت رأسي على كتف كامبيز وهو يمسح لوحة الإشعار الإلكتروني ليرى إن كان دورنا قد حان. كان حولنا أزواج سعداء، كبار وصغار،

يضحكون ويبتسمون. كان بعضهم مع آبائهم، وبعضهم مع أبنائهم. شعرت بالطمأنينة إلى قراري. كنت سعيدة أننا كنا وحيدين. لم أرد أن أشارك هذه اللحظات؛ لم أرد أن أقلق بشأن ما سيفعله الضيوف. أردت أن يمتد وقتنا معًا إلى الأبد.

انتهى حلم اليقظة هذا عندما ظهر رقمنا على الشاشة وساعدني كامبيز برفق لكي أقوم. عندما وصلنا إلى النذور الزوجية، شعرت كما لو أننا في فلم: «أن أكون له وأتمسك به... في الغنى والفقر، في الصحة والغنى، وأن أحبه وأقدّره؛ من هذا اليوم إلى أن يفرّقنا الموت». ثم قلت: «نعم... نعم نعم!».

لم أكن أو من بخواتم الزواج ولم أشتري واحدًا لكامبيز. قال كامبيز: «في هذه الحالة، سأعطيك الخاتم لاحقًا في المساء».

قُبلة واحدة وصرنا زوجًا وزوجة.

ذهبنا إلى تحت جسر بروكلين في دمبو، لنلتقط صور زفافنا، وجمّعنا عشاء رومانسي في الأوديون في ترايبكا. في نهاية تلك الليلة، جعل كامبيز يفتّش في جيوبه ثم عاد إلى السيارة عدة مرات.

قلت له: «مهما كان الأمر، يمكنه أن ينتظر. هذه ليلة عرسنا. تعال عانقني».

قال كامبيز: «لقد فقدت خاتمك. عرفتُ أنني كان يجب أن أعطيك إياه في لندن».

كان مدمرًا.

كان الأمر مضحكًا جدًّا. أنا صاحبة سمعة فقدان الأشياء، من بطاقات الائتمان إلى شواحن الآيفون إلى المفاتيح، لكن كامبيز لم يفقد إلا الخاتم.

الآن ليس عليّ أن أقلق من فقدان خاتمي.

الفصل الرابع والعشرون

كان المتشددون في طهران أحياناً يسمونني «جوجه أردك زشت» (فرخة البط القبيحة) في مقالاتهم، وكثيراً ما يُضيفون رسماً كاريكاتورياً يجعلني كالوحش. في عدة مناسبات، أشاروا إلي بالحروف الأولى من العبارة جاز. كان كل هذا جزءاً من محاولة لإهانتي. كان ذلك أيضاً تحذيراً للإيرانيات الأخريات. لطالما حيرت هذه التسمية كامبيز، وفي يوم من الأيام بعد انتقالي إلى نيويورك، فقد صبره عليها.

«ألا يقرأ هؤلاء؟ فراخ البط القبيحة تكبر لتصبح بجعات جميلة في النهاية. ألا يعرفون؟»
«لستُ بجعة. يكفيني أن أكون بطة جميلة».

استهجن كامبيز: «لن ينجوا بفعلتهم. هذا تشهير شخصي».

أطلق كامبيز لقب «عقاب قمي كلا» عليّ وبدأ يكتب تحديثات عن حياتنا معاً على صفحته على الفيسبوك، التي كان يعلم أنها تُراقب. لم يكتب شيئاً جاداً؛ كان يريد أن يتسلى. كان هذا كله على سبيل الهزل، لكن بعض المواقع الإيرانية المقربة من المتشددین في إيران لاحظت اللقب. كنت منتشية لوجود شخص غير خائف إلى جانبي. انتهت الإشارات إلي باسم الفرخة القبيحة.

ذات ظهيرة في أواسط أكتوبر 2014، كنت أستمع لمقهى في المدينة مكتباً لي عندما اتصل كامبيز، وقال إنني يجب أن ألتقيه لأمر طارئ. في معظم الأيام، كنت أعمل في مقهى يقدم اتصالاً مستقرّاً، في انتظار أن تأتي موافقة الحكومة على مزاويتي للعمل. لقد نمت حملة حريتي المستترة نمواً متسارعاً، وساعد في نموها كثير من المتطوعين. في تلك الظهيرة كنت في مزاج حسن، لأنني كنت قد صورت مقطعاً لبرنامج أخبار على تلفزيون

مانوتو في لندن. وكنا سنذهب إلى هاواي لقضاء شهر العسل في نهاية الأسبوع. ركض كامبيز إلي، وهو يجاهد ليحتوي نفسه.

«هل تعرفين من هي شيرل ساندبرغ؟»

هزرت رأسي. «هل تعمل في بلومبرغ؟»

«لا!!!!!!!!!!!!!! هي الرقم اثنان في الفيسبوك و... هي تحب حريتي المستترة».

«عندنا أكثر من سبعمئة ألف متابع. لا أستطيع أن أعرف كل واحد منهم».

«لا تعرفين شيئاً، مسيح علي نجاد»، هكذا قال كامبيز، مشيراً إلى عبارة في مسلسل إتش بي أو صراع العروش. «في اجتماع المجلس التحريري في بلومبرغ، قالت شيرل ساندبرغ إن صفحتها المفضلة هي حريتي المستترة».

كان الفيسبوك هو وسيلتي. كان هو المكان الذي لديّ فيه مئتا ألف متابع على صفحتي الشخصية العامة، وكان هو موطن حريتي المستترة. قضينا مدة طويلة نتكلم مع مهندسي الفيسبوك وفريق الدعم فيه في البداية ليساعدونا على حماية الصفحة من القراصنة والمتصيدين والمقلدين، ناهيك عن المسيئين. في البداية، قال لي مهندسو الفيسبوك إنه لأسباب «حرية التعبير» فهم لا يستطيعون إزالة المنشورات الكارهة. جرت بيننا مفاوضات شديدة إلى أن بدؤوا يرون أن الإساءة والكراهية ضد النساء اللواتي أرسلن صورهن نمط منظومي.

دون علم منا، كانت ساندبرغ، وهي واحدة من أشهر القادة النساء والنسويات في أميركا، ومؤلفة كتاب تقديمي إلى الأمام، قد تكلمت عن حريتي المستترة لمجلة فورتن في قمة أقوى النساء. لم أكن أعرف من هي ولا أنها ستتكلّم عن نضالنا. قبل تلك اللحظة، لم أكن قد فهمت بعد أن نضالات النساء الإيرانيات من أجل حقوقهن وجدت أصداءً في أماكن أخرى

لدى النساء القويات في الغرب والشرق.

أجهشت للبكاء وأنا أشاهد فيديو لها وهي تتكلم على المنصة. «إن ما يدفعني -ولا شك عندي أن الأمر ينطبق على كثير من النساء الرائعات في هذه الغرفة- أنتن تردن أن تصنعن فرقاً. يعني هذا تحسين حياة شخص آخر. إن ما أحبه في الفيسبوك هو أننا نعطي الناس صوتاً».

ثم ذكرت حملة حرיתי المستترة مثلاً، وغصت بالكلام قليلاً عندما تكلمت عن صورتها المفضلة على الموقع، التي كان النص المرافق لها بعد أن تُرجم لها: «كتبت الجدة: «أردت أن تشعر حفيدتي بالريح في شعرها قبل أن يشيب»».

كان هذا رائعاً. تغرغرت عيناى وأنا أشاهد شيرل ساندبرغ وعيونها تلمع بشأن حملة أنا أطلقتها.

قال كامبيز: «ليس لدى شيرل أدنى معرفة بالأشخاص خلف الحملة. يجب أن تكتبي لها».

«وماذا أقول؟ هي مشغولة بإدارة الفيسبوك. ليس لديها وقت لي».

قال كامبيز: «لقد قالت إن صفحتك هي صفحتها المفضلة. فلننظر ماذا لديها».

في ذلك المساء شاهدت فيديو لها وهي على المنصة لتلقي كلمة في TED. كان حديثها ممكناً-تسرّع نبض قلبي. استطعت أن أفهمها وأفهم أسلوبها السهل الودود. كان فيها شيء قوي وأنثوي في الوقت نفسه. كانت صاحبة سيطرة كاملة، وتقول الأشياء نفسها التي أومن بها. شاهدتها بمهابة. ها هي قائدة من قادة الشركات، سهلة وواثقة بنفسها على المنصة العالمية. قالت شيرل إن صفحتي تلهمها، لكنني إذ شاهدتها صارت هي أيضاً إلهاماً لي.

في اليوم التالي كتبت لها، وشكرتها على دعم حملتنا للعصيان المجتمعي.

بشيء من القلق ضغطت إرسال.

بعد أقل من دقيقتين، جاء ردها. «واو. عظيمٌ أن أسمع منك». لم أتوقع أن يأتيني الرد منها مباشرة بهذه السرعة. ثم دعّنتني إلى شركة فيسبوك لتلتقي وجهًا لوجه.

قبل أن أن أَسْتَطِيعَ رسم أي خطة، شغلّنتني سلسلة من اعتداءات رش الحمض في مدينة أصفهان، وهي أرقى الأماكن السياحية في إيران، بعد عدة أيام. كان المعتدون رجالاً على دراجات نارية يرتدون خوذاً لها أقنعة لتخفي وجوههم. رشوا الحمض على وجوه النساء اللواتي كن يمشين أو في سياراتهن. بالإجمال، كان عدد النساء اللواتي تعرضن للهجمات خمسة وعشرين.

لم تغطّ الصحف المملوكة للدولة القصة، لكن الأخبار انتشرت بكثرة على وسائل التواصل الاجتماعي. عندما انتشرت القصة، ارتأيت أن الهجمات قد تكون ربما ردّاً على صفحتي. اعتقدت أنني أسأت في تقدير قذارة النظام ضد النساء، ولعل هذا هو الوقت المناسب لإغلاق الصفحة. لم أرد أن أعرض أحداً للخطر.

لكن عندما فتحت بريدي الوارد، كان العدد الأكبر من الصور في ذلك اليوم وبقية الأسبوع من نساء في أصفهان. لم يكن في نيّتهن التراجع. هكذا قلن لي. كتبت إحدى النساء أنها كلما مرت بقربها دراجة نارية كان قلبها يتوقف لحظة من الزمان. كانت خائفة لكنها لم تكن تنوي الاستسلام. كتبت امرأى أخرى: «الحمض ليس حقّاً» على كف يدها. وكتبت أخرى: «نحن لا نستحق الحمض». كان كلاهما دون حجاب، لكن استعملتا أكفّهما المفتوحة لتغطية وجوههما.

كتبت أخرى: «ما ذنب بناتنا حتى تأخذوا بصرهن وجمالهن»، وكتبت أخرى: «أين عيون بنتي؟».

كانت إحدى الضحايا بحجابها الكامل ومع هذا رُشّ الحمض في وجهها. في أصفهان، لم

تكن النساء تخرج من البيوت كبقية المدن.

حازت الهجمات شهرة سلبية كبيرة إلى درجة أن الذين كانوا وراءها أُبعدوا عن المشهد على نحو سري. لم تنشر الحكومة سجلاتها عن الهجمات، ولم يُعتقل إلا أربعة صحفيين ومصور غطوا الأحداث.

ماتت امرأة واحدة على الأقل من جراء الهجوم، وخسرت ثمانية بصر عين واحدة لها. عانى البقية من حروق بالغة في أيديهن وأوجههن. يلقي كثيرون في إيران اللوم على المتشددین الدينيين في هذه الهجمات.

اتصلت بإمام الجمعة في أصفهان ليعطي تعليقاً. قبل عام من الأحداث كان قد قال إن العقوبة الإسلامية، والجلد حتّى، يجب أن يطبقا لضمان الالتزام بالحجاب. الآن بعد هجمات رش الحمض، غير الرجل نغمته: «لا أرى أن الجلد جزء من العقوبة الإسلامية»، هكذا قال لي. نشرتُ المقابلة على قنواتي. بعد المقابلة، تعرض الرجل لانتقادات شديدة من وسائل الإعلام الإخبارية المقربة من الحرس الثوري. لم يجب بعدها على مكالماتي مطلقاً.

في 20 أكتوبر، اتجه آلاف المتظاهرين إلى شوارع أصفهان. جرى تجمّع أصغر في طهران. استيقظت الساعة 3:00 صباحاً لأراقب الأحداث في أصفهان. كنت قلقة ألا يغطّي الأحداث أحد، لكن قلقي لم يكن في محله. لم تحظ التجمعات بأي تغطية تلفزيونية في إيران، لكن المحتجين كانوا يرسلون صورهم وفيديوهاتهم المصورة بهواتفهم إلى صفحة حريتي المستترة. لم تكن منظمة إخبارية، لكن الناس كانوا يثقون بنا. أرسلت إلى صفحتي فيديوهات أكثر من التي أرسلت إلى وسائل الإعلام المعروفة.

هاجمت الشرطة بعض المحتجين لتفريق الحشد –الذي يقدر بأكثر من خمسة آلاف– لكن هذا لم يكن إلا بعد أن غطّت الحدث عدة منظمات إعلامية خارج إيران.

أظهرت لي استجابات النساء أننا ما كنا لنُذعن. أرسلت امرأة صورة لنفسها دون أي غطاء

رأس، وفي يدها ورقة كُتِب عليها: «بالحمض تمسحون وجوهنا لكن لن تمسحوا أفكارنا».

بعد شهر تقريباً من مراسلة شيرل ساندبرغ، اتجهت إلى حديقة منلو في كاليفورنيا، وفيها مقر فيسبوك. ترى الجمهورية الإسلامية الفيسبوك أداةً للجواسيس ومن يريد تغيير النظام وغير هؤلاء من المتمردين. فيما كنت أمشي في الحرَم الضخم، طوّقني نحو عشرين من الرجال والنساء من المبرمجين والمصممين. شعرت كأنني في جامعة لا في مكان عمل. كان الجميع ودوداً جداً. تركني الدليل في مكتب مفتوح، كان الجميع فيه يعملون على حواسيبهم، ليذهب ويأتي بعدها مع شيرل. لقد طُردت وأُخرجت من دور النشر السائدة، لكنني من خلال الفيسبوك وجدت جمهوري. كان الفيسبوك وطني. كنت أنظر إلى المهندسين والمبرمجين في الغرفة كما لو كانوا يعملون من أجلي شخصياً. تحظر الجمهورية الإسلامية الوصول إلى الفيسبوك، لكن في ذلك اليوم، شعرت أنني بين محاربين كان عملهم يسبب الذعر في مراكز السلطة في إيران. كان فيسبوك وغيره من وسائل التواصل الاجتماعي حلفاء لي مكّنوني من الوصول إلى جمهور هائل.

دعوتُ ألا يتجمد مخي وألا أتكلم بالفارسية عندما ألتقيها. فجأةً ظهرت هي مع الدليل.

قال شيرل مبتسمةً: «مرحباً، لا بد أنك مسيح». كانت ترتدي ثياباً مثل معظم الشابات في الغرفة، بلوزة سوداء وبنطال أسود، مثل طالبة متخرجة.

قلتُ: «أين مكتبك؟» ثم امتعضت داخلياً من تعليقي الأحمق. لماذا لم أفكر بشيء أشد إثارة للاهتمام أقوله؟

قالت: «ههنا»، وأشارت بيدها إلى مكتب صغير في المساحة المفتوحة.

قلت: «واو. أنت أظرف حتى مما تخيلت. لقد شاهدت فيديوهاتك عدة مرات، لكنك أشد وديةً مما يظهر فيها». كنت قلقة جداً من أن تكون مملة ورسمية. «في إيران، المديرون دائماً مملون حقاً، أما أنت فمختلفة». لم أستطع أن أتوقف عن الكلام.

جسديًا، كانت أنعم مني وأصغر حجمًا، وهو ما سرّني حقًا لأنني في كل اجتماع دائمًا أكون أصغر الأشخاص في الغرفة.

«أنت واحدة من أبطال الشخصيين لأنك استطعت من خلال صفحتك أن تصنعي منصة للنساء الإيرانيات-لنسمع أصواتهن، ولنا نحن جميعًا أهل العالم لنستطيع أن نتعرف على إيران مختلفة».

شعرت بالدموع تسيل على وجهي.

أخذتني شيرل إلى زاوية في المساحة المفتوحة. قالت وهي تفتح جرابًا: «أريد أن أعطيك شيئًا»، وأعطتني بلوزة طُبع عليها تقدمي إلى الأمام.

كانت مهمة بحياتي الخاصة -رحلتي من قرية قمي كلا إلى نيويورك. تفوّهت بكل شيء تقريبًا، وكانت الكلمات تخرج بسرعة.

قالت: «ينبغي أن تكتبي كتابًا».

كنت قد خططت أن أعطي خطابًا لمديري فيسبوك لإنهاء يومي. قبل أن تتركني شيرل، أخذتني جانبًا.

قالت: «حملتك تمكّن النساء، وأنا أريد أن أساعد».

قلت: «سأفكر في الأمر». إلى جانب الاستخبارات الأمريكية المركزية والموساد، اتُّهمت من قبل بأن الملياردير جورج سوروس يمولني. لكن من نقاط ضعفي أنني عندما يعرض الناس علي شيئًا أتجمّد. أحب أن أكون مكتفية بنفسي.

غيرت فكرة التقدم إلى الأمام التي تكلمت عنها شيريل حياة كثير من النساء، حتى داخل إيران. هي تؤمن بما تفعله، وتؤمن بحريتي المستترة. ساعدني تشجيعها أنا والمتطوعين

بالاستمرار عندما يقول النقاد إن حركتنا فقدت زخمها.

بعد أكثر من عام بقليل، في يناير 2016، دُعيت لأكون واحدة من المتحدثات في مناسبة يوم قيادة النساء لفيسبوك. جاء بويان في زيارة، وسافرت معه ومع كامبيز إلى شمال كاليفورنيا. كانا دائماً حولي، ولكن في يوم خطابي، اختار بويان أن يذهب إلى السينما بدلاً من حضور المؤتمر. المراهقون مراهقون. وصلنا إلى مركز المؤتمر الضخم وأرسلت كامبيز قبلي ليستطلع المنطقة وأنا أتحدث مع شيرل ومارن لفين، المدير التنفيذية لإنستغرام. عاد كامبيز شاحب الوجه قليلاً.

«قد يبلغ عدد النساء في الداخل ثلاثة آلاف. هذا مخيف حقاً».

قلت: «شكراً للصوت الواثق».

كان المؤتمر مصمماً ليُلهم الموظفين في فيسبوك بالتمكين، ليكنَّ القادة التاليات. لم يكن لي أن أحدثهن عن التكنولوجيا أو الهندسة. لقد حولت حياتي وأخبرتهم عن استغلال الفرص والإيمان بالنفس وعدم الخوف من الإخفاق. تكلمت كيف أنني كثيراً ما أطلقت حملات ينتهي بها الحال بفقدان الزخم والاضمحلال. أنا مرتاحة إلى الفشل. في مكان ما بين الجمهور كنت أعرف أن كامبيز يشاهد ويريدني أن أركز على الجانب الإيجابي، لكن هذا لا يهم—لقد كانت هذه هي قصتي، ولم يكن لي بد من أن أحكيها.

«غامري وافشلي. كوني نفسك ولا تخافي من الإخفاق أو أحكام الناس».

حتى وأنا أتكلم، فكرت في أن أصنع من المؤتمر فلماً قصيراً. في النهاية، أنا الإيرانية الأولى التي تخطب في مناسبة في فيسبوك. لكنني كنت محتاجة إلى شيء آخر.

خارج الصالة، كانت شيرل في بلوزتها السماوية تمشي ببطء، وتركز على خطابها الذي سيتلو قريباً. أسرعت إليها.

قلت لها: «أحتاج حقاً أن تقولي بضع كلمات للنساء الإيرانيات».

قالت مبتسمة: «طبعاً»، كما لو أن رأسها خالٍ من أي هم في الدنيا. استدعت الكاميرا وبدأت تتحدث دون تردد.

«أريد أن أعبر لكل النساء على صفحة حريتي المستترة عن مقدار دعمنا جميعاً لهن، وعن مقدار ابتهاج النساء حول العالم بهن، وعن مدى رغبتنا جميعاً بالعيش في عالم لكل امرأة فيه حقوقها المدنية وحرياتنا المدنية وفرصها للعيش كما تريد أن تعيش، وعن الأخوية التي تجمعنا جميعاً في كل أرجاء العالم».

سمعنا تحطُّماً للأطباق في المطبخ خلفها وهي تنهي كلمتها.

قالت: «يجب أن أذهب»، ومشت إلى المنصة. تبعتها ووقفت في زاوية قرب المقدمة. تكلمت شيرل عن فقدانها زوجها ديف غولديبرغ قبل ثمانية أشهر؛ وكيف تعلمت أن تتعامل مع هذه الخسارة. بكى كثيرون في الغرفة، وكنتُ واحدة منهم.

الفصل الخامس والعشرون

لم أدرك مدى البرد في شتاء نيويورك، وكان شتائي الأول فيها شتاءً تعاقبت فيه الثلوج الضخمة واحداً بعد آخر. كنت أصرخ مبتهجة مع كل عاصفة ثلجية، وأفرح كطفلة صغيرة لمراى الطرقات والأشجار وهي مغطاة بالثلج دون أن تمسها يد. استمتعتُ بالتعثر بأكوام الثلج التي تبلغ الرُّكَب.

كانت لندن أقرب إلى الاعتدال، لكنني أحببت تطرّف نيويورك—على الرغم من أيام الحر التي تزيد فيها الحرارة عن مئة درجة وأيام البرد القطبي! الحياة في نيويورك تمضي أسرع منها في لندن، ومع أنني كنت لم أزل أنتظر إنجاز بطاقتي الخضراء ورخصة عملي، كنتُ مشغولة أكثر من أي وقت سبق.

قرعُ على بابي في ظهيرة شتوية وضعني مقابل نازيلا فتحي وجهاً لوجه، نازيلا التي تكاد تكون أختي التوأمة—لطيفة الجسد، طولها من طولي، وشعرها أشعث طويل. كنت أعرفها نوعاً ما من إيران، حيث كانت تعمل لصحيفة نيويورك تايمز عندما كنت أنا أعمل لصحيفة /اعتماد ملي. كانت نازيلا صحفية إيرانية، لكننا لم يسبق أن التقينا، لأنها تعمل لدى شركة إعلام أجنبية وكان يُنظر إليها على أنها مراسلة أمريكية. لا شك عندي أن نازيلا مثل غيرها من المراسلين الأجانب الآخرين كانت مراقبة من أجهزة الأمن. الآن هي هنا لتجري معي مقابلة لصحيفة فوغ.

صدقاً، لم أكن قد سمعت بصحيفة فوغ إلا قبل أسبوع من مجيء نازيلا.

قال كامبيز عندما اتصلت بي الصحيفة أول مرة: «إنها الكتاب المقدس للموضة. فيها كثير من صور الملابس والإكسسوارات اللامعة». لم أقتنع بالأمر.

قلت: «حريتي المستترة ليست عن الموضة. بل عن حقوق النساء. لماذا قد تهتم شركة موضة أمريكية بنضالنا؟ لعل الأفضل أن أرفض المقابلة».

«فوغ ليست مثل أي صحيفة موضة. ستصلين من خلالها إلى مجموعة ما كنت لتصلي إليها من دونها».

الآن، وأنا أطوي ساقي تحتي على الكرسي، مستعدة لأتحدث إلى نازيلا، لم تزل الشكوك تراودني. لكن المقابلة دائماً عربون ثقة، ونازيلا، وهي المرأة الإيرانية التي تربت في الجمهورية الإسلامية، تعرف كل التحديات العاطفية والجسدية التي يواجهها النساء في إيران.

ترعرعت نازيلا في أسرة من الطبقة الوسطى في طهران، وكان أبواها يعملان، وقد توسّعت عيناها لدى وصفي للفقير في الريف. تربت نازيلا تربية أوروبية تقريباً. عندما قلت لها: «الحجاب كان جزءاً من جسدي إلى درجة أنني كنت أنام وأنا أرتديه»، بدت عليها الصدمة.

قلت لها وأنا ألف خصلة من شعري الطويل حول أصابعي: «خلع الحجاب عملية نفسية طويلة. لقد ظلت سنوات طويلة أشعر بالعار من شعري، لكنني أعتقد أنه جميل».

لقد تربيت أنا ونازيلا في ثقافة تقول لنا إن الحجاب يحمينا من الفساد، ويحصننا من السيئين ويحفظنا من الخطيئة. أسرتي اشترت هذا الخطاب بإيمان كامل، أما أسرتها فلم تقبله إلا ظاهراً. تصبح قيم الحجاب جزءاً أصيلاً من هويتك في المناطق الريفية.

قلت لنازيلا وأنا أزداد حماسة: «لا يمكن أن ترفض هويتك. هذه هي الرسالة التي أريد إيصالها لكل النساء الإيرانيات. لا تخسري هويتك. لا تتخلي عن هويتك. انظري إلى صور إيران قبل الثورة وستجدين النساء المتحجبات وغير المتحجبات متعايشات. هذا هو ما أريده».

بعد أن أنهت المقابلة، سألتني نازيلا عن خزانتي واختياراتي للملابس.

«لا أعرف أي علامة تجارية. بانانا دبلوماتيك؟ باينابل ديموكراتيك؟» لفظت عدة أسماء عشوائية.

«تقصدين بانانا ريبليك؟»

قلت لها مبتهجة: «نعم، وأرتدي أيضاً الكثير من زارا».

بدا على نازيلا أنها مستغرفة في الأفكار وهي تجمع أشياءها وترتدي معطفها. «سيتصلون بك لأجل جلسة التصوير. لكن هذه نصيحتي: ستكون متعبة».

وكذلك كانت. في صباح بارد في فبراير، مشيت إلى مطعم فاخر في وسط مانهاتن. لم أكن قد رأيت من قبل جلسة تصوير موضة، وكان المظهر مخيفاً على أقل تقدير. كان على أحد الجدران طاولة مليئة بأطعمة الفطور من البسكويت إلى البيض المخفوق إلى الفواكه وجرار كثيرة من القهوة. كانت الموسيقى الصاخبة تشتعل فيما تجرب عارضات الأزياء الفساتين ويتحرك فنانو الشعر والمكياج في الأرجاء. التقط لي أحد المصورين عشرات الصور في إحدى المرات فيما كان مساعده يعبث بالإضاءة. في جزء آخر من الغرفة كان على الرفوف مئات الملابس. كان المشهد غريباً جداً علي إلى درجة أنني كدت أن أذهب، مستعدة للتخلي عن المشروع كله.

«تفضلني بالدخول. فلنر إن كان شعرك يحتاج إلى أي عمل»، قالت امرأة ذات مظهر محترم وهي تتولى أمري. نظرت السيدة إلى شعري وقالت: «شعرك رائع. سنزيد من التفافه وننفخه قليلاً حتى يصبح أكبر».

الأمر ظريف؛ في إيران كان شعري مصدراً للعار. كان الجميع يشفق عليّ لكون شعري غير منتظم، أما هذه السيدة فقد أحببت شعري. شعرت بالقوة ومشيت إلى رفوف الثياب

وبدأت أقلب الملابس.

سألتني امرأة جميلة ترتدي بلوزة بيضاء وسترة من الجلد: «ما الذي تفعلينه؟»

«أريد أن أختار شيئاً جميلاً ألبسه. لا أعرف أسماء العلامات التجارية. هل لديكم شيء من زارا؟»

نظرت المرأة إلي باستغراب. «أنت ليس لك أن تختاري».

احتججت: «لمَ لا؟ إنه جسدي».

قالت دون اهتمام: «ثيابك مختارة لك».

كنت أشتعل غضباً. أنا ناشطة لحقوق النساء أناضل من أجل حق المرأة بالاختيار، ويُقال لي إنه ليس لي أن أختار ملابس. أخذت نفسي عميقين حتى أهدأ. انتظرت نحو ساعة، وأنا أراقب عارضات الأزياء يدخلن ويخرجن. أخيراً وضعت فنانة مكياج يدها السحرية علي وقُدِّم لي فستان طويل. «هذا فستانك».

سألت اختصاصية الأزياء: «هل أنت متأكدة؟».

أومأت بالإيجاب.

ارتديت الفستان بسرعة في الكواليس ومشيت باضطراب على كعبي العالي إلى الطاقم المتجمع في المقدمة. تأملت في انعكاسي في المرأة. لم أتعرف الشخص الذي كنت أراه. جاءت مساعدتي وألبستني قلادة وأعطتني زوجين من أقراط الأذن. كانت الصورة خاطئة كلها. أما الحلى فكانت القشة التي قصمت ظهر البعير.

«انتهى الأمر. لن أفعل هذا». انطلقت إلى الغرفة الخلفية لأرتدي ثيابي الأصلية. «أنا أقيم الحملات لحقوق النساء. لن أرتدي ثياباً لا تعبر عني. هذا الفستان لا يناسبني».

اتصلت مساعدةً بأصحاب المناصب العالية. لم أستطع أن أسمع إلا أجزاءً صغيرة من المحادثة لكنني سمعت عدة مرات اسم أنا وينتور. أخذت هاتفي واتصلت بكامبيز.

«سأخرج الآن. أكره أن أكون من مشاهير الموضة. كان هذا خطأ كبيراً». هكذا قلت له بسرعة قبل أن يستطيع الإجابة. ثم شرحت له أنني عدت إلى بنطال الجينز والبلوزة العادية واستعددت لألغي جلسة التصوير.

حافظ كامبيز على صمته مدة طويلة. ثم قال: «الشهرة ستفيد الحملة. ألم تجدي أي فستان آخر مقبول؟»

سألته: «من هي أنا وينتور؟».

«لا تعرفينها؟» كان صوته متعجباً إلى درجة مزعجة.

«لست أمريكية ولا تعنيني الموضة».

«هي آية الله الكبرى، المرشدة العليا لمجلة فوغ، وبالتعريف هي التي تحدد صيحات الموضة».

«هذه هي إذن. أنا أقاتل آيات الله كل الوقت».

بعد شيء من التفاوض، وجدت لي اختصاصية الأزياء بلوزة بسيطة وبنطالاً منمطاً. قالت: «لا فستان ولا حلي. هذه بلوزة من ألتوزارا».

قلتُ وقد سمعتُ اسم المصمم خطأ: «نعم، أحب زارا. عندي الكثير من بلوزات زارا في البيت».

هزّت السيدة رأسها يائسة ومضت.

استغرق الأمر ثلاث ساعات قبل أن أنتهي، وكنت أفكر كل الوقت، لم كل هذه الجلبة؟ أعجبتني البلوزة وأرجعتها على تردد. لاحقاً، وجدت نفسها في متجر ثياب، وعرفت أن ثمنها يبلغ عشرة أضعاف ما أَدفع لدى زارا.

قلت لكامبيز في ذلك المساء وأنا أحضر حقيبتني لرحلة إلى جنيف: «لا تعنيني الموضة. أريد أن يولي الناس اهتماماً لما أقول لا لما ألبس». «وجودي في فوغ يبغي الحملة حية، لكن لا أريد أن أصبح ضحية للموضة».

قال كامبيز: «أحياناً عليك أن تظهرى بالشكل المناسب حتى يكون الناس جاهزين ليصفوا لك».

ثم ذهبت إلى جنيف لأحصل على جائزة حقوق النساء في قمة حقوق الإنسان والديمقراطية، التي تمولها عشرون منظمة حقوق إنسان عالمية. رتبت لبويان أن يجتمع بي. كنت أحب أن يرافقني في المؤتمرات الدولية. كان وجوده يمنحني قوة وراحة، ولكي يرى هو أمه تعمل.

كانت الحملة تعطي «صوتاً لمن لا صوت له، وتهيب بضمير الإنسانية أن يدعم نضال النساء الإيرانيات من أجل حقوقهن الأساسية وحريتهن ومساواتهن». هكذا قال أحد المنظمين وهو يقدمني.

لم أكن قد حضرت خطاباً رسمياً. أجد صعوبة في القراءة من نص جاهز، ولا أستطيع تذكر خطابات طويلة، لذلك أجهز عبارات مفتاحية قليلة وأبني حولها سرديتي. قفزت على الدرجات إلى المنصة ونظرت إلى الكاميرات وأضواء التلفزيون والصالة الممتلئة. كان حول رقبتني حجاب ملفوف. بطريقة مدروسة، رفعته فوق رأسي، مثل مئات الصور التي ترسلها النساء في حملة حريتي المستترة.

قلت: «قطعة القماش هذه، في يد نظام جعل الحجاب الإجباري قانون الأرض، صارت أداة

لاضطهاد النساء. قطعة القماش هذه في يد السياسيين الذين لا يؤمنون بالحرية، صارت سلسلة حول أعناق النساء الإيرانيات على مرّ الخمس وثلاثين سنة الماضية، سلسلة خنقت حيويتهن وطاقتهن. مثل قادة حركة الحقوق المدنية الأمريكية، مثل مارتين لوثر كنج، نساء بلدي أيضاً لهنّ حلم-نحلم أن يُسمع صوتنا يوماً ما، أن يقف العالم معنا، وأن يغادر الحجاب الإجباري إيران إلى الأبد».

قبل شهر، كانت ميشيل أوباما قد رفضت تغطية شعرها في المملكة العربية السعودية. كان في جعبتي رسالة لها أيضاً.

قلت: «لقد رأيت صور ميشيل أوباما في السعودية دون أن تغطي شعرها. اسمحوا لي الآن أن أشارككم سرّاً. إن ذهبت ميشيل أوباما إلى إيران فالأفضل أن تغطي شعرها، وإلا فلن يُسمَح لها أن تتجاوز رقابة الجوازات. لن تُسَجَن، فهي السيدة الأولى، لكنها ستُرحَل. هذا لأنه لا يمكن أن تُرى امرأة في شوارع إيران دون أن تغطي شعرها».

لطالما رأيت نفسي صحفية، مراسلة صحفية. لم أرد أن أكون ناشطة. كانت العملية تدريجية. لم أكن أتوقع أن حملة حريتي المستترة ستبلغ هذا الأثر، ولم أتوقع أن ألغي قوانين الحجاب الإجباري بين يوم وليلة. لقد قبلت دوماً أن علينا أن نغيّر الثقافة الكارهة للنساء السائدة في إيران؛ يجب أن نعدّ الأرض. لذلك كان عملي في الحملة يقتضي ابتكار أفكار جديدة كل عدة أشهر ليبقى نضالنا في الأخبار.

كان من أهداف الحملة تعليم السياسيات الإناث عن الحجاب الإجباري وأن نطلب منهن الانضمام إلى الاحتجاج. كان يكفي سوءاً لو أن النساء الإيرانيات وحدهن مجبرات على الحجاب، لكن الحكومة الإيرانية تجبر أيضاً كل الزائرات من غير الإيرانيات أن يرتدين حجابات. كان يزعجني على نحو خاص عندما تطيع السياسيات هذا القانون التمييزي.

عندما كنت صحفية سياسية في إيران، كانت الصحفيات يتذمرن من قوانين الحجاب

الصارمة، وكان الرد من المسؤولين دائماً هو الإشارة إلى الوفود الأجنبية على أنها مثال ينبغي أن نتبعه، كانوا يقولون فعلياً: «حتى السياسيات غير الإيرانيات قد قبلن ثقافة الحجاب عندما يزرن بلدنا، لذا فلا ينبغي أن تحدثوا أنتن الإيرانيات جلباً بشأنها».

أردت أن أصل إلى السياسيات اللاتي يزرن إيران وأطلب منهن الاحتجاج. فيما كانت القوى الكبرى تمشي مع إيران خطوات ضئيلة نحو اتفاقية تحل التوترات النووية، كان السياسيون وقادة الشركات الغربية متحمسين لزيارة إيران ليعرفوا أكثر عن التطورات. أرادت الجمهورية الإسلامية أن تبيع رؤيتها لإيران. كان دوري أن أوصل الحقيقة بشأن اضطهاد النساء.

في يناير 2015، اتجهت نائبة رئيس بوندستاغ، كلوديا روث، وهي عضو في الحزب الأخضر، إلى طهران في وفد من البرلمانيين الألمانين. كتبت رسالة عامة أطلبها فيها أن تناقش مسألة الحجاب الإجمالي مع قادة إيران وأن تنضم إلى احتجاجنا وتعبّر عن معارضتها علناً. لم أتوقع أن تذهب روث حاسرة الرأس، لكنني تأملت أن تذكر المسألة وتصنع نقاشاً. طلبت من متابعي أن يكتبوا لروث مباشرة للتعبير عن مطلبهم. كتب لها المئات، وفجّروا صفحتها على الفيسبوك برسائل الاحتجاج.

كنتُ جديدة في عالم السياسة وفنّ كسب السياسيين. إلى هذا اليوم، لا أعرف كيف يكون ذلك. لكن في منشور على الفيسبوك موجّه لها عرضتُ كل حججي.

عزيزتي السيدة روث: لعلّك قد سمعت أن المسؤولين الإيرانيين يقولون إن الحجاب الإجمالي هو القانون في إيران، وأن على الأجانب أن يحترموا قوانين الدولة المضيفة. في هذه الحالة، يتوقع المرء أن إيران أيضاً تحترم قوانين الدول الأخرى. الحجة هنا: تطالب فرنسا اليوم النساء بإرسال صورهن دون حجاب عندما يتقدمن للحصول على فيزا فرنسية، حتى يمكن

فحص الصور جيداً. لم يكتف المسؤولون في إيران بعدم الالتزام بهذا القانون، بل قد منعوا النساء من إرسال أي صورة دون حجاب إلى السفارات الغربية. في الحقيقة، سمحت السلطات الإيرانية للمحتجين أن يحتجوا أمام السفارة الفرنسية في طهران لتضغط على الفرنسيين.

المفارقة هي أن إيران تؤمن بحرية الاختيار للنساء الإيرانيات ما دام اختيارهن هو الحجاب الإجباري. رجاءً لا تقولي إنه لا ينبغي أن يتدخل المرء بقانون دولة أخرى؛ إن المسؤولين في إيران سيحتجون بصوت جهوري إذا منعت دولة مثل ألمانيا أو فرنسا أو إيطاليا النساء المسلمات من ارتداء الحجاب.

لذا، أريد منك أن تحتجي على الحجاب الإكراهي على النساء الإيرانيات.

لو بقينا صامتين أمام القوانين الظالمة والسيئة، لبقيت العبودية، التي كانت هي أيضاً مشروعة سابقاً.

أصدرت كلوديا روث تصريحاً قالت فيه إنها في إيران لتحقيق في ظروف السجناء السياسيين وإن نقاش مسألة الحجاب الإجباري سيعرض مهمتها للخطر. كانت قد زارت إيران عدة مرات سابقاً، وفي كل مرة كانت تبذل الوسع في استرضاء الجمهورية الإسلامية.

اشتعلتُ غضباً. كانت النساء الإيرانيات يغامرن بحريتهن لأجل تحدي قوانين الحجاب الإجباري، والآن سياسية من الحزب الأخضر تتجاهل صوت الناس العاديين حتى تستطيع الاختلاط بالقيادة الإيرانية. شعرت كثير من النساء بالخيانة من روث.

وصلت موجة احتجاجنا إلى وسائل الإعلام الألمانية، مما وضع روث في موضع دفاعي. قالت روث إن أولويتها هي مشاهدة السجناء السياسيين، لكن طلبها للقاء نرجس محمدي، وهي ناشطة بارزة في حقوق الإنسان، قوبل بالرفض. كانت محمدي قد حُكم عليها

بالسجن ستة عشر عامًا لإطلاقها حملة ضد حكم الإعدام. كانت بارزة بين الناشطين ومعارضة للحجاب الإجباري. ظلت روث صامته بشأن منعها من زيارة محمدي.

يتواصل السياسيون الأجانب بشكل رئيس مع وزارة الخارجية الإيرانية، التي لا قول لها بشأن ظروف المعتقلين السياسيين في البلاد. قلّمَا مُنح سياسي أجنبي الوصول إلى سجين سياسي أو مسجون لأجل قضايا حقوق الإنسان. عندما كانت الدول الأوروبية تشاجر سكانها المسلمين وتعالج مسألة الحجاب، كنتُ أضيف عنصرًا جديدًا إلى النقاش. إذا كان للنساء المسلمات في الغرب حق اختيار كيف يغطين أنفسهن، فلماذا لا يمكن للنساء الإيرانيات أن يتمتعن بالحق نفسه؟ كانت روث أول سياسية تركز الحملة عليها، وقد تعلمنا من ذلك دروسًا قيمة.

طبعًا، لم أكن أتوقع أن أغير القلوب والعقول بين ليلة وضحاها لكنني كنت مبتهجة باستجابة مجتمع الفيسبوك. كانت هذه البداية فقط.

في أواخر مارس، بعد شهرين فقط، راسلني عدد من الصحفيين الأستراليين. كانت وزيرة الخارجية الأسترالية جولي بيשוב تخطط لزيارة إيران، وأراد الصحفيون أن يعرفوا رأيي: تتحجب أو لا تتحجب؟ هذا هو السؤال.

أعطيت عددًا من المقابلات لمواقع وصحف أسترالية مثل ميلبورن هيرالد سن وسيدني مورنينغ هيرالد وانتظرت. كنت أكرر الرسالة المفتاحية نفسها: «آن أوان أن تسأل بيשוב الحكومة الإيرانية عن الحجاب الإجباري وكرامة الإنسان».

كانت هذه أول زيارة لمسؤول أسترالي منذ اثني عشر عامًا، ولم ترد بيשוב أن تخاطر بأي شيء. مع اقتراب موعد وصولها، أخبرت الجميع بأن غايتنا الأولى هي جلب قضية الحجاب الإجباري من الهوامش إلى النقاش السياسي السائد، وأن تُسمَعَ أصواتنا وتوضع مطالبنا على الطاولة. في النهاية سيأتي يوم لن يجبر فيه القانون النساء على ارتداء الحجاب، لكن

أمامنا نضال طويل وشاق قبل أن يأتي هذا اليوم.

كان من التحديات التي واجهتها الحملة المجموعات التي تقول إن حقوق النساء والحجاب الإجمالي مسائل مهمة لكن هذا ليس هو الوقت المناسب. كانت هذه المجموعات تدعي أن مسائلنا ستحل بعد أن يُزال الفقر والتشرد ويسود العدل وتزدهر الديمقراطية في إيران. ليس لدي أي مشكلة مع هذه الأهداف، لكنني لن أقعد وأنتظر. قضيتي هي حقوق النساء، وخطوتي الأولى هي إزالة قوانين الحجاب الإجمالي. وضع المطلب على الطاولة بوصفه المطلب الرئيس كان نصراً في حد ذاته.

قالت الصحف والمواقع المحافظة في إيران إن رفض روث لمساعدة حملتنا كانت ضربة قاضية على حريتي المستترة. الآن كانوا ينتظرون ضربة أخرى. مرة أخرى، طوّف المشاركون في حملة حريتي المستترة صفحة بيشوب على الفيسبوك. لو كان الحجاب الإجمالي جزءاً من الثقافة الإيرانية، لما اضطرت شرطة الأخلاق إلى اعتقال 3.6 مليون امرأة لإظهار شيء من الشعر على رؤوسهن. توقفت السلطات الإيرانية عن نشر أعداد النساء اللواتي يُعتقلن لمخالفتهم قوانين الحجاب الإجمالي بعد أن روجنا لها. وضوحاً كان الأمر يجرّهم.

تهياً المشهد. اتصل صحفي أسترالي بي من طهران قائلاً إن بيشوب وضعت شالاً أسود على رأسها في لقاءها مع ظريف وفي المؤتمر الصحفي الذي تلاه. كان الشال يغطي نصف شعرها فقط، وهو ما أتاح لها شيئاً من الكرامة، التي تخلت عنها لاحقاً عندما أصرت على ارتداء حجاب. قالت بيشوب للصحافة الأسترالية التي لم تكن تصدّق: «في الحقيقة، أنا أرّدي الشالات والقبعات وأغطية الرأس كثيراً في حياتي اليومية».

كان مُغضباً كيف غيرت قرارها إلى الإذعان. مباشرة، بحثت في الإنترنت ووجدت على الأقل عشرين صورة لبيشوب دون شال أو قبعة أو أي غطاء رأس يماثل ما كانت ترتديه في

طهران. نشرت هذه الصور.

في يوم مغادرتها لإيران. أسقطت بيشوب زعمها السابق. التقط الكاتب في هيرالد سن أندرو بولت صورة لها في ثيابها لدى الخروج: «البارحة صُورت بيشوب وهي تغادر غرفتها في فندق في طهران إلى باريس، وهي ترتدي ما يبدو كأنه قبعة فيدورا مرصعة بالماس من أيام أغنية مايكل جاكسون سموث كريمينال». كانت بيشوب ترتدي بلوزة بيضاء واسعة القبة تحت بنطال جينز أسود. في الظروف العادية، أي امرأة ترتدي هكذا ينتهي بها الحال في السجن، لكن وفد بيشوب اتجه إلى المطار ليذهب إلى باريس.

امتدح أنصار بيشوب في أستراليا سلوكها في إظهار الحساسية واحترام «إيران وثقافتها». لكنها تلقت تقريراً من خصومها ومن النسويات لأنها لم تكن «تمكّن النساء». في تقرير تلفزيوني، قال أندرو بولت إن مظهرها كان «سخيفاً» وإنها أخفقت في «الاعتزاز بالثقافة الغربية». عبّر كثير من الأستراليين عن «إحباط كبير» لأن بيشوب لم تأخذ «موقفاً داعماً لقريناتها الإناث».

أما المدير التنفيذي لمعهد الشؤون العامة جون روسكام فدافع عن اختيار وزيرة الخارجية بوصفه شراً لا بد منه. قال روسكام لبولت يوم الأحد: «لقد ذهبت جولي بيشوب إلى إيران طلباً للتعاون. هذه هي الحقيقة: نريد من إيران مصلحة».

في إيران، افتخرت وسائل الإعلام التي تتحكم بها الدولة بالانتصار. لكن قضيتنا اتسعت شهرتها لا سيما في أستراليا. لا يهم أن بيشوب لم تخلع حجابها؛ المهم أن قانون الحجاب الإجمالي صار محل اهتمام. كان هدفنا أن نضيّق على بروباغندا الجمهورية الإسلامية القائلة إن النساء اخترن الحجاب طوعاً، وأن هذا كان جزءاً من ثقافتنا في جميع الأحوال. على مر أكثر من ثلاثة عقود، كانت السياسات يسافرن إلى إيران دون كثير من الجلبة بشأن الحجاب الإجمالي، لكنه الآن أصبح حديثاً عالمياً.

أما السياسية التالية التي كانت ستزور إيران فهي فدريكا موغيريني، التي حلت محل كاثرين آشتون وزيرةً للخارجية في الاتحاد الأوروبي. كانت تركيز موغيريني هو حل المسألة النووية ولم ترد أن تنخرط في مسألة الحجاب الإلزامي. تجاهلت موغيريني المسألة بأسرها.

كتبت موغيريني منشورًا على صفحتها على الفيسبوك عن زيارتها. كتبت تعليقًا طويلًا، أشرت فيه إلى أنني أتمنى لها كل النجاح في إزالة العقوبات على إيران وأن لديّ طلبًا بسيطًا. عندما يزور المسؤولون الإيرانيون مثل ظريف إيطاليا، كانوا يطالبون الاتحاد الأوروبي باحترام قيمهم الإسلامية -بعدم تقديم الجعة مثلًا-. كثيرًا ما كان الاتحاد الأوروبي يحترم هذه الرغبات. لكن الجمهورية الإسلامية كانت تصر أن على الزائرات غير المسلمات إلى إيران، حتى الدبلوماسيات والسياسيات، أن يرتدين الحجاب. لا شك أن على الأوروبيين أن يدافعوا عن حقوقهم وقيمهم المبنية على حرية الاختيار.

كتبت لموغيريني أنه على مر أكثر من ثلاثين عامًا، كانت مسألة الحجاب الإلزامي خطأً أحمر في الجمهورية الإسلامية. كان الحجاب الإلزامي مسألة يحرم النقاش فيها؛ مثل هتافات «الموت لأمريكا» و«الموت لإسرائيل»، التي أصبحت جزءًا من تكوين الجمهورية الإسلامية. لكن كثيرًا من النساء في إيران يردن أن تسمع أصواتهن. يجب أن يتمتعن بحرية اختيار ما يلبسن. لا يردن أن تبقى حرياتهن مستترة بقية أعمارهن.

لذلك، كما أننا نريد اتفاقًا نوويًا، حان وقت أن يكون بين الجمهورية الإسلامية والنساء الإيرانيات اتفاق بشأن الحجاب الإلزامي.

حاز تعليقي على منشور موغيريني على إعجابات أكثر من منشورها الأصلي. لكن خلال ساعة اختفت كلماتي. اشتكيت من هذه الرقابة في مقالة نشرتها في عدد من الصحف، منها صحيفة *بيلد* في ألمانيا. بعد يوم أو يومين، أرسل إلي مكتب موغيريني رسالة بالبريد

الإلكتروني قالوا فيها إنهم لا يعرفون كيف اختفى التعليق وإنهم يرحبون بنقدي. مرة أخرى، ارتفع اسمنا.

في الفترة ذاتها، كنت على اتصال بماريتجي شياكي، وهي امرأة هولندية يبلغ عمرها ستة وثلاثين عامًا، وهي عضو في البرلمان الأوروبي، وكانت مهتمة بقضايا حقوق الإنسان في إيران. سألتها أن تضغط لقضيتنا لكن لم يكن علي أن أقلق. كانت تعرف عن حملتنا وكتبت لي أنها تنوي أن تنوّه بها عندما تزور إيران في يونيو 2015.

أصبحت زيارتها حديث طهران. كانت شياكي الطويلة الجميلة الشقراء هي البارزة بين الأعضاء الستة في الفريق الدبلوماسي الذي التقى بمسؤولين ذوي مستوى رفيع في إيران. في لقاءها الأول، الذي كان مع سمسار السلطة الأعلى علي لاريجاني، رئيس البرلمان الإيراني، ظهرت شياكي وقد لفتت على رأسها وشاحًا كأنها امرأة من غرب إفريقيا. لم يكن الوشاح يغطي كل شعرها.

كانت ترتدي فستانًا أسود يبلغ الركبة له سحاب في مقدمته وزوجًا من الجوارب النسائية. كانت تظهر رقبتها وأذنيها. لم يكن في ثيابها شيء فاضح. لكن بشرتها الظاهرة صعقت السياسيين الإيرانيين. انفجرت مواقع المتشددین والمحافظين، وقال أحد المحافظين: «كما لو أنها ترتدي ثيابها الداخلية» أو «تحضر حفلة». كانت المسؤولات الإيرانيات يرتدين الشواذر السوداء التقليدية، التي تغطي كل شيء سوى الوجه واليدين.

دون ذكر الحجاب الإجمالي، أطلقت شياكي أمواجًا ضخمة في إيران والغرب. غطت الصحف الأوروبية وصحيفة نيويورك تايمز الضجة بشأن ثيابها، كما غطتها المواقع والصحف في طهران. كتبت شياكي على مدونتها بعيد الحادثة: «زيارتي وأنا امرأة لبلد يفرض ارتداء رمز ديني أمر صعب». الأهم لدي هو أن شياكي لاحظت أثر حملة حرיתי المستترة على تطور آرائها. «إن النقاش الجاد بشأن ما يليق وما لا يليق لا ينبغي أن يدور

فوق رؤوس النساء. ما نرتديه ليس الفرق الوحيد فيما بيننا. لماذا لا نعطي الناس حق أن يقرروا لأنفسهم؟».

أخيراً صارت حملتنا، بعد عقباتها السابقة، تجذب انتباه ودعم الطبقة السياسية. أنا مقتنعة أننا إن لم نفقد الأمل فسننتصر في النهاية.

بعد مدة من عودتها، اتصلت بشياكي. كتبت لها: «الحجاب الإجباري ليس مسألة صغيرة كما رأيت بنفسك كيف أن مهمتك الدبلوماسية سادتها الأسئلة عن حجابك غير المنضبط».

قالت شياكي: «يضحكني كيف لم يستطيعوا تجاوز هذه المشكلة الواحدة».

التقينا بعد أسبوعين من عودتها من إيران في البرلمان الأوروبي في بروكسل. كانت هذه أول مرة أَدعى فيها للقاء مشرع برلماني منذ أن طُردت من المجلس قبل عقد من الزمن. لقد قطعت شوطاً كبيراً من قرיתי الصغيرة قمي كلا، هكذا فكرت وأنا أنتظر مساعدة شياكي أن تأخذني من بوابة الأمن.

قالت لي: «لقد مكنني الذهاب إلى إيران من أن أشهد بعيني كم تناضل النساء في البلاد ليحصلن على حرياتهن لاختيار ما يرتدين. في طريقنا إلى طهران، ارتدت النساء حجاباتهن مباشرة بعد هبوط الطائرة. أما النساء اللواتي رأيتهن في شوارع إيران فكن يغطين شعرهن دون إرادة منهن».

الآن وأنا أراها وجهاً لوجه، تبدو أصغر من سنّها وأجمل منها في الصور. تجولت مع شياكي في البرلمان، وكانت تمشي بثقة واضحة بالنفس، أما في إيران فكان يظهر عليها الانزعاج.

قالت: «لم تعجبهم ثيابي مطلقاً».

أدركت أنها لم تزل تشتعل غضباً من معاملتها.

«نظروا إلي فوجدوني امرأة وأهملوا كل شيء كان لدي لأقوله. نظروا إلي ما أرتيه وإلى مقدار الشعر الظاهر مني وعلى أساس ذلك قرروا أنهم لن يهتموا بما أقول».

قبل زيارتها، لم تكن شياكي تقدّر مدى القمع في الحجاب الإجباري على الذين لا يؤيدونه. «يتمتع الناس في أوروبا بحرية ارتداء الثوب المطلوب دينياً أو عدم ارتدائه. نحن معتادون أن نحمي النساء المسلمات من أنصار الإسلاموفوبيا».

قلت: «أشعر بالفضول تجاه ما كان يحدث لو أن مسؤولي الجمهورية الإسلامية عندما يزورون أوروبا يُجبرون على ارتداء رمز مسيحي».

تلقت حملتنا إقراراً من الرئيس روحاني شخصياً. قبل أن يبدأ زيارته الأوروبية الأولى إلى فرنسا وإيطاليا، وافق روحاني أن يُجري التلفزيون الفرنسي معه مقابلة معمقة.

جالساً على كرسيّه المزيّن، كان الرئيس الإيراني متهيئاً لهجمات الصحفيين المخضرمين، اللذين طرحا عليه بكل رفق أسئلة عن البرنامج النووي واقتصاد إيران وعلاقاتها مع الغرب.

ثم فاجأه. أخرج أحد الصحفيين صورة بقياس ثمانية عشرة تُظهر امرأة تصوّرت دون حجاب على صفحة حملة حريتي المستترة على الفيسبوك، وأبرزها للرئيس روحاني.

«هل تصدمك هذه الصورة؟ هل يسوؤك أن ترى امرأة غير محجبة؟».

قفزت من مقعدي. لقد وُوجه روحاني رسمياً لأول مرة بحملة حريتي المستترة. نظراً إلى مليارات الدولارات التي كان النظام ينفقها لمواجهة الحملة وإفسادها، كنت متأكدة من علمه الكامل بها. حبست أنفاسي وانتظرت إجابته.

«عندنا مشكلات عديدة، لا وقت لدينا لهذه الأشياء». بدا على روحاني الانزعاج. ضحك

ضحكة متوترة. وضوحًا لم يكن يتوقع أن يواجه بشأن حملتنا. «الناس في إيران أحرار في فعل ما يشاؤون في حيواتهم الخاصة».

صرخت على شاشة التلفزيون، رغم أنه لن يسمعي من ورائها: «حقًا؟ لو أقمت حفلة في منزلي، فستُغير عليه شرطة الأخلاق».

سأل الصحفي الآخر روحاني إن كان يعتقد أن إيران تحتاج إلى إصلاح مواقفها بشأن قانون اللباس الحالي للنساء. كم يمكن لنساء إيران أن يكنّ مثل نساء تونس والمغرب وتركيا فيتمتعن بحرية الاختيار؟ هل كان روحاني يتخيل مجيء هذا اليوم؟

لم يعط روحاني إجابة صريحة. «لكل دولة قوانين وتشريعات، وعلينا أن نحترم القانون. البرلمان هو الذي يضيف هذه القوانين». ثم أظهر ابتسامة سريعة وضحكة متوترة.

كالعادة، تردّدت في أذني نصيحة أمي التي كانت تنصّني بها قبل زمن طويل. لقد طُردت من المجلس ونُفيت من إيران، لكنني وجدت طريقة لمواجهة الرئيس روحاني. لقد عمل الصحفيان الفرنسيان نافذةً لي لأواجهه.

كان روحاني أحد مهندسي قانون الحجاب الإجباري في إيران، كما كتب مفتخرًا في مذكراته.

قلت، مخاطبة الشاشة أمامي: «الفكرة أيها الرئيس روحاني، أن علينا أن نغير القوانين الفاسدة حتى تصبح مستحقة للاحترام».

في أبريل 2016، التقيت امرأة لامعة أخرى، هي تينا براون، مؤسسة قمة نساء في العالم، وهي قمة سنوية تجمع أقوى النساء الفاعلات في المجالات المثيرة للاهتمام. كانت تينا براون رئيسة التحرير في *تاتلر*، وفانيتي فير، و*ذا* نيويوركركر وهي مؤلفة *ذا ديانا كرونيلز* (تأريخ ديانا)، وهي سيرة حياة الأميرة ديانا.

كنت واحدة من نجوم قمة نساء في العالم في مركز لنكولن، لكن في الليلة السابقة لظهوري، تسللت لمشاهدة كيبي كوريك، وهي مقدمة أخبار في أميركان تي في، تجري مقابلة مع ميغن كيللي، مقدمة الأخبار في فوكس نيوز، التي كانت قد خاضت شجاراً عاماً مع المرشح حينئذ دونالد ترامب. كنت معجبة باتزان كيللي وطلاقتها، وكنت أتساءل إن كانت قصتي ستلقى صدًى بين جمهور من نيويورك.

قالت لي إحدى المساعدات: «الآن دورك».

صعدت الدرجات القليلة بحذر، مركّزة على ألا أقع. ثم مشيت بخطوات واسعة إلى وسط المنصة، حيث كانت تينا براون جالسة على كرسي جلدي دوار. أخذت الكرسي الآخر. نظرتُ إلى الجمهور. استطعتُ أن أسمعهم، لكن أضواء المنصة منعتني من رؤيتهم.

قدمتني تينا بوصفي «صاحبة شعر رأس رائع تغطيّه جريمة». انتشر الضحك في الجمهور، وساعدني هذا على الاسترخاء وأن أكون نفسي. تكلمت مع تينا عن قصة حياتي - من الطفولة إلى الحملة.

قلت ردّاً على سؤال عن سبب إطلاقي لصفحة حريتي المستترة: «لقد اسمتعت بالريح تمرّ في شعري. قد يكون هذا غير مفهوم لديك، لكنه عندنا يعني الكثير. في كل مرة أشعر فيها بالريح تمر في شعري، أتذكر الوقت الذي كان فيه شعري رهينة في أيدي الحكومة الإيرانية».

وماذا عن المخاطر؟ هذا هو السؤال الذي كنت أعلم أنه سيأتي.

سألتنني تينا، وهي تقرأ من أسئلتها المحضّرة: «هل تخافين من أن تؤدي هذه الصور بامرأة إلى المشكلات عندما تنشرينها على صفحة حريتي المستترة».

«إن كونك امرأة في إيران يعني أنك تعيشين في وضع خطير. النساء في إيران يخرقن

القانون كل يوم حتى يعبرن عن أنفسهن. لا بد أن تعيشي مع الخوف كل يوم عندما تخرجين من البيت. بحسب شرطة إيران، لقد أوقفت شرطة الأخلاق وحذّرت 3.6 مليون امرأة في الشارع في عام واحد. حُجز على أربعين ألف سيارة. لماذا؟ لأن السائقات النساء لم يرتدين حجاباً لائقاً. لذلك فهؤلاء النساء يتعرضن للخطر لمجرد أفعالهن لأنهن يرفضن الحجاب الإجباري، لا لأنهن أرسلن الصور إلي. بالنسبة لي، منحهنّ صوتاً يعني الكثير».

ثم سألتني تينا عن والديّ. كيف شعرا عندما عرفا أنني لم أعد أرتدي الحجاب حتى؟

«يودّ أبي لو يأخذني إلى الجنة غصباً». لم أكن أعرف إن كانت العبارة مفهومة بالإنكليزية، لكنها بالفارسية معروفة المعنى لدى كل إيراني. «أما أمي، فهي وإن كانت محافظة وأمّية، فإنني ممتنة لكونها أقرب إلى التفهم».

أردت أن أنهى الحديث بابتهاج.

«أنا وإن كنت أستمتع بالحرية، فإنني لا أستطيع أن أنسى شعبي. النساء الإيرانيات يخرقن القانون عندما لا يغطين رؤوسهن، وعندما يُعثر عليهن يغنين أو يرقصن أو يحضرن حفلات مختلطة، وفي حالات أخرى كثيرة». أخذت نفساً عميقاً.

«أنا سيدة المجرمات». ضحكتُ. «في إيران تعتقد الحكومة أن شعري أكثر من اللازم، وصوتي أكثر من اللازم، وأنني امرأة أكثر من اللازم».

جعلت الأسئلة الموجهة إلى السياسيين الإيرانيين بشأن الحجاب الإجباري تتزايد. في يوليو 2016، عندما زار وزير الخارجية الإيراني جواد ظريف باريس، تحدّته نائبة فرنسية. كانت تريد أن تعرف لماذا على السياح الأجانب غير المسلمين أن يلتزموا بقوانين الحجاب الإجباري.

ظريف خبير بالخداع. عمله بوصفه الدبلوماسي الأول في إيران هو أن يبتسم ويخفي

الجرائم الحقيقية للجمهورية الإسلامية. في الماضي، كان قد أنكر أن إيران تسجن المعارضين السياسيين والصحفيين. عندما سُئل عن جيسن رضائيان، الصحفي الإيراني الأمريكي في واشنطن بوست المعتقل في سجن إوين، قال ظريف ما مفاده أن جيسن لا شك أنه عميل. في باريس، قال ظريف إن الزوار الأجانب لا مشكلة لديهم بالحجاب لأنهم يحترمون ثقافة إيران.

عندما سمعت إجابته، كاد مخي أن ينفجر من الغضب. لم يكن لأعيب ظريف انتهاء الحجاب الإجباري ليس جزءاً من ثقافتنا، وبريدي الوارد ممتلئ بمئات ومئات الرسائل من النساء اللواتي قلن إنهن يردن الذهاب إلى إيران لولا أنهن يكرهن ارتداء الحجاب ومعطف طويل.

بعد أن شاهدت تمثيل ظريف مرة بعد مرة، وأنا أحاول أن أجد أي علامة على إنسانيته، خطر لي أنه لكونه رجلاً فهو لم يعيش مرة الإهانة في أن يأمره أحد بارتداء الحجاب، ولا في أن يُزجر لأنه يضع طلاء الأظافر ولم يُقرّع مرة لأن خصلة أو خصلتين من شعره خرجتا من تحت حجاب.

خطرت لي فكرة تعديل صورة ظريف ليرتدي فيها الحجاب. نشرت صورة ظريف وعليه علامات الكآبة وهو يرتدي حجاباً أزرق ودعوت الرجال إلى الانضمام إلى الحملة. كان هذا خطراً كبيراً. ظريف، وهو مهندس الاتفاق النووي الإيراني، يعدُّ بطلاً عند كثير من الإيرانيين. هو طليق بالإنكليزية وعلى وجهه ابتسامة دائمة عند التعامل مع الوجهاء الأجانب. بعد سياسات أحمد نجاد الخارجية الفوضوية، التي أدت إلى انعزال إيران، كان ظريف يرى على أنه هنري كسنجر في إيران. لذلك فعندما ضايقته، كنت أخاطر بغضب الإيرانيين.

لكن أحياناً يجب أن تتحدى حتى أشدّ الخصوم.

كتبت في منشور في الفيسبوك:

«السيد ظريف. أحترم مهارتك الدبلوماسية. لكن انظر إلى صورتك هذه وأنت ترتدي الحجاب. كيف تشعر؟ هل الصورة مضحكة؟ غريبة؟ أو ربما ترى فيها سبباً شخصية؟

هكذا تشعر النساء اللواتي لا يؤمنن بالحجاب الإجباري. على امتداد أعوام، من الطفولة إلى المراهقة ثم إلى البلوغ، نُجبرَ على ارتداء الحجاب الإجباري، وقد عانينا فقدان كرامتنا كل هذه السنوات بسببه.

السيد ظريف، لقد اعتدت أنت وكثير غيرك من الرجال على رؤية النساء في الحجاب الإجباري كل يوم، وأنت تعتقد أن هذا طبيعي. لكن ملايين النساء الإيرانيات يرين في هذا الإجبار سبباً لكرامتهن. نحن لسنا ضد الحجاب، نحن مع الاختيار. نريد أن نختار ارتداء الحجاب أو عدم ارتدائه.

لكنك أنت وغيرك من السياسيين في الجمهورية الإسلامية، أنتم الذين تمنعوننا حق الاختيار هذا. تقول إن على الجميع أن يحترم القانون. لكن القوانين السيئة لا ينبغي أن تُحترم. السيد الظريف، في سيرورة عملك الدبلوماسي، لطالما جادلت ضد القوانين الظالمة. على سبيل المثال، كنتَ تقول إن عقوبات الأمم المتحدة على إيران ظالمة ولم تقبلها. هذا هو بالضبط ما نحاول أن نفعله عندما نتحدى قانون الحجاب الإجباري، الظالم أيضاً، لذا فرجاءً لا تقل إن القانون هو القانون وإن علينا احترامه».

في ساعات قليلة، انفجر بريدي الوارد بصور رجال يرتدون الحجاب دعماً لحملتي. كانت الصور الأولى لرجال أفراد يرتدون حجابات، لكن الصور بعد ذلك تحولت إلى صور رجال يغطون رؤوسهم ويقفون إلى جانب أمهاتهم أو أخواتهم الحاسرات. ولدت حملة #رجال_بالحجاب، وتبين أن كثيراً من الرجال الإيرانيين يدعمون حملتنا.

أرسل أحد الرجال صورة لنفسه وهو يرتدي الحجاب إلى جانب زوجته الواقفة دون حجاب

إلى جانبه، وكتب: «أريد بصدق أن تستطيع زوجتي العيش في إيران تستطيع فيها أن تقرر ماذا سترتدي. يصعب جدًا على امرأة في إيران أن تتحمل ارتداء هذه الثياب في الصيف الحار الشديد لمجرد أننا نريد تجنب إغضاب المسؤولين في البلاد».

ولم يقتصر الأمر على الرجال الإيرانيين. فجأة صار الرجال من كل أرجاء العالم يتصورون ويرسلون صورهم ورؤوسهم مغطاة تضامنًا.

هنا ثارت ثائرة ظريف. اتصل بي أحد مساعديه، وسألني في اتصال خاص أن أتوقف عن مضايقة ظريف. «ينبغي أن تكوني في صفنا. لقد كنتِ إصلاحية من قبل—ماذا حدث؟ لو أنك تعلمين الضغوط التي نرزح تحتها لتوقفت عن هذه الأنشطة».

قلت له: «عندما يكذب ظريف بهذه الصفاقة، لا أستطيع أن أترك الأمر يمر. أفهم أن على ظريف أن يطوِّع الحقيقة عند التعامل مع الحكومات الأخرى، لكن في الشؤون الداخلية، عندما يقول إن إيران ليس فيها سجناء سياسيون أو إن الحجاب الإجباري هو ثقافتنا، فلا بد أن أرد».

كان الوقت في صالحنا. فالشباب بالعموم ليسوا من أنصار الحجاب الإجباري.

في صيف 2016، حظرت عدة من المدن في الريفيرا الفرنسية البوركيني، وهو ثوب للسباحة يغطي الجسد كله وتستعمله بعض النساء المسلمات. قالت ثييري ميغول، رئيسة الخدمات البلدية في كان، إن القانون كان لحظر «الملابس الملفتة للنظر التي تشير إلى ولاء للحركات الإرهابية التي تحاربنا». أصبح هذا القرار محل جدالات عالمية محتدمة بشأن حقوق النساء والإدماج والعلمانية. في أرجاء أوروبا والولايات المتحدة، احتج كثير من النساء على القانون.

كنت معارضة تمامًا لأي حظر من هذا النوع. كانت الشرطة في فرنسا تعمل نفس عمل شرطة الأخلاق في إيران. في النهاية، الطرفان يرفضان خيارات اتخذتها النساء، وكلاهما

يتصرف كما لو أن أجساد النساء تحت إمرة المشرعين وقوات حفظ النظام، الذين يعرفون هم وحدهم ما هو الأصلح.

في إيران، ابتهجت السلطات بالحظر الفرنسي. لقد سنحت الفرصة الآن للجمهورية الإسلامية حتى تشمت بالمعايير المزدوجة في أوروبا. كانت فرنسا تبشّر بحقوق الإنسان للبلدان الأخرى ثم تمنعها عن سكانها المسلمين. إنها المفارقة الكبرى عندما نجد إيران التي تمنع مواطناتها من حرية الاختيار، تدافع عن حق النساء المسلمات في فرنسا أن يخترن الحجاب.

أنا مع حرية الاختيار. أدم حق النساء في ارتداء الحجاب أو عدمه. في فرنسا والولايات المتحدة، كانت الضغوط على النساء المسلمات ألا يرتدين الثياب التي يخترنها. كان لا بد أن أقف مع هؤلاء النساء. على الأقل في فرنسا والولايات المتحدة نتمتع بحرية التعبير، وقد تلقت القضية تغطية إعلامية واسعة. أما في إيران فلم نتمتع بأي شيء من هذه الحرية.

مع احتدام النقاش بشأن فوائد حظر البوركيني، أبطلت الحظر محكمة فرنسية، لكن هذا لم يهدئ أيًا من الطرفين. دُعيت لجنة من النشطاء المسلمين لنقاش الحظر أمام البرلمان الأوروبي. بالمصادفة، كنا في المملكة المتحدة في u طلة عائلية. كان كامبيز قد استأجر قارب سكن في كورنول ولكنه خبأه عن بويان ودريا وبهمن. كانت النظرة على وجوههم لدى دخولنا «فندقنا» على المياه لا تقدر بثمن. مع اقتراب عطلتنا من نهايتها، راسلتني شياكي بالبريد الإلكتروني بشأن هذه اللجنة، التي ستلتقي بها في بروكسل. كانت الدعوة دعوة آخر لحظة، لكنها مع هذا سألت إن كان يمكن أن أحضر اللقاء.

لم يكن لي أن أتخيل أنني ولو بعد مليون عام سيطلب مني مخاطبة لجنة برلمانية أوروبية في بروكسل. لكن حماستي كانت مختلطة بغضب. على امتداد أكثر من ثلاثين عامًا، عانت النساء الإيرانيات من قوانين الحجاب الإجباري وكان البرلمان الأوروبي يتجاهل الأمر. الآن،

لأن بعض البلديات في فرنسا أرادت أن تحظر البوركيني، صار المشرعون يريدون أن يعرفوا المزيد قبل سن التشريعات وإطلاق التصريحات. كلما فكرت في الأمر أكثر، ازدادت غضبًا. كم عدد البلدان التي يُفرض فيها الحجاب على النساء. لماذا صمت الاتحاد الأوروبي عن هذه القضية لكنه الآن قلق بشأن إجبار النساء على عدم ارتداء البوركيني؟ كان الأمر سخيًا ويظهر معيارًا مزدوجًا لدى الاتحاد.

كتبت خطابي في طريق الإياب من كورنول. حال وصولنا، صرت أسرع في البيت جيئةً وذهابًا، أتحدث مع نفسي وأتدرب على الخطاب. شاهدت دريا كل حركة وإيماء.

«أمي تتدرب على خطاباتهما معي. يمكنني أن أكون معلمتك أيضًا».

الأطفال أبرياء وجميلون جدًا. «طبعًا، حبيبتي. كامبيز ينقد كثيرًا»، وضحكنا معًا. «أبحث عن كلمة تصف المعايير المزدوجة لدى هؤلاء المشرعين الأوروبيين-هم يقولون شيئًا ما ثم يعملون بخلافه».

قالت دريا بكل ثقة: «منافقون. هذه هي الكلمة التي تبحثين عنها». كانت أوشكت على دخول الأربعة عشر عامًا لكنها كانت أعقل بكثير من سنّها، وكنت أرى فيها صديقة لا ربيبة.

لم أنم تلك الليلة إلا نزرًا. استيقظت بعد منتصف الليل بقليل، وأمضيت الوقت حتى جاءت التاكسي الساعة 4 صباحًا لتأخذني إلى هيثرو لأجل الرحلة إلى بروكسل. كان كامبيز والأطفال سيتجهون إلى نيويورك لاحقًا في اليوم نفسه.

كان الدخول سريعًا، لكنني عندما نظرت إلى شاشة العرض، رأيت أن رحلتي قد ألغيت. وحُجز لي بدلًا منها رحلة الساعة 8 صباحًا. مع هذا كنت سأصل قبل وقت كافٍ من الخطاب ظهرًا.

غافيةً على أحد المقاعد المريحة في غرفة الانتظار، سمعت كلمة «بروكسل» في إعلام، وقمت في حالة زعر نعية لأدقق في الرحلات. لقد ألغيت رحلتي المحجوزة الساعة 8 أيضاً. كانت شركة الطيران تعتذر، لكن ما من شيء يمكن فعله. هنا بدأت أشك في أنني سأصل لألقي الخطاب في الوقت المناسب. جلست في المطار أشرب كؤوس القهوة وأستشيط غضباً. لم أصدق عندما سمعت أن رحلتي التالية أيضاً ألغيت. ثلاث رحلات على التوالي. انهزت باكياً. اتصلت بالمنظمين لأخبرهم بالوضع. قال لي الذي اتصلت به: «يبدو أنك لن تستطيعي أن تلقي الخطاب، لكن تعالي في جميع الأحوال».

عندما يتكرر خطأ ما في إيران، دائماً ما نلوم «القوى» الخفية-أي أحد من الاستخبارات الأمريكية المركزية إلى الاستخبارات الإيرانية. كنت أعرف أن الأمر لم يكن مخططاً، لكن قد ألغيت ثلاث رحلات إلى الآن وكنت سأفوت مناسبة كبيرة. أخيراً، ركبت في رحلة الساعة 10 صباحاً، التي كانت ستهبط عند منتصف الظهر. ربما أصل في النصف الثاني من الجلسة، هكذا فكرت. بعد انتظار كل هذه الساعات في المطار وشرب خمس كؤوس قهوة، كانت حماستي قد تبخرت وكنت متوترة من كثرة الكافيين.

قليلاً ما أستعمل المكياج ونادراً ما أحمل أكثر من أحمر شفاه. يكفيني هذا. أستعمله لأحمر شفاهي وأضيف لوناً إلى خدودي، وأمسحه أحياناً برفق حول عيني ليكون ظلّ عيون. الآن أدركت أنني نسيت أن آخذ ميل الحمرة معي.

في بروكسل، كنت أول من خرج من الطائرة وركضتُ إلى صف سيارات الأجرة، أجزّ ورائي حقيبتتي التي أحملها. قلت للسائق: «خذني إلى البرلمان. رجاءً، أنا في عجلة كبيرة. ينبغي أن أكون هناك الآن ألقى خطاباً. أنا المتحدث الرئيسة. أسرع».

«في العادة يرسل البرلمان سيارة للضيوف الخاصين». جاء السائق من وراء السيارة ليلقي

نظرة أفضل علي. «هل أنت متأكدة أنه ما من سيارة تنتظرك هنا؟».

«ألغيت رحلتي ثلاث مرات»، هكذا قلتُ وأنا أتذكر أنه ليس معي أي يورو. «تقبل الدفع بالبطاقات؟ أو يمكن أن أدفع لك بالدولار أو الجنيه الإسترليني؟»
قال وهو يهز رأسه: «نقدًا فقط. باليورو».

«أف! انتظر هنا» صرخت وأنا أركض عائدة إلى المطار بحثًا عن صراف آلي أسحب منه النقود. ثم أسرعرت إلى السيارة مرة أخرى آملة أنها بقيت.

سأل السائق مرتابًا: «هل أنت متأكدة أنك ضيف خاص في البرلمان؟».
«أوصلني إلى هناك وحسب».

للإنصاف، أسرع السائق فورًا إلى مركز المدينة، متخذًا كل طريق مختصر يمكن اتخاذه، وكان يعد طول الرحلة أن يوصلني إلى هنالك قطعة واحدة. اتصلت بالمنظمين وأخبرتهم أنني وصلت. كانت الجلسة قد بدأت، لكن ربما أستطيع أن أكون جزءًا من جلسة الأسئلة. هذا أفضل من لا شيء.

حال انتهاء مكالمتي علقنا في ازدحام مروري مخيف. كان الأمر أشبه بمصف سيارات تمشي إنشًا كل قليل. دقت الدقائق دون حركة. كنت قريبة جدًا، ومع هذا ظلّت الأقدار تتأمر لتمنعني.

قال السائق: «الأسهل أن تمشي أو تركضي من هنا»، وأشار إلى اتجاه غامض بعيد.
«المسافة أقل من كيلومترين. ستصلين في عشر دقائق تقريبًا».

ركضت إلى البرلمان الأوروبي، أجرّ ورائي حقيبة سفري. بعد كل عدة كتل، كنت أقف وأطلب الاتجاهات لأتأكد أنني أمشي في الاتجاه الصحيح.

«البرلمان الأوروبي؟ البرلمان الأوروبي؟»

في عشر دقائق تقريبًا وصلت إلى قصر لوكسومبورغ. كان البرلمان واقعًا في محطة قطار بروكسل لوكسومبورغ سابقًا. لم يكن لدي من الوقت ما يكفي لأتعبَّ من العمارة التاريخية أو الحديثة وأنا أمشي مع دقائق الساعة إلى الجلسة. عند الباب، توقفت لأجفف قطرات العرق الكبيرة التي كانت تسيل على وجهي ورقبتي بعد هذا الركض، وبخخت بعض العطر، ودخلت إلى غرفة اللجنة.

استدارت كل الوجوه. كانت التعبيرات على وجوه أعضاء اللجنة تقول إنهم كانوا قلقين من ظهوري المفاجئ.

«الوصول إلى بروكسل صعب، لكنني فعلتها. ألغيت رحلتي ثلاث مرات. غالبًا كان للجمهورية الإسلامية يد في الأمر، لكنني لا أستسلم».

وأنا أجلس، أدركت أن النقاش الرئيسي في الجلسة انتهى. لكنني لم أقبل بالصمت. بدلاً من القراءة من خطابي، تحدثت من قلبي.

كل النساء في أسرتي يرتدين الحجاب: أُمي وأختي وعماتي وخالاتي. كل الإناث اللواتي أعرفهن ارتدين الحجاب منذ سن السابعة، وأنا مثلهن أيضًا. حلمي هو أن أكون مع أُمي في فرنسا، في بلجيكا، نمشي جنبًا إلى جنب، دون أن تتعرض لنظرات سيئة أو يُحكَم عليها بسبب حجابها. وأن أمشي مع أُمي جنبًا إلى جنب في بلدي دون أن أُعتَقَل. ومن أجل الوضوح: عندما أتحدث عن الحجاب الإجباري، لا أتكلم بوصفي امرأة غربية بل بوصفي إيرانية ترعرعت وتعلمت وعاشت تحت حكم الجمهورية الإسلامية. في عملي بوصفي مؤسسة حملة حريتي المستترة، التي تتمتع اليوم بأكثر من مليون متابع، أتواصل مع آلاف وآلاف

النساء في إيران. لقد كنت صحفية في إيران لأكثر من عشر سنوات.

هنا كل ما أسمعه ردًا على الهجمات الإرهابية، أو على حملة دونالد ترامب، هو أن كل حديث الناس عن المسلمين وحقوقهم في الغرب...

لماذا علّق حظر البوركيني في فرنسا في أقل من شهر، لكن الحجاب بقي إجباريًا أكثر من ثمانية وثلاثين عامًا؟

عند الحديث عن الحجاب الإجباري، تستعمل السياسيات واحدة من أربع حجج، وأنا أريد أن أتحدى كل هذه الحجج.

أولاً: يقلن إن الحجاب الإجباري هو القانون في إيران. لكل بلد قوانينه التي يجب أن نحترمها. لكن العبودية أيضًا كانت القانون. لو لم يعترض على العبودية أحد، لبقى بعض الأمريكيين الأفارقة عبيدًا إلى اليوم. يقولون إنه يجب أن يحترم القانون. لا. لا ينبغي أن نحترم القوانين السيئة بل أن نناضل لنجعل القوانين مستحقة للاحترام. تذكروا: لم يكن لدى النساء حق التصويت لكنهن احتججن على القوانين السيئة حتى يحصلن عليه.

يقول بعض الناس إن الحجاب مسألة ثقافية، وارتدائه احترام لثقافة إيران. لكن الحجاب الإجباري ليس جزءًا من ثقافة إيران. عندما تجبر فتاة عمرها سبعة أعوام على ارتداء الحجاب، كيف يمكن أن يكون هذا مسألة ثقافية. إبان فترة الفصل العنصري في إفريقيا الجنوبية، هل كنتم تصفون الأمر أيضًا بأنه مسألة ثقافية؟

والحجة الأكثر جُبْنًا هي أن الحجاب الإجباري مسألة داخلية، لا ينبغي أن يتدخل فيها الأجانب. لكن إذا كنتِ سائحة أنتى من أوروبا أو

أمريكا وزرت إيران، فإن عليك أن ترتدي الحجاب. الأمر لم يعد مسألة داخلية. ومما يثير الاستغراب أن أحداً لم يدّع أن حظر البوركيني كان مسألة داخلية في فرنسا.

الحجة الأخيرة هي أن إيران تعاني مشكلات أكبر بكثير من مسألة الحجاب الإجباري. أعرف أن الفساد موجود والقمع السياسي موجود. إن محاربة الحجاب الإجباري نضال من أجل كرامة الإنسان، أي قضية أكبر من هذا؟ نحن نناضل من أجل كرامة الإنسان.

أقول إن معظم السياسيات الإناث منافقات. إنهن يقفن مع النساء المسلمات الفرنسيات ليسجن حظر البوركيني لأنهن يعتقدن أن الإجبار سيء، لكن إذا حدث الأمر في إيران فإنهن يُشحن بأنظارهن.

الحجاب الإجباري أكثر علامات اضطهاد النساء ظهوراً، ويجب أن نقف معاً لنهدم هذا الحائط.

تلقيت موجة حارة من التصفيق، لكنني كنت أتصور جوعاً-لم أكن قد أكلت كل اليوم. رُفع فيديو يتضمن خطابي على اليوتيوب، وتلقى كثيراً من الردود الإيجابية. عندما شاهدت الفيديو، لم أستطع أن أرى إلا وجهي الشاحب، الذي جعلني أبدو كما لو أنني مصابة بسوء التغذية، بالإضافة إلى شعري الجعد المضفر الخارج عن السيطرة.

لقد بينت اعتراضات حملتنا على الحجاب الإجباري في مكان من أهم المساحات السياسية في أوروبا. في أثناء أسبوع واحد، شاهد خطابي أكثر من مليون مشاهد على اليوتيوب وحده. كان ذلك تحذيراً للسياسيات الإناث.

الفصل السادس والعشرون

طوال العام 2016، خلال مواصليتي حملتي ضد الجمهورية الإسلامية، تجسّد شبح الشعبوية المتصاعد في شخص دونالد ترامب. لقيتُ رسالته صدىً واسعاً. لم يبدُ أن قواعد اللعبة السياسية القديمة تنطبق عليه. إذ كان يُدلي بتصريحات صادمة، فتزيد من شعبيته. ولم يلحق الضرر بفرص نجاحه رغم تعليقاته المهينة للنساء، وهجماته ضد الإسلام، وحديثه عن بناء جدار على الحدود مع المكسيك، بل ساعدته في سحق شخصيات النظام القديم داخل الحزب الجمهوري.

رغم أن تركيزي كان منصباً على إيران، لم أَسْتَطِع تجاهل ظاهرة ترامب. فخصّصْتُ لبرنامجي الأسبوعي *تابلت على صوت أمريكا* عدداً من الحلقات عن ترامب.

مع تزايد هجوم ترامب على المسلمين، ازداد قلق الليبراليين، والديمقراطيين، والقوى المناهضة لترامب حيال انتقاد انتهاكات حقوق الإنسان في الدول الإسلامية، لا سيما في الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

احتفت حركة *حرיתי/الخفية* بحريات النساء، إنما مع صعود ترامب في استطلاعات الرأي، أصبح الحصول على دعم علني تحدياً. وأصبح الناس يخشون الجهر بمواقفهم حتى لا يُنظر إليهم على أنهم معادون للإسلام في عصر ترامب.

أدركتُ، كما قلتُ لصحفية في *واشنطن بوست*، أنني كنت أحارب كلاً من الإسلاموفوبيا التي ينشرها ترامب وسياسات الجمهورية الإسلامية الإيرانية المعادية للمرأة.

«وضعتنا الأجواء التي خلقها [ترامب] في الولايات المتحدة في مأزق عندما نحاول التحدث ضد القوانين الإسلامية الصارمة. فالناس الآن لا يريدون التطرّق لقضية الحجاب الإلزامي باعتبارها مسألة ثقافية، ولا يريدون أن يُنظر إليهم على أنهم متحالفون مع دونالد ترامب».

قلتُ لها: «حتى دمية باربي التي تضع الحجاب يمكنها أن تصبح خبيرًا. ففي الولايات المتحدة، هذا يدل على أنك متسامح، منفتح الذهن، ولست مثل دونالد ترامب».

كان ذلك بمثابة تحدٍّ كبير.

«إذا رفعنا صوتنا ضدّ القوانين الإسلامية المتشددة، يظن الناس أننا ندعم الإسلاموفوبيا. وإذا التزمنا الصمت، فعلينا أن ننسى هويتنا ونخضع لكل القوانين التمييزية».

في نوفمبر 2016، ذهبْتُ مع كامبيز وانتظرنا بصبر في طابور طويل امتد حول مضمار الجري داخل صالة رياضية مغلقة في بروكلين خلال انتظار دوره للتصويت في الانتخابات الرئاسية.

«أتساءل إن كان هناك أي مؤيدين لترامب هنا»، قلتُ وأنا أتأمل الحشد المتنوع.

«من غير المرجح هذا. فهذه جمهورية بروكلين الاشتراكية»، قال مازحًا.

لكن دونالد ترامب فاز، وأصبح الرئيس الخامس والأربعين للولايات المتحدة. وبمجرد انتخابه، قادت الجماعات النسائية الاحتجاجات ضده.

بمجرد أن أدى ترامب اليمين الدستورية، بدأت الاحتجاجات ضده. وكانت النساء في الصفوف الأمامية للمحتجين.

في يوم السبت، 21 يناير، قفزتُ إلى المترو وتوجهتُ إلى مانهاتن للمشاركة في مسيرة النساء ضد ترامب. لم يسبق لي أن شاركتُ في تظاهرة في الغرب قبل ذلك. إذ دائماً ما عشتُ حياة المنفى، منشغلة أكثر بالأحداث اليومية في إيران، والآن جعلني ترامب أقدر حياتي في أمريكا. كنتُ حاملة للبطاقة الخضراء فحسب، لكنني تمتعتُ بنفس الحريات التي يتمتع بها المواطنون.

علقتُ بالقرب من مبنى الأمم المتحدة، حيث اكتظ المكان بالنساء من جميع الجنسيات، صغيرات وكبيرات، أمهات وجدات، يمشين ويرددن الهتافات. لم أشهد شيئاً كهذا من قبل. في إيران، غير مسموح لمثل هذه التظاهرات، ما لم تكن منظمة رسمياً.

كان هذا درساً لي في الحقوق المدنية. احتجت آلاف النساء ضد رئيس الولايات المتحدة، أقوى رجل في العالم. نظرتُ حولي بعينين متسعيتين من الدهشة. في إيران، التظاهرات الوحيدة المسموح بها هي المظاهرات المناهضة للولايات المتحدة وإسرائيل.

توقعتُ أن تظهر قوات الأمن من بين المباني الشاهقة وتعتقل الجميع. بحثتُ عن قناصة يختبئون فوق الأسطح، وعن عملاء سريين مستعدين للانقضاض على المتظاهرين. استغرق الأمر مني بعض الوقت قبل أن أرفع صوتي بهتافات الحشد.

حتى أنني التقطتُ صورة لِنفسي وأنا أحمل لافتة كتب عليها: نحن جميعاً مهاجرون. *ابنوا الجسور لا الجدران.*

في تلك الليلة، نشرتُ الصورة على حسابي في إنستغرام مع رسالة:

لماذا أعارض بناء الجدار؟ لأنني أتيتُ من بلد اختبرتُ فيه وجود الجدران تحيط بي

من كل جانب. أتيتُ من بلد تفرض حكومته الحجاب على المسيحيين، واليهود، والأقليات الأخرى، وإذا قالوا لا، فإنهم يواجهون الجدار أيضاً. لهذا السبب، فإن فكرة الجدار في الولايات المتحدة تجعلني أرتجف. أعلم جيداً أن المواطنين العاديين على الجانب الآخر من الجدار سيعانون بشكل هائل. غالباً ما يجد السياسيون والمشاهير طريقةً تقلل من شأن الأضرار الناجمة عن هذه السياسات، لكن المواطنين العاديين على الجانب الآخر من الجدار هم الذين يعانون أكثر من غيرهم.

في أحد أولى قراراته، في 27 يناير، وقع ترامب أمراً تنفيذياً بوقف منح التأشيرات لمواطني إيران، والعراق، وليبيا، والصومال، والسودان، وسوريا، واليمن لمدة لا تقل عن تسعين يوماً، وهو الحظر الذي استهدف سبع دول ذات أغلبية مسلمة — فيما سُمي بحظر المسلمين.

بضربة واحدة، منع ابني بويان من السفر لرؤيتي، كما لم أستطع مغادرة البلاد لزيارته لأنه لم يكن ثمة ضمان بأنني سأتمكن من العودة. وقعتُ في حيرة شديدة، وبصراحة أكثر، كنتُ غاضبة. فها أنا، الناشطة ضد التطرف الإسلامي، والتي أجبرتُ على الفرار من إيران مع ابني المراهق، الآن لا أجرؤ على مغادرة الولايات المتحدة، وطني الجديد.

وهكذا أصبحتُ ضحية مزدوجة. في إيران، واجهتُ جداراً، وفي الولايات المتحدة، واجهتُ جداراً من نوع آخر. بنّت إيران جداراً حول عائلتي، ومنعتهم من مغادرة البلاد. لم أتمكن من رؤية عائلتي منذ ثماني سنوات، وربما لن أراهم مرة أخرى أبداً.

عندما أعلن عن الحظر، جلستُ على الدرجات المؤدية لمنزلنا أدخن السجائر كما لو كانت عقاراً يحسّن حالة الحياة، مستغرقةً بالتفكير كيف سأتمكن من رؤية بويان. اتصلتُ به لأشكو من الظلم الذي وقع علينا، لكنه لم يكن مستعداً لسماع ذلك.

«ماما، السوريون يعانون أكثر بكثير»، قال لي.

لم أكن أتوقع هذا الرد. «لكن هذا ليس—» لم يسمح لي حتى بإكمال الجملة.

«مقارنةً بما يمر به اللاجئين السوريون، أشعر بالذنب لمجرد التحدث عن مشكلة تأشيرة. سأنتظر حتى يُحلّ هذا الأمر».

كان يكبر بسرعة، وكنتُ أشتاق لاحتضانه، ومع ذلك كنتُ أعرف أن عليّ إفساح المجال له ليصبح رجلاً مستقلاً. في غمرة أفكارِي، نهضتُ عن الدرجات وذهبتُ للمشي كي أصفّي ذهني. ركض كودي، وهو كلب من نوع نيوفاونلاند ذي لون بني داكن، ركض نحوي وكأنه استشعر حالتي المزاجية، وجلس بهدوء في طريقي، مانعاً إياي من الاستمرار. تقدمت نحوي صاحبتة جارتِي ستيفاني وتعايير القلق باديةً على وجهها. عادةً ما يقفز كودي ويلعقني بطريقة تجعلني غير مرتاحة، لكنه اليوم، اقتصر على شم حذائي الرياضي، وكأنه شعر بشيء مختلف.

«كيف تتعاملين مع الأمر؟» سألتني ستيفاني. «كنتُ أفكر فيكِ وفي ابنكِ. لا أعرف ما الحال الذي وصل إليه بلدي الآن. لا أعرف ماذا دهى أفراد شعبي الذين يريدون الآن منع دخول الأجانب، ونحن أصلاً أمة من المهاجرين».

تأثرتُ بشدة لدرجة أنني انفجرتُ في البكاء. منحتني جارتِي الأمل في طيبة الشعب الأمريكي، الأمل في وجود أمريكيين يرفعون صوتهم نيابةً عن اللاجئين والمنفيين أمثالي.

جعل فوز دونالد ترامب الحياة أكثر صعوبةً. ورداً على انتخابه، زعمت السويد أنه لديها أول حكومة نسوية في العالم. لم يكن عليك سوى مراجعة الموقع الرسمي للحكومة السويدية لفهم المعنى:

«المساواة بين الجنسين هي محور أولويات الحكومة — سواء في صنع القرار أو تخصيص الموارد. تضمن الحكومة النسوية إدراج منظور المساواة بين الجنسين في عملية صنع السياسات على نطاق واسع، على المستوى الوطني والدولي على حد سواء. يجب أن يتمتع الرجال والنساء بالصلاحية نفسها لتشكيل المجتمع وحياتهم الخاصة. هذا حق إنساني، ومسألة من صميم الديمقراطية والعدالة».

ثم أرسلت السويد وفداً إلى إيران. فكرتُ في نفسي: أخيراً هذه أول حكومة نسوية تزور الجمهورية الإسلامية، وبعد كل الجدل حول حظر البوركيني والضجة بشأن حق المرأة في اختيار ما ترتديه، ستستطيع النساء الممكّنات في هذه الحكومة النسوية من تحديد اختياراتهن الخاصة فيما يرتدينه ولن يضعن الحجاب.

لكن عندما رأيت الصور القادمة من إيران، كان الأمر كأنني تلقيت لكمةً في بطني. فخلال مرورهن الرسمي أمام الرئيس الإيراني روحاني، ارتدت النساء السويديات الحجاب، والمعاطف الطويلة، والملابس التي لا ترتديها النساء الإيرانيات أنفسهن.

يبدو أن السياسات السويديات يتصرفن كنسويات عندما يواجهن الرجال الغربيين، وعندما يسجلن نقاطاً سياسية رخيصة على حساب ترامب. إنما عندما يواجهن مجتمعات ذكورية تضطهد النساء كسياسة حكومية، فإنهن يتراجعن.

اكتسبت إيزابيلا لوفين، نائبة رئيس الوزراء السويدي، اكتسبت شهرة عالمية بعدما نشرت صورة لها محاطة بنساء أخريات، تسخر من صورة الرئيس ترامب وهو يوقع أمراً

ضد الإجهاض، محاطاً بمستشارين ذكور. كانت لوفين قد شرحت للعالم أن ترامب يمثل تهديداً لحقوق النساء.

لكن مرور الوفد السويدي أمام الرئيس روحاني سرعان ما أصبح يُعرف باسم «مسيرة العار» بعدما كتبتُ مقالاً عن الأمر في حريتي/الخفية، نشرتُ صورتين جنباً إلى جنب: صورة حكومة لوفين النسوية، وصورة «مسيرة العار». انتشرت الصورة على نطاق واسع.

عبر الامتثال لتوجيهات الجمهورية الإسلامية، تُضفي النساء الغربيات الشرعية على قانون الحجاب الإلزامي. وهذا قانون تمييزي، وليس مجرد قضية داخلية عندما تُجبر الجمهورية الإسلامية جميع النساء غير الإيرانيات على ارتداء الحجاب أيضاً. تستحق كلمات ترامب حول النساء الإدانة، وكذلك الأمر حيال القوانين التمييزية في إيران. إذا كنتِ نسوية، فهذا يعني أنكِ تهتمين بحقوق النساء في جميع أنحاء العالم، وليس فقط في الأماكن التي يكون فيها الأمر آمناً.

دافعت آن ليندي، وزيرة التجارة السويدية والناشطة في حقوق المرأة، دافعت عن تصرفها قائلة إنها لم تكن ترغب في ارتداء الحجاب. وأوضحت: «لكن القانون في إيران ينص على وجوب ارتداء النساء للحجاب. لا يمكن لأحد أن يأتي إلى هنا وينتهك القوانين».

ربما لم يكن ليحظى الأمر بالكثير من الاهتمام لولا إصرار الحكومة السويدية على أنها حكومة نسوية.

واتخذ بعض السياسيين السويديين مواقف أشد انتقاداً. فقد قال يان بيوركوند،

زعيم الحزب الليبرالي المعارض، إن الحجاب «رمز لقمع النساء في إيران»، وأنه كان الأجدر بالحكومة السويدية المطالبة بإعفاء ليندي وأعضاء الوفد النسائي من ارتدائه.

نشرت ماغدالينا أندرسون، وزيرة المالية السويدية، صورة لنفسها مع زميلتين ترتديان قبة. كانت الرسالة واضحة: ليس الأمر بتلك الأهمية. فالقبة والحجاب شيء واحد.

مع بلوغي سن الرشد، توجب عليّ تغطية شعري بالكامل. لم يكن لديّ خيار. لم تكن القبة خياراً آنذاك، وليست خياراً الآن. توقعت أداءً أفضل من لدن النسويات السويديات، إنما شعرتُ بخيبة أمل كبيرة.

بعدما كتبتُ رسالة مفتوحة، على الأقل أبدت أندرسون بعض اللباقة واعتذرت.

بعد ذلك بوقت قصير، تلقيتُ دعوة من الحزب الليبرالي في السويد لحضور مؤتمر في أوبسالا، شمال ستوكهولم. واجه بويان مشاكل في الحصول على تأشيرة للولايات المتحدة، لكن يمكننا الالتقاء في السويد. لا أحد يعلم متى سأتمكن من رؤيته مجدداً. اتصلتُ به، ثم حجزتُ لكلينا تذاكر الطيران إلى ستوكهولم.

لم يسبق لي أن ألقى كلمة في مؤتمر سياسي، وكان هذا حدثاً كبيراً بالنسبة لي. في الليلة التي سبقت سفري إلى السويد، تحدثت في نومي، لدرجة أنني أيقظت كامبيز الذي هزني ليوقظني من نومي.

«كنت تتحدثين في نومك». «ماذا كنتُ أقول؟»

قال كامبيز: «شيئاً من قبيل "لقد جاؤوا لاضطهاد المسلمين، ولكنهم دائماً ما يضطهدون النساء". وكنت تكرر ذلك».

ربما يكون هذا أمراً منطقيًا، وربما يكون غير ذلك، لكن أفضل سطورتي التي أكتبها تتسرب إلى ذهني أثناء النهار، ويأتي الوضوح عندما أكون نائمةً.

كتبت جزءاً من خطابي في السيارة عندما كان كامبيز يوصلني إلى مطار جون كينيدي.

هناك اقتباس شهير من أحد معارضي أدولف هتلر الذي قال:

أولاً، جاؤوا إلى الاشتراكيين، ولم أرفع صوتي —

لأنني لم أكن اشتراكياً.

ثم جاؤوا إلى النقابيين، ولم أرفع صوتي —

لأنني لم أكن نقابياً.

ثم جاؤوا إلى اليهود، ولم أرفع صوتي —

لأنني لم أكن يهودياً.

بعدئذٍ جاؤوا إليّ —

فلم يتبقَّ أحد ليرفع صوته من أجلي.

في الولايات المتحدة بعد الحظر الذي فرضه ترامب، عدّلت الكلمات إلى: «أولاً، جاؤوا إلى المسلمين، ولم أرفع صوتي...». ولكن في جميع الأديان والمجتمعات، أولاً يأتون لاضطهاد النساء.

أخبرتُ كامبيز أنني أفكر في بدء خطابي بهذا. «ما رأيك؟» سألته متوقعةً رده. «يعجبني ذلك، لكنك تحتاجين إلى المزيد».

«بالطبع أحتاج إلى المزيد، لكن الباقي سهل».

إلا أن كلَّ شيءٍ انهار عندما أُلقيتُ خطابي أمام بويان في غرفة الفندق قبل ساعة من بدء المؤتمر.

«ماما، كل هذا لا معنى له»، قال وهو يلوّح بالغليون الذي أصبح يدخنه. «إذا لم تحسني لغتكِ الإنجليزية، ستبدلين وكأنك تتحدثين بكلام فارغ».

راح بويان يصحح لغتي الإنجليزية، والتزامي بقواعدها، والآن أخذ يصحح أفكاري كذلك. كنتُ أعلم أنه يحبني ويريد لي النجاح. أرادني أن أكون مثالية، لكنني أحب نفسي كما أنا، غير كاملة.

«لا يهمني إن لم يكن لكلامي معنى. أريد أن أتكلم كلاماً فارغاً». رفعتُ صوتي. «في الواقع، هناك الكثير من المعنى في العالم، وما ينقصه هو اللامعنى. سأصعد إلى المسرح وأتحدث بكلام فارغ».

بحساسيته الدائمة تجاه مزاجي، لم يردني بويان أن أصعد إلى المنصة والتوتر يستبدُّ بي. فقال لي: «غيرتُ رأيي. يعجبني ما كتبتِ. فكلامك الفارغ أفضل من كلام الآخرين

المنطقي».

لقد نجوتُ من الحرب.

لقد نجوتُ من العقوبات.

لقد فرض عليّ المنفى.

لم أكن خائفة من الحرب.

لم أكن خائفة من العقوبات.

وبالتأكيد لم أكن خائفة من دونالد ترامب.

الفصل السابع والعشرون

تعرفتُ على شاهناز أكملّي بعد مقتل ابنها مصطفى برصاصة في الرأس. تنحدر شاهناز من عائلة فقيرة، وتعمل لساعات طويلة بأجر زهيد، ولم تكن لها أي اهتمامات سياسية. مثل كثير من النساء، تربّت شاهناز لتحتل مكاناً في الهامش، لتكون مجرد جزء من الخلفية. تغيرت حياتها في العام 2009 بعد أن قتلت قوات الأمن ابنها الوحيد خلال الاحتجاجات التي عمّت البلاد عقب إعادة انتخاب أحمددي نجاد.

غرقت شاهناز في حزن عميقٍ دفعها لشهور طويلة لارتداء أحذية مصطفى والمشى بها في شوارع طهران. لكن ذلك حدث لاحقاً. ففي البداية، بالكاد تمكنت من مغادرة المنزل. إنما عندما استعادت بعض قوتها، أخذت تتردد المكان الذي وُجد فيه جثمان مصطفى، تحدّق في الأرض وكأنها تبحث عن أدلة تفسّر موته. إنما بالطبع، لم يكن هناك شيء. حتى دمه كان قد أُزيل بالماء. تحدثت شاهناز إلى أصحاب المحلات، إلى العائلات التي تعيش في الحي، لكن لم يكن بوسع أحد أن يزوّدها بأي تفاصيل من شأنها مساعدتها.

قالت لي شاهناز: «اتسمت تلك الأيام بالفوضى. فالناس يركضون في جميع الاتجاهات، وانهمرت الطلقات النارية وقنابل الغاز المسيل للدموع...»

خلال زياراتها لقبر مصطفى في جنة الزهراء، أكبر مقبرة في إيران، والواقعة في ضواحي طهران، تعرّفت شاهناز على عائلات أخرى فقدت أحبائها خلال الاحتجاجات، مثلها تماماً. وكانت العائلات من خلفيات وأحياء مختلفة، لكن الموت جمعهم. بدأت شاهناز بزيارة العائلات الأخرى، ونظّمت لقاءات دورية ليجتمعوا سوياً. لم يتمكن

الجميع من الحضور، لذا اشترت كاميرا وبدأت بتصوير لقاءاتها مع العائلات الأخرى.

أول مرة سمعتُ عن شاهناز كانت خلال جمعي قائمة بضحايا القمع السياسي. فيما بعد، أصبحت قصة مقتل مصطفى جزءاً من وثائقي ضحايا 88. لا نعرف العدد الحقيقي للذين قُتلوا خلال احتجاجات العام 2009، لكنني أردتُ الحفاظ على ذكراهم حيةً في فيلم وثائقي تلفزيوني. لم يكن أمراً سهلاً تصوير العائلات خلال حديثها عن حياة أحبائها ووفاتهم. عندما قُتل مصطفى، لم يكن لدى شاهناز بريداً إلكترونياً أو حساباً على فيسبوك، لكنها أصبحت أكثر إلماماً بالتكنولوجيا بحلول الوقت الذي تواصلتُ معها في العام 2014.

شرحتُ لها مشروعني وأخبرتها أنني آمل أن تستفيد العائلات من اهتمام وسائل الإعلام.

قالت شاهناز: «أريد الحفاظ على اسم ابني حياً، فقد نسيه الجميع، ولكنني لا أستطيع نسيانه».

رغم وجود العديد من المتطوعين لمساعدتي، فقد أثبتت نفسها شاهناز كصانعة أفلام متفانية وحساسة. ثمة مشهد لن أنساه أبداً، إذ كانت شاهناز تكافح لدفع شاب يُدعى بيجان على كرسيه المتحرك صعوداً لتلة شاهقة الارتفاع في ضواحي طهران. أصيب بيجان بالشلل بعد أن أطلقت عليه قوات الأمن النار. عند قمة التلة، كانت شاهناز تلهث، وكان بيجان غارقاً في مشاعره. ولم يكن أي منهما قادر على الكلام.

ودائماً ما غابت عن بال شاهناز فكرة فارق التوقيت بين طهران ونيويورك، والذي يبلغ ثماني ساعات ونصف، فكانت تتصل بي في جميع الأوقات، وأحياناً في منتصف الليل. كانت تريد البوح بمشاعرها.

«لا أستطيع البكاء على مصطفى، وأشعر أنني أفقد صوابي»، قالت لي. «لم أبكِ منذ أن أُجبرنا على دفنه في منتصف الليل. أحتاج إلى البكاء، لكنني لا أستطيع».

كانت تتصل كثيراً، ونتحدث لساعات عن ابنها — عن شخصيته وما كان يحب — وعن التحديات التي أواجهها في حياتي في نيويورك. ذات ليلة، اتصلت بي لتخبرني إنها تتوقع أن تُطرد من عملها، وتحدثنا حتى الفجر. كان كلانا على يقين أنها معرضة لخطر الاعتقال بمجرد عرض الفيلم الوثائقي.

في يونيو 2016، بُثَّ فيلمي الوثائقي، الذي بلغت مدته ساعتين، على قناة مانوتو التلفزيونية. لم أتخلَّ يوماً عن العائلات التي فقدت أحياءها خلال احتجاجات العام 2009. لقد تسببت وحشية النظام في تدمير حياة عدد لا يُحصى من العائلات. تحولت أولوياتي إلى قضايا الحجاب الإلزامي وحقوق الإنسان الأخرى، لكنني لم أنسَ تلك العائلات. كان هذا الفيلم الوثائقي هو ردي.

قالت لي شاهناز متوسلةً: «إذا اعتقلوني، كوني صوتي. أوصلي رسالتي للعالم. لا تنسيني».

في أعقاب عرض الفيلم، لم تباشر السلطات باعتقال أيٍّ من العائلات التي شاركت فيه. لكن في يناير 2017، اعتُقلت شاهناز ونُقلت إلى سجن إيفين. كنتُ جاهزةً للرد. وبمجرد أن سمعتُ خبر اعتقالها، تواصلتُ مع منظمات حقوق الإنسان وحثتُهم على المطالبة بالإفراج عنها. لم ألتقِ شاهناز مطلقاً، لكنها أصبحت صديقتي، ولم أكن لأنساها. سلَّطتُ الضوء على قضيتها في وسائل الإعلام الدولية، وأطلقت حملة على تويتر للمطالبة بإطلاق سراحها. بعد ثلاثة أسابيع من الضغط الإعلامي المتواصل، أطلقت

السلطات سراح شاهناز بكفالة.

ساعدتني علاقتي بشاهناز في تحقيق هدف لطالما سعيْتُ إليه: مساعدة الشعب الإيراني، لا سيَّما النساء، في إيجاد أصواتهم. أردتُ أن أحشد الناس ليصبحوا هم أنفسهم رواة قصص حياتهم، وأن يستردوا السيطرة على سرد حكاياتهم، وأن يتولَّوا التحكم بدفَّة حياتهم.

لم يتردد الناس في انتقاد حملة حريتي/الخفية. وقد تطرقتُ للردِّ على معظم، إن لم يكن كافة، هذه الانتقادات خلال أربع سنوات. ومن المرهق أحياناً أن أشرح للمنتقدين أنه رغم عيشي في نيويورك، فالصور، ومقاطع الفيديو، ورسائل الدعم كلها تأتي من داخل إيران. لو لم يكن هناك معارضة قوية للحجاب الإلزامي، لكانت الحملة قد توقفت منذ سنوات.

مع دخول حملة حريتي/الخفية عامها الرابع، حان الوقت لرفع مستوى أنشطتنا. عقدتُ مناقشات مطوَّلة مع مجموعات نسائية أخرى بخصوص تنظيم احتجاجات أسبوعية ضد الحجاب الإجباري. وكنتُ مصممة على المضي قدماً بالفكرة، لكن كان لا بد من اختيار التوقيت المناسب.

كان الناشطون البيئيون الإيرانيون قد أطلقوا حملة بعنوان «ثلاثاء بلا سيارات» لتشجيع استخدام الدراجات الهوائية بهدف الحد من التلوث الخانق في طهران. ففي بعض الأيام، تُغلق المدارس بسبب ارتفاع مستويات التلوث. حينها خطرت لي فكرة «أربعاء بلا حجاب إجباري». لكنني ترددت. فركوب الدراجة للحد من التلوث شيء، أما الاحتجاج ضد قوانين الحجاب الإجباري، التي تُعدُّ خطأ أحمر للنظام، فهو شيء آخر.

«هل تعتقد أن الحركة جاهزة لذلك؟» تساءل كامبيز.

«نحن بالفعل في الشوارع»، أجبته. «والآن علينا أن نكون أكثر وضوحًا — أن نُظهر وجودنا. فنحن لن نختفي. كلما أصبحنا أكثر وضوحًا، ازدادت قوتنا».

ومع ذلك، بقيتُ مترددة.

في 19 مايو 2017، فاز روحاني بإعادة انتخابه بأغلبية ساحقة بعد أن وعد بمزيد من الحريات الاجتماعية. بصراحة، كنتُ أعتقد أن الوقت قد حان لاختبار مدى قدرته على الوفاء بوعوده. وسرعان ما سنحت لي الفرصة. ففي جميع أنحاء إيران، انفجرت الاحتفالات في الشوارع فرحًا بفوز روحاني. لكن الفرح لم يدم سوى ليوم واحد، إذ منعت قوات الأمن أنصاره من التماذي في احتفالاتهم.

في اليوم التالي، نظمت مجموعة من النساء، اللواتي يرتدين الشوذر الأسود الطويل، مظاهرة في طهران. رفعت إحداهن لافتة كُتب عليها، في إشارة إلى الاحتفالات: /احتجاج ضد السفور والانحلال الأخلاقي. وصفت هذه المرأة المجهولة، التي تنتمي إلى أحد الفصائل المحافظة، النساء اللواتي دعمن روحاني وشاركن في الاحتفالات بأنهن منحللات أخلاقياً.

كنتُ أعرف كيف أرد. ارتديتُ فستانًا أبيض، وأطلقتُ الحملة الجديدة في برنامجي تابلت على قناة صوت أمريكا.

إن اختيار عدم ارتداء الحجاب ليس إهانة. إنه اختيار. إنه أسلوب حياة. تمامًا مثل اختيارك ارتداء الحجاب الأسود. يحتاج الأسود والأبيض إلى التعايش في سلام، وليس

من خلال العدوان والإهانات. أنا لست ضدك. ولا ينبغي أن تقف ضدي.

بدلاً من مطالبة شرطة الأخلاق بقمعنا بالعنف، دعونا نقف معاً. نحن أيضاً لدينا الحق في العيش بحرية، وليس حياة الخوف، والقلق، والسرية.

ثم طلبت من الجميع النزول إلى الشوارع كل يوم أربعاء، إما بدون حجاب، أو مرتدين وشاحاً أبيض، أو شالاً أبيض. أما الرجال، فيمكنهم ارتداء قمصان بيضاء أو سواراً أبيض.

«قضيتنا ليست مجرد قطعة قماش. بل هي متعلقة بالكرامة الإنسانية».

أمضيتُ ليلتي في حالة توتر شديد. فقد كانت هذه أول مرة أدعو أنصاري للخروج إلى العلن، في الشوارع، في مراكز التسوق، في الحدائق، ليكونوا ظاهرين بارتداء شيء أبيض كرمز للاحتجاج ضد الحجاب الإجباري. مثل ارتداء الشال الأبيض رمزاً قوياً للمقاومة. اتخذنا اللون الأبيض لوناً لمقاومتنا.

اخترتُ هاشتاغ #الأربعاء_الأبيض لحملتنا الجديدة. ناقشتُ الفكرة مع مجموعات من النسويات، وحذرتني معظمهن من خطورة عواقب الأمر. لكن حدسي أخبرني بخلاف ذلك. فقد أقنعتني محادثاتي مع المئات من الشابات الإيرانيات بوجود قدرٍ هائلٍ من الحماسة والطاقة التي تنتظر الانطلاق من قمقمها.

مع اقتراب منتصف الليل في بروكلين مساء الثلاثاء، أعددتُ لنفسي إبريقاً من الشاي الثقيل، ونويتُ البقاء مستيقظة طوال الليل لمراقبة التطورات في إيران، التي تتقدم عن نيويورك بثماني ساعات ونصف. طلبتُ من النساء إرسال صور ومقاطع فيديو وهنَّ

بدون حجاب أو مرتديات وشاحات بيضاء.

تقلّصت أمعائي من شدة القلق. وتجولت في المنزل متوترة، أتساءل عما سيحدث إذا لم يستجب أحدٌ لدعوتي لهذه الحملة الجديدة.

بعد منتصف الليل بقليل، وصل أول مقطع فيديو، تبعته صورة، ثم صورة أخرى، ثم غيرها. ولم يمضِ سوى وقتٍ قصير قبل أن يصبح لديّ أكثر من مئة عيّنة. نشرتُ عشرات الفيديوهات والصور.

مشت النساء في الشوارع الرئيسية في طهران ومدن أخرى، دون خوف، بعضهن بدون حجاب وأخريات مرتدياتٍ وشاحًا أبيض. في أحد مقاطع الفيديو، تحدثت شابة بحماس إلى الكاميرا خلال سيرها في شارع رئيسي:

«أنا متحمسة جدًا للمشاركة في هذه الحملة. أريد أن أخبركم عن سجنّي. لقد فرضوا علي الحجاب منذ أن كنت في السابعة من عمري» قالت وهي تهز حجابها وتتركه ينزلق عن رأسها. «لم أشعر يومًا بالالتزام به، ولن أشعر بذلك أبدًا».

في ليلة الثلاثاء التالية، كنت مستيقظة مرة أخرى أترقّب وصول مقاطع الفيديو الجديدة لاحتجاجات الأربعاء الأبيض. انتقلت حركتنا من صفحات وسائل التواصل الاجتماعي إلى شوارع إيران. بعد الأسبوع الثاني، بدأت ردود الفعل العنيفة. دعت الفصائل المحافظة إلى الأربعاء الأسود، وحثّت مؤيديها على ارتداء الأوشحة السوداء والشوذر في اليوم نفسه الذي نرتدي فيه اللون الأبيض. بالكاد ظهر أحد. ثم خطرت لهم فكرة أخرى للدفاع عن الحجاب الإجباري: الأربعاء الأحمر. لكن لم يستجب أحد كذلك. في النهاية، لم تنجح أي من الاحتجاجات المضادة للأربعاء الأبيض في الانطلاق.

ثم بدأت التهديدات. وراحت مجموعات غامضة مدعومة من الحرس الثوري في

إصدار تحذيرات بشن هجمات بالأسيد على أولئك الذين يرتدون اللون الأبيض. في الجامعات، احتجز الحراس الطالبات اللواتي يرتدين أغطية رأس بيضاء. ومع ذلك، استمرت الاحتجاجات دون توقف.

مرة أخرى، لجأت السلطات الإيرانية إلى الأخبار الكاذبة. فانتشرت على وسائل التواصل الاجتماعي، من إنستغرام إلى تويتر وتلغرام قصة اغتصابي الملفة، التي دُحضت قبل ثلاث سنوات. كنت قد تعاملت مع هذه الادعاءات من قبل، إنما ذلك لم يكن مهمًا. فقد أراد المهاجمون تخويف الشابات وإبعادهن عن الحملة عبر الإساءة إلى سمعتي. والأمر المثير للسخرية هو أن هذه الهجمات جعلتنا ندرك مدى يأس أعدائنا. وقد كنا أكثر إصرارًا على الاستمرار. إنهم يشنون حربًا على ذاكرتنا الجماعية. من خلال تلطيخ سمعتي، أملوا في تشويه رسالتي وإحباطها.

لستُ من النوع الذي يتراجع أمام التهديدات، لا لأنني شجاعة، بل لأن النساء الإيرانيات شجاعات. فأنا لا أناضل من أجل نفسي، بل من أجل الملايين اللواتي يرغبن في حرية الاختيار. تعرضت لهجمات شرسة، وكوّنت مناعةً ضد النقد. إنما توجّب عليّ حماية غيري من النساء.

أرسلت لي بهار، وهي شابة جميلة في العشرينيات من عمرها ومن بلدة صغيرة خارج طهران، أرسلت مقطع فيديو قصيرًا تظهر فيه وهي تتجول بلا حجاب ضمن حملة #الأربعاء_الأبيض. نشرته في الأسبوع الثاني من الحملة. بعد بضع ساعات، أرسلت لي رسالة عاجلة تطلب مني إزالة الفيديو. لم أرَ رسالتها إلا بعد أربع ساعات. على الفور، اتصلت بها.

«كنتُ على وشك الزواج، لكن خطيبي رأى الفيديو. وهو من عائلة محافظة، وأصرّ على أن أحذفه لحماية سمعته. قال إنه سيلغي الزواج إن لم أحذف الفيديو، لأنه لا يريد

أن يتزوج امرأة لا ترتدي الحجاب. لهذا اتصلت بك لإنقاذ زوجي».

«أنا آسفة جدًا. سأحذفه الآن». قلت فوراً، فلم أكن أريد أن أفسد حياتها.

لكنها تابعت كلامها وكأنني لم أقل شيئاً: «وعندما لم أتلّق رداً منك، ذهبتُ لرؤية أمي. لم أتكلّم مع أمي من قبل عن مشاعري تجاه الحجاب، لكن كان عليّ أن أخبرها بما فعلت، وكيف أن خطيبي يهدد بإلغاء الزواج. كنت متوترة جداً».

انفجرت بهار بالبكاء خلال حديثها.

«قالت أمي: "إذا كان خطيبك لا يحترم اختيارك الآن، فلن يحترمه مستقبلاً. لا تدمري حياتك. ألغي الزواج منه". وهذا ما فعلته. وأريدك أن تبقي الفيديو منشوراً».

«هل أنت متأكدة؟ يمكنني حذفه بكل بساطة». قلتُ لكي أمنحها فرصة أخرى لتغيير رأيها. «بفيديو واحد، ألغيت زفافك».

«لقد غيرت مسار حياتي للتو، لكنني أشعر بسعادة أكبر».

وهناك نفس، شابة أخرى من طهران. أرسلتُ لي مقطع فيديو لها وهي ترتدي شالاً أبيض وتحدث إلى الكاميرا. قالت إنها ترتدي الأبيض كل أربعاء احتجاجاً على الحجاب الإجباري. أخبرها والدها أنه شاهد الفيديو، وطلب منها ألا تنشر المزيد.

«كيف رأى والدك الفيديو؟»

«كل من أعرفهم شاهدوا الفيديو. مقاطع الأربعاء الأبيض أكثر انتشاراً مما تتصورين».

ثم اتصلت بي نفس في الأسبوع التالي.

وقالت: «لا يذهب والدي إلى العمل يوم الأربعاء، لمنعي من الخروج وتصوير مقاطع الفيديو. وسألني: "إذا ألقوا القبض عليك، فسوف يلقون بك في زنزانات مليئة بالعناكب وجميع أنواع الحشرات. كيف يمكنك التكيف هناك وأنت تخافين من خنفساء صغيرة؟"، فقلت له: "لو أن جيلك قد تحمل قضاء بضعة أيام في السجن، فربما لم نكن لنضطر إلى تحمل الحجاب الإجباري».

كانت نفس في غاية السعادة.

لستُ أول من يرفع صوته ضد الحجاب الإجباري، لكنني آمل أن أكون آخر من يفعل ذلك. لقد شهدتُ رحلتي مغادرتي لقريتي وبلدي لأنني أريد الحرية في تحديد هويتي وأن أكون نفسي بدلاً من أداء دور لا أؤمن به.

تعيدني قصة نفس ووالدها إلى الوراثة عندما كنت أتناهى بانتظام مع أقاجان في قمي كلا بسبب حجابي. كنت أرغب في تسلق الأشجار، والركض في الحقول، وركوب الدراجة. إنما كان كل شيء محظوراً علي. ومع تقدمي في السن، لزم علي التمرد لأجد ذاتي.

في الحقيقة نحن بحاجة إلى خلق إيران حرة. بلد يتمتع فيه الناس بحرية الاختيار. مستقبل إيران ستحدده المتمرعات مثل نفس، وبهار، وغيرهن. أما أنا، فأريد إيران ديمقراطية — تحظى النساء فيها بحقوق متساوية.

إيران اليوم أشبه بساحة معركة.

من جهة، يمتلك أنصار الحجاب الإجباري الأسلحة والعصي، وأموالاً بلا حدود، وإعلاماً طيعاً وخاضعاً. في العام 2016، خصصت الحكومة 6 تريليونات تومان (1.7 مليار دولار) لحماية الحجاب — مقابل 174 مليون تومان (49 مليون دولار) لحماية

البيئة.

وفي الجهة المقابلة، لدينا نساء ورجال أسلحتهم هي الحواسيب، والهواتف المحمولة، ووسائل التواصل الاجتماعي: تويتر، وفيسبوك، وإنستغرام، وغيرها.

أنا ابنة إيران التي تحمل الكثير من الندوب — ندبة الثورة، وجراح حرب دامت ثماني سنوات، وتمزقات الإعدامات الجماعية، والجروح اليومية من التمييز الذي تواجهه النساء كل يوم. والآن أحمل ندبة المنفى. وكل واحدة من هذه الندوب كفيلة بإخراجك من دائرة الفعل أبدًا. ثمة فترات يسود فيها الظلام ويهدد بابتلاعك بالكامل. ولكي أتجاوز اليأس وهذه المرحلة القاتمة من تاريخ بلادي، أفكر في كلمات أُمِّي وأفتح عينيَّ على اتساعهما، وأحرق في الظلام. إنَّ وضع حقوق الإنسان في إيران، ووضع حقوق المرأة، مظلم وكئيبي. لكنني واثقة من أن النساء الإيرانيات الشابات يتحلَّين بنفس القدر من شجاعة الأجيال السابقة من النساء، وأنهن فتحن أعينهن أكثر من أي وقت مضى للتغلَّب على هذا الظلام.

لا أعرف متى سأعود إلى إيران. فالعيش في المنفى مجبُولٌ بالألم. طُردت من منزلي، لكنني تمكنت من التسلل إليه مجددًا عبر وسائل التواصل الاجتماعي والقنوات الفضائية. لقد خرجتُ من إيران، إنما أشعر كأنني لم أغادرها أبدًا.

في سنوات الصبا، كنت أشاهد رجال الدين، وأئمة صلاة الجمعة، والمسؤولين الآخرين في الجمهورية الإسلامية على تلفازنا الأبيض والأسود ذي الأربعة عشر بوصة. أما الآن، فهؤلاء أنفسهم يسمعون صوتي عبر القنوات الفضائية وفيسبوك، ويعرفون اسمي. إنهم لا يسمعون صوتي فحسب، بل صوت ملايين النساء الإيرانيات اللاتي لم يعدن

يتقبّلن الرضا بالصمت. تريد النساء في إيران حرية اتخاذ قراراتهن.

ولهذا السبب سيستمر النضال... حتى نشعر جميعاً بنسيم الهواء يداعب شعرنا.

خاتمة

في 27 ديسمبر 2017، يوم الأربعاء، تسلّقت فيدا موحد -وهي أم تبلغ واحدًا وثلاثين عامًا- وهي ترتدي الأسود صندوق مرافق في شارع انقلاب، وهو أحد أكثر شوارع طهران ازدحامًا، ثم أزال غطاء رأسها وربطته بعصا ولوّحت بها ليراها الجميع. صوّر احتجاجها الموجز على الحجاب الإجباري ثلاثة شهود مختلفين وأرسلوا المقطع إلي. اعتُقلت فيدا، لكن الفيديو الذي صوّر تحديها ومقاومتها انتشر في وسائل التواصل الاجتماعي بسرعة لا مثيل لها.

في اليوم التالي، ظهرت احتجاجات صغيرة في مدينة مشهد على غلاء الأسعار والفساد وانتشرت بعدها في أكثر من خمس وثمانين مدينة وبلدة. كان قمع الشرطة للمحتجين ووسائل التواصل هو ما أنهى الاضطراب، تاركًا وراءه 25 قتيلًا و3,700 معتقل. لكن على مر الاحتجاجات والأيام بعدها، كان تحدّي موحد للسلطات هو ما جذب اهتمام كثير من الناشطين.

انتهت الاحتجاجات على الاقتصاد، لكن مصير موحد كان يقلقنا. اتصلت بعدة منظمات وهيئات إعلامية لنشر قضيتها. في ذلك الوقت، لم نكن نعرف حتى اسم موحد. أنشأت هاشتاغًا بالفارسية «أين هي فتاة شارع انقلاب؟»، وحصل على أكثر من 19,000 إعادة تغريد. قالت إحدى أهم داعماتي، شابرک شجریزاده، إن علينا أن نقلد سلوك التحدي الذي سلكته موحد، ودفع هذا نساءً أخريات من حملة #الأربعاء الأبيض إلى إقامة احتجاجات مشابهة في عدة مدن وبلدات في أرجاء إيران. في 24 يناير 2018، دعت منظمة العفو الدولية، وهي مجموعة حقوق إنسان في لندن، السلطات الإيرانية إلى إطلاق سراح موحد «مباشرة ودون شروط، التي كانت تحتج سلميًا على قانون اللباس الإسلامي الإجباري في

البلاد».

في تصريحها، دعت منظمة العفو حكومة روحاني إلى «إنهاء اضطهاد النساء اللواتي يتكلمن معارضةً للحجاب الإجمالي، وإلغاء هذا القانون التمييزي المهن». أما مقررة الأمم المتحدة الخاصة بشأن إيران عاصمة جهانجير فكانت قد دعت إيران قبل ستة أشهر إلى إنهاء قوانين الحجاب الإجمالي. كان الزخم ينبني ضد الحجاب الإجمالي.

بعد يومين من تصريح منظمة العفو. أطلق سراح موحد بهدوء.

ثم مضت النساء الأخريات بالاحتجاج أكثر. في 29 يناير، انطلقت ست نساء من مناطق مختلفة من إيران، بعضهن يحملن حجابات بيضاء وأخريات خضراء وحمرًا، وكررن التصرف الرمزي نفسه، إذ خلعن حجاباتهن ولوحن بها حتى يراها الجميع. قالت إحدى المحتجات: «خلعت حجابي لأنني تعبت من حكومتنا وهي تأمرني بما يجب أن أفعله بجسدي».

انطلق مزيد ومزيد من النساء إلى الشوارع ليخلعن حجاباتهن على الملأ-في زوايا الشوارع المزدحمة، فوق صناديق المرافق والمنصات وأي شيء يمكن أن يرفعهن حتى يصبحن مرئيات. الآن انفجرت مسألة الحجاب الإجمالي، التي كان محرماً نقاشها أربعين عاماً تقريباً. صار الجميع يتكلم الآن عن الحجاب الإجمالي، وخُصّصت أعمدة في الصحف للحديث عنه؛ حتى السياسيون دخلوا النقاش. لم تعد المسألة مسألة تافهة. لن يتغير القانون بين ليلة وضحاها، لكن النساء لن يستسلمن.

لم تكن قوات الشرطة مستنيرة مثل بقية الشعب. اعتُقلت على الأقل ثلاثون ناشطة ضد الحجاب منهن بنت الاثنتين والعشرين عاماً شيماء بابائي. تعرضت بعض المحتجات للضرب، وكُسرت عظام ثلاث منهن على الأقل. لوحقت شابرك أسبوعين قبل أن تُعتقل هي أيضاً وهي تخلع حجابها على رصيف مزدحم. أطلق سراحها عندما دفعت أسرتها كفالة.

في كل صباح، أواجه الشمس مفتخرةً بأخواتي اللواتي تحدّين أنظمة الحجاب الإجمالي

التمييزية الغابرة، وفي الوقت نفسه أخاف على سلامتهن إذ أتذكر أيامي في السجن. لكن النضال يستمر، لأن النساء الإيرانيات يردن حرية الاختيار. بعد الاعتقالات، تلقيت فيديو سيلفي من امرأة شابة تقف خارج مكاتب البسيج في طهران وتخلع حجابها الأبيض. كانت تنظر في الكاميرا ثم قالت بصوت مرتفع: «سلاحنا حجاب أبيض، واليوم أنا هنا لأسأل لماذا اعتقلت شيماء بابائي والأخريات. حتى إذا اعتقلتموني، كونوا على ثقة أن كثيراً من الأخريات سيخرجن ليحتجن».

«أنا مستعدة لدفع الثمن حتى تصبح إيران حرة».

شكر وامتنان

هذا كتاب عن رحلتي من قرية في شمالي إيران إلى الحاضرة الكبرى نيويورك، وهي رحلة اكتشاف ذات صنعت فيها هويتي بعد أن تعلمت كيف أقول لا. إنها حكاية قد تكون مألوفة لدى كثير من النساء.

أدين بالكثير لمن ساعدني على هذا الطريق وساندني حين وقعت وشجّعني على الاستمرار. لقد مر الآن تسع سنوات منذ أن انطلقت في رحلتي خارج إيران، لكنني لم أنس كيف أكون إيرانية. اليوم، أنا على اتصال أكبر ببلدي ممّي حين كنت أعيش هناك فعلاً.

أتت فكرة هذا الكتاب من شيرل ساندبرغ، التي شجعتني في أول لقاء في فيسبوك أن أكتب مذكراتي. لقد كتبت ثلاثة كتب سيرة ذاتية بالفارسية عندما كنت في إيران، تناولت فيها طلاق وطردي من البرلمان وانتخابات 2009 الإشكالية، لكنني لم أكن مقتنعة أن قصتي ستلقى صدًى بين جمهور غربي. أشكر شيرل لدعمها وإيمانها بي.

في إيران، إلى جانب مقالاتي الصحفية، كنت أدير عددًا من المدونات التي كتبت فيها قصصًا شخصية عن طفولتي في القرية والحياة في طهران. بعض أجزاء هذا الكتاب مبنية على مقالاتي الصحفية ومدوناتي.

لقد غيرت أسماء أصدقائي في المدرسة الثانوية حرصًا على ألا يواجهوا أي مشكلات.

لم يكن هذا الكتاب ممكنًا لولا مساعدة الأصدقاء والزلاء في إيران الذين ساعدوني على الوصول إلى هذه المرحلة. سودابيه ق، ونرجس أ. يستحقان شكرًا خاصًا لأنهما كانتا حصني القوة الذين استطعت أن أعتمد عليهما عندما ابتدأت رحلتي الصحفية.

شكر دافئ وعميق لناشطة حقوق النساء المسجونة أتيّنا دائمي، التي لم تأل جهدًا في

دعمها لحملتنا ضد الحجاب الإجباري، حتى من داخل السجن الذي أُدخلته لدفاعها عن حقوق الإنسان.

أدين بالكثير من الشكر لكثير من الأصدقاء والداعمين الذين ما زالوا يقطنون في إيران؛ أرجو أنهم يعرفون أنفسهم ويعرفون كم أقدر جهودهم.

لن أستطيع أن أنصف الذين استمعوا مطوّلًا لحكاياتي وشجعوني على الاستمرار، لا سيما عندما كنت تحت هجوم مستمر من عملاء الحكومة الإيرانية ومزعجها على الإنترنت: مون ت.، وكريم سدجabor، ومينا وإيفان سيبغل، وندي شاهديزداي.

لقد استفادت حملتي ضد الحجاب الإجباري من كثير من المفكرين والأكاديميين والقانونيين والناشطين. تعلمت الكثير من القانونية التي لا يشق لها غبار نسرين ستوده، ومن نشطاء حقوق النساء مهرانكيز كار، وشادي صدر، وتهمينة ميلاني وشادي أمين وشيرين عبادي.

شكر خاص لبعض أفضل وألمع النساء والرجال الذين لم يكن لي غنى عن دعمهم ونقدهم البناء وتشجيعهم الجميل. ممتنة لبروانه حسيني، ليلي عليكرامي، صقر قياسي، فاريبا داودي مهاجر، نسيم صحرا، آزاده دافينشي، نعيمة دوستدار، منيرة كاظمي، شهلا شفيق، مرمر مشفقي، مونيرو رافانيبور، ليلي نيكونازار، بروانه وحيدمانيش، نسرين أفزلي، رضا حقيقت نجاد، سبيده جديري، عايده غجر، آزاده أسدي، وحيد يوسيسوي، بوريا زراتي، سامان أربابي، مصطفى عزيزي، حامد ر.، وشركيم زند.

أشعر بأنني محظوظة جدًا لأنني قررت النشر في لتل، براون، حيث قدمت محررتي جودي كلين دعمًا هائلًا برؤيتها الواضحة وحماستها، وأرشدتني لجعل هذا الكتاب أفضل. الشكل لكريغ يونغ، وريغان آرثر، والفريق الرائع في لتل، براون: عبقريتا النشر والتسويق كاثرين ميرز ولورين فيلاسكيز، والرائع ماريو بوليس لإخراجه الفني، وديبورا فينغولد

لصورها الاستثنائية. لن تستطيع الكلمات وصف سعادتي بالعمل مع بتسي أوهريغ وجانت بيرن، اللتين ساعدتاني على إنهاء الكتاب حتى وأنها منهكة بإدارة حملاتي المتعددة.

أريد أن أشكر جينيفر والش وعميلتي الرائعة كلوديا بالارد، من مؤسسة ويليام موريس للترفيه، اللتين قادتا هذا الكتاب إلى النشر.

شكر خاصة لنارية توحيدتي لاكتشاف الأخطاء والاختلالات التاريخية، ومساعدتي على نقل هذا الكتاب إلى مستوى آخر.

ممتنة كذلك لوالديّ: أمي زارين خانم، والآقاجان، اللذان يحبانني جداً وإن كانا عاجزين عن ترك إيران لزيارتي. أدين بشكر لا حدود له لأخوي علي ومحسن، الذين روى لي تاريخ أسرتنا ودعم حملاتي حتى وإن كلفهم هذا الكثير شخصياً، ولأختي مينا التي تقبلت اختلافاتنا.

إلى ابني بويان: لقد أضحككتني وأبكيتني لكنك دائماً ما جعلتني مفتخرة بك. لم أقض معك كثيراً من الوقت، لكنك الآن نموت وصرت شاباً حسناً. حبي وشكري لأسرتي في المنفى، بارفين فوروهار، التي كانت أمّاً ثانية لي، وأبناء زوجي دريا وبهمن، لإعطائي الطاقة الإيجابية وإضحائي وجعلني أعود طفلة مرة أخرى.

أخيراً وليس آخراً، إلى شريكي في الكتابة كامبيز فوروهار، حبي وصخرة حياتي، الذي سمع كل قصصي مرة بعد مرة دون شكوى، والذي بفضل حسه الفكاهي وتشجيعه الذي لا ينقطع أستمّر في نضالي.

عن المؤلفَة

وُلدت مسيح علي نجاد عام 1976 في قمي كلا، بال. هي صحفية ومذيعة ومدونة إيرانية حاصلة على جوائز، ومؤسسة حركة حريتي المستترة. تخرجت عام 2012 من جامعة أوكسفورد بروكس، وهي اليوم مراسلة ومذيعة تقدّم فقرة أسبوعية في برنامج على فويس أوف أميركا يُسمّى تابلت، تمزج فيها بين الأخبار القاسية والتهكم. تعيش علي نجاد في بروكلن.

صور



كنت أتشاجر مع أخي كل صباح من يحصل على هذا الإناء أولاً، إذ كانت أُمي تملؤه بالحليب الدافئ من بقرتنا. كنا نحب مسح الدهن على جانب الطنجرة بقطع من الخبز.



كانت أُمي خياطة في القرية، وقد صنعت لي هذه التنورة الجميلة. كنت فخورة جداً. شعرت بأنني أجمل وأغنى فتاة في العالم.



نامه (جدتي)، وأُمي، وأختي مينا، وأخي علي، وأنا بعمر السادسة تقريباً. كان أخي الأكبر

محسن قد اشترى كاميرا وكنا جميعاً نرتدي أحسن ثيابنا متحمسين لالتقاط الصورة.



صورة حديثة لأبي وأمي في بيتنا في القرية. هذه الأيام لم أعد أستطيع زيارتهما لذلك أعتمد على إخوتي في إرسال صورهما إلي.



الطريق الطويل إلى الكوخ الخارجي. هل لك أن تتخيل المشي هنا في الظلام وليس في يدك إلا مصباح؟ كانت أُمي تقول: إذا كنت تخافين من الظلام، فافتحي عينيك أكثر.



هذا هو المكان الذي تأتي إليه النساء فقط للحديث وتعبئة المياه للبيت. في طفولتي، كان

هذا السيل هو مصدر مياه الشرب الوحيد للقرية كلها. لم أكن أعلم أن هذه ستكون آخر زيارة لي إلى القرية.



كل نساء أسرتي يرتدين الحجاب دائماً في البيت. منذ نعومة أظفاري، تمردت على هذه العادة. في هذه الصورة كنت في زيارة لأهلي بعد أن أصبحت صحفية متمرسة في طهران. بويان بجانب أُمي.



لطالما تجادلت مع أبي بشأن السياسة. كان هذا أحد أفضل طرقنا لإمضاء الوقت. هذه . كان كثيراً ما يقول: «ستفهمين 2009 واحدة من صوري المفضلة من زيارتي الأخيرة عام يوماً ما أنك لا تفهمين شيئاً». إلى يومنا هذا لم تزل كلماته تبتّ في الابتسامة.



مرحباً بكم في «مكتب» والدتي. كان من الممكن دائماً العثور عليها وهي تعمل بجد في هذه البقعة الصغيرة. والدتي نسوية حقيقية لأنها عملت بجد مثل والدي وكسبت أموالها بنفسها—كانت قادرة على الدفاع عن نفسها وأطفالها عندما تحتاج إلى ذلك.



بدأ نضالي للحرية من المطبخ—المكان الذي يمكنك فيه خلع الحجاب لأنه ليس مكاناً للرجال. المطابخ في القرية مصممة للنساء، ومناضدها منخفضة لتناسب أطوالهن. كنت أصر أن يكون أخي داعماً لفكري النسوية بالمساعدة في المطبخ. كان يشتكي من انخفاض المناضد لذلك أحضرت له كرسيه الخاص. هنا كان يغسل الأطباق قاعداً على كرسي. أخي هو أول رجل نسوي في حياتي.



بعد طلاقي، صرت ألتقي ببويان في نهاية كل أسبوع. دائماً أقول إنني ترعرعت أنا وبويان

معاً. كنا نحب القبعات كثيراً ونحب ارتداء أفضل ملابسنا والحقاقات.



بعد أن كبر بويان، صرت أعتمد عليه أكثر. كان يحرص على أنني أنام نوماً كافياً. هذه الصورة من آخر زيارة لي لأراه في إيران.



. هنا واجهت النواب الغاضبين بفضائي 2005 آخر يوم لي في المجلس في طهران لممارساتهم الفاسدة. حُظرت بعدها من دخول البرلمان بصفتي الصحفية.



2008. مقابلة مع الرئيس السابق خاتمي بشأن مشروع كتاب عن حياة السياسيين، طهران



كنت أسرع إلى غرف الهاتف في البرلمان لأرسل الأخبار العاجلة إلى المحررين في وكالة أنباء العمل الإيرانية. رسميًا كانت الغرف محجوزة للنواب، لكن كان لا بد من أن أوصل قصتي، لذلك لم أهتم بقوانينهم.



كان من عادة المراسلات النساء في البرلمان أن يرتدين الأسود، لكنني كنت أرتدي سترة جينزية وحذاءً أحمر فاقعًا في عملي هناك. كانت كل النساء ترتدي نفس الثياب، أما الرجال فلم يكن عليهم قيود بشأن اللباس، إذ يمكن أن يرتدوا أي شيء يريدونه. لم يكن هذا عادلاً في نظري.



لم يُسمح لي أن أدرس في إيران بعد حُكمي بالسجن. لكن في المملكة المتحدة، تخرجت من جامعة أوكسفورد بروكس، حيث كان بقية الطلاب بعمر ابني!



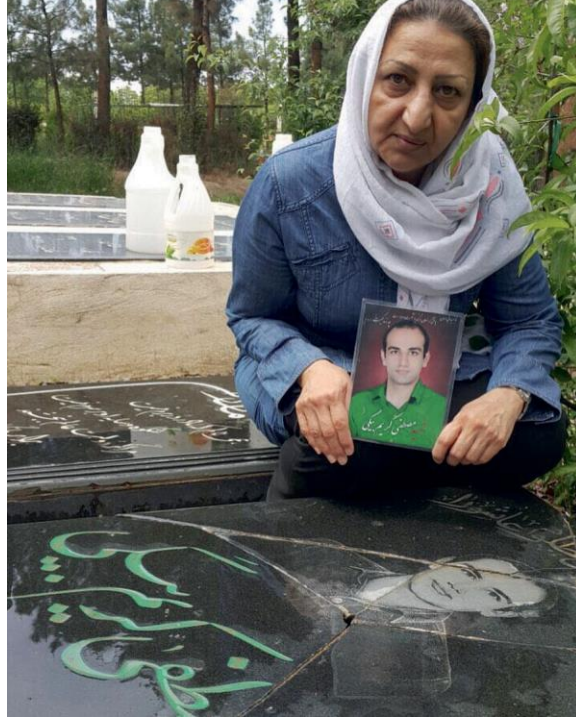
في إيران، كان على طلاب المدارس أن يقصوا شعرهم إلى الحد الأدنى. كان بويان متحمساً لأنه لم يعد عليه أن يحلق شعره في أوكسفورد، وأنا ليس علي أن أغطي شعري. المسألة كلها مسألة شعر!



هذه هي طبيعتي الحقيقية عندما أترك الطفلة في داخلي تأخذ زمام الأمور. © توبي ملفيل
2013 / رويترز



«شعري أكثر من اللازم، وصوتي أكثر من اللازم، وأنا امرأة أكثر من اللازم». من مقابلة مع
© 2016 تينا براون في مؤتمر نساء في العالم، نيويورك



الرئاسية المزورة في إيران. أقامت شاهناز 2009 هذه شاهناز. قُتل ابنها في انتخابات
بشجاعة حملة على وسائل التواصل الاجتماعي لتعطي صوتاً لضحايا تلك الفترة العنيفة
ورفضت أن تسكت بشأن مطالباتها بالعدالة.



ورد أن شيماء بابائي اعتُقلت لمشاركتها في حملة #الأربعاء الأبيض. «باعتقالي لن

تُسكتوني. سأستمر في الاحتجاج على الحجاب الإجباري»، هكذا قالت بابائي أمام المحكمة.
إنها محاربة مُلهمة لا تخاف شيئاً.



واحدة من النساء الشجاعات اللواتي شاركن في حملة الأربعاء الأبيض التي أطلقتها
للاحتجاج على الحجاب الإجباري.



امرأة شجاعة أخرى تحتج على الحجاب الإجباري من ساحة الحرية في طهران. النساء في
إيران يردن أن يكن حرائر في الاختيار. تشارك النساء في حملات عصيان مدني لم يُرَ لها
مثيل من قبل.



. تحتج النساء الإيرانيات على الحجاب الإجباري في شوارع طهران والمدن 2018 يناير
الأخرى بتعليق الحجاب على عصا. بعد أربعة أعوام تقريباً، أصبحت حملة
#الأربعاء الأبيض أكثر حملة عصيان مدني معروفة لحقوق النساء في إيران.



أشعلت فيدا موحدة موجة جديدة من الاحتجاجات عندما تسلمت صندوق مرافق في يوم
أربعاء وعلقت حجابها الأبيض على عصا في شارع انقلاب المزدحم. اعتقلت فيدا ثم أطلق
سراحها. انطلقت نساء أخريات في الشوارع ليقعلن تصرفها.

فتخار می کنم که رابطه نامشروع داشته ام



مسیح علی نژاد

Marzi Alizadeh
آر. قلمی: چه که آنها رابطه نامشروع و «عشق نامشروع» نامیده
از یاد نماند

نشر موقع للمتشددين في إيران هذه الصورة لي مع كامبيز. وصفني الموقع بالعاهرة لأنني
ظهرت مع كامبيز دون حجاب. من المفارقة أن الصورة انتشرت انتشار النار في الهشيم،
وشوهدت صورتني دون حجاب على كل المواقع الإيرانية.



قلت لكم إن أُمي نسوية حقيقية! إنها تقود آلة صُنعت للرجال. هي مؤمنة إيماناً قوياً بأن النساء يستطعن فعل كل شيء يستطيع فعله الرجال.



علامة طريقية في قمي كلا. أفتخر بكوني ابنة ريف، وأتمنى لو أستطيع العودة والزيارة مرة أخرى.



صورتان مختلفتان لجواز السفر من فترتين مختلفتين من حياتي. لقد كشف خلع الحجاب عن وجهٍ أنضر وأجمل لي. وجهي الحقيقي.



A translation of “The Wind in My Hair: My Fight for Freedom in Modern Iran” © [2018]
Masih Alinejad.